



الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الفكر السياسي الموحد بين النظرية والتطبيق

٥١٥ - ٦٦٨ هـ / ١١٢١ - ١٢٦٩ م.

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب:

أنس صبحي نصار

إشراف الأستاذة الدكتورة:

فايزة محمد الكلاس

١٤٤٣ - ١٤٤٤ هـ / ٢٠٢١ - ٢٠٢٢ م

الشكر والتقدير

بعد شكر الله الذي أعانني ووفقني لإتمام هذا البحث لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير للأستاذة الدكتورة **فايزة محمد الكلاس** التي سعدت بإشرافها على الأطروحة وإكمال طريقي العلمي بتوجيهاتها السديدة وتوصياتها الكريمة، فلم تبخل علي بشيء من علمها الواسع ونصائحها الغالية، فلها مني فائق الاحترام والتقدير.

ولن أنسى الأستاذ الدكتور **أحمد الخضر** الذي لن أوفيه حقه من الشكر والثناء لقاء الجهد الكبير الذي بذله معي منذ تسجيل الأطروحة وحتى انتهائي منها.

كما أتقدم بخالص شكري وتقديري لوالدتي نجمة العيسى وإلى والدي اللذين أسهما في إتمام هذا البحث.

واتقدم بالشكر والإهداء إلى روح جدي أسكنه الله فسيح جناته، وإلى روح العلامة الراحل الذي وهب الفضيلة حتى لحظة وفاته الأستاذ الدكتور سهيل زكار.

وكل شكري وخالص عرفاني لكل الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بالموافقة على مناقشة هذه الأطروحة.

فهرس المحتويات

العنوان:	الصفحة:
الشكر والتقدير.....	أ.....
فهرس المحتويات	ب-ز
فهرس الخرائط.....	ح.....
الرموز والاختصارات.....	ط.....
ملخص البحث باللغة العربية.....	ي.....
المقدمة.....	١١-١
الإشكالية البحثية وتساؤلاتها.....	٤-٢
أهمية البحث ومسوغاته.....	٤.....
المصطلحات المستعملة في البحث.....	٥-٤.....
حدود البحث.....	٦-٥.....
الدراسات السابقة.....	٧-٦
مناهج البحث وأدوات الدراسة.....	١٠-٧.....
مكونات البحث.....	١١-١٠.....
الفصل الأول: المغرب العربي الإسلامي حتى نهر السنغال والأندلس (جغرافياً، سياسياً، اجتماعياً، مذهبياً):	
أولاً: جغرافية المغرب العربي الإسلامي والأندلس.....	١٥-١٣.....
ثانياً: لمحة تاريخية لأهم القوة العالمية المعاصرة لحقبة قيام حكم الموحدين.....	١٧-١٥.....
ثالثاً: الوضع السياسي للمغرب العربي والأندلس، وإسهامه في قيام نظريتهم:	
١- أحوال المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبيلتي زناتة وصنهاجة.....	٢١-١٨.....
٢- أوضاع المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبائل صنهاجة الجنوب على قبائل المصامدة.....	٢٤-٢١.....
٣- الأحوال السياسية لدول شمال المغرب العربي الإسلامي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي	٢٨-٢٤.....
٤- دولة المرابطين في المغرب العربي والأندلس	٣٧-٢٨.....
رابعاً: الحياة الاجتماعية والقبلية للمغرب العربي الإسلامي، وأثرها في تكون نظرية الموحدين:	

- ١ - مواقع انتشار قبائل المغرب العربي الإسلامي ومعيشتهم: ٤٦-٣٩.....
١. البتر: ٤٣-٤٢.....
- زناتة: ٤٣-٤٢.....
٢. البرنس: ٤٦-٤٤.....
- صنهاجة: ٤٤-٤٣.....
- مصمودة: ٤٦-٤٥.....

٢- العناصر الدخيلة إلى المجتمع المغربي:

- (١) القبائل العربية في المجتمع المغربي ٤٧-٤٦.....
- (٢) الروم ٤٨-٤٧.....
- (٣) اليهود ٤٩-٤٨.....
- (٤) الأتراك ٥٠-٤٩.....

٣- العناصر البشرية المكونة للمجتمع الأندلسي والمؤثرة في الفكر السياسي الموحد:

- (١) أهل المغرب (الأمازيغ) ٥٢-٥١.....
- (٢) العرب ٥٣-٥٢.....
- (٣) الصقالبة ٥٤-٥٣.....

٤- أثر فئات المجتمع في نشوء الفكر السياسي للموحدين بالمغرب العربي الإسلامي:

- (١) الفئة الحاكمة ٥٦-٥٥.....
- (٢) الفقهاء والقضاة ٥٧-٥٦.....
- (٣) فئة العامة ٥٩-٥٧.....
- (٤) المرأة ٦٠-٥٩.....

خامساً: المذاهب في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس، وأثرها في الفكر السياسي

للدول:

- ١- التعريف بالمذاهب المؤثرة في الفكر السياسي الموحد، وأماكن انتشارها في المغرب العربي الإسلامي:

- (١) الخوارج ٦٢-٦١.....
- (٢) الشيعة (الإسماعيلية) ٦٥-٦٢.....
- (٣) المذاهب السنية: ٦٧-٦٥.....
- (٤) المعتزلة ٦٩-٦٨.....

٥) مذاهب مختلفة خارجة عن الإسلام ومؤثرة بالفكر السياسي الموحي ٦٩

٢- التفاعل المذهبي في المغرب العربي والأندلس، وأثره في السياسة العامة للدولة ٧٤-٦٩

الفصل الثاني: نظرية المهدي محمد بن تومرت من دعوته، وتكون فكره السياسي حتى لجوئه إلى مدينة تينمل، ومقارنتها بفكر حسن الصَّبَّاح:

أولاً: نشأة محمد بن تومرت، وأثرها في الفكر السياسي الموحي:

- ١- اسمه ونسبه ٧٨-٧٧
 - ٢- عائلته ٧٩-٧٨
 - ٣- شخصيته السياسية وصفاته ٨٢-٨٠
- ثانياً: مكونات الفكر السياسي عند محمد بن تومرت، ونظريته العقائدية: ٩٤-٨٢
- ١- الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت، وعقيدته ٩٣-٨٦
- (١) المسائل التي تحاكي العقل البشري في عقيدة المهدي محمد بن تومرت ٩٠-٨٧
- نبذ الفروع والعودة إلى الأصل ٩٠-٨٩
- (٢) أمور تتعلق بأحكام إلهية وروحية خارجة عن قدرة العقل البشري: ٩٣-٩١
- أ- الصفات ٩١
- ب- المهودية والعصمة وكتاب الجفر ٩٣-٩١
- ٢- أفكار المهدي محمد بن تومرت السياسية ٩٤-٩٣
- ثالثاً: مراحل دعوته، والتكوين النظري لفكره السياسي:**

- ١- المرحلة المغربية ٩٨-٩٥
 - ٢- المرحلة المشرقية وأوضاع المشرق العربي الإسلامي في ظل حكم ألب أرسلان وملك شاه بالقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وبداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ١٠١-٩٨
- أ- تأثر محمد بن تومرت بحركة الإصلاح للوزير نظام الملك ٤٥٦-٤٨٥هـ/ ١٠٦٣- ١٠٥-١٠٢
- ب- تأثر محمد بن تومرت بدعوة حسن الصَّبَّاح في قلعة آلموت ١١١-١٠٥
- ٣- المرحلة الثالثة بعد عودة محمد بن تومرت من المشرق العربي الإسلامي حتى قيام فكره السياسي وتنظيم الدولة:

- أ- المرحلة السياسية ما قبل ملالة ٥١٠-٥١٣هـ/ ١١١٧-١١١٩م ١١٦-١١١
- ب- المرحلة السياسية ما بعد ملالة ٥١٣- ٥١٤هـ/ ١١١٩-١١٢٠م ١٢٢-١١٦

ج- مرحلة الثورة على السلطة المرابطية ٥١٥هـ/ ١٢١م..... ١٢٢-١٢٧

د- تنظيم محمد بن تومرت لمؤيدي دعوته السياسية..... ١٢٧-١٣١

رابعاً: الثورة المسلحة على المرابطين، وترسيخ النظرية:

١- الثورة المسلحة..... ١٣١-١٣٣

٢- التحول إلى القسوة وسفك الدماء..... ١٣٣-١٣٦

الفصل الثالث: دور عبد المؤمن بن علي والخلفاء الموحدين في تأسيس الدولة،

وتطبيق الفكر السياسي الموحي:

أولاً: أثر نشأة عبد المؤمن بن علي في الفكر السياسي للموحدين:

١- نسبه ١٣٩-١٤٠

٢- عائلته ١٤٠-١٤١

٣- تاريخ ولادته ومكانها ١٤١

٤- شخصيته السياسية ١٤٢-١٤٣

٥- توليه الخلافة ولقب أمير المؤمنين ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م..... ١٤٣-١٤٥

ثانياً: الفكر السياسي لعبد المؤمن بن علي عند تأسيس الدولة، وتوسعها:

١- إنهاء حكم المرابطين في المغرب العربي الإسلامي ١٤٧-١٥٢

٢- الاستيلاء على الأندلس ١٥٢-١٥٧

٣- السيطرة على الدولة الحمادية والجزيرية في المغرب الأوسط والأدنى..... ١٥٧-١٦١

ثالثاً: تطبيق الخلفاء الموحدين للفكر السياسي الموحي:

١- الإجراءات الإدارية لفرض السيطرة السياسية على الموحدين: ١٦٢-١٦٩

أ- تحويل نظام الحكم، وأثره في تبدل السياسة العامة للدولة..... ١٦٥-١٦٧

ب- تولية الوظائف في الدولة..... ١٦٧-١٧٠

٢- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية العلمية ١٧٠-١٧٢

٣- الجانب العسكري، وأثره في الفكر السياسي للموحدين ١٧٢-١٨٢

٤- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية الاقتصادية..... ١٨٢-١٨٥

٥- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية الاجتماعية ١٨٥-١٨٩

رابعاً: انقلاب الخليفة المنصور يعقوب بن يوسف وإدريس المأمون على العقيدة:

١- موقف الخلفاء الموحدين من المذاهب الإسلامية في الدولة الموحدية..... ١٩٠-١٩٣

٢- نقض العقيدة التومرتية، وفكرها السياسي.....١٩٣-١٩٦

الفصل الرابع: انهيار حكم الموحدين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر

الميلادي.

أولاً: الأزمات والثورات ضد الموحدين:

١- الثورات ١٩٨-٢٠٢

٢- التجزئة السياسية لدولة الموحدين:

أ- حركة بني مرّين.....٢٠٢-٢٠٤

ب- حركة بني عبد الواد ٢٠٤-٢٠٥

ت- حركة الحفصيين ٢٠٥-٢٠٦

ث- انفصال الأندلس عن الدولة الموحدية ٢٠٧-٢٠٨

٣- الأزمات السياسية:

أ- أزمة المجتمع من سلطة الخلفاء الموحدين.....٢٠٨-٢١٠

ب- الأزمات الناتجة عن سياسة الخلفاء الموحدين مع القبائل العربية ٢١٠-٢١١

ج- أزمة أهل الذمة ٢١٢-٢١٣

د- الأزمة السياسية مع فقهاء المذهب المالكي ٢١٣-٢١٤

٤- الأزمات الطبيعية والتعامل السياسي للخلفاء الموحدين ٢١٥-٢١٧

ثانياً: أسباب انهيار دولة الموحدين، ونتائج تطبيق الفكر السياسي لخلفائها على المغرب

العربي الإسلامي والأندلس:

١- عوامل انهيار الدولة:

١. العامل السياسي ٢١٨-٢١٩

٢. العامل العقائدي ٢١٩-٢٢٠

٣. العامل الاقتصادي في الفكر السياسي الموحي ٢٢٠-٢٢٢

٤. الصراع القبلي الناتج عن تطبيق الفكر السياسي الموحي ٢٢٢-٢٢٥

٢- نتائج انهيار سياسة الموحدين على المغرب العربي الإسلامي والأندلس:

١. سياسياً وعسكرياً: ٢٢٥-٢٢٨

٢. اقتصادياً ٢٢٨

٣. ثقافياً ٢٢٩

٢٣٠-٢٢٩.....	٤. اجتماعياً
ثالثاً: آثار العقيدة الموحدية، وعودة المذهب المالكي لسيادة المغرب العربي الإسلامي:	
٢٣٤-٢٣١.....	١- آثار العقيدة الموحدية في المغرب العربي الإسلامي
٢٣٨-٢٣٤.....	٢- عودة المذهب المالكي
٢٤٦-٢٣٩.....	الخاتمة ونتائج الدراسة
٢٦١-٢٤٧.....	الملاحق
٢٩٩-٢٦٢.....	قائمة المصادر والمراجع
٣٠١-٣٠٠.....	ملخص باللغة الأنكليزية

فهرس الخرائط:

الصفحة	الملحق	المتسلسل
١٤	حدود المغرب العربي الإسلامي في عصر الموحدين	١
٤٢	تحديد موطن البربر في المغرب العربي	٢
٤٧	توزع القبائل العربية في المغرب العربي	٣
٥٤	خريطة الأندلس الإسلامية	٤
١٠٨	خارطة بلاد فارس وقلاعها	٥
١٢٣	المحطات التي مر فيها محمد بن تومرت أثناء هروبه إلى جبل إيجليز	٦
١٥٦	خريطة الأندلس في عصر المرابطين والموحدين	٧
١٦٠	مراحل استيلاء الموحدين على المغرب العربي الإسلامي	٨
١٧٣	مراحل قيادة جيش الموحدين	٩
١٧٨	مواقع حروب الموحدين والممالك المسيحية في الأندلس	١٠
١٨٥	أهم الطرق التجارية في المغرب العربي الإسلامي	١١
٢٠٤	الحمالات المرينية	١٢
٢٠٧	تجزئة دولة الموحدين في المغرب العربي	١٣
٢٢٧	حدود الأندلس في نهاية دولة الموحدين	١٤

الرموز والاختصارات:

أ. العربية:

ت. توفي.	ط: طبعة.
تح: تحقيق.	ع: عدد.
ق. م: قبل الميلاد.	ص: صفحة.
م: ميلادي	ق: قسم.
هـ: هجري	د. م: دون مكان نشر.
ج: جزء.	د. ت: دون تاريخ نشر.
مج: مجلد.	

ب. الأجنبية:

P: Page.
V: Volume.
N: Number.
A. D. : Anno Domini.
A. H. : Anno Hegirae.

ملخص البحث باللغة العربية

تهتم هذه الدراسة بتقديم شرح وافٍ للفكر السياسي الموحد بين النظرية والتطبيق في المغرب العربي والأندلس، وهي دراسة لفكر المهدي محمد بن تومرت ت. ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م ونظريته، وما ناله من علم ومعرفة في بلاد المشرق الإسلامي، ثم محاولته تطبيق ما تعلمه في المغرب الإسلامي لإتمام المشروع التعليمي الذي تغرب من أجله، وتحويله إلى مشروع إصلاحي هدفه الأول توحيد العالم الإسلامي تحت قيادة سياسية ومذهب ديني واحد؛ للوقوف في وجه التحديات التي صاحبت نشوء دعوته، لكن تعرضه للمصاعب والعراقيل؛ دفع إلى تحويل دعوته إلى منحى ثوري، نشأ عنه قيام دولة الموحدين التي خرج سلاطينها (خلفاؤها) في أكثر مبادئهم عن دعوته وفكره السياسي، كما أسهموا في تقسيم العالم العربي الإسلامي بعد اتخاذهم لقب أمير المؤمنين، ونشب عن ذلك عدااء مذهبي وسياسي زرع التفرقة بين العرب المسلمين؛ ليستفيد منه الصليبيون في إعادة أغلب أراضي الأندلس إلى ملكهم.

إضافة إلى ذلك تتناول الدراسة الصراع القبلي الذي قام منذ فتح المسلمين لأراضي المغرب الإسلامي، وما تسبب به هذا الصراع من زوال الدول على حساب قيام دول أخرى أساس فكرها السياسي قبلي أيضاً؛ ليضعف ذلك من قدرات بلاد المغرب العربي الإسلامي؛ ليتوصل البحث إلى أسباب نشوء الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت وخلفائه.

كما أنّ الدراسة اهتمت بالنواحي الجغرافية والمذهبية لبلاد المغرب العربي الإسلامي لما لذلك من تأثير في الفكر السياسي لدول المغرب العربي الإسلامي وسكانه الذين عانوا من التدخلات الخارجية في بلادهم، فغير ذلك من ديمغرافية المنطقة على حساب المصالح الشخصية وترسيخ سلطة الحكام الذين فضلوا مصالحهم دائماً على مصالح الرعية؛ ليسود بفضل ذلك الفساد، وسفك الدماء داخل مجتمعهم.

وأهم ما أثبتته الدراسة أنّ الوحدة الجيوسياسية بين العرب المسلمين لا تتم إلا بالتوحيد الوطني وليس الديني؛ لأنّ الدين يقوّي من العصبية، لكن العامل الاقتصادي يقف عائقاً في تحقيق ذلك؛ بسبب ميول المتسلطين إلى الحفاظ على مكاسبهم، فضلاً عن ميل الناس نحو الاستقرار، فيتسبب ذلك في خروج الناس عن العقائد والمبادئ وميلهم نحو التمتع بملذات الحياة؛ ممّا يعني أن الصراع كان من أجل العيش فقط، وهذا سبب انهيار دول المغرب العربي التي قامت على مبدأ ديني عقائدي في العصور الإسلامية الوسطى من تاريخ المغرب العربي الإسلامي.

المقدمة:

تعدُّ حقبةُ الدراسة المحددة جديرةً بالاهتمام، لأنها تتناولُ حقبة قيام دولةٍ في بلاد المغرب والأندلس، ذات مفهومٍ مختلفٍ عما سبقها من دول؛ ممَّا أسهم في تغيير معالم المنطقة وأحداثها التاريخية؛ إذ امتدت هذه الدولة الشاسعة في القرنين السادس والسابع للهجرة/ القرنان الثاني عشر والثالث عشر للميلاد من طرابلس الغرب شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً؛ فضلاً عن الأندلس.

و قد دَرَسَ حركة الموحدين كثيرٌ من الباحثين، ولكنهم لم يتطرقوا للهدف الرئيس ألا وهو فهم ما هو الأساس الذي قامت عليه السياسة التي انتهجها الحكام الموحدون، وما مدى تطبيقها من قبل أتباع المهدي محمد بن تومرت في المجتمع والدولة؟، ومن ثمَّ فهم الأسباب التي أدت للإخفاق وانهيار الدولة؛ إذ تُعنى هذه الدراسة بفهم الجذور الأساسية التي يُبنى عليها معظم الأعمال السياسية للدولة والمجتمع من مذاهب وتيارات فكرية تشكِّلُ أساساً للعلاقات الدوليَّة، ومنها تنطلق الأفكار لمعالجة النزاعات بين الجماعات والدول وفق سياسة معينة.

فمن المعروف في بلاد المغرب العربي الإسلامي أنَّ بعض الطامعين في الحكم اعتمدوا على مرتكزاتٍ دينيةٍ، أسهمت في قيام دعوتهم مثل الإمامة وادعاء المهديَّة، فاستفادوا منها استفادة تسمح لهم بتضمين هذا الفكر وتنظيمه؛ لتحويله إلى قوةٍ سياسيةٍ توطِّدُ ركائزَ سلطتهم، ومن أمثلتهم كان الداعية محمد بن تومرت حيث اعتمد على عقيدة جديدة بعد قيام المدرسة النظامية^(١) في العصر السلجوقي، وادعى النسب إلى الأدارسة، ولعلَّه تأثر بتجربة حسن الصَّبَّاح^(٢) والدعوة النزارية في خراسان، كما أنَّه شهد التغييرات الهائلة في المشرق العربي الإسلامي في ظل السلاجقة والوزير نظام الملك^(٣)، وتأثر بالإمام الغزالي، ورأى تدهور وضع الخلافة الفاطمية، وانتصار فكرة الأشاعرة، فأراد

(١) المدرسة النظامية: بنيت في مدينة بغداد في العصر السلجوقي في عهد السلطان ألب أرسلان ومؤسسها الوزير نظام الملك؛ حيث بدأ العمل في بنائها سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م، وانتهى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م. المقرئ، أحمد بن علي. (١٩٨٧م). المواظع والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية. ج ٢. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ط ٢. ص ٣٦٣؛ السيوطي، جلال الدين. (٢٠١٣م). تاريخ الخلفاء. ج ١. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ط ٢. ص ٦٤٥-٦٤٦.

(٢) هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن، يرجح الباحثون أنه ولد سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م، والاختلاف يدور حول مكان ولادته في مدينة قم أم الري الإيرانية. الجويني، علاء الدين عطا ملك. (٢٠١٥م). تاريخ فاتح العالم (جهان كشاي). تح: محمد بن عبد الوهاب القزويني. تر: محمد السعيد جمال الدين. ج ٣. د.م. ط ١. ص ١٧١؛ دفتري، فرهاد. (١٩٩٦م). خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين. تر: سيف الدين القصير. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق: سورية. ص ٥٧؛ تامر، عارف. (١٩٩١م). تاريخ الإسماعيلية الدولة النزارية. ج ٤. رياض الريس للكتاب والنشر. قبرص. ط ١. ص ١١؛ الخشت، محمد عثمان. (١٩٨٨م). حركة الحشاشين تاريخ وعقائد لأخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي. مكتبة ابن سينا. القاهرة: مصر. ص ٥٣.

(٣) نظام الملك: هو أبو علي حسن بن علي بن إسحق الطوسي، ولد في مدينة طوس سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م لقب بالطوسي والخوaja وغيرها، تقلد منصب الوزارة عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م وتوفي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. نظام الملك، حسن بن علي. (٢٠٠٧م). سياسة نامه أو سير الملوك. تر: يوسف بكار. دار المناهل. بيروت: لبنان. ص ١٧ وما بعدها؛ ابن خلكان. (١٩٧٨م). وفيات الأعيان =

نقل هذا كله إلى المغرب العربي الإسلامي، فهاجم فقهاء المالكية من أركان دولة المرابطين، وتدرج الأمر به إلى الإعلان عن نفسه مهدي زمانه، فأحدث حركة لها نظامها وأهدافها، وقد أوكل أمرها إلى عبد المؤمن بن علي الكومي، الذي يعدّ المؤسس الفعلي لدولة الموحدين ولأسرتها الحاكمة، وفي ظل هذه الأسرة الحاكمة، سيدرس البحث كيف تواءمت أفكار محمد بن تومرت مع الواقع السياسي والسلطوي.

وقد تلقب الخليفة عبد المؤمن وخلفاؤه من أسرته بلقب "أمير المؤمنين"، وفي هذا عدم اعتراف بالخلافة العباسية في المشرق العربي الإسلامي، وبتّر لما حاول الأمير يوسف بن تاشفين تنفيذه حين أوفد أبو بكر بن عربي^(١) مع أبيه إلى بغداد، حينئذ كان المشرق العربي الإسلامي يعاني من الحروب الصليبية، والخلافة العباسية ليس لها دور، وكذلك الخلافة الفاطمية، لكنّ الوضع في الأندلس من جهة والعلاقة مع المغرب العربي الإسلامي من جهة أخرى اختلفا بعد معركة الزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، كما أنّ تدمير المرابطين كان مفيداً للصليبية الأندلسية، وهنا السؤال: لماذا أقدم الموحدون على إبادة المرابطين؟ وهل المسألة حرب بين قبيلة مصمودة وقبائل الصحراء أم ماذا؟

لابدّ من فهم العقيدة الموحدية ومواردها، خاصة بعد ادعاء محمد بن تومرت المهدوية؛ وبذلك يتجاوز حكاية التكليف من الإمام الغزالي لإنهاء حكم المرابطين في المغرب الإسلامي.

- الإشكالية البحثية وتساولاتها:

تم التعرض إلى مشكلات عديدة من خلال الدراسة ونتائجها، تدور حول نظرية المهدي محمد ابن تومرت وتعاليمه وطريقة التعامل معها وتطبيقها من قبل خلفائه، فالتعاليم التي استقاها المهدي بن تومرت من المشرق العربي الإسلامي، وآلف لها الكتب صانعاً منها فكره السياسي وعقيدته، لم يلتزم خلفاؤه بها من الناحية العقائدية والسياسية؛ إذ غالباً ما بدلوا عقائدهم تبعاً لما تمليه عليهم الظروف السياسيّة، حتّى أنّ هدف المهدي محمد بن تومرت من توحيد القبائل البربرية في المغرب العربي الإسلامي، لم يلقَ ترحاباً من قبل خلفائه الذين مالوا نحو تجنيد قبائل على حساب قبائل أخرى بما يضمن لهم الاستمرار في الحكم والسيطرة على البلاد؛ مبتعدين بذلك عن فكرة توحيد العالم العربي

=وأنياء أبناء الزمان. تح: إحسان عباس. ج ٢. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ١٢٨-١٣٠. الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٨٤م).

سير أعلام النبلاء. تح: شعيب الأرنؤوط. ج ١٩. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٩٤-٩٥.

(١) ابن العربي: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري، يكنى أبي بكر، من أهل إشبيلية، رحل مع أبيه إلى المشرق الإسلامي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، ولقي عدد من العلماء والمحدثين، ولد سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، ودفن في مدينة فاس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك. (١٩٨٩م). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها ومحدثيهم وفقهائهم وأديانهم. تح: إبراهيم الإياري. ج ٣. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٥٥-٨٥٧.

الإسلامي مقابل تبديل الواقع الديمغرافي لسكان المغرب العربي الإسلامي وهو ما ستوضحه الدراسة؛
فالسؤال المحوري هنا: هل اندفع محمد بن تومرت لا شعورياً لإنشاء دعوته؟ وهل الموحدين استخدموا
العقل في نظرياتهم؟

ومن البديهي عند التطرق لبحثٍ مهمٍّ، يختصُّ بمجال الفكر السياسي والمذهبي الديني
المتباين عبر العصور الإسلامية والخاص بدولة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي الإجابة عن
أسئلة عديدة شكلت إشكالية البحث، وهي:

١. هل طُرِحَت فكرة المهودية بعد تأسيس المدرسة النظامية في المشرق العربي الإسلامي؟
وهل عرف المغرب قبل محمد بن تومرت من ادّعى المهدي المنتظر بعد مهدي الفاطميين؟ وهل
طبقت العقيدة المهودية في الفكر السياسي للموحدين وفق النظرية أم اختلفت من عهدٍ لآخر بين
الخلفاء الموحدين بعد وصولهم للحكم أم أن الدعوة المهودية كانت فقط للوصول إلى الحكم، والقضاء
على تحكّم مالكية الفكر المرابطي؟ وهل دعوة المهودية كانت للوصول إلى الحكم؟

٢. هل تحمل نظرية الموحدين وفكرهم السياسي مفاهيم تكفير وإيمان جديد؟ وما جذور هذه
المفاهيم؟ وهل بلدان المغرب العربي الإسلامي قبل المهدي محمد بن تومرت عرفت العنف والمذابح
الجماعية؟ وهل هذه الإبادة عقائدية أم لها علاقة بجغرافية قبلية؟ وما الفرق بين سياسة المرابطين
والموحدين؟

٣. لماذا استعمل المهدي محمد بن تومرت الأمازيغية في فكره السياسي، ولم ينشر دعوته
بين القبائل العربية التي أرسلتهم الدولة الفاطمية؟ وهل كان هناك مشكلة بين القبائل العربية والأمازيغ؟
وما سياسة خلفاء المهدي محمد بن تومرت مع هذه القبائل؛ لمنع وصولهم إلى المغرب الأوسط
والأقصى؟ ولماذا اهتمّ الخلفاء الموحدون بالمغرب والأندلس في فكرهم السياسي، ولم يهتموا بإفريقية
السوداء والصحراء؟ وهل انتهج الفكر السياسي الموحي الصراع القبلي بين قبائل مصمودة
وصنهاجة؟

٤. ما سبب اشتداد الحملات الصليبية على المشرق العربي الإسلامي؟ وما دور معركة
الزلاقة في نشوء الحروب؟ وما أثر الفكر السياسي للموحدين على الصراع بين مناطق البحر المتوسط
شرقاً وغرباً؟

٥. ما أسباب انهيار الدولة الموحدية؟ ولماذا انفصل الحفصيون عن الدولة؟
فالغاية من هذه الدراسة فهم العوامل التي قامت عليها مهديّة محمد بن تومرت وأفكاره
السياسية من مبادئ وقوانين، ومحاولة فهم قضيته وتعاليمه ومدى تأثيرها فيمن خلّفه من الحكام
الموحدين؛ لذلك ستبسط الدراسة أفكار حركة المهدي محمد بن تومرت وتقرنها مع سياسة من خلّفه

من الحكام الموحدين؛ لتوضيح أثرها في العالم الإسلامي والربط بين الفكر الإسلامي في المشرق والمغرب العربي الإسلامي، وتوظيفه بما يخدم الموضوع بحيث تُبرز الإيجابيات والسلبيات.

– أهمية البحث، ومسوغاته:

إنّ هذا الموضوع يعنى بدراسة مفصلة تهتم بالجذور الأساسية للفكر السياسي لدولة الموحدين بالمغرب والأندلس؛ فضلاً عن تطبيق الحكام الموحدين للقضية التي بنيت الدولة على أساسها، فلقد استطاع هذا الفكر أن يهدد استقرار دول في المغرب العربي الإسلامي ومذاهبه، وجاء بسياسة جديدة تستحق الدراسة والتحليل لفهم غايتها والتغير الجديد الذي أحدثته.

كما أن البحث يواجه مشكلة تاريخية تتمثل في أن أغلب المنظرين نادراً ما قاموا بالتطبيق على مرّ التاريخ، والمهدي محمد بن تومرت واحد منهم، حيث وضع دستوراً وقوانين لدعوته ولدولة الموحدين، لكنه هل طبقها وعمل بها؟

وهناك كثير من الأسئلة التي سترد الإجابة عنها من خلال مادة البحث وفي أثناء العمل.

– المصطلحات المستعملة في البحث:

١- **التطبيق:** يقصد به تطبيق الخلفاء الموحدين للمبادئ والآراء والنظريات التي كونها فكرهم السياسي في قانون دولتهم ودستورها (عقيدة التوحيد)، ومدى الالتزام بالقضية التي نادى بها واضع فكرهم السياسي المهدي محمد بن تومرت.

٢- **الرباط:** المكان الذي يربط به؛ بقصد الجهاد ومراقبة العدو في الثغور، وهو بمعنى الربط على النفس والتغلب على الشدائد^(١).

٣- **ضاحية المدينة أو الربض:** الأحياء الكائنة في أطراف المدينة أو خارج أسوارها^(٢).

٤- **العيون:** يقصد بهم الجواسيس الذين يقومون بجمع المعلومات عن الأعداء^(٣).

٥- **القيسارية:** نمط من أنماط الأبنية التجارية في العمارة الإسلامية، ويغلب الظن أنها مأخوذة من القيصريّة اليونانيّة؛ بمعنى سوق القيصر أو الإمبراطور، وهي سوق تجارية مطلّة على شارع تحيط بها الحوانيت وغرف التجارة حيث تباع فيها البضائع وتخزن، وتحوي مسجداً صغيراً؛ لإقامة الشعائر الدينية^(٤).

(١) شريط، آمال، وجلايلية، لعرج. (٢٠١٦م)، **الربط ودورها التعليمي خلال عهد المرابطين**، ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم

العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية. جامعة الطاهر مولاوي سعيدة. الجزائر. ص ١٢.

(٢) خربوطلي، شكران، ومصطفى، فوزي، وعلي، عبد الكريم. (٢٠٠٨م). **الحضارة العربية الإسلامية- آثار وفنون**. منشورات جامعة دمشق. دمشق: سورية. ص ٣٩٠.

(٣) مجمع اللغة العربية. (٢٠٠٤م). **المعجم الوسيط**. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة: مصر. ص ٦٤١.

(٤) رزق، عاصم محمد. (٢٠٠٠م). **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**. مكتبة مدبولي. مصر. ط ١. ص ١٥٥، ٢٤٥.

- ٦- **الفكر السياسي:** هو مجموعة الآراء والمبادئ والنظريات التي صاغها العقل البشري، لتُظهر العلاقة بين السلطة والفرد ومن ثمّ تطور السلطة حتى نهايتها، وعلاقتها بالعالم والمجتمع من حيث قوتها وعدمها ووظائفها وخصائصها والقائمين بها، كما يتناول الفكر السياسي البيئة الطبيعيّة لنشوءه؛ فضلاً عن معتقد الجماعة الذي أنشأته وعصبتهم^(١)، والسياسة هي صناعة الخير العام.
- ٧- **المرتزقة:** يقصد به الباحثون عن الرزق من الجنود الغرباء الذين يتخذون من الحروب وسيلةً للكسب والمطامع المادية خارج موطنهم^(٢).
- ٨- **الموحدي:** يقصد به عصر الموحدين كحركة وحكم، في عهد محمد بن تومرت والخلفاء الموحدين ومعتقدتهم في التوحيد في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس.
- ٩- **النظرية:** فكرة أو قضية تثبت بالبرهان^(٣) أو مجموعة من المفاهيم والفرضيات والقوانين المرتبطة ببعضها؛ إذ إنّها مجموعة من التعليمات أو الأحكام المجردة من الحقيقة، وتصورٌ عقلي يهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ، والقصد منها تفسيرٌ مقنعٌ لظاهرة تتناول بالتحليل، وبمقدورها التنبؤ بما يحتمل أن يؤول إليه تطور هذه الظاهرة، وهي قواعدٌ وقوانينٌ منظمةٌ منهجياً، تشكل أساساً لعلم، وتفسر مجموعة من الوقائع والظواهر والأحداث^(٤).
- ١٠- **هندو أوروبيون:** يقصد بهم الشعوب المقيمة على سبيل بحر قزوين والبحر الأسود الممتد من مولدوفا وأوكرانيا إلى روسيا وغربي كازخستان، وحضارتهم تعود إلى أكثر من ٦٥٠٠ سنة^(٥).

- حدود البحث:

يهتم البحث بدراسة الفكر السياسي للموحدين في المغرب والأندلس، وفهم طريقة الموحدين والتعامل معها من قبل الخلفاء، وما نتج عن هذا الفكر من مصاعب سياسية واجتماعية واقتصادية على البلاد العربية الإسلامية في مشرقها ومغربها بين عامي ٥١٥-٦٦٨هـ / ١١٢١-١٢٦٩م، لكن بما أن الموضوع يهتم بالفكر السياسي، فإنّه من الطبيعي أن يخرج عن الحدود المكانية والزمنية لموضوع الدراسة، وذلك لأنّ واضع الفكر الموحي ومؤسسه استقى علومه ونظمه من المشرق العربي

(١) صادق، جهاد تقى. (١٩٩٣م). **الفكر السياسي العربي الإسلامي - دراسة في أبرز الاتجاهات الفكرية**. جامعة بغداد. بغداد: العراق. ط١. ص ١٩-٢٤؛ عبد الكريم، أسعد عبد الوهاب. (٢٠١٦م). الفكر السياسي والنظرية السياسية دراسة مقارنة. **مجلة الفراهيدي**. مج ٢. ع ٢٧. جامعة تكريت. تكريت: العراق. ص ٢٤٦.

(٢) عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٨م). **معجم اللغة العربية المعاصر**. مج ٢. عالم الكتب. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٨٨٥.

(٣) مجمع اللغة العربية. **المعجم الوسيط**. ص ٩٣٢.

(٤) عبد الكريم. **الفكر السياسي**. مج ٢. ع ٢٧. ص ٢٤٧-٢٥٠.

(٥) مجهول. (٢٠١٧م). لمحة جديدة عن أصول اللغات الهندو أوروبية. تر: محمد خليفة الغزي. **ناسا بالعربي**. د.م. ص ١-٧.

الإسلامي، وتأثر بالمدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك في بغداد؛ بل تجاوز هذا الأمر ليعدّ نفسه أحد روادها في المغرب العربي الإسلامي، وأخذ على عاتقه توحيد العالم الإسلامي باختلاف مذاهبه تحت عقيدة واحدة سماها عقيدة التوحيد، وعدّ كلّ من يخرج عن هذه العقيدة غير مسلم؛ كما أنّ أسلوبه في الدعاية لعقيدته اعتمد على كسب ودّ القبائل البربرية القاطنة في المغرب العربي الإسلامي؛ مستفيداً من الصراع القبلي والخصام الدائم الذي بدأ قبل ظهور الإسلام، لذلك لا بدّ من العودة إلى أزمنة سابقة؛ لقيام دعوة التوحيد لتفسير سبب تلقيه الدعم من قبل هذه القبائل، خاصة أن قضيته هي قضيتهم منذ بداية الدولة الفاطمية في المغرب العربي الإسلامي، وبما أنّ الدراسة تهتم بتطبيق خلفائه لتعاليمه ودعوته، فلا بدّ من دراسة نتائج الدعوة وآثارها في السياسة العامة للدولة ونتائجها عند انهيارها على بلاد العالم العربي الإسلامي.

- الدراسات السابقة:

أفرّد عددٌ من الدراسات للبحث حول الخلفاء الموحدين واهتماماتهم بالجوانب العلمية والاقتصادية للدولة، لكنّها لم تتطرق إلى موضوع الفكر السياسي وقربه وبعده عن الخلافة الإسلامية، ولا التزام خلفائها بعقيدة مؤسس دعوتهم وتوصياته، وأسباب تقلبهم في اتخاذ قرارات مصيرية أدت إلى ضعف الحكم وانهيار المغرب العربي الإسلامي والأندلس أمام القوى الطامعة بامتلاكهم، فالجميع ركّز على معركة الزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وحطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م والأرك ٥٩١هـ/١١٩٤م والعقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م، لكنّهم لم يدرسوا أثر هذه الأحداث في السياسة العامة للمسلمين، ومن ثمّ انهيارهم اجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، وهذا ما اهتمت به الدراسة؛ لأنّ فكر الموحدين الذي دعا إليه المهدي محمد بن تومرت في المغرب العربي الإسلامي زاد من الانقسام بين المسلمين أكثر من توحيدهم، ومن الدراسات القريبة من هذه الدراسة:

١- موسى، عز الدين عمر أحمد، (سنة ١٩٦٩م)، بعنوان: **تنظيمات الموحدين ونظمهم في**

المغرب، التي قدمها للحصول على درجة أستاذ في بيروت بالجامعة الأمريكية.

المشترك: الحديث عن نظام الموحدين ومؤسسات دولتهم وسياسة الخلفاء الموحدين داخل الدولة.

الاختلاف: التطرق للصراع القبلي الذي أسهم في فرض الفكر السياسي الموحيدي، والعمل على برهان قضيتهم المتمثلة في فكر التوحيد، وأوضاع المشرق العربي الإسلامي عندما ذهب المهدي محمد بن تومرت إليه وعاد منه، حاملاً قضية نشر تعاليمه حتى وصوله إلى مدينة ملالة، ثم تحول إلى المذهب الخارجي بعد الدعم الذي قدمته قبيلة زناتة، وتبنيه لفكر المهديوية في مدينة تينملل، وذلك تبعاً لما تقتضيه التحديات التي تعرض لها، وتناول مدى تطبيق الخلفاء الموحدين لتوصياته ضمن سياستهم الداخلية والخارجية.

٢- النجار، عبد المجيد، (سنة ١٩٨٣م)، بعنوان: **المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته**

الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، كتاب أصله اطروحة دكتوراه في مصر بجامعة الأزهر.

المشترك: الحديث عن نشأة المهدي محمد بن تومرت وشخصيته وتعاليمه وتوصياته المتمثلة بالقوانين التي وضعها لاتباعه.

الاختلاف: مناقشة سياسة خلفاء المهدي محمد بن تومرت والالتزام بتعاليم المهدي وقضيته التي نادى بها بين أهل المغرب العربي الإسلامي، ونتائج ذلك على العالم العربي الإسلامي، وأوضاع المشرق العربي الإسلامي الذي أسهم في تشكيل نظرية الموحدين، وحددت الدراسة الغاية من تعاليمه ودعوته إذ إنها كانت بهدف الحصول على السلطة والقضاء على المرابطين، لكن بعد وفاته أصبح غايتها ترسيخ نفوذ قبيلة زناتة؛ مستغلة القضية والقوانين بما يخدم مصالحها السياسية.

٣- الجبوري، عذراء نوري طوسي، (سنة ٢٠١٤م)، بعنوان: **دولة الموحدين دراسة تاريخية**

تحليلية ٦١٠-٦٦٨هـ / ١٢١٣-١٢٦٩م، إشراف: أ.م.د. رياض حميد الجواري، التي قَدِّمَها

لنيل درجة الدكتوراه في العراق بجامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم التاريخ.

المشترك: تناول عقيدة الموحدين والاهتمام بالتطور التعليمي في الدولة، وتاريخ دولة الموحدين حتى انتهاء حكمها للمغرب العربي الإسلامي، وهذا ما يفيد في بيان فكرهم السياسي.

الاختلاف: البحث يوضح موضوع الفكر السياسي للموحدين وتطبيقه من قبل الخلفاء الموحدين، وأثره في العلاقات بين المشرق العربي الإسلامي ومغربه، وعلاقة الموحدين مع الممالك المسيحية في أوروبا، واهتم البحث بالصراع القبلي الذي كان سائداً في المغرب العربي الإسلامي، وبيان قضية الموحدين التي نشأت مع مراحل رحلة المهدي محمد بن تومرت حتى لجوئه إلى مدينة تينمل.

- **مناهج الدراسة:**

اعتمدت الدراسة على عددٍ من المناهج؛ بهدف الوصول إلى نتائج قيمة ودقيقة للدراسة، منها: الوصفي التاريخي القائم على سرد الأحداث حسب مصدرها، ومن ثمّ نقدها، والمنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على تحليل المعلومات والتعليق عليها، ومن ثمّ مقارنتها للوصول إلى المقاربات العامة والمنهج التركيبي، لتركيب الأحداث في سياق يخدم موضوع البحث ويجمع بين التأليف والإبداع.

- **الأدوات:**

كما تتطلب دراسة الجانب النظري، وكيفية تطبيقه التوسع في دراسة المصادر والمراجع التي تهتم بالدراسة وتنوعها؛ لبيان صدق المصادر التي عُنيَت بموضوع الدراسة؛ لتبيان صدقها من زيفها في المعلومات التي أوردتها عن دولة الموحدين؛ لذلك اعتمدَ على مصادر عاصر مؤلفوها الأحداث

التي تناولها البحث وعابنها وشاركوا فيها، فجاءت كتابتهم مفصلة، ومنهم من كتب اعتماداً على ذاكرته، فجاءت معلوماته مقتضبة، لكنها تمثل نوعاً من الحرية الفكرية في الكتابة التاريخية، ومنهم مؤرخون عاصروا جماعة من الذين شاهدوا الأحداث وشاركوا فيها، فأكسب ذلك مؤلفاتهم قيمةً علميةً للمعلومات التي أوردوها، أما المراجع فقد اعتمد عليها لمعرفة أهم المصادر التي اهتمت بدراسة دولة الموحدين، فكان من أهم هذه الأدوات:

أ- المصادر التاريخية:

١- أعز ما يطلب: للمهدي بن تومرت (محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م، جمعه الخليفة عبد المؤمن بن علي، والكتاب يحوي كتباً ورسائل في علوم الفقه والسياسة والجهاد، وأهمية الكتاب أنه كان القانون الذي وضعه ابن تومرت لخلفائه من الموحدين؛ لتسيير أمور الدعوة والدولة؛ إذ مثل الجانب النظري من فكر الموحدين إلى جانب المرشدة وهي رسالة وجيزة لا تتجاوز الصفحتين في التوحيد.

٢- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين: للبيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي) المتوفى حوالي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، والكتاب بمنزلة مذكرة، كتبها البيذق كونه أحد رجال المهدي بن تومرت؛ لذلك تحتاج المعلومات الواردة في الكتاب إلى العناية في اختيارها؛ خاصة أنها وضعت للتهويل من سيرة المهدي محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن، لكن ذلك لا ينفي أهميتها في الدراسات التاريخية؛ لأن من سجلها شاهد عيان، واعتمدت الدراسة على طبعتين للكتاب، الأولى: طبعة باريس لعام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م التي صححها وترجمها ليفي بروفنسال، فوضع في بداية الكتاب رسائل للمهدي بن تومرت استفادت منها الدراسة، وجمعه مع كتاب البيذق الآخر بعنوان **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، الذي عني بذكر أنساب القبائل والأشخاص الموالين للموحدين، والثانية: طبعة الرباط لعام ١٣٩١هـ/١٩٧١م التي نشرها عبد الوهاب بن منصور.

٣- **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين**: لابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي الأشبيلي) المتوفى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م، تعود أهمية الكتاب إلى أن مؤلفه كان من كتّاب دولة الموحدين وعاصر تاريخهم، لكن لم يبق من الكتاب سوى الجزء الثاني الذي يغطي عهد الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف، والكتاب من المصادر المهمة التي تناولت الجوانب الاجتماعية والسياسية بوصف دقيق للأحداث والأماكن، كما أنه غني بالرسائل الديوانية ذات الطابع الأدبي، لكن ما يؤخذ على المؤلف مدحه للخلفاء الموحدين والتقليل من شأن المرابطين.

٤- **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد

الكريم الواحد الشيباني) المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، الكتاب مصنفٌ متكامل المعلومات وأسلوبه سهلٌ، ذكر فيه معلومات عن الخلفاء الموحدين وعن فتح الخليفة عبد المؤمن بن علي لبلاد المغرب العربي وضمّه العرب إلى صفه، وقد عرض المؤلف الأحداث التاريخية بصيغةٍ موضوعيةٍ؛ مراعيًا التتابع التاريخي؛ إذ أنّه اتبع المنهج الحولي، ونهل المؤلف من المصادر الأخرى، لكنّه اختار المناسب من أخبارها، وأهمية ما ورد لديه أنّه من المعاصرين لدولة الموحدين.

٥- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: لابن القطّان المراكشي (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي) المتوفى في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، وذكر محقق الكتاب محمود علي مكي، أن الكتاب للابن وليس للأب المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، وذلك لأنّ الكتاب وصل حتّى خلافة المرتضى بين سنوات ٦٤٦-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م، ولم يبقَ من الكتاب سوى السفر الثالث عشر، كما أن الكتب التي أخذ عنها المؤلف جلّها مفقودٌ، وما ميز منهج المؤلف أنّه كان متعصباً للموحدين، لكن ذلك لا ينفي أهمية الكتاب، والدراسة استفادت من المعلومات الواردة فيه، لاحتوائه على وثائق ورسائل، ولحديثه عن المهدي محمد بن تومرت وسياسة خليفته عبد المؤمن بن علي، وتعامله مع القبائل البربرية في طور التأسيس.

٦- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، والكتاب يقسم إلى المقدمة وتمثّل عصارة فكر ابن خلدون وخلاصة ما توصل إليه حول نشوء الدول وتطورها، وما يلزم ذلك من علوم وصناعات وتاريخ، كما تطرق إلى الدول والأجناس وأصناف البربر في القسم الثاني، وقد استفيد من الكتاب في فصول الدراسة كافة.

- الوثائق الرسمية:

مجموعة من الرسائل والمراسيم التي صدرت عن الخلفاء الموحدين، جمعها ليفي بروفنسال تحت اسم مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، وأحمد عزاوي في كتابه رسائل الموحدية مجموعة جديدة، ولهذه الوثائق فوائد تاريخية وأدبية، لكتابة تاريخ دولة الموحدين.

- المراجع العربية والمعرية:

لقد استندت هذه الدراسة إلى مجموعة من المراجع العربية والمعرية، أهمها: كتاب التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية: ليهوثي ميراندا، وكتاب قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى: لحسن أحمد محمود، وكتاب تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: ليوسف أشباخ، وكتاب مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين: لإبراهيم القادري بوتشيش، وغيرها من الأبحاث المنشورة في الدوريات والمجلات؛ فضلاً

عن الرسائل الجامعية التي تناول باحثوها مواضيع مهمة يمكن الرجوع إليها للإفادة منها. وثمة أسماء لمصادر ومراجع مهمة أخرى أُشير إليها في صفحات الأطروحة، لكن لا مجال للتفصيل فيها هنا؛ إذ اقتصر التقديم على أكثرها تداولاً وأهمية من قبل الباحثين والمختصين في دراسة تاريخ المغرب والأندلس.

- مكونات البحث:

تسهيلاً للقارئ، قُسمت محاور الدراسة إلى المقدمة وأربعة فصول متوازنة والخاتمة؛ بدأ في مقدمة منهجية تضمنت أهداف الدراسة والإشكالية البحثية وأهم التساؤلات عن البحث وحدوده المراد معالجتها في هذا البحث.

أما **الفصل الأول**: فكان بعنوان: المغرب العربي الإسلامي حتى نهر السنغال والأندلس (جغرافياً، سياسياً، اجتماعياً، مذهبياً): وفيه استعراضٌ للجغرافية السياسية التي تناولت أحوال المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة القبائل المغربية والدول التي نشأت فيه، وما أعقب ذلك من نتائج كونت نظرية الموحدين؛ كذلك الجغرافية الطبيعية والبشرية والاجتماعية لسكان المغرب والأندلس من قبائل وعناصر سكانية أثرت في تكوين الفكر السياسي الموحيدي، والمستوى الطبقي لهم قبل قيام دولة الموحدين، كما تمّ استعراض الجغرافية المذهبية الدينية؛ لمعرفة المذاهب الإسلامية التي تأثر بها الموحدون من مبادئهم وقوانينهم، وأماكن انتشارها في المغرب العربي الإسلامي، والتفاعل الذي تلا انتشارها، ومدى تأثيره على أهلها.

الفصل الثاني: كان بعنوان: نظرية المهدي محمد بن تومرت من دعوته، وتكون فكره السياسي حتى لجوئه إلى مدينة تينمل^(١)، ومقارنتها بفكر حسن الصَّبَّاح؛ إذ تضمن الفصل نشأة المهدي محمد بن تومرت ومستواه الطبقي والاجتماعي؛ نظراً لكونه مؤسس الدعوة الموحدية؛ فضلاً عن تحديد مراحل رحلته إلى بلاد المشرق العربي الإسلامي، وإبراز أهم ما انتقاه من علوم ومعارف، أسهمت في تكوين نظريته وفكره؛ فقد نهل المهدي محمد بن تومرت منها علومه، وعاد إلى بلاده محملاً بفكرٍ إصلاحي كون نظريته التي عمل على ترتيبها وفق منهج عقائدي جديد، ظهر في

(١) تينمل: مدينة حصينة بين جبلين لها ممر لا يتسع إلا لفارس حتى أنه يحتوي على جسور خشبية، ويعني اسمها بالبربرية الحواجز التي تقام في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة، تقع على بعد ١٠١ كم عن الطريق الواصل لمدينة مراكش، ويدل موقعها على تأثر محمد بن تومرت بدعوة الحسن بن الصَّبَّاح وبأسلوبه العسكري والسياسي؛ لأنه أحاط المدينة بسور ليزيد من حصانتها. ابن القطان، حسن بن علي. (١٩٩٠م). **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**. تح: محمود علي مكي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ١٤٠؛ البغدادي، عبد المؤمن. (١٩٥٤م). **مراسد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع**. تح: علي محمد الجاوي. ج ١. دار المعرفة. بيروت: لبنان. ص ١٠٨؛ العبادي، أحمد مختار. (٢٠٠٠م). **صور من حياة الحبيب والجهاد في الأندلس**. منشأة المعارف. الإسكندرية: مصر. ص ١٠٨. ص ٢٠٥-٢٠٧؛ حسن، محمد يسري محمد. (د.ت). **تاريخ الحشيشية والمهدية التومرتية دراسة تاريخية وعقدية مقارنة**. د.م. ص ١٤٥.

مؤلفاته.

الفصل الثالث: جاء بعنوان: دور عبد المؤمن بن علي والخلفاء الموحيدين في تأسيس حكم الموحيدين، وتطبيق الفكر السياسي الموحيدي، وجاء فيه تعريفٌ بشخصية مؤسس دولة الموحيدين وانتمائه الطبقي والاجتماعي؛ لاستنتاج أثر ذلك في الفكر السياسي للموحيدين، ومن ثمّ تبين فكره السياسي عند تأسيس الدولة والقضاء على المرابطين، كما تناول الفصل سياسة الخلفاء الموحيدين، ومقارنتها مع الفكر السياسي للمهدي محمد بن تومرت؛ لمعرفة التطورات التي أحدثها الخلفاء على الأصعدة كافة؛ فضلاً عن الحديث عن تشكيك الخليفة يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م بعقيدة المهدي محمد بن تومرت (قانون الدولة)، ومن ثم إلغاؤها على يد ابنه الخليفة إدريس المأمون ٦٢٧-٦٣٠هـ/١٢٢٩-١٢٣٢م.

الفصل الرابع: المعنون بـ: انهيار حكم الموحيدين، تناول الفصل الأزمات التي عانى منها المغرب والأندلس في ظل سيادة الفكر السياسي للموحيدين؛ لبيان سلبات حكمهم وإيجابياته، كما وضح أسباب انهيار دولتهم ونتائج فكرهم السياسي على الصعيد المغربي والأندلسي، وما عقب ذلك من تطورات سياسيّة ومذهبيّة، تسببت في عودة المذهب المالكي وملاحقة مؤيدي العقيدة التومرتية؛ مع إيضاح أثر العقيدة في سكان المغرب والأندلس والنهضة العلمية التي أحدثتها بين أبنائه.

أما الخاتمة، فتضمنت النتائج العامة التي أوجت بها عناوين الدراسة وتفاصيلها، وربما كانت الدراسة المقارنة هي الأهم في استخلاص المعلومات المتعلقة بمراحل تطور الفكر السياسي وقضية الموحيدين قديماً وعسكرياً واقتصادياً في ظل حكم الموحيدين.

الفصل الأول: المغرب العربي حتى نهر السنغال والأندلس (جغرافياً، سياسياً، اجتماعياً، ومذهبياً):

أولاً: جغرافية المغرب العربي الإسلامي والأندلس.

ثانياً: لمحة تاريخية لأهم القوة العالمية المعاصرة لحقبة قيام حكم الموحدين.

ثالثاً: الوضع السياسي للمغرب العربي الإسلامي والأندلس، وإسهامه في قيام نظريتهم:

- ١- أحوال المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبيلتي زناتة وصنهاجة
- ٢- أوضاع المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبائل صنهاجة الجنوب على قبائل المصامدة.
- ٣- الأحوال السياسية لدول شمال المغرب العربي الإسلامي في القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي.

٤- دولة المرابطين في المغرب العربي والأندلس.

رابعاً: الحياة الاجتماعية والقبلية للمغرب العربي الإسلامي، وأثرها في تكون قضية الموحدين:

- ١- مواقع انتشار قبائل المغرب العربي الإسلامي ومعيشتهم.
 - ٢- العناصر الدخيلة إلى المجتمع المغربي.
 - ٣- العناصر البشرية المكونة للمجتمع الأندلسي والمؤثرة في الفكر السياسي الموحي.
 - ٤- أثر فئات المجتمع في نشوء الفكر السياسي للموحدين بالمغرب العربي الإسلامي.
- خامساً: المذاهب في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس، وأثرها في الفكر السياسي

للدول:

- ١- التعريف بالمذاهب المؤثرة في الفكر السياسي الموحي، وأماكن انتشارها في المغرب العربي الإسلامي.

٢- التفاعل المذهبي في المغرب العربي الإسلامي والأندلس، وأثره في السياسة العامة للدولة.

الفصل الأول: المغرب العربي الإسلامي حتى نهر السنغال والأندلس (جغرافياً، سياسياً، اجتماعياً، ومذهبياً):

يتناول هذا الفصل دراسة جغرافية المغرب والأوضاع السياسية إلى جانب دراسة الحياة الاجتماعية والمذهبية التي أفضت إلى تكوين نظرية الموحدين التي تناولها فكرهم السياسي، على الرغم من تشابه الأحوال بين نشأة دولة المرابطين والموحدين وامتدادهم في المغرب العربي والأندلس، إلا أنَّ الأرض الخصبة لامتداد دولة الموحدين تهيئت؛ بسبب استغلال سوء الأوضاع التي عانى منها المغرب العربي الإسلامي في عصر المرابطين، ليبقى السؤال هنا: ما سبب ذلك؟ ولماذا التنازع والتخاصم بين سكان المغرب العربي الإسلامي، هذا الخلاف الذي أوصل إلى الانفصال في هذه المرحلة التاريخية؟

لا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة إلا من خلال دراسة عميقة للعناصر التي أسهمت في قيام نظرية الموحدين وفي بلورة فكرها السياسي؛ خاصة مرحلة ضعف دولة المرابطين التي كانت الشرارة التي انطلقت منها دعوة المهدي محمد بن تومرت، وما كان سائداً من أحوال سياسية وتنازع قبلي بدأ مع الفتح العربي الإسلامي للمغرب، واستمر حتى بعد سقوط دولة الموحدين.

أولاً: جغرافية المغرب العربي والأندلس:

لفظ المغرب العربي الإسلامي^(١) من الصعب تحديده جغرافياً، إذ عدَّ مدينة الإسكندرية ونهر النيل بدايةً له^(٢)، ولكن بحسب قبائله ومراكز انتشارهم يكون المغرب العربي الإسلامي من طرابلس (الغرب) إلى المحيط الأطلسي^(٣)، ويناقض البكري ذلك بذكره حدود إفريقية دون الأندلس من برقة إلى طنجة، ومن البحر المتوسط إلى أرض السودان^(٤)، أما ياقوت الحموي فقد حدد المغرب العربي الإسلامي بحدود دولة المرابطين^(٥)، هذا التناقض دفع عز الدين عمر موسى للقول: إن حدود المغرب العربي الإسلامي في القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي كان يتناسب مع المناطق التي

(١) لم تكن بلاد المغرب العربي الإسلامي معروفة بهذا الاسم عند العرب الفاتحين، إنما أطلقوا عليها لفظ إفريقية، وهو اللفظ المعروف عند البيزنطيين. مسعد، سامية مصطفى. (٢٠٠٣م). الحرب والطبيعة في المغرب عصر بني مرين. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. مصر. ط ١. ص ٤.

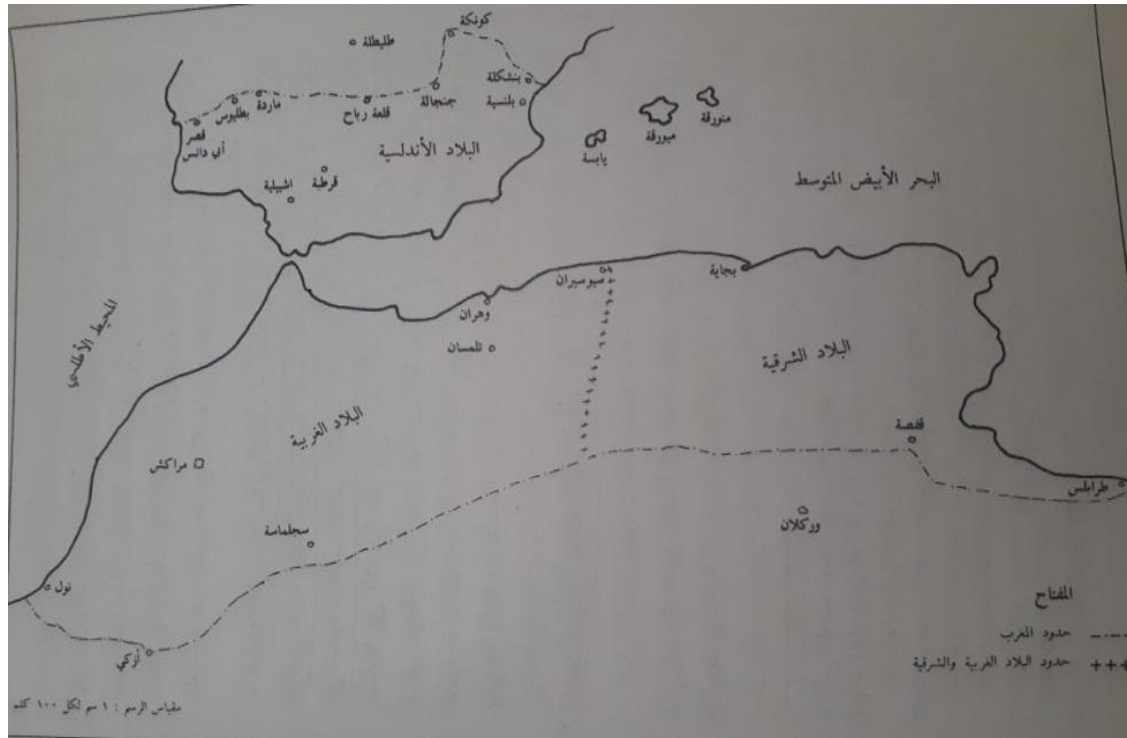
(٢) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل. (١٩٩٢م). صورة الأرض. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان. ص ٦٤.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن. (٢٠٠٠م). تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي الشأن الأكبر. تح: خليل شحادة. ج ٦. دار الفكر. بيروت: لبنان. ص ١٣٣.

(٤) البكري، عبد الله بن عبد العزيز. (د.ت). المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة: مصر. ص ٢١.

(٥) ذكر أن المغرب العربي الإسلامي حده من مدينة مليانة إلى آخر جبال السوس وتدخل فيه الأندلس شمالاً. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله. (١٩٧٧م). معجم البلدان. ج ٥. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ١٦١.

سيطرت عليها دولة الموحدين، ممتداً من طرابلس (الغرب) وجبل نفوسة شرقاً، ومن طرابلس (الغرب) إلى قفصة إلى سجماسة فأركي ونول لمطة التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي جنوباً، ومن بنشكة وكونكة حتى بطليوس وقصر أبي دانس حدوده شمالاً^(١)، وهو بذلك لم يفصل الأندلس عن المغرب العربي الإسلامي، لأن كلا الطرفين كان تابع إلى دولة الموحدين؛ لكن ليس من المنطقي تقسيم المغرب العربي الإسلامي والأندلس على أساس سياسي، لأن الحدود الجغرافية ثابتة لا تتغير؛ لذلك التقسيم الطبيعي أفضل تبعاً لما أشار إليه البكري؛ حيث شمل جميع المناطق التي سيطرت عليها قبائل المغرب العربي الإسلامي، والدول التي قامت فيه، ويفصله عن الأندلس؛ ليلحظ من ذلك أن لفظ المغرب العربي الإسلامي والأندلس ظهر بعد سقوط دولة الأمويين في المشرق العربي الإسلامي.^(٢)



المصور رقم ١: حدود المغرب العربي الإسلامي في عصر الموحدين.

(موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٤٠).

وما يهم هنا دراسة المياه وكميتها في المغرب العربي الإسلامي، وذلك لأنها أسهمت في انقسام قبائل المغرب العربي الإسلامي إلى مستقرين ومتنقلين كما سيرد فيما بعد، فالأمطار في

(١) موسى، عز الدين عمر. (٢٠٠٣م). النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ٣٧-٤٧.

(٢) ذكر أن فصل الأندلس عن المغرب العربي الإسلامي بسبب استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية. الإصطخرى، إبراهيم بن محمد. (١٨٧٠م). مسالك الممالك. مطبعة بريل. لندن: هولندا. ص ٣٧-٣٨؛ موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٣٧.

المغرب العربي كانت تقل كلما اتجه جنوباً، وفي المناطق الشرقية، أما الأندلس فقد كانت كثيرة الأمطار والأنهار بفضل هضابها وجبالها^(١) ومناخها المعتدل بحكم موقعها على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؛ لذلك أكثر أنهار المغرب العربي الإسلامي كانت على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؛ لاعتمادها على العيون، وبسبب عدم انتظام مياه الأمطار كانت أكثر المناطق استقراراً^(٢)، وهذا ما دفع بقبائل المغرب العربي الإسلامي إلى الاقتتال وصولاً إلى المناطق ذات المياه المستقرة، والوعرة المنيعّة شمالاً وغرباً.

ثانياً: لمحة تاريخية لأهم القوة العالمية المعاصرة لحقبة قيام حكم الموحدين:

قضى السلاجقة على تحكم الأسرة البويهية^(٣) في الخلافة العباسية في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ليحلوا مكانهم في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله ٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣٠-١٠٧٤م، بذلك خلص السلاجقة الخلافة العباسية من حالة الضعف والانقسام الذي عانت منها بسبب الصراع بين أفراد الأسرة البويهية^(٤)، لكن ذلك لم يدم طويلاً؛ إذ عادة الخلافة العباسية للضعف من جديد في عهد الخليفة المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢هـ/ ١٠٩٤-١١١٨م بسبب الصراعات التي خاضها السلطان بركياروق ت. ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م ابن السلطان ملكشاه؛ لترسيخ السلطة التي استلمها سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٨٥م.^(٥)

أما الخلافة الفاطمية التي نقل مقرها الخليفة المعز لدين الله ٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م من المغرب العربي الإسلامي إلى مصر في سنة ٣٥٨-٣٦٢هـ/ ٩٦٨-٩٧٢م؛ لتستعيد نفوذها في المشرق والمغرب الإسلاميين حتى النصف الأول من عهد الخليفة المستنصر بالله ٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م؛ حيث مد الفاطميون نفوذهم إلى شبه الجزيرة العربية وجنوب بلاد الشام على حساب السلاجقة، حتى أنه خطب للخليفة الفاطمي في بغداد سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، لكن في النصف

(١) ابن سعيد، علي بن موسى. (١٩٧٠م). كتاب الجغرافيا. تح: إسماعيل العربي. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ط١. ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٥٤-٥٨.

(٣) الأسرة البويهية: أسسها بني بويه، ذات أصول فارسية، ظهرت في بلاد الديلم جنوب غرب بحر قزوين، ثم امتدت لتشمل بلاد فارس والعراق، وتتحكم في الخلافة العباسية؛ وقد استمرت من سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م حتى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م. حسن، إبراهيم حسن. (١٩٩٦م). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. ج ٣. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: مصر. ص ٤٣-١١٥.

(٤) علي، وفاء محمد. (١٩٩٠م). الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين. المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية: مصر. ص ١٠٥.

(٥) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم. (١٩٨٧م). الكامل في التاريخ. تح: محمد يوسف الدقاق. ج ٨. بيروت: لبنان. دار الكتب العلمية. ص ٤٩٣، ٥٠٢-٥٠٤؛ ج ٩. ص ٢٦، ٧٧ وما بعدها؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٩٩٨م). البداية والنهاية. تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ج ١٦. دار هجر. الجيزة: مصر. ط١. ص ١٨٣.

الثاني من عهده ساد الضعف الخلافة الفاطمية؛ بسبب الأزمات التي تعرضت لها الدولة^(١)، وقد تدارك الخليفة هذه الأزمات بتولية الوزير بدر الجمالي منصب الوزارة؛ فأعاد للخلافة الفاطمية نفوذها، لكنه أصبح هو صاحب السلطة الفعلية في مصر على حساب سلطة الخليفة الفاطمي^(٢)، وعندما استلم ابنه الأفضل بن بدر الجمالي منصب الوزارة أحدث خلاف بين الخليفة المستعلي ٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م وأخيه نزار الذي أراد عزل الوزير الأفضل، ما تسبب في زيادة التفرقة والضعف داخل الدولة واستمر ذلك حتى قتل الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ/١١٢١م.^(٣)

وفي ظل هذا التخبط السياسي الذي عانى منه العالم الإسلامي من الصراع على الخلافة بين العباسيين والفاطميين، رأى البابا أوربان الثاني ٤٨١-٤٩٣هـ/١٠٨٨-١٠٩٩م في ذلك فرصة للاستجابة إلى مطالب الأباطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس ٤٧٤-٥١٢هـ/١٠٨١-١١١٨م لمساعدته ضد السلاجقة الذين ألحقوا بقواته هزائم متتالية في منطقة الأناضول وأسيا الصغرى، لينظم بفضل ذلك حملة صليبية بعد أن عقد مؤتمر في كليرمونت في فرنسا سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، بحجة تحرير بيت المقدس من المسلمين^(٤)، وبهدف السيطرة على المشرق العربي الإسلامي، فكان هذه الحملة بقيادة جملة من الأشراف والأمراء الأوروبيين الذين حققوا انتصارات عدة مكنتهم من السيطرة على الأناضول، واحتلال مدينة الرها سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، وأنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وطرابلس سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، وسط عجز الخلافة العباسية التي كانت تعاني من صراع على السلطة بين أفراد أسرة السلطان ملكشاه^(٥)، كل ذلك ساهم في إيجاد وعي إسلامي هدفه توحيد العالم الإسلامي لمواجهة الصليبيين والقضاء على حالة الضعف التي يعاني منها، وربما استفاد من ذلك محمد بن تومرت الذي كان يتلقى العلم في المشرق العربي الإسلامي في تلك المرحلة؛ لينقل ذلك إلى المغرب العربي الإسلامي، وربما هذا ما دفعه إلى تكوين فكره السياسي ونظريته التي نادى بها في المغرب لحسم أمر الصراع على الخلافة الإسلامية والسلطة وفق معتقده؛ حتى أنه عاصر مع خليفته عبد المؤمن بن علي حركة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي اللذان بفضلهما تم توحيد بلاد الشام مع منطقة الجزيرة الفراتية (حلب، حمص، دمشق، الكرك، والموصل) بين عامي ٥٢١-

(١) سرور، محمد جمال الدين. (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية. دار الفكر العربي. مصر. ص ٣٤٠-٣٤٧؛ حسن. تاريخ الحشيشية. ص ٧٤.

(٢) ابن القلانسي، حمزة بن أسد. (١٩٨٣م). تاريخ دمشق. تح: سهيل زكار. دار حسان. دمشق: سورية. ط ١. ص ١٣٥؛ حسن. تاريخ الحشيشية. ص ٧٥-٧٦.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٤٩٧-٤٩٨؛ (٢٠٠٣م). ج ٩. ص ٢٠٨.

(٤) رانسيمان، ستيفن. (١٩٩٨م). تاريخ الحملات الصليبية. تر: نور الدين خليل. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية: مصر. ص ١٨٨-١٩٢.

(٥) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٣-١٥، ١٣٦.

٥٦٩هـ/١١٢٧-١١٧٣م، وفي هذا المرحلة استعادة الخلافة العباسية جزء من قوتها والخلافة الموحدية كانت في بداية تكوينها وترسيخ نفوذها، أما الخلافة الفاطمية فلم تستمر طويلاً بسبب الضعف الذي كانت تعاني منه؛ حتى استطاع صلاح الدين الأيوبي إنهائها سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م في مصر، والخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م في بغداد^(١)؛ وهذا ربما ما دفع الخلفاء الموحدين إلى تغيير سياستهم في المغرب العربي الإسلامي للحفاظ على سلطتهم كما سيذكر عن ذلك في الموضوع المخصص من الدراسة.

ثالثاً: الوضع السياسي للمغرب العربي والأندلس، وإسهامه في قيام نظريتهم:

الوضع السياسي لدول المغرب العربي الإسلامي كان بتأثير عناصره البشرية وقبائله وضمن إطاره الجغرافي في دولة أو تنظيم سياسي يخدم أهداف تكوينه، ويحميهم من الأخطار التي تهدد مصالحهم، وقد تطور المفهوم ليهدف إلى إخضاع جماعة قوية لجماعة أضعف منها وتجريدهم من استقلالهم السياسي^(٢)، وهذا يختلف عن الحلف بين قبائله مع بعضها الذي أسماه المؤرخون بالشَّعب^(٣)، ظهر هذا الحلف في المغرب العربي الإسلامي عندما جمعت صنهاجة بطونها لردع خطر زناتة عن أراضيها، وفي المغرب والأندلس عندما اجتمعت قبائله وعناصره البشرية لدرء خطر الممالك المسيحية في الشمال، رغم أنَّ المغرب عرف هذه التحالفات في العصور السابقة للإسلام تحت مسمى التحالف النوميدي والموري^(٤)، وبعد دخول المسلمين الأمويين إلى المغرب نظم البربر أنفسهم تحت محدّدات مذهبية وسياسية تحميهم ممّا وصل إليه وضعهم الجديد بسبب سوء معاملة الولاة الأمويين لهم^(٥)، ومع قيام دعوة الفاطميين في إفريقية تدهورت العلاقات بين قبائل البربر؛ إذ

(١) مصطفى، حسين عبد الرحيم سليمان. (١٩٩٣م). دور عبد المؤمن بن علي الكومي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين في المغرب الإسلامي (٥١٠-٥٥٨هـ). دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. الأردن. ص ٣٤-٣٥.

(٢) الغامدي، سعيد فالح. (١٩٩٠م). البناء القبلي والتحضر في المملكة العربية السعودية. المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية: مصر. ص ١٠-١١.

(٣) الشعب: بكسر الشين، أكبر طبقة في المجتمع القديم بعد الجذم، وسمي لأن القبائل تشعبت منه، وقسم الفلقشندي طبقات القبيلة إلى ست طبقات زاد عليهم النووي أربع طبقات، وهي: الجذم، الجماهير، الشعب، القبيلة، العمائر، البطون، الأفخاذ، العشائر، الفصائل، الرهط. النووي، أحمد بن عبد الوهاب. (٢٠٠٤م). نهاية الأرب في فنون الأدب. تح: مفيد قميحة، وحسن نور الدين. ج ٢. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٣٠٢-٣٠٣؛ الفلقشندي، أبو العباس أحمد. (١٩٢٢م). صحيح الأعشى في صناعة الإنشا. ج ١. دار الكتب المصرية. القاهرة: مصر. ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) بويدي، حسين. (٢٠١٣م). دور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي والثقافي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي. ماجستير غير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب والعلوم الاجتماعية. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاجتماعية. قسنطينة: الجزائر. ص ٣.

(٥) ابن الأثير. (١٩٨٧م). الكامل في التاريخ. تح: أبي الفداء عبد الله القاضي. ج ٢. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ٤٨٥؛ ابن النية، رضا. (٢٠٠٦م). صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (٨٠-٣٦٢هـ).

بدأت كل قبيلة تسعى جاهدة لترسيخ سلطانها وبيان كيانها كقوة مستقلة عن الأخرى؛ ممّا قاد لوضع سياسي وقبلي منقسم قبل قيام دولة الموحدين في المغرب التي حاولت جمع القبائل تحت سلطانها من جديد، هذا ما يدعو للسؤال: ما الأخطار التي أحاطت بالعالم الإسلامي وقادته لمحاولة تكوين وحدة دينية وسياسية؟ وما الأخطاء السياسية التي تبنتها دول المغرب العربي الإسلامي؟ وهل كان للخلافة العباسية في بغداد دورٌ في ترسيخ مبادئ المهدي محمد بن تومرت؟

لا يمكن الإجابة عن ذلك إلا بدراسة معمقة للعالم العربي الإسلامي وأحواله في عصر الدولتين الفاطمية والعباسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين؛ لأنّ المغرب كان مقسماً إلى دول عدّة منها من أعلن الولاء للخلافة الفاطمية بعد انتقالها من مدينتي المهدية والمنصورية إلى مصر، ومنها من أعلن الدعوة للخلافة العباسية في بغداد؛ لذلك لابدّ من عرض الأحوال السياسيّة في الحقبة الزمنية المعنية لهذه الدراسة.

١ - أحوال المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبيلتي زناتة وصنهاجة:

كان التنظيم القبلي هو السائد على القبائل المغربية، ويتكون هذا التنظيم من وحدة اجتماعية بين القبيلة الواحدة التي ترتبط بالنسب الواحد^(١)، وقد تتشابه الأنساب مشكلة اتحاداً قبلياً يشمل بطوناً عدّة لا تربطها وحدة النسب، مثل قبيلة بني توجين^(٢) التي انطوت تحت الحكم الصنهاجي رغم عدم اشتراكهم في نسبٍ واحد^(٣)، وما يفسر توغل الفكر الإسلامي بين قبائل المغرب هو أنّ التنظيم القبلي عرفت فيه شبه الجزيرة العربية أيضاً؛ ممّا يعني أنّ المسلمين فهموا التركيب الاجتماعي لأهل المغرب، فأضحت القبيلة والدعوات الدينيّة والمذهبيّة هي المحرك الرئيس للأوضاع السياسيّة بينهم؛ ممّا أسهم في قيام دول على حساب قبائل البربر، مثل الدولة الرستمية ١٦٠-٢٩٧هـ/٧٧٦-٩٠٩م التي قامت على كاهل قبيلة لماية^(٤) بعد تبنيها الدعوة الخارجية الإباضية، ودولة الأدارسة ١٧٢-

=٩٧٣-٦٩٩م). ماجستير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب. جامعة منتوري. قسنطينة: الجزائر. ص ٦٧-٦٨؛ لقبال، موسى.

(١٩٨١م). **المغرب الإسلامي**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ص ١٥٥-١٥٦.

(١) ذكر الفيروز آبادي أن القبيل يكونون من نجر واحد وربما كانوا بني أب واحد. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (٢٠٠٥م). **القاموس المحيط**. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط ٨. ص ١٠٤٥.

(٢) بنو توجين: من قبائل زناتة، وهم أحد بطون بني بادين بن محمد من ولد زحيك بن واسين بن يصلتن بن مسرا بن زاكيا بن واردين بن ورسيك بن الديرت بن جانا. ابن حزم، علي بن أحمد. (١٩٦٢م). **جمهرة أنساب العرب**، تح: عبد السلام محمد هارون. ج ٢. دار المعارف. القاهرة: مصر. ط ٥. ص ٤٩٥-٤٩٨؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٧. ص ١١؛ عربية، بورملة. (٢٠٠٩م). **إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين (٧-٨هـ/ ١٣-١٤م)**. ماجستير منشورة. قسم الحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر. ص ١١.

(٣) بوتشيش، إبراهيم القادري. (١٩٩٧م). **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**. دار الطليعة.

بيروت: لبنان. ص ٢٣١؛ رضا. **صنهاجة**. ص ٢١.

(٤) لماية من أكبر قبائل ضريسة موطنها بالتخوم الجنوبية ممّا يلي الصحراء، لهم قرية سميت باسمهم بين زوارة وطرابلس. ابن=

٣٦٤هـ/٧٨٨-٩٧٤م على يد قبيلة أوروبا، والدولة الفاطمية ٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م بدعم من قبيلة كتامة^(١)، لكنّ السؤال: هل بقيت القبائل المغربية موحدة بعد هذه الدعوات المذهبية بين المسلمين؟ وما سبب تنقلها في أرجاء المغرب العربي الإسلامي؟

رغم اتساع النطاق الجغرافي لقبائل المغرب إلّا أنّ الصراع احتدّ فيما بينهم مع دخول الإسلام وتذوق هذه القبائل لطعم السلطة والسيادة في ظلّ دول أسست على كاهلها وبمساعدة الدعاة المسلمين الهاربين من المشرق العربي الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن ميلادي؛ فضلاً عما كانت عليه أحوالهم في تحصيلهم للعيش ونظام حياتهم، وهو كما ذكر ابن خلدون ما يؤدي إلى قيام دول على حساب دول أخرى، فقال: " اعلم أنّ اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنّما هو باختلاف نحلّتهم من المعاش فإنّ اجتماعهم إنّما هو للتعاون على تحصيله "^(٢)، فتحصيل للعيش مرتبطٌ بنقص المياه والفيضانات والجراد وانتشار الأمراض والإقامة في الصحراء؛ ممّا جعلهم أمةً وحشيةً شجاعةً، ونظام حياتها متعلّق بمبدأ الثأر.

لذلك استغلت الدول العربية الإسلامية هذه القبائل أحسن استغلال، فبدأ الأغلبية بنشر العداء بين قبيلتي صنهاجة وزناتة^(٣)، وتابعت هذه السياسة الدولة الفاطمية منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما قربت قبيلتي كتامة وصنهاجة منها، لتحدث بذلك انقلاباً في المجتمع السياسي للمغرب بإخمادها لقبيلة زناتة التي كانت قاعدة الحكم للإباضية بمدينة تاهرت، ورفعها لقبائل كانت خاملةً على الساحة السياسيّة، ورغم محاولة قبيلة زناتة إسقاط الحكم الفاطمي في المغرب بعد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنّي (صاحب الحمار) ٣٢٦-٣٣٩هـ/٩٣٧-٩٥٠م، إلّا أنّها لم تنجح سوى في إبعاد مقر الخلافة إلى مصر عام ٣٦١هـ/٩٧١م بعد أن عهدت الخلافة الفاطمية أمور المغرب لبني زيري الصنهاجيين كولاةٍ تابعين لها^(٤).

أمّا أهم ما يميز سياسة الفاطميين مع قبائل زناتة في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين هو تغيير المجال الديمغرافي لسكانها وقبائلها، بعد استعمال سياسة العنف والبطش ضدهم، فهربوا من الأوبئة والمجاعات طمعاً بحياة أفضل^(٥)، وكان ذلك بسبب حملات

=منصور، عبد الوهاب. (١٩٦٨م). قبائل المغرب. ج ١. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ص ٣٠٩.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٥٨، ١٩٥-١٩٦؛ ابن منصور. قبائل المغرب. ج ١. ص ٣٠٩.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٤٩.

(٣) رضا. صنهاجة. ص ٧٢-٧٣.

(٤) ابن حماد، محمد بن علي. (د.ت). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تح: تهامي نقرة، وعبد الحليم عويس. دار الصحوة للنشر. القاهرة: مصر. ص ٤٢؛ العروي، عبد الله. (٢٠٠٠م). مجمّل تاريخ المغرب. ج ٢. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء: المغرب. ص ٦٨.

(٥) ابن عذاري، أحمد بن محمد. (٢٠١٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح: بشار عواد معروف، ومحمد بشار=

الدولة الفاطمية وحلفائها من بني زيري على أراضي قبائل زناتة، فبعد مهاجمتهم لأراضي قبيلة مغراوة في حوض الشلف وجبال الونشريس سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ودفعهم إلى الصحراء^(١)، قاد القائم ولي العهد الفاطمي حملة عام ٣١٥هـ / ٩٢٧م أدت لدخول القائم مدينة تلمسان وطرد قبائل زناتة وإخراج بني كملان الزناتيين إلى القيروان، حتى أن القائم أنشأ مدينة المسيلة أو المحمدية في أراضي زناتة بعد نقله للقبائل الموالية له^(٢)، كما طرد الخلفاء الفاطميين القبائل التي ناصرت أبا يزيد صاحب الحمار ت. ٣٣٥-٣٣٦هـ / ٩٤٦-٩٤٧م من مناطقها في بلاد الجريد والتي تقطنها قبائل بني يفرن وبني واسين^(٣)، وطارد القائد الفاطمي جوهر الصقلي بني يفرن الزناتيين في جبال الأوراس وتلمسان سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م لمحالفتهم الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله -حكم كأمر من سنة ٣٠٠-٣١٦هـ / ٩١٢-٩٢٩م، وكخليفة من سنة ٣١٦-٣٥٠هـ / ٩٢٩-٩٦١م- فهدم مدينتهم أيفكان، وطردهم إلى المغرب الأقصى^(٤) الذي بات مأوى قبائل زناتة، وبعد قتل زناتة للأمير زيري بن مناد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م انتقل بنو برزال الزناتيين إلى الأندلس من جبال سالات، هذه الحادثة شددت أوصال الحرب بين بني زيري وزناتة بانتقام الأمير بلكين بن زيري ٣٦١-٣٧٣هـ / ٩٧١-٩٨٣م لمقتل أبيه^(٥)، فطرد قبائل زناتة من مدينة تاهرت إلى المغرب الأقصى سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م بعد أن عادت إليها سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م^(٦)، واستولى الأمير بلكين على مدن طنبنة وباغاي وبجاية ومسكرة، كما استهدف زناتة في مدن باغاية وتاهرت وتلمسان، ونقلهم إلى مدينة أشير المخصصة لكسر شوكة قبائل زناتة^(٧).

إلا أن هذه الأحداث والموقف المتشدد لبني زيري من قبائل زناتة لمعارضتهم لهم، لم يمنع من إقامة تحالفات بينهم خدمة لمصالحهم، عندما تعارضت مع الخلافة الفاطمية في مصر^(٨)، ولكن

=عواد. ط. ١. ج. ١. دار الغرب الإسلامي. تونس. ص ٢٥٧؛ عبد الرزاق، محمد إسماعيل. (١٩٨٥م). الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. دار الثقافة. المغرب. ص ٢٣٤.

(١) ابن عذاري. البيان. ج. ١. ص ٢٠٠-٢٠٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٤. ص ٥٠-٥١؛ ابن عميرة، محمد. (١٩٨٤م). دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص ١٨٠-١٨١.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٤. ص ٥١.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٧. ص ٢٣؛ مجاني، بوبه. (٢٠٠٥م). المذهب الإسماعيلي وفلسفته في بلاد المغرب. منشورات الزمن. الرباط: المغرب. ص ١٨.

(٤) وذكر المقرئ أن جوهر الصقلي سار إلى مدينة تاهرت في العام نفسه. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٤. ص ٥٩؛ المقرئ، أحمد بن علي. (١٩٩٦م). اتعاظ الحنفا. تح: جمال الدين الشيال. ج. ١. مطابع الأهرام. القاهرة: مصر. ص ٩٤؛ ابن عميرة. دور زناتة. ص ٢٣١.

(٥) مؤلف مجهول. (٢٠٠٥م). مفاخر البربر. تح: عبد القادر بوبايا. دار أبي رقرق للنشر والتوزيع. الرباط: المغرب. ص ٩٧.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٧. ص ٣٧-٣٨، ٧٢-٧٣.

(٧) مجهول. مفاخر البربر. ص ٩٧-٩٨؛ ابن عميرة. دور زناتة. ص ٢٤٥.

(٨) فقد حالف بنو زيري قبيلة بني وامانو وبني بلومي، وسمحوا لبني وامانو بالاستقرار شرق وادي منيا حتى أسفل الشلف وعلى=

بعد ظهور المرابطين تحالف بنو ومانوا معهم ضد بني حماد^(١)، ولم يكن هذا التحالف مستغرباً بين صنهاجة وزناتة فعند هجوم قبائل بني هلال العربية المدعومة من الخلافة الفاطمية على دولة الأمير المعز بن باديس الزيري ٤٠٦-٤٥٤هـ/١٠١٥-١٠٦٢م تحالف مع قبائل زناتة لردعهم، لكن كما يبدو دائماً العادات هي التي تكون السائدة بين القبائل حتى لو كلفهم ذلك خطر مهاجمتهم، فلم ينس الزناتيون ما فعله بهم بنو زيري عندما تخلوا عن الأمير المعز بن باديس^(٢)، فحظى الهالليون بقبائل زناتة وأجبروهم على الانتقال إلى القرى جنوب مدينة المسيلة، كما اشتركت قبائل الأنبج وعدي مع الأمير بلكين بن حماد ٤٤٧-٤٥٤هـ/١٠٥٥-١٠٦٢م لطرد زناتة والاستحواذ على ممتلكاتها في سهل الزاب وقلعة بني حماد^(٣).

وما ميز الصراع الذي نشب بين هذه القبائل، هو حرمان قبائل زناتة من الطريق التجاري المار بمدينة أشير والمسيلة، والواصل بين باغاي في الشرق والمغرب^(٤)، وبسبب الحروب الفاطمية والأموية انتقلت الطرق إلى غرب المغرب العربي الإسلامي؛ ليستفيد منها المرابطون في تأسيس دولتهم^(٥)، وهنا يمكن القول إن زناتة كانت تنتظر الفرصة المناسبة للردّ على صنهاجة كلما أُتيح لها ذلك، وحدث هذا عندما تقلد عبد المؤمن بن علي الخلافة الموحدية، ونقل قبيلته إلى مدينة مراكش لحمايته.

٢- أوضاع المغرب العربي الإسلامي في ظل سيادة قبائل صنهاجة الجنوب على قبائل

المصامدة:

قامت دولة المرابطين بناءً على الصراع القبلي في المغرب العربي الإسلامي، فأراضي قبائل زناتة بعد طردها من مواطنها، أصبحت تحيط بأراضي صنهاجة الجنوب، وتهدد أمنها خاصةً مع انتقال طرق التجارة للغرب؛ مما يعني أن زناتة ستحاول السيطرة على الطرق التجارية التي تصل بلاد

=الجهة الغربية لوادي منيا استقر بني بلومي لحمايتهم من زناتة المغرب الأقصى. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٧٤-٧٥.

(١) ذلك لأن الأمير بلكين بن محمد بن حماد ٤٤٧-٤٥٤هـ/١٠٥٥-١٠٦٢م استعان بزنانة المغرب الأوسط ليحارب بها زناتة المغرب الأقصى، ولموقف بني حماد من نجاحات الدولة المرابطية الناشئة. بورويبة، رشيد. (١٩٧٧م). الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص ١١٨-١١٩.

(٢) ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم. (١٩٦٦م). المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس. مطبعة الدولة التونسية. تونس. ص ٨٣.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٧٤-٧٥، ٨٤؛ إدريس، الهادي روجي. (١٩٩٢م). الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م. تر: حمادي الساحلي. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٤) ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٨٥.

(٥) سيطرت الدولة الفاطمية على مدن تاهرت وسجلماسة حرم زناتة وصنهاجة الصحراء من أكبر مواردهم وأهم ركائز نفوذهم وسطوتهم. العروي. (٢٠٠٠م). مجلد تاريخ المغرب. ج ٢. ص ٦٥-١١٠-١١١.

السودان بالبحر المتوسط؛ لتأمين معاشها وإعادة توحيد قواها؛ لذلك توحدت قبائل صنهاجة الجنوب تحت لواء دولة المرابطين كحرب استباقية على زناتة، وهذا ما يفسر تقرب المرابطين من قبائل مصمودة، ولكن بسياسة تعتمد الحدّ من سيادتهم داخل دولة المرابطين، ويبقى السؤال: لماذا نشر المرابطون الإسلام بين قبائل المصامدة وفق معتقدتهم؟ وما الهدف من امتلاك صنهاجة لأراضي الجنوب قبل الامتداد إلى الشمال؟

أمّا قبائل المصامدة فهم من البرنس الذين عرفوا بعدائهم مع البتر من قبائل زناتة، كما عرفوا بعدم طاعتهم للأمير^(١)، فرغم طاعتهم للإسلام ومساعدة قبيلة غمارة لطارق بن زياد في حروبه وعبره للأندلس^(٢)، إلا أنّهم لا يقبلون حاكماً عليهم من غير قبيلتهم؛ لذلك عرفت غمارة من ادّعى التتبؤ بعد إسلامه^(٣)، وشيّد المصامدة الحصون والممالك والدول منذ القدم، وكان المتقدم عليها دولة برغواطة، أمّا أخطر ما تعرضت إليه قبائل مصمودة كان بسبب الصراع الفاطمي الأموي على أراضيها ممّا أنهك قواها^(٤)، وطرد قبائل زناتة إلى المغرب الأقصى منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث تعرّضت مواقع القبائل المصمودية لحصار قبائل زناتة؛ وهذا ما منح زناتة زمام الإغارة على أراضي مصمودة، والسيطرة على الهضاب العالية، فحصرت مصمودة في السفح الغربي للأطلس من وادي السبو إلى وادي السوس^(٥)، ودام الصراع حتّى قيام دولة المرابطين وتحالفهم مع المصامدة لدرء خطر زناتة عدوهم المشترك^(٦)، عندما تمكّن الفقيه عبد الله بن ياسين ت. ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م من نشر الدين الإسلامي بينهم لجبرهم على الخضوع لطاعته؛ لأنّهم قبائل عرفت بالقتال فيما بينهم وبسيادة المعتقدات الوثنية^(٧)، وكان سبب توصل عبد الله بن ياسين إلى تكوين الوحدة الدينية بين صنهاجة ومصمودة أيضاً اختلاف نمط المعيشة بين قبائل مصمودة التي عرفت الاستقرار والفلاحة في الجبال

(١) ابن عذاري. (١٩٨٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح: إحسان عباس. ج ٤. دار الثقافة. بيروت: لبنان. ط ٣. ص ١٠.

(٢) العبادي، أحمد مختار. (د.ت). في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية. بيروت: لبنان. ص ٥٢-٥٣.

(٣) مجهول. مفاخر البربر. ص ١٧٤.

(٤) عرفت برغواطة بقتالها للأدارسة والأمويين في الأندلس والشيعية، حتّى أنّ الزيريين هاجموا أرضها، ووجّه المنصور بن أبي عامر بني يفرن في مدينة سلا إلى تامسنا مكان تواجد برغواطة سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، وكان السبب في ضعف برغواطة اتهامها من قبل مصامدة جبل درن بالكفر والزندقة لمخالفتها معتقدتهم الديني. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٧٦-٢٨١، ٢٩٩.

(٥) Mercier, Ernest. (1888). Histoire de L'Afrique Septentrionale (Berberie) Depuis Les Temps Les Plus Reculés jusqu'à La Conquête Francaise (1830). Tome 1. Ernest Leroux Editeur. Paris. p:188.

(٦) حسن، علي حسن. (١٩٨٠م). الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. مكتبة الخانجي. مصر. ط ١. ص ٣٠٠.

(٧) المراكشي، عبد الواحد بن علي. (٢٠٠٦م). المعجب في تلخيص أخبار المغرب. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٤٣؛ مجهول. (١٩٧٩م). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تح: سهيل زكار، وعبد القادر زمامة. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب. ط ١. ص ٢١؛ بوتشيش. مباحث. ص ٢٩.

وقبائل صنهاجة الجنوب الذين يميلون للابتعاد عن الناس، ويفرون من الغلبة؛ معتمدين في عيشتهم على الرعي وأكل الألبان^(١)، وأهم ما يحسب للفقير عبد الله بن ياسين والأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني ت. ٤٨٠هـ/١٠٨٧م هو استئصال فتيل العداء القبلي في جنوب المغرب العربي الإسلامي^(٢)؛ ليسمح لهم ذلك الامتداد نحو الشمال لوقف تحركات قبائل بني هلال وتهديدهم لأراضيهم وينفذوا أبناء عموماتهم من بني زيري وحماد، وما يؤكد ذلك أنّ المرابطين لم يتجاوزوا الجزائر رغم قدرتهم القضاء على الدولة الزيرية بإفريقية والدولة الحمادية بالمغرب الأوسط بعكس الموحدين الذين لم يتوانوا عن القضاء على الإمارات الصنهاجية عندما أتيحت لهم الفرصة، وما يعزز هذا الرأي موقف الأمير عبد الله بن بلكين التلكاني ٤٦٥-٤٨٣هـ/١٠٧٢-١٠٩٠م آخر ملوك غرناطة من تقدم الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على أنّه نصر لأقاربه الزيريين من صنهاجة الشمال^(٣)، حتّى أنّ الأمير يوسف بن تاشفين لم يلحق الأذى بالأمير عبد الله عند نقله إلى المغرب الأقصى، وعندما ألقى المرابطون القبض على امرأة في مدينة تلمسان، وعلموا أنّها من بني زيري فكوا أسرها^(٤)؛ لذلك كافأت صنهاجة الملتزمين مصامدة جبل درن على تعاونهم بأن أقرّتهم على أراضيهم، ولم يغيروا أماكن استقرارهم وتأثّر حياتهم الاجتماعية، لكنّ ذلك لم يدم طويلاً لطبيعة قبائل المصامدة التي لا تقبل التبعية والاضطهاد ولا تقبل بحكومة مركزية تراقب تحركاتها وتفرض عليها الضرائب؛ لذلك عاشوا في المرحلة الأولى هادئين بسبب الأخطار المحيطة بهم، وما إن اطمأنت نفوسهم حتّى أظهروا ما تضرر به صدورهم ضد حكومة المرابطين خاصة بعد سيطرة المرابطين على الطرق التجارية التي تربط شمال المغرب مع السودان الغربي جنوب الصحراء وفرضهم للضرائب الزائدة عليهم^(٥)، فعادت الحروب والفتن بين القبيلتين، واستمرت حتّى توحد أهل جبل درن في عهد المهدي محمد بن تومرت تحت قيادته، لينقلهم إلى الصراع الخارجي بعد اتباع سياسة سفك دماء من يخالفه منهم^(٦)، وعهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي قضى على تمرد برغواطة وجمع قبائل المغرب تحت سلطانه^(٧).

(١) محمود، حسن أحمد. (١٩٥٦م). قيام دولة المرابطين. دار الفكر العربي. القاهرة: مصر. ص ٣٤؛ حسن. الحضارة. ص ٣٠١.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٧٩.

(٣) ابن حبوس، عبد الله بن بلكين. (٢٠٠٦م). التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة. مكتبة الثقافة الدينية.

القاهرة: مصر. ط ١. ص ١٣٢، ١٥٨.

(٤) رضا. صنهاجة. ص ١٢٦-١٢٨؛

Gautier, E.F. (1952). Le Passe de L'Afrique du Nord. Les Siecles Obscurs. Payot. Paris. p:377.

(٥) بونتشيش. مباحث. ص ٢٨-٣٠.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٩٩؛ مارسيه، جورج. (١٩٩١م). بلاد المغرب وعلاقته بالشرق الإسلامي في

العصور الوسطى. تر: محمود عبد الصمد هيك. مطبعة الانتصار. الإسكندرية: مصر. ص ٢٩٤.

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١١؛ السلاوي، أحمد بن خالد. (١٩٩٧م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،

تح: جعفر الناصر، ومحمد الناصر. ج ٢. دار الكتاب. الدار البيضاء: المغرب. ص ١٠٢؛ شواكري، منير. (٢٠١٤م). أسس قيام

يُلاحظ من ذلك أنَّ قبائل صنهاجة وزناتة أكثر تقارباً وألفةً بين بطونها من قبائل مصمودة، فزناتة وصنهاجة وإن اختلف نمط المعيشة بين قبائلها إلا أنَّهم استماتوا في الدفاع عن أنفسهم وعن كياناتهم، بعكس مصمودة التي لم تجمع قبائلها إلا بعد سفك دماؤها على يد المهدي محمد بن تومرت.

٣- الأحوال السياسية لدول شمال المغرب العربي الإسلامي في القرن الخامس الهجري/

الحادي عشر الميلادي:

تعود أهمية الأحوال السياسية في شمال المغرب العربي الإسلامي إلى الصراع بين الدولة الزييرية والدولة الحمادية وعدائهم المشترك مع الخلافة الفاطمية بعد أن نقلها الخليفة المعز لدين الله إلى مدينة القاهرة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م^(١)، فقسم المغرب العربي الإسلامي إلى قوى متصارعة عدة؛ هذا الصراع أسهم في استغلال الممالك المسيحية للظروف وسيطرتها على أجزاء من المغرب العربي الإسلامي؛ ليضعف ذلك العالم العربي الإسلامي في جميع أرجائه على امتداد سواحل البحر المتوسط وليبقى تحت سلطتهم حتى قيام دولة الموحدين، فكان هذا التقسيم أحد أهم أسباب قيام هذه الدولة في المغرب العربي الإسلامي، لذلك لا بدّ من معرفة سبب تقسيم الفاطميين للمغرب العربي الإسلامي، وكيف نظر الخلفاء الموحدون إلى أحواله؟ وهل كان واجباً عليهم توحيدده؟

استعمل الفاطميون سياسة الترهيب والترغيب ضد قبائل المغرب، فباركوا القبائل الموالية لهم، ولم يتوانوا عن البطش بالزعماء إذا خالفوهم أو عصّوا أوامرهم؛ لذلك عملوا على عدم اصطدام مصالحهم مع مصالح القبائل الموالية لهم، فأبعدوا قبيلة كتامة بعد ثورتها عليهم إلى مصر، واستخدموها في فتوحاتهم بالشام^(٢)، وعهدوا إلى الزييريين ولاية المغرب^(٣)، وجعلوا صقلية وراثية لدى بني أبي الحسن الكلبي، وطرابلس (الغرب) أعطوها ولاية لعبد الله بن يخلف الكتامي^(٤)، وأوصوا الأمير بلكين بن زيري الذي سماه الخليفة الفاطمي باسم يوسف في قرية سردانية^(٥) القريبة من مدينة

=الدولة وفق نظرية ابن خلدون (الدولة الموحدية نموذجاً من سنة ٥١٠هـ/١١١٦م إلى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م). (٢٠١٤م). ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر. ص ٩٣-٩٤، ١٣٧-١٣٨.

(١) المقرئزي. **المواعظ**. ج ١. ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف. (١٩٩٢م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. ج ٤. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٧٠؛ ذكر ابن الأثير والنويري ذهابه إلى مصر في عام ٣٦١هـ/٩٧١م. ابن الأثير. **الكامل**. (١٩٨٧م). ج ٧. ص ٣٣٠؛ النويري، أحمد بن عبد الوهاب. (د.ت). **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: عبد المجيد ترجيني، ج ٢٤. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ٩٣.

(٢) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٤. ص ٦١.

(٣) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٧. ص ٣٣٠؛ ابن سعيد المغربي، علي بن موسى. (١٩٧٠م). **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة جزء من كتاب المغرب في حلى المغرب**. تح: حسين نصار. مطبعة دار الكتب. القاهرة: مصر. ص ٤٥.

(٤) النويري. **نهاية الأرب**. ج ٢٤. ص ٩٣؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٠٦.

(٥) سردانية: تعرف اليوم باسم سردينية جزيرة في البحر المتوسط من جهة المغرب. ابن الأثير. **الكامل**. ج ٧. ص ٣٣٠.

القيروان ألا يرفع السيف عن البربر، ولا يولّي أحداً من بني عمومته كي لا يطمعوا بالحكم، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، وأن يفعل الخير مع أهل الحاضرة^(١)، هذه السياسة تدلّ على بعد نظر الخلافة الفاطمية لقبائل المغرب في بداية حكمها لمصر، لكنّها أغفلت خطر المسيحيين وأن البربر لا يخضعون لحكمٍ مهما كانت ظروفهم، بدأ الصدام عندما استغل الأمير بلكين بن زيري جهل الخليفة الفاطمي العزيز بالله ٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م وتغافله، فضمّ مدينة طرابلس وسرت وأجدابية إلى ملكه^(٢) بعد أن كانت شوكة في ظهر بني زيري تحدّ من قوتهم، لكنّ الفاطميين صحووا للأمر في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ٣٨٦-٤١٢هـ/٩٩٦-١٠٢١م عندما سلّم مدينة طرابلس (الغرب) لقبيلة زناتة^(٣) التي بدورها قدّمت مدينة برقة للبيت الأموي بفضل هشام ولد المغيرة بن عبد الرحمن الملقب بأبي ركوّة سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م، فأعلن الخلافة واتخذ الألقاب^(٤)، وما يهم من هذه الحادثة هو أنّها ربما كانت بداية انقلاب قبائل صنهاجة على الخلافة الفاطمية؛ إذ اكتفوا بالحياد، ولم يعاونوا الخلافة الفاطمية، ورغم أنّها حاولت إرضاء الصنهاجيين بضمّ ولاية برقة إليهم^(٥)، إلا أنّهم صمّموا على الانفصال بعد أن علموا أنّه لن يتحقق لهم ذلك إلا بتبني مذهب إسلامي مخالف لمعتقداتها، فكان ذلك في عهد الأمير المعزّ بن باديس بعد أن قوي المذهب المالكي في مدينة القيروان على حساب المذهب الشيعي^(٦)، وربما كان السبب أيضاً مضايقة الخلافة الفاطمية للحُجاج المغاربة المازّين من مصر؛ لأنّ الأمير المعزّ بن باديس قال عندما استشار الفقهاء السنة في أمور الخلافة الفاطمية: " ما أبقيت السكة والنقود إلا مداراة لأجل حُجاج بيت الله الحرام والمسافرين "^(٧)، والصليبيون ادعوا مضايقة الحُجاج المسيحيين الغربيين في بيت المقدس في تلك الفترة أيضاً؛ فضلاً عن تبني أبناء عمومة الأمير المعزّ بن باديس في الدولة الحمادية للمذهب السني بعد انفصالهم عن الدولة الزييرية وبنائهم مدينة القلعة كعاصمة لهم سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، ودعائهم للخلافة العباسية عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ١. ص ٢٨٦؛ ابن الخطيب، لسان الدين. (١٩٦٤م). تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط

المعروف بأعمال الأعلام. تح: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني. ج ٣. دار الكتاب. الدار البيضاء: المغرب. ص ٦٥.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٧. ص ٣٦١؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ٩٥؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ٧٥.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٩، ٢٥؛ ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٢٧٣.

(٤) ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٢٨٠-٢٨١؛ الداعي المطلق، إدريس عماد الدين. (١٩٨٤م). عيون الأخبار وفنون الآثار في

فضائل الأئمة الأطهار. تح: مصطفى غالب. دار الأندلس للطباعة والنشر. د.م. ط ٢. ص ٢٥٩-٢٧١.

(٥) ذكر ابن عذاري وابن أبي دينار أنها كانت عام ٤٠٣هـ/١٠١٢م في حين ذكر النويري أن الهدايا كانت عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م.

ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٢٨٣؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٠٦؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ٧٩.

(٦) ظهر ذلك من الحرب الأهلية بين المسلمين في مدينة القيروان سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م. ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ١١٤؛

التيجاني، عبد الله بن محمد. (١٩٨١م). رحلة التيجاني. الدار العربية للكتاب. تونس. ص ١٩.

(٧) الدباغ، عبد الرحمن بن محمد و التتوخي، أبو الفضل بن ناجي. (١٩٧٨م). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تح: محمد

ماصور. المكتبة العتيقة. تونس. ص ١٦٧.

واستيلائهم على مدن المسيلة والزاب وطبنة^(١)، لعلّ هذا ما جعل الأمير المعز بن باديس ينحاز إلى المذهب السني؛ مستغلين صغر سنه، ظهر ذلك من مقاطعة المسلمين السنة لخطبة الجمعة بسبب الدعاء للخليفة الفاطمي^(٢)، لذلك يمكن القول إنّ الأمير المعز بن باديس وجد نفسه أولاً: محاطاً بالمذهب السني، وأن عليه أن يستجيب للمعالم الجغرافية والسياسية المحيطة بدولته؛ ثانياً: تحقيق مصالح رعيته التي غلب عليهم هذا المذهب؛ وفقاً لذلك قطع الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر، وخطب للخليفة العباسي في بغداد مع اختلاف المصادر في تحديد سنة الدعاء للخلافة العباسية بين سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م وسنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م^(٣)، وما ذكر عن الخلافة الفاطمية وسياستها ضد المناقضين لحكمها بضربهم وطردهم لم تكن قبائل زناتة فقط المعنية بهذه السياسة؛ إنّما كذلك الصناهجة بعد توجيه قبائل بني هلال وسليم العربية إليهم من صعيد مصر بإشارة من الوزير اليازوري سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، هذا التاريخ يؤيد الرأي القائل إنّ قطع الخطبة كان قبل عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م، وما يهمّ هنا هو أنّ هذه القبائل فرقت المغرب العربي الإسلامي، وقسمته أكثر ما جمعت بين قبائله البربرية؛ خاصة أنّهم عرفوا بقوتهم؛ هذا ما ذكره الوزير اليازوري للمعز بن باديس عنهم عندما قال: "قد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وجعلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"^(٤)، فدخلت هذه القبائل مدينة برقة، وقسمت الشرق لبني هلال، ثم توجهت إلى مدينة القيروان معقل بني زيري والمالكية، وبذلك أرغمت المعز بن باديس على الاستقرار في مدينة المهدية سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م^(٥)، وما يميّز هذه القبائل أنّهم كانوا يلبّون نداء أي دولة بحاجتهم تنفيذاً لمصالحهم رغم أنّهم لم يتخلوا عن الدولة الفاطمية؛ لأنّها مصدر قوتهم، ظهر ذلك عندما استغلوا العداء بين أبناء العمومة بني زيري والحماديين ليدخلوا في جيش الدولة الحمادية، ويحققوا طموحهم في التوغّل بأرض المغرب وطردهم الزناتيين إلى ما وراء جبل راشد^(٦)، ربما كان ذلك ليمنعوا الاستعانة بالزناتيين بعد دخول الحماديين إلى مدينة القيروان وسيطرتهم على الزاب وقلعة حماد^(٧)؛ مما أساء ذلك للزيريين الذين استعانوا سابقاً

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٠٩-٢١٠، ٢٢٨.

(٢) ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٢٩٨، ٣٠٣.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٧. ص ٢٦٥؛ ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٢٩٩، ٣٠٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢١١؛ لكن أغلب الدراسات تتفق على أنّ ٤٤٣هـ/١٠٥١م، هو سنة قطع الخطبة للخلافة الفاطمية، وهو العام نفسه الذي أعلنت فيه برقة الدعاء للخلافة العباسية أيضاً. ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ٣١٤؛ المقرئ. اتعاظ الحنفا. ج ٢. ص ٢١٤؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ٥. ص ٥٢؛ أحمد، حسن خضيري. (١٩٩٦م). علاقات الفاطميين بمصر بدول المغرب (٣٦٢-٥٦٧هـ/٩٧٣-١١٧١م). مكتبة مديولي. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٦٣-٦٤.

(٤) ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٢٩٦؛ المقرئ. اتعاظ الحنفا. ج ٢. ص ٢١٦.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٠-٢٢؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ٨٣-٨٤.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٧.

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢١٧؛ الهادي. الدولة الصنهاجية. ج ١. ص ٢٨٩، ٢٩١.

في عهد باديس بن المنصور ٣٨٥-٤٠٦هـ/٩٩٥-١٠١٥م ببني توجين الزناتيين الناقمين على بني حماد^(١)، ولأنهم أعداء الخلافة الفاطمية أيضاً منذ نشأتهم في المغرب العربي الإسلامي، بذلك كانت هذه القبائل العربية تتمتع بالذكاء والدهاء إلى جانب القوة فهم رجال حرب قسموا أنفسهم لاستغلال البربر^(٢)، وبدؤوا بالتوسّع في المغرب؛ إمّا بسياسة التودّد أو بسيوفهم، فحين حدث قتال بين قبيلتي الأثبج ورياح سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م استعان الأثبج بالأمير الناصر بن علناس وبعد هزيمته في أراضي سببية اجتاحت قبائل هلال المغرب، وسيطرت على مناطق القالة وكناية وقسنطينة وجبال بايور ثمّ زحفوا إلى القلعة وطبنة والمسيلة^(٣) دون أن تتدخل قبيلة كتامة لنجدة الصناهجة رغم توسع القبائل الهلالية طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، كما حالفت القبائل العربية قبائل زناتة بعد المعركة، فبنو توجين حالفوا بني عدي من العرب وحالفت مغراوة وأغمرت^(٤) قبيلة الأثبج، لكن الأمير الناصر ابن علناس وابنه المنصور قضى على هذا التحالف^(٥).

لتؤدي هذه الأحداث السياسية إلى تقسيم المغرب العربي الإسلامي إلى فئات عدة متصارعة ومتناحرة مع استقرار زغبة في مدينة طرابلس (الغرب) وانحسار الأمير المعزّ الزيري في مدينة المهدية؛ ليتخذها عاصمةً لدولته، واستقرار حمو بن مليل البرغواطي في صفاقص سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، كما أنّ سوسة امتازت بأنها إمارة تحت الحكم الشوري، وقابس كان أمراؤها بنو هلال تحت حكم بني جامع؛ وبنو خراسان حكموا تونس؛ واستقرّ بنو الورد في بنزرت، بينما استقرت الدولة الحمادية في بجاية وزناتة من بني ومانوا وبني بلومي وعبد الواد استقروا في شرق المغرب الأوسط، كذلك أدى تقسيم المغرب إلى تعرّضه لخطر النورمان الذين استولوا على صقلية سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م بعد أن أغاروا على مدينة الزويلة سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م وأساطيل جنوة وبيزة على المهدية^(٦).

بذلك تعرّضت سواحل إفريقية والأندلس لخطر الصليبيين وتحرّشات الخلافة الفاطمية بالدول التي دعت للخلافة العباسية قبل هجمات القبائل العربية، فما كان من الخلافة العباسية إلا توحيد

(١) بورملة. بني توجين. ص ١٨.

(٢) فمنهم من حالف الأمير الناصر بن علناس الحمادي ٤٥٤-٤٦١هـ/ ١٠٦٢-١٠٨٨م كقبائل عدي والأثبج، ومنهم من حالف الأمير تميم ابن المعزّ الزيري ت. ٥٠٢هـ/ ١٠٨٠م كقبائل رياح وزغبة وسليم. النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٢٢.

(٣) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٢٣-١٢٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٣٠-٢٣١؛ الملي، مبارك. (د.ت). تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج ٢. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص ١٨٠.

(٤) ذكرت باسم عمر، وفي النسخة الباريسية ذكرت عمرت، وفي النسخة التونسية غمرت، وأغمرت قبيلة من قبائل زناتة أخوة وجديج من ولد ورتنيص بن جانا، سكنت في مناطق متفرقة في الجبال من المشتل إلى اللوسن. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٣١؛ ج ٧. ص ٦٨.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦، ص ٢٣١؛ بورملة. بني توجين. ص ٢١-٢٢.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦، ص ٢١٧-٢٢٧؛ حسن. علاقات الفاطميين. ص ٧٠-٧١.

صفوفها لمحاربة المعتدين، وكان ذلك ربما على يد الداعية عبد الله بن ياسين والأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، ومن خلفه من الأمراء المرابطين، لكن عدم امتداد المرابطين إلى ما وراء جزائر بني غانية، ومحاولتهم توحيد قبائل صنهاجة تحت رايتهم، وإعادة الخطبة للخلافة العباسية بينهم والتصدي للعرب الهلالية، أساء للخلافة العباسية التي كانت تتطلع لمخرج يُخلصها من حصار المذهب الشيعي الإسماعيلي في المشرق على يد الإمام حسن الصَّبَّاح في بلاد فارس والخلافة الفاطمية في مصر، ثم الغزو الصليبي لشمال العراق وسواحل بلاد الشام؛ لذلك ربما توجَّه المهدي محمد بن تومرت إلى المشرق ثم عاد إلى المغرب؛ ليعن الثورة على دولة المرابطين.

٤ - دولة المرابطين في المغرب العربي والأندلس:

كان العالم العربي الإسلامي يعاني من التقسيم والحروب المذهبية والسياسية بين الخلافتين العباسية والفاطمية اللتين سعتا إلى التوسع خاصةً بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٦٤م^(١)، فلم يكن سبيل لذلك إلا عبر من يواليهم من أهل المغرب، فقد فرض الفاطميون عليهم القبائل العربية في وسط المغرب وشرقه، أما الخلافة العباسية، فكانت تعوّل في كل نشاطها في المغرب العربي الإسلامي على المرابطين بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين بعد نجاحه في تأسيس دولته في المغرب وامتدادها إلى الأندلس، لتلم دولته شمل ملوك الطوائف الذين كونوا إحدى وعشرين دولة، وتحرم الممالك المسيحية من الاستيلاء عليهم بعد أن سعى ملوكها لكسب ودّ ملك قشتالة ألفونسو السادس ت. ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م^(٢)، وإلى الاستعانة بالقوى المسيحية في حال نشوب صراع بين بعضهم^(٣)، وهو ما كان عليه حال بني زيري وحماد عندما استجدوا بقبائل زناتة والعرب.

كان ذلك عندما حاولت قبائل المغرب توحيد نفسها بدعم من علماء مدينة القيروان المواليين للمذهب السني المالكي والخلافة العباسية في بغداد مثل أبي عمران الفاسي^(٤) ووجاج بن زلو

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٤. ص ١٩٦.

(٢) ابن الكردبوس، عبد الملك التوزري. (١٩٧١م). تاريخ الأندلس. تح: أحمد مختار العبادي. معهد الدراسات الإسلامية. مدريد: إسبانيا. ص ٧٧؛ السلمي، إبراهيم بن عطية. (٢٠٠٨م). العدو الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف إلى سقوطها بيد الإسبان (٤٢٢-٨٦٧هـ / ١٠٣٠-١٤٦٢م). دكتوراه منشورة. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة أم القرى. السعودية. ص ٧٤-٧٥؛ استدعي ألفونسو السادس من منفاه في مدينة طليطلة عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م؛ ليصبح ملكاً على الممالك المسيحية شمال إسبانيا بعد أن أعاد وحدتها. بن خيرة، أحمد. (٢٠١٠م). دور المغاربة والأندلسيين في الحروب الصليبية ما بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ٨٠.

(٣) حدث صراع بين العناصر السكانية في الأندلس من عرب وبربر وصقالبة؛ ليستقر الصراع بين طائفتين بربرية وأندلسية استعانت كل منهما بالممالك المسيحية في الشمال. أبو الفضل، محمد أحمد. (١٩٨١م). تاريخ مدينة الربيع الأندلسية في العصر الإسلامي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية: مصر. ص ١٣٨، ١٤٠.

(٤) أبو عمران الفاسي: هو موسى بن عيسى بن أبي الحاج الغفجومي أحد أعلام المدرسة المالكية بالمغرب، اختلف المؤرخون=

اللمطي^(١) اللذين وجَّها يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى عبد الله بن ياسين الجزولي^(٢)، فنجح عبد الله في توحيد قبائل جنوب المغرب الأقصى والصحراء من مصامدة وصنهاجة، ومن إخضاع بلاد السوس وأغمات ودرعه وسجلماسة وغيرها^(٣)، وعندما خلفه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني أخضعت برغواطة^(٤) وأقيمت الخطبة للخلافة العباسية^(٥)، ومع استلام الأمير يوسف بن تاشفين خلفاً لابن عمه الأمير أبي بكر توسَّعت سيطرة المرابطين على المغرب بسيطرته على تلمسان معقل زناتة وبنائه الحصون لمراقبتهم^(٦)، وسيادة كلمة الإسلام وتعاليم عبد الله بن ياسين بين القبائل التي كانت تدين بالاسم للإسلام، ولكن ذلك لم يمنع وجود معارضين لحكم الأمير يوسف من أبناء قبيلته، حيث تمرد عليه أهل الجنوب، ففضى عليهم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م، وأحمد ثورة إبراهيم بن أبي بكر عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م^(٧)، ودسَّ له سيد قبيلة كزولة محمد بن إبراهيم السَّم لكتَّه نجا منه^(٨)، لذلك ربما لجأ الأمير يوسف بن تاشفين إلى إدخال العبيد والروم والأغزاز في جيشه، وأحاط نفسه بسياج شرعي بعد دعائه للخليفة العباسي وإعلان نفسه أميراً للمسلمين بعكس الخلفاء الموحدين، وذلك ربما لاختلاف الخطر الذي هدَّد الدولتين، فالمرابطون كان يهدد دولتهم الخلافة الفاطمية وسياستها في استخدام القبائل العربية وطرده زناتة إلى أراضي مصمودة وصنهاجة، أمَّا الموحدون فإنَّ الخطر لم يكن قادماً

=حول نسبه إلى قبائل زناتة أم إلى قبائل صنهاجة؛ ولد بمدينة فاس سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، ثم رحل إلى مدينة القيروان والأندلس ثم المشرق الإسلامي سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م، ثم عاد للقيروان وتوفي فيها عام ٤٣٠هـ/١٠٣٨م. القاضي عياض، عياض بن موسى. (١٩٨٢م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تح: سعيد أحمد أعراب. ج٧. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ص٢٤٣؛ مجموعة من المؤلفين. (٢٠١٠م). أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي. بحث في الندوة التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء، نشر دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط: المغرب. ط١. ص١٩، ٢٥، ٢٨؛ حسن. علاقات الفاطميين. ص٧٠.

(١) واجاج بن زلو اللمطي: ذكر باسم وكاك بن وزلوان بن أبي جمعة ومنهم من يعيد نسبه إلى فاطمة الزهراء والإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، من بلاد السوس الأقصى كان المصامدة يتبركون بدعائه، توفي سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٤م، من ذلك يفهم أن حركة المرابطين لم تكن نابعة من فكر المغاربة، وكان مخططاً لها قبل بدء دعوتها؛ لأنَّ هدفها توحيد المصامدة وزناتة وصنهاجة عبر الفقهاء والشيوخ المسموعة كلمتهم لدى قبائل المغرب، وهذا ما لم يستطع تحقيقه المرابطون لاستبدادهم في الحكم، واستطاع تحقيقه الموحدون في المغرب. ابن الزيات، يوسف بن يحيى. (١٩٩٧م). التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي. تح: أحمد التوفيق. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ص٨٩-٩٠؛ الحضيكي، محمد بن أحمد. (٢٠٠٦م). طبقات الحضيكي. تح: أحمد بوموزكو. ج٢. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط١. ص٥٩٣-٥٩٤؛ السوسي، محمد المختار. (١٩٦٣م). المعسول. ج١١. مطبعة النجاح. الدار البيضاء: المغرب. ص٣٣-٣٩.

(٢) ابن عذاري. البيان. ج٤. ص٨.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج٦. ص٢٤٣-٢٤٤؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص١٠٣.

(٤) ابن أبي دينار. المؤنس. ص١٠٤.

(٥) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج٥. ص١٢٥.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج٦. ص٢٤٧؛ محمود. قيام دولة المرابطين. ص٢٢٨-٢٢٩.

(٧) ابن عذاري. البيان. ج٤. ص٢٢، ٢٩.

(٨) ابن الأثير. الكامل. ج٨. ص٤٦١-٤٦٢.

من الخلافة الفاطمية التي انتابها الضعف في عصرهم؛ وإنما من هجمات الصليبيين؛ لذلك لم يولوا الخلافة العباسية اهتماماً بقدر ما كان همهم توحيد العالم الإسلامي، فتبنوا الأفكار السنية والشيعية.

وقد ذكرت المصادر أنّ أشياخ قبائل المغاربة لم يرضهم عدم إعلان الأمير يوسف بن تاشفين نفسه كخليفة الله في المغرب، وطلبوا منه أن يدعو لنفسه بأمر المؤمنين، فأجابهم: "حاش الله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم"^(١)، هذا يؤكد أنّ همه كان الخلافة الفاطمية التي ردت على ذلك بالتضييق على الحُجّاج المغاربة، ورغم محاولة الوزير الأفضل تغيير هذه السياسة لكنّه لم ينجح^(٢)، حتّى أن الخلافة الفاطمية وجّهت القبائل العربية لإخضاع المرابطين لكنها لم تنجح أيضاً^(٣)، أمّا في عصر الخلافة الموحدية كان الموحدون كما ذكرت المصادر يجهزون أنفسهم لدخول مصر وهذا يدلّ على أنّهم كانوا في مأمن من الخلافة الفاطمية^(٤).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هدف الأمير يوسف بن تاشفين من إنقاذ الأندلس؟ وهل كان خلفه الأمير علي بن يوسف على قدر المسؤولية في الحفاظ على ملك المرابطين وتحقيق أهدافهم؟ وما الأحداث السياسيّة والعسكريّة التي استغلها المهدي محمد بن تومرت لنجاح دعوته؟

بعد أن نجح الأمير يوسف بن تاشفين في توحيد المغرب الأقصى تحت سلطانه وفرض الأمن على قبائله، توجّه إلى الأندلس بدعوة من ملوك الطوائف الذين طلبوا النجدة بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الممالك المسيحية سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(٥)، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد في قصد الأمير يوسف للأندلس، فالمسيحيون لم يستولوا على مدينة طليطلة فقط؛ إنّما غزّوا شمال المغرب العربي الإسلامي الذي يعاني من اضطراب أوضاعه بسبب القبائل العربية، واستغلت الخلافة الفاطمية تقدمه لمدّ نفوذها على حساب دولته الحديثة، فأشكل عليه التقدم في أراضي المغرب العربي الإسلامي؛ تاركاً أمره لبني عمومته، فعزم إلى الأندلس لسهولة حالها والجهاد في سبيل الإسلام، إذا

(١) ابن عذاري. **البيان**. ج ٤. ص ٢٧-٢٨؛ مجهول. **الحلل الموشية**. ص ٢٩.

(٢) ابن الأثير. (٢٠٠٣م). **الكامل**. ج ٩. ص ٩٧.

(٣) ذكر أن الدولة الحمادية كان ولاؤها للخلافة الفاطمية لا يعدو نقش اسم الخليفة على السكة حتى أعادوا ولاءهم للخلافة العباسية عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م. حسن. **علاقات الفاطميين**. ص ٨٣، ٨٧.

(٤) ابن جبير، محمد بن أحمد. (د.ت). **رحلة ابن جبير**. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٥٦-٥٧؛ المراكشي. **المعجب**. ص ٢٠٧.

(٥) الشنتريني، علي بن بسام. (١٩٧٨م). **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. تح: إحسان عباس. مج ١. ق ٢. دار الثقافة للنشر والتوزيع. بيروت: لبنان. ص ٢٤٩؛ ذكر ابن أبي زرع، وياقوت الحموي والقزويني تاريخ سقوطها بعام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م. ياقوت الحموي. **معجم البلدان**. ج ٤. ص ٤٠؛ القزويني، زكريا بن محمد. (د.ت). **آثار البلاد وأخبار العباد**. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٤٧٥؛ ابن أبي زرع، علي بن عبد الله. (١٩٧٢م). **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب. ص ١٤٤؛ سبق سقوط طليطلة سقوط مدن عدة في عصر الخلافة الأموية منهم شقوبية ونبلونة، وذلك بسبب النزاع بين القحطانيين والعنانيين وبين العرب والبربر. ابن خيرة. **دور المغاربة**. ص ٧٩-٨٠.

استطاع إيقاف المدّ المسيحي عنها، كما أنّ ذلك يحقق العلو بمكانة الخلافة العباسية؛ لذلك صمّم على نصرٍ حاسمٍ ضد الممالك المسيحية في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م^(١)، وبعد هزيمتهم في المعركة تحالف بني حمّاد مع العرب الهلالية لمهاجمة أراضي المرابطين في المغرب العربي الإسلامي، فعاد الأمير يوسف إلى المغرب؛ لتحصين المغرب الأوسط والأقصى خشيةً معاودة الهجوم على دولته^(٢)، خاصةً أنّ القبائل العربية تخدم مصالح الخلافة الفاطمية، وربما هذا السبب الذي أوقف الأمير يوسف عن التوغل في أراضي الممالك المسيحية، وميوله إلى التحصين والدفاع أكثر من الهجوم على أعدائه، فنشر قواته في الأندلس، وخصص القسم الأكبر منها لشرق الأندلس التي ترك فيها إمارة سرقسطة تحت حكم بني هود؛ ليكونوا حائلاً بين دولته والممالك المسيحية^(٣)؛ إذ عُرفَ بنو هود بسياستهم الفطنة بعد اتّباعهم سياسة النأي بالنفس في معركة الزلاقة^(٤)، ورغم أنّ الأمير يوسف لم يستطع إنقاذ مدينة طليطلة إلا أنّ المسيحيين لم يرضوا بهزيمتهم، فأثاروا الشعب الأوروبي الجاهل بادعائهم تضيق المسلمين على الحُجاج المسيحيين الغربيين المتجهين إلى بيت المقدس^(٥)، وعدّ إسبانيا مكان مقدس؛ لأنّ فيها كنيسة القديس يعقوب في مدينة كومبوستيلا، وسقوط مدينة أنطاكية بيد المسلمين بعد طردهم للبيزنطيين منها؛ لذلك أعلن البابا أوربان الثاني في مؤتمر كلي مونت الكنسي عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م العزم لإطلاق الحروب الصليبية^(٦).

لكن أهم ما يميز الصراع الإسلامي المسيحي في إسبانيا خلال العصر المرابطي هو عدم

(١) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٤٧؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ٥٨؛ الحميري، محمد عبد المنعم. (١٩٧٤م). الروض المطار في خبر الأقطار. تح: إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت: لبنان. ص ٢٨٨؛ ذكر ابن الكردبوس أنها كانت عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م. ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس. ص ٩٥.

(٢) الهرفي، سلامة محمد سلمان. (١٩٨٢م). الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين. ماجستير منشورة. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة أم القرى. مكة: السعودية. ص ١٨١؛ ذكر ابن الكردبوس أن عودة الأمير يوسف كانت بسبب وفاة ابنه الكبير عبد الله سير، ولكن ذكر ابن أبي زرع أنّ ابنه هو أبو بكر المتوفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وربما قصد ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، وهناك سبب آخر ذكره ابن حبوس عند حديثه عن تفرق كلمة أمراء الأندلس وفساد أحوالهم. ابن حبوس. التيان. ص ١٣٥؛ ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس. ص ٩٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٥٢.

(٣) مجهول. الحلل الموشية. ص ٨٠، ٨٣.

(٤) لم تكن مملكة سرقسطة من المشاركين في معركة الزلاقة. ابن الأبار، محمد بن عبد الله. (١٩٦٣م). الحلة السريعة. تح: حسين مؤنس. ط ١. ج ٢. دار المعارف. القاهرة: مصر. ص ١٠٠-١٠١؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٣. ص ٢٤٠-٢٤٢؛ الهرفي. الأحوال السياسية. ص ١٥٢.

(٥) بدأ التضيق على المسيحيين وهدم كنائسهم مع تدخل البيزنطيين في أمور بلاد الشام. العامري، علي فيصل عبد النبي. (٢٠٠٧م). السياسة الخارجية للدولة الفاطمية (٣٥٨-٤٢٧هـ/٩٦٨-١٠٣٥م). ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب. جامعة الكوفة. العراق. ص ١٣٤، ١٤١-١٤٧.

(٦) رانسيمان. تاريخ الحملات الصليبية. ص ٩٣، ١٥٩، ١٨٨؛ زيد، أسامة زكي. (١٩٨٠م). الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي). الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية. ص ١١٥.

استغلال كلا الطرفين للنزاعات السياسية والحروب الأهلية من أجل السيطرة على الأندلس بالكامل^(١)، كما أن الأمير علي لم يكن حازماً مع مَنْ ثار عليه في وقت كان فيه المهدي محمد بن تومرت يجول الأندلس، ومحتمل أن يكون محمد ابن تومرت وَمَنْ عارض الأمير علي قد نقلوا الأخبار إلى المشرق العربي الإسلامي لإثارة الدولة العباسية ضده بعد أن أحاطها الخطر الإسماعيلي من الشرق والجنوب الغربي والخطر الصليبي في شمال العراق وسواحل بلاد الشام، ظهر ذلك من قضية إحراق كتب الشيخ الإمام الغزالي هذا الفقيه الذي بارك حكم والد الأمير علي بن تاشفين وخلعه لملوك الطوائف^(٢)، حتى أنه ذكر أن الإمام الغزالي كان عازماً على زيارة المغرب، ووصل إلى مدينة الإسكندرية، لكن تراجع بسبب وفاة الأمير يوسف بن تاشفين^(٣)، مما يدلّ على أنّ الأمير علي بن يوسف كان يعلم بنوايا المهدي محمد بن تومرت؛ لأنّه كيف لفقيه بارك حكم المرابطين أن يتراجع عن رحلته بعد أن وصل إلى مصر مكان تواجد فقيه آخر بارك المرابطين وهو الشيخ الطرطوشي، وإن كان الأمير علي قد عارض أفكار الغزالي في دولته، فمن غير الممكن أن يمنعه من دخول المغرب خوفاً من موقف المسلمين، لذلك يمكن القول إمّا أنّ المهدي محمد بن تومرت ومخالفه حكم الأمير علي، وصلوا إلى الإمام الغزالي وأخبروه عن حكمه وإمّا أن ما ذكر عن رغبة الإمام الغزالي في زيارة المغرب ليس صحيحاً، وما يدلّ على ذلك أن أغلب مؤرخي العصر الموحي وصفوا الأمير عليّاً بضعيف الشخصية، وطعنوا بحكمه للمغرب، وإن صحّ ذلك فإنّه يفسر سبب مراسلة الأمير علي للخلافة العباسية ليأخذ مباركتها على حكمه؛ خاصة أن تبعية المرابطين للخلافة العباسية كانت تبعية اسمية لا علاقة لها باستقلال المرابطين المتمتعين بسلطانهم الفعلي، ومباركة الخلافة العباسية هي فقط لإعطاء الحكام احتراماً بين رعيّتهم، فمراسلات الأمير علي عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م وعام ٥١١-٥١٢هـ/١١١٧-١١١٨م^(٤) تدلّ على التبعية للخلافة العباسية ومواصلته الجهاد، وإطلاع الخلافة على

(١) التي اشتدت في عهد الأمير علي بن يوسف حين ظهرت الثورات المناهضة لولايتيه على المرابطين من قبل أهل بيته وتهوانه مع المعارضين بنفيهم إلى الأندلس مثل ثورة ابن الحاج عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م في قرطبة، وثورة ابن أخيه الأمير يحيى بن أبي بكر والي مدينة فاس سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م الذي نفاه الأمير علي إلى الجزيرة الخضراء، وثورة ابنه أبي بكر بن علي بن يوسف سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م في غرناطة، وبعد إلقاء القبض عليه أرسله والياً على سرقسطة. ابن الأبار، محمد بن عبد الله. (٢٠٠٠م). **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي**. مصر. مكتبة الثقافة الدينية. ص ١٣٣-١٣٤؛ ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٥٨-١٥٩؛ ابن الخطيب. **أعمال الأعلام**. ج ٣. ص ٢٥٣؛ ابن الخطيب. (٢٠٠٩م). **الإحاطة في أخبار غرناطة**. ج ١. دار الأمل للدراسات. الجزائر. ص ٨١٠-٨١١.

(٢) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٤٩.

(٣) ابن خلكان. (د.ت). **وفيات الأعيان**. ج ٧. ص ١٢٥؛ السلاوي. **الاستقصا**. ج ٢. ص ٥٧-٥٨؛ الإدريسي، علي الهادي. (١٩٨٧م). **الإمامة عند ابن تومرت دراسة مقارنة مع الإمامية الاثنى عشرية**. ماجستير منشورة. معهد الفلسفة. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ٧٤.

(٤) الموايني، محمد بن إبراهيم. (د.ت). **ريحان الألباب وربعان الشباب في مراتب الآداب**. د.رقم. مخطوط في مكتبة ليدن.=

أمر بلاد في ظلّ حكمه؛ لتتقطع الدعوة لبني العباس نهائياً بعد نجاح ثورة المهدي محمد بن تومرت ووفاة الأمير علي بن تاشفين^(١)، ربما كان ذلك لأنّ المرابطين ظنوا أنّ الخلافة العباسية باركت دعوة المهدي محمد بن تومرت بعد أن ذكر أنّه التقى الإمام الغزالي، وسيتناول الفصل الثاني من الدراسة حقيقة هذا اللقاء، وما يهّم هنا هو عدم توفر مصادر تؤكد ذلك إنّما يفهم ذلك ممّا ذكره المراكشي حين قال: " فظهرت في بلاده مناصر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد،... فصار كل واحد يصرح أنّه أحسن من علي،... واستولت النساء على الأحوال،... وأمير المسلمين في ذلك يتزايد غفلةً، ويقوى ضعفاً"^(٢)، وهنا يقصد المراكشي أن الأمير علي كان عاجزاً عن إدارة أمور بلاده؛ بالمقابل كان الأمير علي يرسل الخلافة العباسية ويخبرها أنّ دولته بخير، هذا فضلاً عن أنّه كان يرسل الوزير الأفضل وزير الخلافة الفاطمية ويخبره عن أحوال الدولة المرابطية وما حققه في جهاده ضد الممالك المسيحية، ويطلب منه حماية الحُجاج المغاربة^(٣) حتّى أن بعض المغاربة شارك الوزير الأفضل في حروبه ضد صليبي بلاد الشام^(٤)، ومثل هكذا تعامل لا يرضي الخلافة العباسية؛ لأنّ المرابطين يخطبون على منابرهم للخليفة العباسي على أنّه الخليفة الشرعي الوحيد بين المسلمين.

أمّا أهم ما ميّز حكم الأمير عليّ ومَن خَلَفَه من الأمراء المرابطين هو عدم تنفيذ وصايا الأمير يوسف قبل وفاته، فقد أوصى ابنه وولي عهده علي بن يوسف بعدم التعرض للمعاهدين ولأهل الجنوب ولأهل قرطبة لثوراتهم على الحكام، والمحافظة على استقلال إمارة سرقسطة لتكون حائلاً بينه وبين المسيحيين^(٥)، وكانت هذه الوصايا ناجمة عن معرفة الأمير يوسف لأحوال رعيته، لكنّ الأمير علي لم يعمل بها رغم أنّها لاقت ترحيباً منه؛ إذ إنّ جعل من أقاربه وأهل قبيلته الذين ثاروا عليه قادة في الأندلس ربما ليشغلهم في حرب خارجية، ونقل العاصمة من قرطبة إلى غرناطة مركز تجمع البربر والمعاهدين بذلك استفزهم، فعين أخاه تميماً بن يوسف والياً على العاصمة الجديدة في غرناطة، وولّى أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني على قرطبة، وولّى بلنسية وشرق الأندلس لمحمد بن

= هولندا. ورقة ٦٠ (ب) - ٦١ (أ)؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ٨٨-٨٩؛ مؤنس، حسين. (٢٠٠٠م). سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأبائهم في الأندلس. مكتبة الثقافة الدينية للتوزيع والنشر. مصر. ط ١. ص ١٧-١٨؛ الهرفي. الأحوال السياسية. ص ١٨٨-١٨٩.

(١) المراكشي. المعجب. ص ١٥٢.

(٢) رغم أن المراكشي نعت حكمه بهذه الصفات إلا أنّه وصف الأمير عليّاً بالعدل والمنصف الغيور على الإسلام وتعاليمه. المراكشي. المعجب. ص ١٣٠، ١٣٥.

(٣) الموعيني. ريحان الألباب. ورقة ٦١ (أ-ب).

(٤) ابن خيرة. دور المغاربة. ص ١٢١-١٢٢.

(٥) مجهول. الحلل الموشية. ص ٨٢-٨٣.

الحاج بذلك هدد أمن سرقسطة لقرية منها^(١)، ولم يكتف بذلك؛ وإنما استمر بأخطائه ليعطي أمراً بالجهاد ضد الممالك المسيحية سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م^(٢) وهو وقت مبكر؛ لأن نفوس المغاربة لم تستقم لحكمه بعد، وهذه الأمور والتدابير خطرة على العالم العربي الإسلامي الذي اجتمعت عليه قوى المسيحيين بعد توخدها، وزاد الأمر سوءاً خوضه لمعركة أقليم سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م^(٣) هذه المعركة التي دبّر فيها المسيحيون مقتل شانجه (سانشو) ولي عهد ألفونسو السادس ملك قشتالة، ليؤخّدا صفوفهم ويجمعوا شملهم بضم قشتالة إلى ألفونسو المحارب ملك أرغون، ورغم انتصار المرابطين في المعركة لم يستغلوا هزيمة المسيحيين للتوغل أكثر في أراضيهم؛ لهذا اتصف جهاد المرابطين في عهد الأمير علي بن يوسف بالغزو، لأنهم لم يثبتوا أقدامهم في المواقع التي تقدموا فيها، ولم يحرروا مدينة طليطلة، وما حدث في عهد الأمير علي أن الممالك المسيحية هي التي تقدّمت في الأراضي الشرقية للمسلمين في الأندلس، وهذا ناتج عن قلة خبرة القادة المرابطين بالأمور العسكرية، وإخفاق القوات المرابطية في الحفاظ على استقلال إمارة سرقسطة، حيث دخلوها في عهد أميرها عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة^(٤) سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م^(٥)؛ متجاهلين أن حكاهما يستعينون بالمسيحيين إذ شعروا بالخطر^(٦)، وطردوا عماد الدولة إلى روضة^(٧)، فأصبح تحت حماية ألفونسو الأول المعروف (بالمحارب)؛ لذلك دفع المرابطون ثمن عدم استغلالهم انشغال الممالك المسيحية في حربهم الأهلية بين ألفونسو المحارب وزوجته الدونيا أواركا ابنة الفونسو السادس^(٨)، وتجاهلهم لفكرة البابوية في الاستيلاء على سرقسطة لحماية الحجاج المتوجهين لزيارة كنيسة القديس يعقوب؛ ممّا جعل عدوهم ألفونسو المحارب يستغل لجوء عماد الدولة؛ ليحقق طموح البابوية في سرقسطة ولاقى مشروعه مباركة من البابوية في مؤتمر مدينة طولوشة (تولوز) سنة ٥١٢هـ/١١١٨م^(٩)، ويدخل سرقسطة بعد أن استتجد أهلها بالأمير تميم الذي لم يلبّ النداء؛ لأنّه يعلم أن ذلك سيكلفه ثمناً باهضاً بعد استعانة

(١) الهرفي. الأحوال السياسية. ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٤٩-٥٠.

(٣) ذكر ابن أبي زرع أنها كانت عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وسماها معركة أقليم. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٥٩.

(٤) ابن سعيد المغربي، علي بن موسى. (١٩٥٥م). المغرب في حلى المغرب. تح: شوقي ضيف. ج ٢. دار المعارف. القاهرة: مصر. ط ٤. ص ٤٣٨.

(٥) عند ابن أبي زرع كان ذلك في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٦٠.

(٦) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٥٣-٥٤.

(٧) روضة: حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس، وهو على وادي شلون. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٣. ص ٩٦-٩٧.

(٨) ابن الأبار. الحلة. ج ٢. ص ٢٤٩-٢٥٠؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٦٠-١٦٣؛ مؤنس، حسين. (١٩٩٢م). الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين. مكتبة الثقافة الدينية. مصر. ص ١٨-٢٧.

(٩) عنان، محمد عبد الله. (١٩٩٠م). دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين. ق ١. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ط ٢. ص ٩٠.

عماد الدولة بالمسيحيين، وكان سقوط سرقسطة وميل بني هود للممالك المسيحية سبباً في ضياع بلاد المسلمين في الأندلس؛ خاصةً بعد أن علّم المسلمون المسيحيين أسلوب الغزو ثم الاستيلاء على المواقع واحداً تلو الآخر، حيث أخذوا يضربون المدن الأندلسية ثم يعودون أدراجهم إلى غربي الأندلس، في حين ركّزوا على تثبيت مواقعهم في شرقها، فاستيلاؤهم على سرقسطة سبقه هجومهم على مدينة قرطبة سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م^(١)، كما أنّهم بنّوا الحصون لتنفيذ غزواتهم^(٢)، واستغلوا انشغال انشغال المرابطين بثورة المهدي محمد بن تومرت في المغرب، وما يحسب له الأمير علي أيضاً نقله العاصمة إلى غرناطة؛ ليؤدي ذلك إلى ثورة أهلها من المعاهدين على الحاكم المرابطي عام ٥١٢هـ/١١١٨م، ورافقتها ثورة أهل إشبيلية^(٣)، وثورة قرطبة التي أحرق فيها بيوت المرابطين عام ٥١٣-٥١٤هـ/١١١٩-١١٢٠م^(٤)، فكانت هذه الثورات نتيجة سخط الأندلسيين من البربر والمرابطين وكرههم لهم، فهم ينظرون إليهم على أنّهم بداءة منذ العصور الأولى للإسلام، وزادت النظرة في عصر المرابطين لخشونتهم^(٥)، لذلك كان تجاهل المرابطين لهذه الثورات وللوضع الاجتماعي المتدهور في الأندلس دوراً في حضّ المعاهدين على التآمر مع ألفونسو المحارب لدخوله مدينة غرناطة، ورغم أنّ ألفونسو أخفق في دخول مدينة غرناطة إلّا أنّ هذا الوضع أظهر عدم مقدرة الأمير تميم بن يوسف بن علي في إدارة شؤون الأندلس، وعدم تعرض الأمير علي بن يوسف لمثل هذه الأمور دفع الفقيه ابن رشد ت. ٥٢٠هـ/١٢٦م ليزوره في مدينة مراكش، ويخبره بعزل أخيه الأمير تميم، وتغريب المعاهدين إلى المغرب^(٦)، إلّا أنّ ذلك لم يضع حداً لتحركات المرابطين في الأندلس؛ ففي عام ٥٢٢هـ/١٢٢٨م ورد تذمر المعاهدين من أهل الأندلس إلى الأمير علي بن يوسف يشكون فيه ظلمهم^(٧)، وذلك يدلّ على أن الأمير علياً لم يكن شديداً في هكذا أمور رغم نصيحة والده الأمير يوسف بن تاشفين قبل وفاته، ورغم عزله للأمير تميم إلّا أنّه لم يحسن اختيار قائده في الأندلس، أيضاً ظهر ذلك في معركة القليعة جنوب بلنسية سنة ٥٢٣هـ/١٢٩م حين تسرعوا في دخول المعركة دون حساب للعواقب بجنود

(١) ابن عذاري. البيان. ج. ٤. ص ٦١.

(٢) ابن الخطيب. الإحاطة. ج. ١. ص ٨٩٥-٨٩٦؛ عنان. دولة الإسلام. ق. ١. ص ١٣٤.

(٣) ابن خالقان، الفتاح بن محمد. (١٩٨٩م). قلائد العقيان ومحاسن الأعيان. تح: حسين يوسف خريوش. مج. ١. ج. ١. مكتبة المنار. الأردن. ط. ١. ص ٣٢٤-٣٢٥، ٣٣٣-٣٣٤؛ الهرفي. الأحوال السياسية. ص ٧٩-٨٠.

(٤) ابن الأثير. الكامل. ج. ٩. ص ١٨٧-١٨٨.

(٥) عنان. دولة الإسلام. ق. ١. ص ٢٩-٣٠.

(٦) ابن عذاري. البيان. ج. ٤. ص ٦٩-٧٤؛ ابن الخطيب. الإحاطة. ج. ١. ص ٢٠١-٢١٠؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ٩٣-٩٨؛ حركات، إبراهيم. (٢٠٠٠م). المغرب عبر التاريخ. ج. ١. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب. ص ١٦٧.

(٧) الهرفي. الأحوال السياسية. ص ٢٥٣.

من السودان والأندلسيين^(١)، ويدلُّ على ذلك أيضاً تمكُّن الإسبان من الاستيلاء على مدينة تطيلة وطرسونة^(٢).

خلاصة القول: إن تهاون المرابطين في حروبهم في الأندلس، وعدم توغُّلهم في المغرب العربي الإسلامي للقضاء على القبائل العربية التي أرسلتها الدولة الفاطمية إلى المغرب لأعادت مركزها بعد مبايعة بني زيري وبني حمّاد للخلافة العباسية في بغداد؛ ممّا كان سبباً في نهاية دولة المرابطين، وفي سقوط الأندلس بيد الممالك المسيحية تدريجياً، فمن الملاحظ أن المسلمين لم يستغلوا الفوضى بين الممالك المسيحية بعد وفاة الملك ألفونسو السادس لاسترجاع مدينة طليطلة، بينما الممالك المسيحية استغلت انقسام المسلمين في المشرق، ولم تستغل ثورة المهدي محمد بن تومرت في المغرب؛ للسيطرة على الأندلس بالكامل ربما لأنّ جبهة المغرب العربي الإسلامي أسهل من مشرقه البعيد عن مركز استيطان المسيحيين وتمركز قوات المسلمين، ولو أن الأمير عليّاً بن تاشفين تمكّن من إلحاق ضررٍ أكبر بالممالك المسيحية شمال الأندلس، لكان حال العالم الإسلامي وموازن القوى تغيّرت، لكن سقوط إمارة سرقسطة بيد المسيحيين أعطاهم الأمان في المغرب العربي الإسلامي؛ ليشدّدوا الهجوم على مشرقه؛ لذلك من المحتمل أنّ الخلافة العباسية هي من أرسلت الداعية محمّداً بن تومرت إلى المغرب؛ لينشر المذهب الأشعري الذي تبنّاه الزنكيّون وصلاح الدين الأيوبي أيضاً؛ لأنّه لا يمكن للمهدي محمد بن تومرت تحقيق نجاحات من دون دعم دولة إسلامية لدعوته.

ولا يمكن تحميل إدارة الأمير علي بن تاشفين وحدها مسؤولية نجاح دعوة المهدي على الرغم من عدم تشددها في اتخاذ التدابير كما ذُكر؛ وذلك لأنّ الفقهاء استعادوا بالمرابطين نفوذهم الذي تمتعوا به منذ عصر الولاة والخلفاء الأمويين^(٣)؛ مما يعني أن تسلطهم لم يكن جديداً على أهل الأندلس، حتّى أنّ الأمير عليّاً بن يوسف كان يعاقب الأمراء وأبناءه إن تعدّوا حدودهم في إدارة البلاد، وأوصى القضاة بتفقد أحوال الرعية والسماع لشكاوهم والعدل بينهم^(٤)، أمّا عن استخدام المسيحيين في جيش الأمراء المرابطين، فكان يعود لردع العصبية بين القبائل البربرية (الأمازيغ) التي عرفت بالثورة على الأمير يوسف بن تاشفين وابنه الأمير علي الذي لم يكن حكمه يرضي أهل بيته وقبيلته حتّى أنّ الأمير يوسف بن تاشفين ولّى ابنه عليّاً ليضعف من عصبية قبيلة صنهاجة، لكنّ المهديّ محمد بن

(١) مؤنس. الشعر الأعلى. ص ٥٣؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١١٧.

(٢) المقرري، أحمد بن محمد. (١٩٦٨م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: إحسان عباس. ج ٤. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٤٥٥.

(٣) ابن الأبار. الحلة. ج ٢. ص ٢٠٢؛ مؤنس. سبع وثائق. ص ٢٢.

(٤) دندش، عصمت عبد اللطيف. (١٩٨٨م). الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢٧٤-٢٧٥.

تومرت استغل عصبية قبائل مصمودة التي انضمت للمرابطين للتصدي لقبائل زناتة، كما استغل الخلاف بين قبائل جدالة ومسوفة ولمتونة الذي وحدهم أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ ليوغل بصدور أهل المغرب قضية المسيحيين وتمتعهم بالحرية، عندما وجه لقاضي ألمرية محمد بن أسود في مجلس الأمير علي بن تاشفين مقولة: " **فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جَهَاراً، وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى؟**" ^(١)، من ذلك يفهم أن محمد بن تومرت يُحرّض المسلمين على المسيحيين؛ لأنه يعلم تماماً أن قوة الأمير علي في المغرب سببها الحماية المسيحية التي يمكن أن تقف في وجه حركته وهي العناصر غير البربرية في جيشه، أما عن استخدام الأمير علي بن يوسف للمسيحيين في جباية المغارم ^(٢) فلم يذكرها إلا صاحب الحلل الموشية المتأخر عن عصر المرابطين، وهذا يناقض ما ذكر عن وصايا الأمراء المرابطين في عهد الأمير تاشفين بن علي ٥٣٧-٥٣٩هـ/١١٤٣-١١٤٥م بالتأكيد على عدم تدخل المسيحيين في أمور المسلمين ^(٣).

أما الأندلس فقد كان الفقراء فيها يعانون من الضرائب المجحفة ومفاسد الحكام والفوارق الطبقة بينهم وبين المرابطين، وزاد أمرهم رداءة هجوم الممالك المسيحية على أراضيهم، أدى ذلك كله إلى ثوراتٍ ضد حكم المرابطين أواخر عهدهم، حتى أن ابن القسي ^(٤) ادّعى المهدوية، مثل محمد بن تومرت، أما عن نهاية الدولة المرابطية في الأندلس، فكانت منذ سقوط سرقسطة بيد الممالك المسيحية، واستخدام حكامها من بني هود في تحقيق تقدماتهم ضمن أراضي المسلمين، يظهر ذلك من عماد الدولة وسيف الدولة بن هود اللذين لم يكن هدفهما الرياسة؛ وإنما خدمة قدرة الممالك المسيحية ^(٥)، ورغم دخول الموحدين الأندلس ومناداتهم بالإصلاح إلا أنهم لم ينقذوا أهلها من سيطرة الفقهاء، فما إن استقروا بالأندلس حتى تحالف فقهاء المالكية مع الخليفة عبد المؤمن بن علي ^(٦).

(١) ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج ٥. ص ٥٠.

(٢) مجهول. **الحلل الموشية**. ص ٨٤-٨٥.

(٣) مؤنس، حسين. (٢٠٠٠م). **نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين**. مكتبة الثقافة الدينية. مصر. ط ١. ص ٢١.

(٤) ابن القسي: أبو القاسم أحمد بن الحسين، لم يدع النسب العربي، وذكر ابن الأبار أنه رومي من بادية شلب؛ اتجه إلى التشيع، وتقويض الحكم المرابطي بالأندلس فقط، توفي سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م. ابن الأبار. **الحلة**. ج ٢. ص ١٩٧-٢٠٢؛ القاسمي، هاشم العلوي. (١٩٨٩م). حركة المهدوية في الغرب الإسلامي فيما بين ٢٦٠-١٠٥٠هـ/٨٦٥-١٦٤٠م. **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. ع ١٠. فاس: المغرب. ص ١٧٩.

(٥) دندش. **الأندلس**. ص ٩٩.

(٦) موسى. **النشاط الاقتصادي**. ص ١٥٤.

رابعاً: الحياة الاجتماعية والقبلية للمغرب العربي الإسلامي، وأثرها في تكون نظرية

الموحدين:

تبدأ دراسة الحياة الاجتماعية والبشرية للمغرب العربي الإسلامي من الأجناس المكونة للمجتمع؛ لأن ذلك يسهل تفسير كثير من الأمور السائدة في المنطقة؛ حيث كان لانتقال الإنسان المغربي في العصر الحجري الحديث^(١) إلى حياة الاستقرار وممارسة الزراعة دور في ظهور تجمعات بشرية أخذت شكل القبيلة، ورغم غياب المصادر المكتوبة عن القبائل البربرية المغربية قبل الإسلام، فإن الروايات الشفوية المنقولة كانت الوسيلة لرفع الغموض الذي اكتنف هذا المجتمع المؤلف من خليط من السكان في مقدمتهم البربر (الأمازيغ)^(٢)، أما الأندلس فكانت مستقراً لعدد كبير من السلالات الأوروبية من قوط وبشكنس وغيرهم، وبعد الفتح العربي الإسلامي استقر العرب الوافدون في البلاد مع البربر من المغرب؛ ليكونوا نسيجاً اجتماعياً منسجماً سمح لعناصره بالتفاعل فيما بينهم؛ خاصة أن المغرب والأندلس كانتا مستقراً لعدد من الأجناس والقبائل المغربية التي كان محور مجتمعاتها هو تحصيل العيش والملك؛ إذ تدور حوله الصراعات والنزاعات، فتقوم دول وتسقط أخرى، وهذا ما فسره ابن خلدون عن طبيعة البشر العدوانية عندما قال: "ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع"^(٣)، من ذلك يستدل أيضاً على أن القبائل المغربية أخوة لكن طمعهم وغيرتهم من بعضهم جعلهم يؤسسون دولاً يتعالمون بها على بعضهم حتى تقوم قبيلة أخرى بإنهاء دولة قبلية بربرية مستعلية عليها، كما حدث بين دولة المرابطين الصنهاجية ودولة الموحدين المصمودية الزناتية؛ مستغلين العصبية القبلية التي تعني رابطة قرابة من جهة الأب؛ إذ يلزمون رجلاً يكون قريباً لهم ويقدمون الطاعة إليه؛ ممّا يعطيهم قوة تكون مع الدين عصبه^(٤) أقوى من العصبية القبلية، وذلك لأن "الدعوة الدينية من

(١) العصر الحجري الحديث (النيوليتي): هو المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ مع العصر النحاسي (الكالوليتي)، مطلع الألف الخامس قبل الميلاد)، ويعود تاريخه إلى نهاية الألف الثامن قبل الميلاد، وقد عرف فيه الإنسان الزراعة وتدجين الحيوانات وصناعة الفخار، وانتقل من السكن في قرى الصيادين إلى السكن في القرى الزراعية المستقرة، وشهد تطور الفكر عنده وصناعة التماثيل والفنون الطينية. هبّو، أحمد رحيم. (٢٠٠٧م). تاريخ سورية القديم - بلاد الشام. منشورات جامعة حلب. حلب: سورية. ص ٦٢-٧٢.

(٢) ابن منصور. قبائل المغرب. ج ١. ص ٢٤٦-٢٥١؛ أحمد، نهى محمد نصر الدين. (٢٠٠٨م). المغرب القديم في العصر الحجري. دورية كان التاريخية. ع ١٠. ص ١٥-١٦.

(٣) ابن خلدون. (٢٠٠١م). تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٥٩.

(٤) العصبية: هي النسب للرجل الواحد الذي يلزمونه عندما يهدد الجماعة والفرد الخطر، أما العصبية فهي رابطة القرابة بالانتماء لرجل واحد تمتد لأجيال طويلة، وقد تمتد قروناً. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (٢٠١٠م). لسان العرب. ج ١. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٦٠٥-٦٠٦؛ النبهان، محمد فاروق. (١٩٩٨م). الفكر الخلدوني من خلال المقدمة. ط ١. مؤسسة الرسالة. لبنان. ص ١٥٦؛ الجابري، محمد عابد. (١٩٩٤م). فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ

غير عصبية لا تتم^(١)، وهذا ما يقود إلى قيام دولة على حساب دولة أخرى من عصبية قبلية ودينية مختلفة، لذلك لابدّ من دراسة أماكن استقرار القبائل المغربية وطبيعتهم الاجتماعية ومعتقداتهم، لتفسير قيام دعوة المهدي محمد بن تومرت الجديدة وأسبابها في المغرب العربي الإسلامي؛ لذلك قسّمت الدراسة المجتمع في المغرب والأندلس إلى أجناس وفئات أثرت في بعضها بعضاً، كان أهمها:

١ - مواقع انتشار قبائل المغرب العربي الإسلامي ومعيشتهم:

البربر (الأمازيغ) أقدم سكان المغرب؛ بل إنهم السكان الأصليون المؤلفون لمعظم قبائله، وقد اختلف الباحثون والدارسون حول أصلهم وأصل تسميتهم، فأطلق عليهم المؤرخون القدماء أسماء عديدة، مثل: المور، البوار، النوميديون وغيرها^(٢) من القبائل التي تميل إلى سفك الدماء والفوضى، وقسمهم المؤرخون الإغريق والرومان إلى الليبيين في الشمال والجيتول (الأتوبييون) في الجنوب^(٣)، بعكس المؤرخين العرب الذين قسموهم إلى البرنس والبتتر^(٤) كما سيذكر عنهم فيما بعد، ويمكن توحيد هذا المفهوم لدى المؤرخين القدماء والعرب على أنّ المجتمع المغربي ينقسم إلى قسمين: سكان متحضرون، وبدو متنقلون، ينحدرون من أصل واحد، وينقسمون لقبائل عدّة، ويبقى السؤال هنا: لماذا سمو بالبربر؟ ومن أين أصلهم؟ ولماذا لم يستقروا في مناطقهم؟ وهل اختلطوا مع الأجناس الأخرى؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من دراسة اختلاف آراء المؤرخين حول نسبهم وأصولهم، حيث اختلف المؤرخون الرومان والعرب حول أصل كلمة بربر، وقيل أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم شعوب تتكلم اللفظ غير المفهوم عند الغضب^(٥)، كذلك العرب أرجعوا الكلمة إلى نسبهم من بر بن قيس بن عيلان ابن مضر بن نزار^(٦)، لكنّ ذلك غير مؤكد؛ لأنّ معظم المؤرخين العرب ينسبونهم إلى اليمن من بني حمير بن سبأ، وإلى الكنعانيين والعماليقة عندما هُجّروا قسراً إلى بلاد المغرب^(٧)، فالبلادي

=الإسلامي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: لبنان. ط٦. ص١٦٨.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٩٩.

(2)- Herodote. (1915). texte relatifs a l'histoire de l'Afrique du nord. par stephane Gsell . Alger. pp: 13-20;

مسرحي، جمال. (٢٠١٧م). أوضاع الشرق الجزائري القديم من زوال المملكة النوميديّة حتى الغزوات الوندالية ٤٦ ق.م-٤٢٩م. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب. جامعة باتنة. الجزائر. ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) رضا. صنهاجة. ص ٦؛

Herodote. Texte. p:70.

(٤) مجهول. مفاخر البربر. ص ١٩٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٩-٢٨٠؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١١٧.

(٥) ابن منظور. لسان العرب. ج ٤. ص ٥٦؛ السلاوي، أحمد بن خالد. (د.ت). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ج ١. د.م. ص ٢٩.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٢٥؛ السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ٢٩.

(٧) الطبري، محمد بن جرير. (١٩٦٧م). تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الرسل والملوك. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ٢. =

يتفق على أنهم من العمالة عندما قاتلهم داود ونفى نسبهم لبر بن قيس، أما ابن حزم فقال: "وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن"^(١).

كما اختلف المؤرخون في أصلهم، فقالوا: إنهم هندو أورييون؛ معتمدين على بياضهم القوقازي، وأرجعوا أصلهم إلى أبناء سام بن نوح من شبه الجزيرة العربية، لتشابه نمط معيشتهم مع السكان العرب هناك، لكن هذا الفريق انقسم إلى قسمين، قسم ينسبهم إلى سام بن نوح، والآخر إلى حام بن نوح، وهذا ما جعلهم يجمعون الأصل الأوروبي والسامي؛ معتمدين على شكل أجسامهم ورأسهم^(٢).

لكن ذلك لا يعني صحة هذا الأصل ومن المرجح أن هذه الأنساب كانت لترسيخ استيطان الغزاة بين شعوب المغرب العربي، فلا يوجد بلد لم يذكر أن البربر منه، مما يتنافى مع علم الآثار الذي كشف أن أقدم إنسان عاقل من إفريقية، فسّمى علماءه سكان تلك البلاد بالأمازيغ^(٣) الذين اختلطوا مع الشعوب الوافدة إليهم من ندال، ورومان، وبيزنطيين وعرب^(٤). أما موطنهم فسمي بليبيا^(٥) وإفري^(٦) ونوميديا^(٧) وموريطانيا^(٨) وآخرهم كان المغرب^(٩)، لذلك

=ج ١. دار المعارف. مصر. ص ٢٠٧، ٤٤٢؛ الكوفي، أحمد بن أعثم. (١٩٩٠م). كتاب الفتوح. تح: علي شيري. ج ٢. دار الأضواء للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ص ٢٦٩؛ الدراجي، بوزياني. (٢٠٠٧م). القبايل الأمازيغية أدوارها - مواطنها - أعيانها. ج ١. دار الكتاب العربي. الجزائر. ص ٢٣؛ أما ما ذكر على أنهم من أبناء نقشان (يقشان) فإنه غير صحيح؛ لأنه ورد في العهد القديم أن إبراهيم صرفهم عن ابنه إسحق إلى أرض المشرق وليس المغرب. سفر التكوين. الأصاحح ٢٥. ٦-١؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٢٠، ١٢٢.

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى. (١٩٨٧م). فتوح البلدان. تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع. مؤسسة المعارف. بيروت: لبنان. ص ٣١٥؛ ابن حزم. جمهرة. ج ٢. ص ٤٩٥.

(٢) حمداوي، جميل. (٢٠١٤م). مقال عن أصول الإنسان الأمازيغي، شبكة الألوكة الثقافية. د.م. ص ٦١-٦٠؛ الكعاك، عثمان. (٢٠٠٣م). البربر. ط ٢. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ص ٥٩-٦٠؛ شنعة، خديجة. (٢٠١٢م). إعتناق البربر للإسلام. ماجستير منشورة. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة وهران. الجزائر. ص ١٣-١٤.

(٣) ذكر بوزياني أن كلمة الأمازيغ تعود إلى الجد الأكبر للبربر، ويعني الحرّ والنسب الشريف والأرستقراطي، وأن الكلمة تعود لهيرودتس عندما سماهم بماكسييس، ونقلها عنه الرومان ليُسَمُّوا الشعب النوميدي مازكيس القريب من اسم الأمازيغ. بوزياني. القبايل الأمازيغية. ج ١. ص ٢٠، ٣٤.

(٤) عقون، محمد العربي. (٢٠١٠م). الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصول والهوية، مطبعة الرباط. المغرب. ط ١. ص ١٩-٢٠؛ جوليان، شارل أندري. (١٩٨٣م). تاريخ إفريقيا الشمالي تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م. تر: محمد مزالي، والبشير بن سلامة. الدار التونسية للنشر. تونس. ص ٣٠.

(٥) ليبيا: مصطلح أطلقه هيرودت للإقليم الجغرافي الممتد من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي وسكانه اسمهم الليبيون. العربي، إسماعيل. (١٩٧٢م). صنهاجة وكتامة وغيرها من البربر الأصالة. وزارة التعليم والشؤون الدينية. ع ٨. الجزائر. ص ١٤٣.

(٦) الإفري: هم السكان الذين يسكنون الكهوف والمغارات، وهي كلمة أمازيغية تعني الكهف، أطلقها القرطاجيون. لقبال، موسى. (١٩٨١م). المغرب الإسلامي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ص ١٣.

(٧) نوميديا: ظهر المصطلح في العصر الروماني للدلالة على المناطق المتوسطية التي تليها إفريقية، سكنها البربر الخارجون عن=

من الصعب تحديد مواطن استقرار هذه القبائل المغربية ضمنها؛ خاصة القبائل التي تعودت على الترحال الدائم لطلب الرعي والدفع لمواشيها؛ لذلك قسمهم المؤرخون؛ إلى قبائل البرنس^(٣) أي المتحضرين لعملهم في الزراعة وتربية الماشية ومنهم قبائل صنهاجة ومصمودة، وقبائل البتر^(٤) كثيرو التثقل غير المستقرين لعملهم في تربية الماشية ولتنقلهم في الصحراء والبادية بحثاً عن الواحات والنخيل، لتمثلهم قبيلة زناتة، وأكد ابن خلدون هذا التقسيم في قوله: "وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم، فإن علماء النسب متفقون على أنه يجمعهم جذمان عظيمان، وهما برنس ومادغيس، ولقب مادغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معاً أبناء برنس"^(٥)، إلا أن التقسيم على أساس النسب أفضل من التقسيم على أساس سبل العيش رغم ضعف

=السلطة الرومانية الليمس. لوبان، غوستاف. (١٩٧٩م). حضارة العرب. تر: عادل زعيتر. دار إحياء التراث العربي. بيروت: لبنان. ص ٣٠٠.

(١) موريطانيا: للدلالة عن المناطق التي تلي نوميديا، والتي كانت مستقلة عن السلطة الرومانية. لوبان. حضارة العرب. ص ٣٠٠.

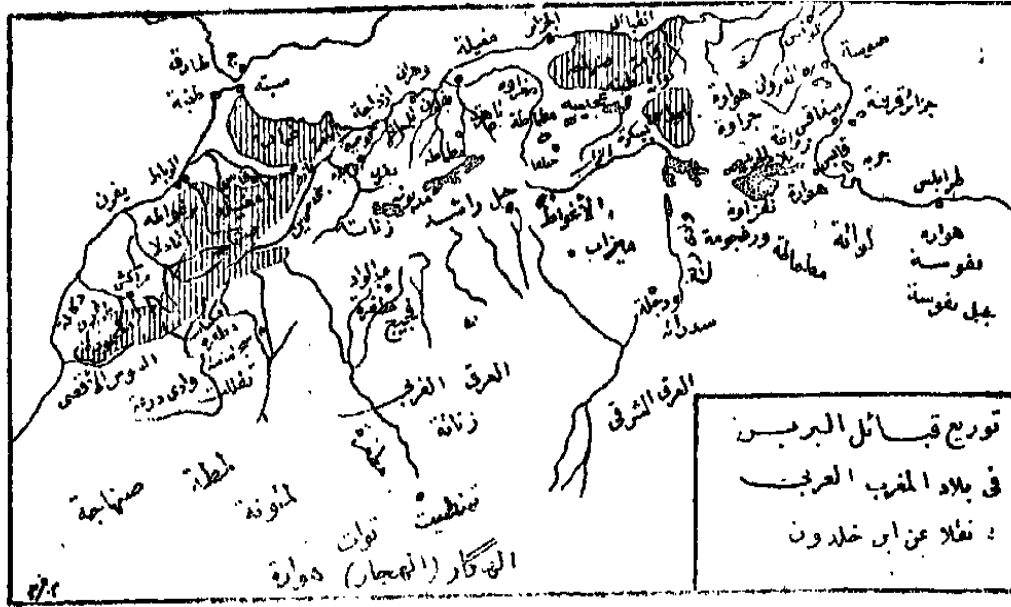
(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. (١٨٦٠م). البلدان. مطبعة بريل. لندن: هولندا. ص ١٣١؛ المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد. (١٩٠٦م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مطبعة بريل. لندن: هولندا. ص ٢١٦؛ السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ٣٣-٣٤؛ ولد الحسن، الناني. (٢٠٠٠م). صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا. سلا: المغرب. ص ٩-١٠؛ مسعد. الحرب والطبيعة. ص ٤.

(٣) البرنس من أكبر قبائل المغرب وأكثرهم انتشاراً إلى جانب البتر، وقد اختلف المؤرخون في تسميتهم مثل البتر أيضاً، فبعض المؤرخين أعاد التسمية إلى العصور اليونانية وذكر أنها مشتقة من كلمة برانوس التي تعني الحضر، وبعضهم الآخر ذكر: أنها مستمدة من لباسهم المتميز عن البتر؛ والمتمثل بغطاء الرأس ذي الشكل المخروطي، أما الفريق الثالث فقال: إنهم أخذوا تسميتهم من جدّهم الأكبر برنس بن بر، لكن ابن حزم أنكر ذلك، ليتبين أن من قسمهم إلى حضر وبدو هم اليونانيون، وأخذ المؤرخون عنهم هذا التقسيم، واستشهد بذلك ابن خلدون، وأن البربر ينتمون لجد واحد هو بر، لكن ربما الطمع بالسلطة هو من تسبب في تقسيمهم، أما تسمياتهم فتعود للأحداث السياسية التي تلت دخول المسلمين، لأنه ليس هناك ذكر واضح لأقسامهم إلا في المصادر العربية. ابن حزم. جمهرة. ج ٢. ص ٤٩٦؛ رضا. صنهاجة. ص ١٢.

(٤) اختلف المؤرخون حول كلمة البتر وأصلها؛ معتمدين على أسلوب تحصيل قبائلها للمعيشة ونسبهم، فأعادوا الكلمة إلى الأصول اليونانية بوتروس التي تعني البدو الرعاة؛ وإلى نسبهم من مادغيس الأبتر بن بر، وفريق آخر يعود بهذه الكلمة إلى لباسهم؛ لأنهم كانوا يرتدون الثياب المبتورة القصيرة، ويبقى احتمال اللباس وأسلوب العيش ضعيفاً أمام قبائل تعتمد على العصبية القبلية في تنظيمها، وإن صح أن قبيلة جراوة يهودية كما سيذكر لاحقاً، وهي من البتر يمكن افتراض أصل آخر للبربر تجاهلته الدراسات في المغرب العربي، فاليهود معروفون بالختان الذي يعني البتر عند الذكور، وربما من هنا جاء كلمة البتر وفصلهم عن الغرلة؛ أي إن هذا التصنيف لهم يعود لعصور ما قبل الميلاد، وربما أيضاً قبائل البتر سامية الأصل من بلاد الشام، أما البرنس فهم من عرب شبه الجزيرة العربية اختلطوا بالأوروبيين وهو ما يشبه المولدين في الأندلس، والأبتر ليس نسباً لمادغيس، بل هو صفة لعلها لا تتعلق بلباسه إنما بمعتقدده، أما بر فمن المحتمل أنها اختصار لاسم إبراهيم الذي يعده اليهود أبوهم الأوحى من معنى اسمه أبرام أب الجمهور وأباً لبني إسرائيل ولكل مؤمن، وهذا يؤيد رأي المؤرخين الذين نسبوهم إلى الكنعانيين والعالمقة، ويوجد الآراء الأجنبية والعربية حول هذا المفهوم الموعر في القدم. سفر التكوين. الأصحاح ١٧. ٥، ٩-٤؛ سفر لاويين. الأصحاح ١٢. ٢-٣؛ سفر يشوع. الأصحاح ٥. ٢-٨؛ لوقا. الأصحاح ١. ٥٩؛ يوحنا. الأصحاح ٨. ٥٦-٥٨؛ أعمال الرسل. الأصحاح ١٣. ٢٦؛ الأصحاح ١٦. ٣؛ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية. الأصحاح ٤. ١٠-١٤؛ رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية. الأصحاح ٣. ٢٩؛ سورة البقرة. الآية ١٢٧-١٢٩؛ سورة إبراهيم. الآية ٣٩-٤١؛ سورة الحج. الآية ٧٧-٧٨. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١١٧؛ رضا. صنهاجة. ص ١٥.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١١٦-١١٧.

أدلته لدى المؤرخين، وذلك لتمزج الشعوب فيما بينها، ولأنّ صنهاجة الجنوب التي أسست دولة المرابطين كانت تتجهج أسلوب العيش لدى القبائل البترية من رعي وتقل، وقبيلة الخليفة عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٢٩-١١٦٢م الزناتية مالت إلى حياة الاستقرار ومارست الحياة المدنية^(١)، يستنتج ذلك من خلال عرض القبائل المكونة للمجتمع المغربي، والتي تقسم إلى:



المصور رقم ٢: تحديد موطن البربر في المغرب العربي.

(زغلول. تاريخ المغرب العربي. ج ١. ص ٩٢).

١. البتر: قصد بهذا التصنيف قبيلة زناتة من سكان المغرب العربي التي شكلت أغلب سكانه، وانتقل قسمٌ منهم إلى الأندلس:

- زناتة:

اختلاف المؤرخين في نسب قبيلة زناتة، واتفق أغلبهم على أنهم من نسل كنعان بن حام، فبعض المؤرخين أرجع نسبهم إلى أسماء تختلف بالحرف الأول من الاسم جانا، شانا وزانا بن يحيى بن ضريس، وبعضهم الآخر قال: يحيى بن صولات بن ورماك (ورسك) بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر، ونفى فريق آخر أنّ يكون البتر من البربر، وذكر أنّ البرنس هم فقط من البربر^(٢).

واسم زناتة لم يطلق قبل الفتح العربي الإسلامي إلّا في حالةٍ واحدةٍ، تعود إلى العصر

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٥٥؛ محمود. قيام دولة المرابطين. ص ٢٩-٣٠.

(٢) ابن حزم. جمهرة. ج ٢. ص ٤٩٥-٤٩٦؛ الملزوزي، عبد العزيز بن عبد الواحد. (٩٦٣م). نظم السلوك في الأنبياء والملوك. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ص ٦٧-٦٨؛ ابن أبي زرع، علي بن عبد الله. (٩٧٢م). الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. الرباط: المغرب. ص ١٦؛ ابن خلدون. (٢٠٠٠م). تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٤-٥؛ رحمانى، موسى. (٢٠٠٧م). الأوراس في العصر الوسيط من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة. ص ١٣٠-١٣١.

الروماني حين ذكر أن أحد المغاربة كان يدعى كلوديوس زناتوس^(١)، لكن لا يمكن تأكيد ذلك لعدم توفر مصادر متعلقة بهذا الأمر، فالمصادر لم تذكر زناتة قبل النصف الأول من القرن السابع الميلادي حين استطاع القائد البيزنطي جرجير^(٢) استرجار عدد من الزناتيين إلى صفّه^(٣)، أمّا عن امتدادها الجغرافي، فقد سكنت قبائلها في المنطقة الممتدة من طرابلس في المغرب الأدنى إلى نواحي الساورة وتلمسان غرباً، كما سكنت في الصحراء وانتقلت إلى المغرب الأقصى^(٤)؛ أما أهم بطونها فكانت جراوة وبنو عبد الواد، وبنو يفرن، ومغراوة، ولواتة، ونفزاوة، وكومية، ويعود تأثير قبائل زناتة في دولة الموحيدين أن خلفاء الدولة ينتمون لقبيلتها، وشكلوا أساس التنظيم داخل الدولة بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت (الملحق رقم ٤، ص ٢٥٠-٢٥١).

٢. البرنس:

نمط حياة البرنس مختلف عن البتر، حيث سكنوا في الأرياف والمدن، وعملوا في تربية الحيوان إلى جانب استثمار الأراضي الزراعية، وكانوا أكثر اختلاطاً بالشعوب الوافدة إلى المغرب من البتر، وأسسوا ممالك ودولاً قبل الإسلام وبعده^(٥)، منها: الدولة الزيانية والحمادية والمرابطية التي يعود فضل تأسيسها لقبيلة صنهاجة، وكذلك قبيلة مسمودة التي أسست بدورها كلاً من مملكتي البرغواطية والموحدية، إذن، يقسم البرنس إلى قبائل متعددة، أهمها: صنهاجة، ومسمودة.

- صنهاجة:

تعدّ صنهاجة من أكبر قبائل المغرب، فلا يخلو مكان من بطونها في المغرب كلّهُ^(٦)، فقد امتدت أراضيها من برقة إلى البحر المتوسط شمالاً والصحراء جنوباً، ومن مدينة نول لمطة في جنوب المغرب الأقصى إلى مدينة القيروان في إفريقية، وانتقل قسمٌ منهم إلى الأندلس، ليؤسسوا إمارة

(١) Gautier. Le Passe. P:208.

(٢) جرجير (غريغوري) أحد الثائرين على الإمبراطور البيزنطي هرقل، وعين والياً على المنطقة الممتدة من طرابلس إلى طنجة، وقد استقل بحكمه للمغرب عن الإمبراطور البيزنطي، قتل سنة ٢٧هـ/٦٤٧م على يد عبد الله بن الزبير. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله. (١٩٦١م). فتوح مصر والمغرب، تح: عبد المنعم عامر. ج ١. شركة الأمل للطباعة والنشر. القاهرة: مصر. ص ٢٤٦-٢٤٧؛ عبد الحميد، سعد زغلول. (١٩٩٣م). تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال - ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. ج ١. منشأة المعارف. الإسكندرية: مصر. ص ١٥٢-١٥٧.

(٣) البلاذري. فتوح البلدان. ص ٣٢١-٣٢٢؛ المالكي، عبد الله بن محمد. (١٩٩٤م). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونساکهم وسیر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. تح: بشير البكوش. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ١٧-١٩؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١١.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧، ص ٣؛ رحمانی. الأوراس. ص ١٣١.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١١٦؛ ٢٩٤؛ رضا. صنهاجة. ص ١٢-١٣؛ بوزياني. (٢٠٠٧). القبائل الأمازيغية. ج ٢. ص ٤٧٨-٤٧٩.

(٦) حسن. الحضارة. ص ٢٩٣-٢٩٤.

غرناطة^(١)، وقد قسمت صنهاجة إلى قسمين:

القسم الأول: سكان المناطق الشمالية أطلق عليهم اسم القدر، وينقسمون إلى قسمين أيضاً: صنهاجة العزّ الساكنة في جبال غمارة وقد سموها بذلك؛ لأنهم لم يلتزموا بدفع الضرائب، وصنهاجة الذل الساكنة بأزمور، كما سموها بذلك، لتقديمهم الضرائب من دون مشاكل^(٢)؛ ممّا يدفع للقول إنّ صنهاجة المغرب الأقصى لم تكن تميل للخضوع بعكس صنهاجة المغرب الأوسط الأكثر رقيّاً وحضارةً وحرصاً على مصالحها.

أمّا القسم الثاني: تمثل بصنهاجة الصحراء أقصى الجنوب إذ تميزوا بأنهم أهل وبر (خيّام) كما البتر، مثلهم المثلثون الذين ارتبطت حياتهم بالترحال والتنقل، فذكر أنّهم "رحالة لا يستقرّ بهم مكان (موضع)"^(٣)، وذكر عنهم الجغرافيون أنهم لا يعرفون الزراعة، وعيشهم اللحم واللبن^(٤).

وقد اختلف المؤرخون في كلمة صنهاجة^(٥)، وأصل القبيلة^(٦)؛ وتألفت صنهاجة من حوالي سبعين قبيلةً، توزعت في أرجاء المغرب واختلفت بأدوارها التاريخية، كان من أهمّها: لمتونة وتلكاتة، وجدالة، ومسوفة، ولمطة، وجزولة، وصنهاجة، ويعود أهميتهم في دولة الموحدين أن قضية الموحدين دارت حول قبيلة صنهاجة وتفردتها بالحكم دون إشراك باقي القبائل داخل تنظيم دولتهم. (الملحق

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٠١-٢٠٢، ٢٣٩؛ دبوز، محمد علي. (٢٠١٠م). تاريخ المغرب الكبير. ج ١. مؤسسة تاوالت الثقافية. المغرب. ص ٤٣-٤٥.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٧٥؛ بوتشيش. مباحث. ص ١٦.

(٣) الحميري. الروض المعطار. ص ٣٠٥، ٥٨٤.

(٤) ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٩٨؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٣. ص ٢٢٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٢٠.

(٥) بعض المؤرخين ذكر أنهم من ولد صنهاج بالصاد المشملة بالراي والكاف القريبة من الجيم، فلما عربها العرب زادوا لها النون والألف، فأصبحت صنهاج ثم الهاء فأصبحت صنهاجة، أما ابن خلكان نطقها بالكسر صنهاجة، وابن الأثير ذكر عدم نطقها بالضم على الكسر، لكنّ القلقشندي يؤكد نطقها بفتح الصاد صنهاجة. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم. (د.ت). الباب في تهذيب الأنساب. ج ٢. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٢٤٩؛ ابن خلكان. (١٩٧٨م). وفيات الأعيان. ج ١. ص ٢٦٦؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٠١؛ القلقشندي. صبح الأعشى. ج ١. ص ٣٦٢.

(٦) فنسبها المؤرخون إلى قبيلة حمير اليمنية، وأنهم من أحفاد إفريقيش بن وائل، لمّا خرج إلى المغرب، كما ورد عند ابن خلدون عند إشارته المنقولة عن ابن الكلبي المتوفى ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، حتّى أنّ الفاطميين اعترفوا بنسبهم العربي، واقتخر المنصور الزيري ٣٧٣-٣٨٥هـ/ ٩٨٣-٩٩٥م بالنسب الحميري، لكنّ الإدريسي أنكر ذلك، وذكر أنّ العرب والبربر من جنسين مختلفين رغم الاعتراف بالنسب الحميري بعكس ابن خلدون وابن حزم اللذين أنكرا النسب الحميري للقبيلة، ومن ناحية أخرى يعيد المؤرخون القبيلة لأصول سنغالية، لأنّ صنهاجة مشتقة من اسم سنغال أو زناجة، وربما يعود هذا الاسم إلى قبائل صنهاجة الجنوب القريبة من منطقة السنغال. ابن حزم. جبهة. ج ٢. ص ٤٩٥؛ الإدريسي، محمد بن محمد. (٢٠٠٢م). نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. ج ١. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ص ٢٢٢-٢٢٣؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ٩٧-٩٨؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٠١؛ رضا. صنهاجة. ص ٣٠، ٣٣؛ ولا يمكن تحديد نسب واضح لقبيلة صنهاجة خاصةً أنّها عندما نسبت للعرب كان العرب قد انتشروا كقوة سياسية في المنطقة، ممّا يدفع للاعتقاد أنّها ادعت النسب العربي بدافع المصلحة وللحصول على حياة مرموقة، فلهجتها كانت أعجمية بعيدة عن العربية. ولد الرياني، عبد الرحمن. (٢٠١٥م) الجدل حول أصول قبائل صنهاجة. مقال في وكالة الشّام الإخبارية. د.م. ص ٢؛ حسن. الحضارة. ص ٢٩٥.

- مصمودة:

المصامدة قبائل كثيرة العدد، من بطونها: برغواطة وغمارة وأهل جبل درن، عُرفت بالاستقرار والعنف والبطش وبناء الحصون والمعقل، وهم أبناء مصمود بن يونس بن بربر^(١)، كانت حدود بلادهم من النهر الأعظم الذي يصب في جبل صنهاجة وينتهي إلى البحر الذي ذكر أنه يدعى نهر أم الربيع، وكان قسمٌ منهم يسكن في الصحراء إلى جانب قبائل لمتونة ومسوفة، أما حدودها طولاً كانت من الجبل المعروف بدرن إلى البحر الأعظم أقيانس^(٢) (المحيط الأطلسي)، ويقسمون إلى:

(١) **مصامدة الريف:** يعرفون بغمارة الريف نسبة إلى جدّهم غمارة بن مصمود، ذكر أنّهم عربٌ، لكن ابن خلدون أنكر ذلك وقال: إنّهم بربر، غزوا الجبال، ويقوا في موطنهم نواحي مدن سبتة وطنجة غرباً حتّى مدينة فاس جنوباً، حاول المرابطون القضاء عليهم بتأسيس مدينة تادلا في جبلهم^(٣).

(٢) **مصامدة برغواطة**^(٤): عرفوا بمصامدة تامسنا والسهول، مثّلوا الأقلية في فرع المصامدة، وسكنوا في المنطقة الممتدة من حاحا إلى وادي العبيد بما في ذلك دكالة والجهة المواجهة لجنوب الأطلسي^(٥)، قضى المرابطون عليهم واستولوا على بلادهم لضمان أمنهم^(٦).

(٣) **مصامدة جبل درن:** سكنت قبائل مصمودة جبل درن وعرفوا باسمه، فامتدت أراضيهم من ساحل البحر المتوسط عند مدينة آسفي لتنتهي حدودهم شرقاً بالقرب من أراضي مدينة برقة في المغرب الأدنى تقريباً، عرفوا العمارة والإمارات قبل العصور الإسلامية، ولم ينجح المرابطون في استمالتهم إلى جانبهم بسبب طبيعة العداء بين القبائل المغربية، ويقوا على حالهم حتّى وحّدهم المهدي محمد بن تومرت^(٧)؛ وكان من بطون مصمودة قبائل عديدة، أهمّها: هرغة، وهنتانة، و تينمل^(٨)،

(١) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٧٥، ٢٤٥، ٢٩٩.

(٢) المراكشي. **المعجب**. ص ٢٤٥-٢٤٦؛ أقيانس: هو اسم لبحر الظلمات، ويقال له البحر الأخضر والمحيط الذي لا يدرك له غاية. الحميري. **الروض المعطار**. ص ٥٢.

(٣) مجهول. (١٩٨٥م). **الاستبصار في عجائب الأمصار**. دار الشؤون الثقافية العامة. العراق. ص ١٩٠؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦، ص ٢٨٠-٢٨١؛ العبادي. **في تاريخ المغرب والأندلس**. ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة، فأرجعوه إلى لقب صالح بن طريف بن شمعون البرباطي وأنهم من الأندلس، وقيل إن الاسم هو بلغواطة وليس برغواطة. العبادي. **في تاريخ المغرب والأندلس**. ص ٢٨٠.

(٥) ليون الإفريقي، حسن بن محمد. (١٩٨٣م). **وصف إفريقيا**. تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٣٦.

(٦) مجهول. **مفاخر البربر**. ص ١٣٩.

(٧) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٩٨-٢٩٩؛ شواكري. **أسس**. ص ٨٩.

(٨) ذكرته المصادر بجبل تينمل وتانملت. الإدريسي. **نزهة المشتاق**. ج ١. ص ٢٣٠؛ ابن صاحب الصلاة، عبد الملك. =

وجنفيصة (كنفيسة)، وكدميو، ووريكة، وهسكورة، وقد شكلت هذه القبائل أساس تنظيم حركة الموحيدين في عهد المهدي محمد بن تومرت؛ وقد أسهمت في ضعف الدولة وانهيارها بعد تخليها عنهم وعن قضيتهم لصالح قبائل زناتة (الملحق رقم ٦، ص ٢٥٤-٢٥٥).

٢- العناصر الدخيلة إلى المجتمع المغربي:

(١) القبائل العربية في المجتمع المغربي: تسبب سَكَنُ العرب إلى جانب البربر بعد الفتوحات العربية الإسلامية للمغرب في ضعف البربر في بلادهم، حتى قيل أنهم أعدوا النسب العربي كأحفاد لإسماعيل بن إبراهيم^(١)؛ طمعاً في الحصول على الشرف التي نالتها القبائل العربية التي وفدت إلى المغرب العربي بأعداد قليلة في بادئ الأمر؛ فسكنت القبائل العربية في الربط في عدد من المناطق، ومع مرور الزمن والهجرات المتتالية للمغرب ازداد عدد العرب في المغرب العربي الإسلامي؛ خاصة مع قيام دولة الأدارسة وبنائهم مدينة فاس^(٢)؛ وفي بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قَوِيَ نفوذ العرب في المغرب حتَّى سيطروا على الطرق التجارية المهمة كطريق تجارة الذهب المار بمدينة سجلماسة، فكانت قبائل بني تميم وبني هشام وبني عدي وبني أسد وبني سهم وبني أمية السباقة بالهجرة للمغرب وتوزعهم فيه^(٣)، وازداد عدد العرب، وانتشروا بكثرة في المغرب الأوسط والأدنى مع الهجرة الهلالية التي تألفت من قبائل بني سليم^(٤) وبني هلال^(٥) وأحلافهم من الحشم والخلط والمقل؛ خاصة أنَّ هذه القبائل تنسب إلى منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، أمَّا

= (١٩٨٧م). المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحيدين. تح: عبد الهادي التازي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ١٤٩.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٦.

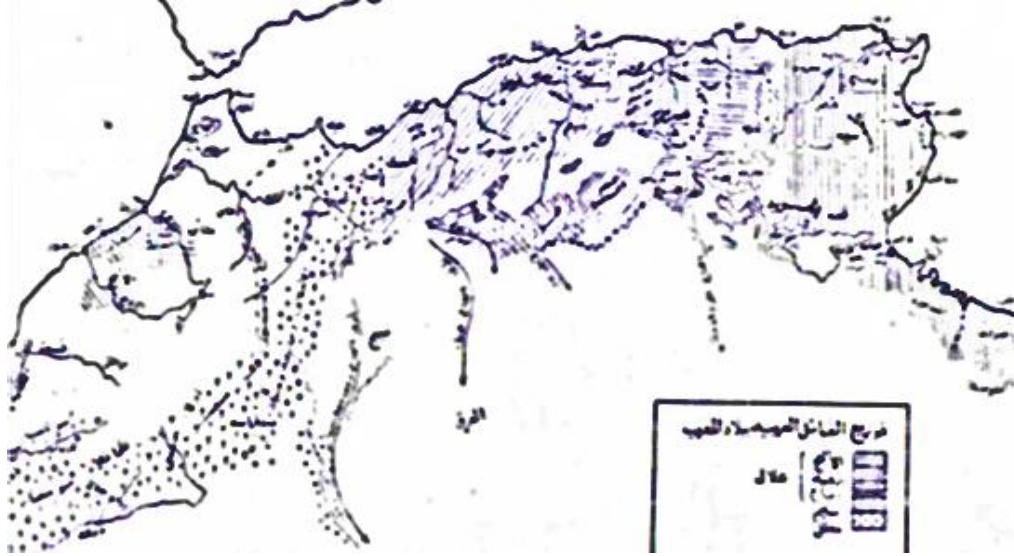
(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٩، ٣٩، ٤٧.

(٣) ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٦٥؛ بوتشيش. مباحث. ص ٣٧؛ حيث ذكرت المصادر أنَّ بني تميم ومواليهم سكنوا في مدينة بلزمة حتَّى أنَّ القيسية سكنوا فيها أيضاً، واستقرَّ العرب في مدينة نقاوس، وعاصمة الزاب، وطبنة، ومسكرة، وسطيف، ومسيلة. البيهقي. البلدان. ص ١٣٩-١٤٠؛ ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٩١-٩٢؛ ابن حزم. جمهرة. ج ١. ص ١٩٩-٢٠٠؛ البكري. المغرب. ص ٥١-٥٢.

(٤) بنو سليم: ينسبون إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس عيلان، من أهم بطونهم زغبة وذياب ووهب وعوف ولبيد، سكنوا قبل أن ينتقلوا إلى المغرب الأقصى في طرابلس وبرقة قادمين من عالية نجد والحجاز. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٩٤-٩٥؛ مصطفى، شاکر. (١٩٩٣م). موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها. ج ١. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان. ص ٥٤٤؛ الخالدي، عبد الحميد. (٢٠١٢م). الوجود الهلالي السليمي. دار الهومة. الجزائر. ص ٥٩.

(٥) بنو هلال: يرجع نسبهم إلى قيس بن عيلان من العدنانية فهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن أبي بكر بن هوازن سكنوا في بلاد الحجاز، ونجد حول مكة قبل نزولهم ببلاد المغرب، ولبنو هلال بطون كثيرة، منها: عمرو ورياح وزغبة والأنبج وعدي الذين توزعوا بين المسيلة ورقلة في المغرب الأوسط، ولهم أقطاع ببلاد الحضنة وقسنطينة وبجاية أيضاً. ابن حبيب، أبو جعفر بن محمد. (د.ت). مختلف القبائل ومؤلفها. تح: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب المصري. القاهرة: مصر. ص ٤٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦، ص ١٩، ٢١، ٢٤، ٣١، ٣٤، ٤٠ وما بعدها.

المعقل فيرجعون في نسبهم إلى جعفر بن أبي طالب (كرم الله وجهه)^(١)، ومع قيام دولتي المرابطين والموحدين نقلت هذه القبائل الهلالية إلى المغرب الأقصى والأندلس^(٢)، لتنتشر الفوضى في دولة الموحدين عند ضعفها.



المصور رقم ٣: توزع القبائل العربية في المغرب العربي.

(الخالدي، عبد الحميد. الوجود الهلالي السليمي. ص ٢٥٩).

(٢) الروم: سَكَن العجم^(٣) مع البربر قبل الفتوحات العربية الإسلامية للمغرب، واختلطوا بهم على الرغم من انفصالهم عنهم إدارياً^(٤)، ومع دخول الإسلام إليها عرفوا بأسماء وألقاب عدة؛ لأنهم من خارج بلاد المغرب^(٥)، وهم بقايا الروم والأوروبيين الذين استقروا في مدن باغاية وطبنة^(٦)، وقد ازداد عددهم في عصر الدولة المرابطية بعد حروبها في إسبانيا وأسرهم وشرائهم؛ لاستخدامهم في الخدمة العسكرية^(٧)، وقوي نفوذهم في عهد الأمير علي بن تاشفين ٥٠٠-٥٣٧هـ / ١١٠٦-١١٤٣م؛ لاستخدامهم في جباية الضرائب والجيش^(٨)، حتّى أُنهم مثلوا الجند الخاص للأمير يوسف بن تاشفين

(١) الملي. تاريخ الجزائر. ج ٢. ص ١٧٨، ذكر ابن خلدون أنّ المعقل هو ربيعة بن الكعب بن ربيعة بن الحارث بن بطون مذحج اليميني، وتنقسم القبيلة إلى ذوي منصور وذوي حسان. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٧٧-٧٩.

(٢) بونتشيش. مباحث. ص ٣٧-٤٢.

(٣) العجم: بالضم خلاف للعرب، والمستعجم الأعجم هو من لا يستطيع الكلام (باللغة العربية) ولا يفصح ويبين كلامه. الرازي، محمد بن أبي بكر. (١٩٨٦م). مختار الصحاح. مكتبة لبنان. لبنان. ص ١٧٥؛ ابن منظور. لسان العرب. ج ١٢. ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٤) حيث ذكرت المصادر حالة زواج ملكة الأوراس من روماني حين أنجبت ولداً منه. ابن عذاري. البيان المغرب. ج ١. ص ٦٣.

(٥) فذكرتهم المصادر أنّهم الروم والإفرنج والمعاهدين والمماليك. ابن خلكان. (١٩٧٧م). وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥١؛ ابن عذاري.

البيان المغرب. ج ٤. ص ٣٩؛ ابن عذاري، أحمد بن محمد. (١٩٨٥م). البيان - قسم الموحدين. تح: محمد إبراهيم الكتاني، وآخرون. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٣١.

(٦) البكري. المغرب. ص ٥٠.

(٧) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٢٣؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ٢٥؛ بونتشيش. مباحث. ص ٤٧.

(٨) مجهول. الحلل الموشية. ص ٨٤-٨٥.

٤٥٧-٥٠٠هـ / ١٠٦٥-١١٠٦م وابنه علي الذي كانت أمه تنتمي إليهم^(١)، وقد ذكرت المصادر التاريخية حين استعان الأمراء المرابطون بهم لمحاربة الموحدين عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، وفي صد هجوم الموحدين عن مدينة فاس عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، لكن إضمارهم الضغينة للمرابطين دفعتهم ليتعاونوا مع أعدائهم سواء البربر والمسيحيين في الأندلس من الروم، والموحدين في المغرب عندما سمحوا لهم دخول مدينة مراكش حفاظاً على أمانهم سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(٢)، ورغم ذلك فإن دولة الموحدين اعتمدت عليهم أيضاً.

(٣) اليهود: استقر اليهود في بلاد المغرب العربي قبل دخول الإسلام إليه، حتى أن عددهم ازداد بعد أن هاجروا بسبب اضطهاد الرومان لهم خاصة في عهد الإمبراطور جستنيان الأول ٥٢٧-٥٦٥م، وشكلوا قبائل في المغرب منها قبيلة جراوة اليهودية في الأوراس رغم عدم اعتراف المؤرخين اليهود بها^(٣)، ومع قيام الإسلام في شبه الجزيرة العربية وفتح بلاد المغرب العربي الإسلامي هاجر قسم منهم عرفوا بيهود خيبر إلى المغرب عام ٧هـ / ٦٢٨م؛ ليستقروا في مدن سجلماسة ومكناسة ونكور، وازداد عددهم ونفوذهم في عصر الدولة المرابطية؛ ليسيطروا على الطرق التجارية المارة بالصحراء من بلاد السودان^(٤)، واستقروا في مدن مهمة كمدينة فاس وأغمات^(٥) وفازار^(٦)، فذكر البكري أن مدينة فاس أكثر بلاد المغرب يهوداً^(٧) على الرغم من محاولة المرابطيين الحد من نفوذهم بمنعهم من دخول مدينة مراكش إلا في النهار^(٨)، كما أنهم سكنوا في مدن مهمة في الأندلس، فتجمعوا في مدن غرناطة وجنوب قرطبة وطليلطة وأشبيلية وسرقسطة وغيرها من المدن^(٩)، لكنهم كانوا عالة على

(١) ابن عذاري. **البيان**. ج ٤. ص ١٠٢-١٠٣؛ حسن. **الحضارة**. ص ٣٢٤؛ ذكر ابن القاضي أن أم الأمير علي بن يوسف هي منوا، أما ابن أبي زرع ذكر اسمها قمر. ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٥٧؛ ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي. (١٩٧٤م). **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**. ج ٢. دار المنصور للطباعة. الرباط: المغرب. ص ٤٦٠.

(٢) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن عذاري. **البيان**. ج ٤. ص ١٠٢-١٠٤.

(٣)-Eisenbeth, Maurice. (1948). **Les Juifs en Alger esquisse historique depuis les origines jusqu'a nos jours**. Encyclopedie de L'empire Francais. Paris. pp:147-148.

(٤) البكري. **المغرب**. ص ٩٠، ١٤٩؛ البيهقي، أبي بكر بن علي. (١٩٧١م). **أخبار المهدي بن تومرت وديانة دولة الموحدين**. تح: عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة. الرباط: المغرب. ص ٧٦؛ هبي، عائشة. (٢٠١٧م). **أزمات المجتمع المرابطي ما بين القرنين (٥-٦هـ / ١١-١٢م)**. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة مولاي الطاهر. الجزائر. ص ٢٣-٢٤.

(٥) ابن مقديش، محمود. (١٩٨٨م). **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**. تح: علي الزواري، ومحمد محفوظ. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٦٢.

(٦) مجهول. **الاستبصار**. ص ١٨٧.

(٧) البكري. **المغرب**. ص ١١٥.

(٨) الإدريسي. **نزهة المشتاق**. ج ١. ص ٢٣٥؛ ابن مقديش. **نزهة الأنظار**. ج ١. ص ٦٢.

(٩) دويدار، حسين يوسف. (١٩٩٤م). **المجتمع الأندلسي في العصر الأموي**. مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٤٨؛ كاظم، ضياء سعدون. (٢٠١٦م). **الحياة السياسية في الأندلس (٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٥م)**. **مجلة بابل**. مج ٦، ع ٣.

الدولة الحاضنة لهم؛ وذلك بسبب انغلاقهم على أنفسهم، فقد ذكر شارل عنهم: "أنهم أينما حلُّوا فهم عالة لا ينسون أصلهم ولا دينهم لذلك نراهم يتكاتفون، وينظمون صفوفهم، ويسعون لدى سلطات البلاد التي يقيمون بها للحصول على حقوقهم"^(١)، ربما هذا ما جعلهم يتمتعون بشراء قوي في بلادهم لاختيارهم المهن والحرف والتجارة المناسبة التي تدرّ عليهم الأموال وعدم السماح لغيرهم معرفة أسرارهم، وبسبب هذا الثراء والانعزال فرضت عليهم دولة المرابطين جزية أثقل من الجزية المقررة على المسيحيين^(٢)؛ ممّا جعل المؤرخين يتهمون الدولة المرابطية بظلمهم، فيوسف أشباخ قال: "ولم يتمتع اليهود بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين"^(٣)، لكن لا يمكن تأكيد هذا القول لأنّ تجمعهم في مناطق منعزلة عن الآخرين ربما أخاف الأمراء المرابطين في بداية تأسيس دولتهم من تجسس اليهود وخيانتهم^(٤) ليس أكثر، والدليل على ذلك أنّهم امتنعوا مهناً حساسة في الدولة المرابطية، مثل: الطب والتجارة وترجمة الكتب والبناء^(٥)، حتّى أنّ الأمير علي بن يوسف لم يصادر أرضهم بجانب مسجد القرويين بل اشتراها منهم^(٦)، تعود أهمية اليهود في دولة الموحدين إلى امتهانهم التجارة؛ مما يعني أن قيام دولة المرابطين شكل تهديداً على حياتهم تماماً كما كان عليه الحال بالنسبة لقبائل مصمودة.

٤) الأتراك: عرفوا بأسماء عدة في المغرب العربي كالأكراد والأتراك، وأطلقت المصادر عليهم لقب الغز، تقع بلادهم أقصى المشرق على حدود الصين^(٧)، تميزوا بالبستهم وأشكالهم المروعة^(٨)، دخلوا بلاد المغرب العربي الإسلامي كرقيق^(٩) وازداد عددهم مع قيام دولة المرابطين؛ لحاجتها إليهم

=العراق. ص ١٢.

(١) جنيبير، شارل. (د.ت). المسيحية نشأتها وتطورها. تر: عبد الحليم محمود. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ص ٥٧.

(٢) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٢٣؛ بروكلمان، كارول. (١٩٦٨م). تاريخ الشعوب الإسلامية. تر: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان. ص ٣١٥، ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) أشباخ، يوسف. (٢٠١١م). تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. تر: محمد عبد الله عنان. ج ٢. المركز القومي للترجمة. القاهرة: مصر. ص ٢٣٩.

(٤) حسن. الحضارة. ص ٣٦٦.

(٥) البكري. المغرب. ص ١٤٨-١٤٩؛ مجهول. الاستبصار. ص ١٨٧؛ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم. (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تح: نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان. ص ٤٩٩.

(٦) الجزنائي، أبو الحسن علي. (١٩٩١م). جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس. تح: عبد الوهاب بن منصور. ط ٢. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ص ٥٥، ٥٧؛ ابن القاضي. (١٩٧٣م). جذوة المقتبس. ج ١. ص ٦٨. صالح، حمادة فضل الله الصالحين. (٢٠١٢م). تاريخ المغرب العربي الأقصى الاقتصادي والاجتماعي عصر المرابطين. ماجستير منشورة. شعبة الإسلام. قسم التاريخ. كلية الآداب. جامعة بنغازي. ليبيا. ص ١٣٧.

(٧) فروخ، عمر. (١٩٨٥م). معالم الأدب العربي في العصر الحديث. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان. ص ١٦٢؛ بروفنسال، ليفي. (١٩٤١م). مجموع رسائل موحية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية. مطبعة رباط الفتح. المغرب. ص ١٠١.

(٨) ابن الزيات. التشوف. ص ٣٤٩.

(٩) موسى. النشاط الاقتصادي. ص ١٢٣.

في المعارك خاصةً عندما أسر المغاربة عدداً منهم في الحملة على مدينة طرابلس سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م^(١)، وفي عصر الموحدين كثر عددهم بعد خروج بهاء الدين قراقوش^(٢) عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م، وذكر المراكشي أن عددهم كثر بسبب تدفقهم بكثرة على بلاد المغرب العربي حتى أواخر عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م^(٣)، وقد أسهموا في الأحداث السياسية في المغرب ضد الدولة الموحدية^(٤)؛ مما جعلها تستعمل معهم السياسة نفسها التي استعملتها مع باقي القبائل من ضمهم للجيش وتفريقهم في بلاد المغرب العربي الإسلامي^(٥).

٣- العناصر البشرية المكونة للمجتمع الأندلسي والمؤثرة في الفكر السياسي الموحي:

تألف المجتمع الأندلسي من عناصر غير متجانسة بالأصول والعروق، فسكن إلى جانب السكان الأصليين عناصر سكانية وافدة من أوروبا وإفريقية والبلاد العربية، وذلك بسبب موقع شبه الجزيرة الإيبيرية المتوسط بين هذه البلدان وطبيعتها الملائمة لسكان بلاد الشام والمغرب وسكان الصحراء^(٦)؛ مما جعلها مطعماً لهذه العناصر ومحط أنظارهم من أجل بناء ملك جديد أو نشر مذهب يُتمّ عقيدتهم ويحقق آمالهم ويوفر لهم سبل العيش الكريم بعيداً عن الاضطهادات والاضطرابات التي شهدتها تلك الحقبة من الزمن، فكان ذلك على حساب سكانها الأصليين الإسبان^(٧)، تنوعت عناصرها السكانية واختلفت كثيراً، لتضمّ عناصر مختلفة تماماً عما سبق في الجنس والدين كانت تابعة للحكومة الأموية في دمشق، ثم للدولتين المرابطية والموحدية؛ وأهم هذه العناصر:

(١) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٢٩-١٤٠.

(٢) بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، كان خادماً صلاح الدين وقيل خادماً عمه أسد الدين شيركوه، فوضه صلاح الدين زمام الأمور وأتابه عنه عندما استقر في مصر، وسلمه عكا عندما أخذها من الصليبيين، توفي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٤. ص ٩١-٩٢.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٨٨.

(٤) خلف الله، ابتسام مرعي. (١٩٨٥م). العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي. دار المعارف. مصر. ص ١٥١-١٥٢.

(٥) شرقي، نواردة. (٢٠٠٨م). الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (٥٢٤-٦٦٧هـ/ ١١٢٦-١٢٦٨م). ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ٥٨-٦٠.

(٦) الحميري. الروض المعطار. ص ٣٣؛ المقرئ. نفح الطيب. ج ١. ص ١٢٥ وما بعدها؛ الدغلي، محمد سعيد. (١٩٨٤م). الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي. منشورات دار أسامة. دم. ط ١. ص ١٤.

(٧) من السلت (الكلت) والإيبيريين الذين ذكرتهم المصادر العربية بالأندلس والأندلس. المقرئ. نفح الطيب. ج ١. ص ١٣٣؛ وذلك قبل أن يقدم على غزوها أقوام عديدة أولهم الفينيقيون الذين أطلقوا عليها اسم إسبانيا وشاطئ الأرناب، وأسسوا فيها مدينة قادش، ثم تلاهم اليونانيون، فأطلقوا عليها اسم شبه الجزيرة الإيبيرية، وعندما غزاها القرطاجيون في القرن الخامس قبل الميلاد أسسوا فيها مدينة كرتاجونوفا (قرطاجة الجديدة)، بذلك شهدت البلاد نوعين من السكان أحدهما أوروبي والآخر سامي آسيوي إفريقي، ثم تحول إلى لاتيني بعد دخول الرومان إليها سنة ٢٠٥م وتأسيسهم مدينة طالقة (من كلمة إيطاليا)، وفي سنة ٤٠٩م غزتها القبائل الجرمانية من الألان والسويف (السوابيون) والوندال، فاستقروا في شرق شبه الجزيرة وفي منطقة لشدانية (البرتغال حالياً)، وكان القوط آخر الغازين قبل العرب في سنة ٤١٤م، وعندما فتح العرب والمسلمون شبه الجزيرة بمساعدة جولييان (يولييان) حاكم سبته سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م. دويدار. المجتمع الأندلسي. ص ٣٤-٣٥.

(١) **أهل المغرب (الأمازيغ):** دخل البربر من البتر والبرنس الأندلس بأعداد كبيرة مع بداية الفتح العربي الإسلامي في جيش القائد طارق بن زياد، وبعد انتصارهم على القوط تزايد عددهم؛ بهدف الحصول على الغنائم والحياة المستقرة، فنزلوا الهضاب الوسطى والقسم الجنوبي من الشواطئ الغربية؛ لأنها مناطق مليئة بالمراعي تشبه مناطق المغرب الأقصى وقريبة من بلاد المغرب^(١)، وقد ذكر ابن حزم قبائل بربرية استقرت في الأندلس منذ الفتح مثل مصمودة وهوارة وصنهاجة وزناتة^(٢)، لكنّ علاقتهم بالعرب ساءت منذ الوهلة الأولى في الأندلس بسبب سوء معاملة الولاة لهم واستئثار العرب في الأراضي الخصبة دونهم، هذا ما جعل البربر يتحالفون فيما بينهم أسوةً بالصراع الذي كان سائداً بينهم في المغرب العربي الكبير، حتّى أنّهم تحالفوا مع العرب اليمينية (البلديون) ضد عرب الشام، فقالوا لهم: "**بلدنا يضيق بنا، فاخرجوا عنا**"^(٣)؛ ممّا يدل أنّ البربر استأثروا بالأندلس خاصةً في مدينة قرطبة التي لم يخرجوا منها إلّا بعد ثورة عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م؛ ليستقروا جنوب الأندلس ويؤسسوا ثلاث دويلات هي غرناطة وطليلة وبطليوس^(٤)؛ فضلاً عن إمارة كانت في سجال مع المعتمد بن عباد ت. ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م في مدينة قرطبة، ظهر ذلك من أبيات الشعر التي هجّتهم ووصفتهم بالخيانة ودعت لقتلهم، فقد قال عنهم محمد بن عمار^(٥):

شقيت بسيفك أمة لم تعتمد إلا اليهود وإن تسمت بربرا
أثمرت زمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يُعشق مثمرا.^(٦)

ليدل ذلك على أنّ العداء بين البربر والعرب كان عميقاً نظراً لما بينهما من فروق حضاريّة،

(١) الدغلي. **الحياة الاجتماعية**. ص ١٥.

(٢) ابن حزم. **جمهرة**. ج ٢. ص ٤٩٨-٥٠٤.

(٣) ابن القوطية، محمد بن عمر. (١٩٨٩م). **تاريخ افتتاح الأندلس**. تح: إبراهيم الإبياري. ج ٢. دار الكتاب المصري. القاهرة: مصر. ص ٤٢؛ مجهول. (١٩٨٩م). **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**. تح: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب اللبناني. لبنان. ط ٢. ص ٤٢-٤٦؛ زهرة، عبد الغني عبد الفتاح، والتويجري، نورة محمد عبد العزيز. (د.ت). **تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد الأندلس**. مكتبة الرشد. دم. ص ٤٥.

(٤) توفيق، عمر إبراهيم. (٢٠٠٩م). **صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة (سياسياً واجتماعياً وثقافياً)**. عمان: الأردن. دار غيداء للنشر والتوزيع. ص ٩٣؛ تريكي، فتحية. (٢٠١٠م). **جوانب من الحياة الاجتماعية للبربر في الأندلس من الفتح إلى دخول المرابطين**. ماجستير منشورة. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر. ص ٧-١٢.

(٥) ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار، شاعراً وسياسياً أندلسياً، فقد كان وزيراً وسفيراً للمعتمد بن عباد حاكم إشبيلية، وحاكماً لمرسية، ولد سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، وتوفي سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج ٤. ص ٤٢٥-٤٢٩.

(٦) البحر الكامل. المقرئ. **نفح الطيب**. ج ١. ص ٦٥٦؛ خالص، صلاح. (١٩٥٧م). **محمد بن عمار الأندلسي دراسة أدبية تأريخية**. بغداد: مطبعة الهدى. العراق. ص ١٩٣؛ ذكر ابن دحية ملوكهم بكوماتهم. ابن دحية، عمر بن حسن. (١٩٥٥م). **المطرب من أشعار أهل المغرب**. تح: إبراهيم الإبياري، وآخرون. دار العلم للجميع. بيروت: لبنان. ص ١٧١.

فالبربر بنظر العرب كانوا بداءةً وصفوهم بأسوأ الصفات^(١)، لتنتقل العلاقة العدائية إلى الأندلس هذه المرة، لكن ليس بين قبائل البربر من صنهاجة وزناتة ومصمودة^(٢)؛ إنما بين العرب والبربر مجتمعين، وما حقق الغلبة للبربر هو قيام دولة المرابطين في المغرب العربي وانتقال سلطتها إلى الأندلس ليتزايد أعداد البربر ازدياداً كبيراً، وتصبح السلطة المطلقة بيد قبائل زناتة وصنهاجة ومصمودة على حساب العرب، أما عن الهجرة الأعظم للبربر في تاريخ الأندلس كانت مع انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين تحديداً سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م، وقد وصف المؤرخون هذه السنة بسنة الجلاء العظيم للأندلس بسبب المجاعات والأوبئة^(٣)، ومع قيام دولة الموحدين اتبع خلفاؤها سياسةً جديدةً تعتمد على توطين البربر في الحواضر الأندلسية.

أما عن مهن البربر في الأندلس، فقد كانت الزراعة وتربية الحيوان في الأرياف وما يدخل في هذا المجال من الصناعات الغذائية؛ فضلاً عن الحراسة وصناعة الخشب، وفي المدن عملوا في التجارة وصيد الطيور والخدمة^(٤).

(٢) العرب: وفد العرب إلى الأندلس مع بداية الفتح العربي الإسلامي كجنود في الجيوش الإسلامية، وكانت بدايات دخولهم مع حملات موسى بن نصير وقائده طريف بن مالك الخولاني الذي نزل الجزيرة الخضراء (جزيرة طريف) سنة ٩١هـ / ٧٠٩م، ومع بلج بن بشر سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م، وأبي الخطار الثقفي سنة ١٢٥هـ / ٧٤٢م^(٥)؛ لتتزايد أعدادهم التي لم تكن أكثر من أعداد البربر في الأندلس، وقد استقرّ العرب في الشواطئ الشرقية والجنوبية من الأندلس ثم في سهل قرطبة لأنّ هذه المناطق تشبه بلاد الشام^(٦)، فأطلق عليهم اسم الدخلاء ونسلهم سُموا بالأندلسيين، وهم قسمان: البلديون الذين جاؤوا مع طارق بن زياد، والشاميون الذين جاؤوا مع بلج بن بشر، ثمّ تزايدت هجرة العرب إلى الأندلس بعد ذلك واتسعت رقعتهم الجغرافية، حتّى سميت أماكن استقرارهم بسبب ذلك بأسماء البلدان التي وفدوا منها^(٧)، ومن الأسر العربية التي سكنت في الأندلس بني قليعي بقرية

(١) الزجالي، عبيد الله بن أحمد. (١٩٧٥م). أمثال العوام في الأندلس. تح: محمد بن شريفة. ج ١. منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي. مطبعة محمد الخامس. فاس: المغرب. ص ٢٠٥-٢١١.

(٢) قسمهم الاصطخرى إلى بتر وبرنس، كما كانوا في بلاد المغرب وحدد أماكن استيطانهم في مدينة قرطبة وشننبرية. الاصطخرى. مسالك الممالك. ص ٤٤.

(٣) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٩٨.

(٤) بونشيش. مباحث. ص ٣٥؛ موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٨٥.

(٥) دويدار. المجتمع الأندلسي. ص ١٤-١٥.

(٦) الدغلي. الحياة الاجتماعية. ص ١٥.

(٧) جند مدينة دمشق سكنوا في البيرة بغرناطة وسميت دمشق، وأهل مدينة حمص سكنوا في إشبيلية وسميت حمص، وأهل الأردن في رية، وأهل قنسرين في جيان، وفلسطين في شذونة التي سميت فلسطين، ومصر في تدمير وسميت مصر. المقرئ. نفتح الطيب. ج ١. ص ٢٢١-٢٢٢؛ وغيرها من المناطق التي سكنها العرب مثل مدن طليطلة وبلنسية، فكان للعرب المكانة الرفيعة والمناصب=

صالحة قرب مالقة وبنو حمديسو الأصبجيون بقرطبة، والمخزوميون وبنو سعيد التي سميت باسمهم^(١) وبنو عباد من العراق والباقي في إشبيلية^(٢)، وفي أونية وشليطش، كان البكريون من ربيعة^(٣)، وبنو هارون في شنتمرية^(٤) وغيرهم من الأسر العربية التي بقيت سائدة على الأندلس حتى قيام دولة المرابطين وسيطرتهم على الأندلس، ليدخلوا عنصراً عربياً، آخر وهم القبائل الهلالية، حيث استخدمهم كجنود ضد القوات المسيحية المتمركزة في شمال الأندلس بالأخص في معركة أقلش سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م^(٥)، على الرغم أن فكرة إدخالهم إلى الأندلس تعود إلى المؤيد المعتمد بن محمد بن عباد ٤٣١-٤٨٨هـ/ ١٠٤٠-١٠٩٥م الذي أحجم عن هذه الفكرة، بسبب فسادهم بالمغرب العربي الإسلامي^(٦)، وأخذت أعداد العرب تتزايد أكثر فأكثر في الأندلس في عصر الموحدين لمساندتهم في حروبهم ضد القوات المسيحية في الشمال.

(٣) الصقالبة: أطلق اسم الصقالبة في الدول الإسلامية على صغار بلاد الفرنجة ذكوراً وإناثاً الذين يؤتى بهم عن طريق سوق الرق من المنطقة الممتدة بين بحر قزوين شرقاً والبحر الأدرياتيكي غرباً (بلغاريا العظمى)^(٧)، ويقصد بكلمة صقلي التي تعود للغة الفرنسية الرق والعبد^(٨)، وقد عملوا كحرس في قصور الأمويين في بادئ الأمر قبل أن يتوسع مفهومهم فيما بعد ليشمل جميع الأسرى المسيحيين صغار السن الذين تربوا على التعاليم الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي^(٩)، أما عن نسبهم فقد ذكر ابن حوقل أنهم من يافث بن حام^(١٠)، وتعود أهمية هذا العنصر في البلاد الإسلامية إلى توليهم مناصب إدارية في الدول الإسلامية إلى جانب عملهم كعبيد في المزارع وجنود في الجيش، حتى أنه ظهر منهم الأغنياء من الملاكين كبار التجار، أما الخصيان منهم ممن تاجر بهم اليهود، استخدموا لحراسة الحريم في البلاط، ولم يكن المسلمون هم من بادروا بمثل هذا الإجراء؛ إذ سبقهم

=العليا في الدولة؛ مما جعل بعض السكان يتغنى بالأصول العربية، ليضفي الشرعية على حكمه كالتجيبين من حكام سرقسطة

وبنو حمود. توفيق. **صورة المجتمع**. ص ٩٣.

(١) عائشة. **أزمات المجتمع**. ص ١٧.

(٢) ابن حزم. **جمهرة**. ج ٢. ص ٣٩٣؛ المقري. **نفح الطيب**. ج ١. ص ٢٩٦.

(٣) الشنتريني. **الذخيرة**. مج ١. ق ٢. ص ٢٣٣؛ مج ١. ق ٤. ص ٥٥؛ المقري. **نفح الطيب**. ج ١. ص ٢٩٢.

(٤) ابن الأبار. **الحلة السيرة**. ج ٢. ص ١٨.

(٥) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٦٦.

(٦) ابن الأثير. (١٩٨٧م). **الكامل**. ج ٨. ص ٤٤٦.

(٧) العبادي. **في تاريخ المغرب والأندلس**. ص ١٩٧.

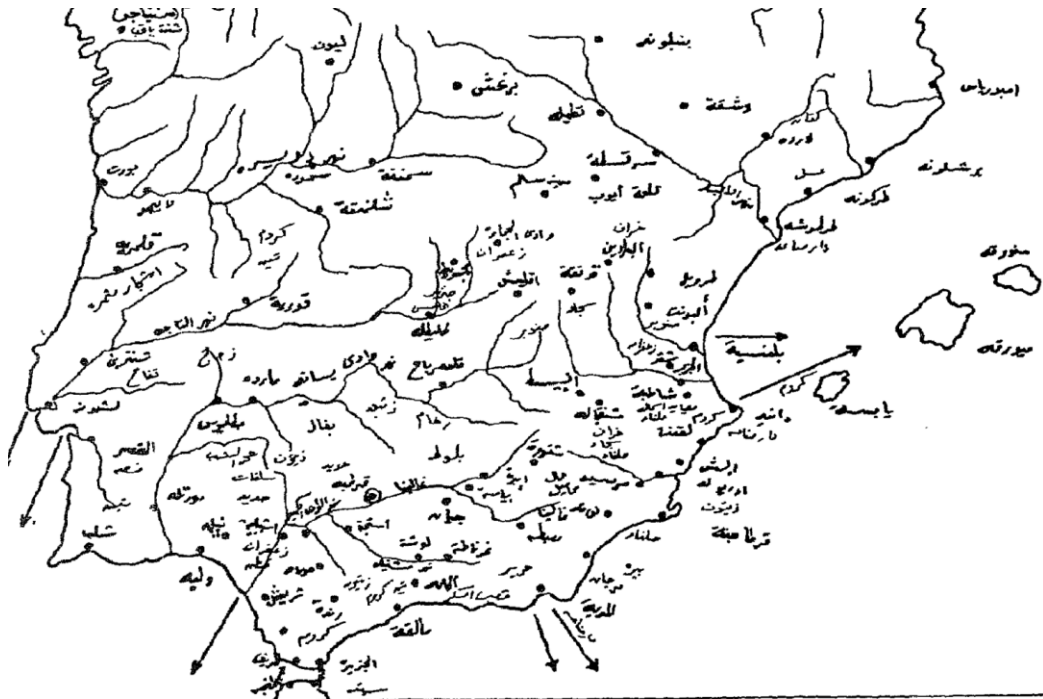
(٨) بوتشيش. **مباحث**. ص ٤٥.

(٩) العبادي. **في تاريخ المغرب والأندلس**. ص ١٩٨.

(١٠) ابن حوقل. **صورة الأرض**. ص ١٦٠.

الأباطرة الرومان في تخصيص الخصيان لأجل الغاية نفسها^(١).

وقد ربطتهم علاقة عدااء مع العرب مثل البربر ليقوموا بسبب ذلك دويلات لهم على امتداد السّاحل الشرقي للأندلس في دانية والجزائر الشرقية، وشاطبة، ومرسية وبلنسية، سميت بالدولة العامرية الصقلية التي تختلف عن الدولة العامرية التي أسسها المنصور بن أبي عامر ٣٧١-٣٩٢هـ/ ٩٨١-١٠٠٢م^(٢)، وفي عصر الدولة المرابطية عرفوا في مجال الأدب والشعر، والغناء والموسيقى^(٣)، والموسيقى^(٣)، وانتقل قسمٌ منهم إلى المغرب العربي الإسلامي خاصةً بعد أن اشترى الأمير علي بن تاشفين حوالي ٢٤٠ فارساً منهم^(٤)، وكان لهم دورٌ في عصر الموحدين سيرد ذكره في القسم المخصص من الدراسة.



المصور رقم ٤: خريطة الأندلس الإسلامية.

(أبو الفضل، محمد أحمد. شرق الأندلس. ص ٣٩٩).

٤- أثر فئات المجتمع في نشوء الفكر السياسي للموحدين في المغرب العربي الإسلامي:

تعددت فئات المجتمع، وتنوّعت في بلاد المغرب والأندلس على مرّ عصوره الإسلامية؛ توافقاً مع تنوع قبائله واختلاف السيادة عليه، رغم أنها كانت متشابهةً من حيث تقسيم السلطة على القبائل المسيطرة على الحكم وسيادة المجتمع، وما تبقى كان إما قريباً من حكامها أو من دونهم، أمّا

(١) الموسوعة العربية الميسرة. (٢٠٠١م). مج ٢. دار الجليل. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ١٠٤٦-١٠٤٧.

(٢) توفيق. صورة المجتمع. ص ٩٤.

(٣) الطرطوشي، محمد بن الوليد. (١٩٩٠م). الحوادث والبداية. تح: علي بن حسن الحلبي الأثري. ط ١. دار ابن الجوزي. السعودية. ص ٨٦. العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس. ص ١٩٩.

(٤) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٢٣. مجهول. الحلل الموشية. ص ٢٥. بوتشيش. مباحث. ص ٤٦.

الذي يخدم البحث هنا هو فئات المجتمع خلال العصر المرابطي وما آلت إليه الدولة من تقسيمات اجتماعية لخدمة مصالحها؛ ليدفع ذلك بالقبائل الأخرى والقوة المعارضة للانتفاضة في وجه هذه السياسة، ومن بينهم كان قبائل المصامدة وزناتة عند بدء دعوة محمد بن تومرت الذي استغل كل الأوضاع على الأصعدة كافة لخدمة مشروعه في المغرب ومشروع خلفائه في المغرب والأندلس، خاصة أن الأندلس شهدت ضعف دولة المرابطين الذي أودى بها إلى عصر طوائف ثانٍ، وثورات كان تقسيم المجتمع المحرك الرئيس لها، يلحظ ذلك من رصد فئات المجتمع في عصر المرابطين المؤلفة من:

(١) الفئة الحاكمة:

لم تتخل الدولة المرابطية عن الفكر والتنظيم القبلي في تولية المناصب بين أفرادها رغم امتدادها الواسع في أرجاء المغرب والأندلس الإسلامي؛ إذ بقيت قبيلة صنهاجة صاحبة القيادة العليا في الدولة، وأسرة بني تاشفين وأماؤهم من القبائل التي ألقت دولة المرابطين لمتونة ومسوفة وجدالة، بقوا أصحاب السلطة في الدولة دون غيرهم، فقد ورد في كتاب الحل الموشية: "ولاهم الأعمال- الأمير يوسف بن تاشفين- وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال، فاكسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال"^(١)، وقال ابن خلدون: "وقد بدأ يوسف بن تاشفين في ذلك بتقسيم بلاد المغرب على بنيهِ وأمرأه قومه وذويه"^(٢)، حتّى أنهم لم يختلطوا بالقبائل الأخرى؛ إذ عاشوا في أحياء خاصة بهم مع حشمهم وخدمهم متزهدين^(٣) "رجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنّما هم أحدهم فرس يروضه ويستفره (يتخيره)، أو سلاح يستجده، أو صريخ يلبي دعوته"^(٤)، لكن زهد الحكام المرابطين لم يستمر طويلاً، فما أن توفي الأمير يوسف بن تاشفين وآل الحكم إلى ابنه الأمير علي بن يوسف حتّى أخذ المرابطون ينعمون بترف الحياة، فبنوا القصور الفخمة، وتأنقوا في المأكّل والملبس، واتخذوا مجالس من الفنانين والمغنين^(٥)، وأثاروا الرعب والخوف في نفوس السكان خاصة في الأندلس، كما أكّد ابن عبدون بقوله: "يجب ألا يلثم إلا صنهاجي، أو لمتوني، أو لمطي فإنّ الحشم^(٦) والعبيد، ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون أبواباً من الفجور

(١) مجهول. الحل الموشية. ص ٣٣.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٤٧.

(٣) مجهول. الحل الموشية. ص ٨٦-٨٧.

(٤) المراكشي. المعجب. ص ١٢٣.

(٥) ابن خالقان. قلائد العقيان. ج ٢. ص ٤٦٣؛ المقرئ، أحمد بن محمد. (١٩٤٠م). أزهار الرياض في أخبار عياض. تح:

مصطفى السقا، وآخرون. ج ٢. مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر. القاهرة: مصر. ص ٢٠٩.

(٦) ذكر صاحب الحل الموشية أن الحشم هم قبائل جزولة ولمطة ومصمودة وزناتة. مجهول. الحل الموشية. ص ٣٣.

كثيرةً بسبب اللثام وهماً^(١)، كل ذلك يفسر سبب الضغينة التي كنتها قبيلة زناتة ومصمودة للدولة المرابطية وحكامها^(٢)، فهم قبائل متعودة على السلطة، وفي عصر المرابطين لم يشاركوا أبداً في الحكم، وقد وقعت دولة الموحدين في الخطأ نفسه أيضاً.

٢) الفقهاء والقضاة:

تُعَدُّ هذه الفئة إحدى الركائز الأساسية للدولة وملكها، والسكان هم الضحية؛ لأنَّ الحكام مهما بلغوا من سلطة وقوة كانوا يخافون من فكر الفقهاء والقضاة، ومن اتهامهم لهم بالفساد والكفر والإلحاد؛ لذلك حاول الحكام إرضائهم بالسبل كافة، وإعطاء الشرعية بإحراق الكتب، والموافقة على إصدار فتوى التكفير وإعدام من يخرج عن طاعتهم، حتَّى أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين لم يشرع في القضاء على ملوك الطوائف إلا بصدور فتوى منهم^(٣)، أمَّا عدم الأخذ بمشورتهم، فستكون كارثةً سيدفع ثمنها عاجلاً أم آجلاً، فالأمير علي بن يوسف بن تاشفين لم يأخذ بنصيحة الفقيه مالك بن وهب^(٤) عندما نصحه بالقضاء على المهدي محمد بن تومرت^(٥)؛ ممَّا عَجَّل في سقوط دولة المرابطين، ومن المحتمل أنَّ المهدي محمد بن تومرت تبنى العقيدة الدينية لمحاربة الفقهاء من أتباع الدولة المرابطية.

أمَّا القضاة^(٦) كان لهم دورٌ بارزٌ في التصدي للموحدين، فالقاضي ابن رشد المتوفى سنة ١١٢٦هـ/ ١٢٢٠م نصح الأمراء المرابطين ببناء سور مدينة مراكش^(٧)، والقاضي أبو الفضل عياض بن موسى المتوفى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م^(٨) قاد مدينة سبتة للتصدي للموحدين^(٩)، والقاضي الذي

(١) ابن عبدون، محمد بن أحمد. (١٩٥٥م). رسالة في آداب الحسية ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسية والمحتسب. =تح: ليفي بروفنسال. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. القاهرة: مصر. ص ٢٨.

(٢) ذكر عمار سليم أنَّ المغرب الأوسط شهد انخفاضاً كبيراً في الثراء مع قلة في مشاريع البناء، وسبب ذلك هو الغزوات الهلالية وأثرها في الطرق التجارية التي تربط مدينة سجلماسة بالمغرب الأوسط والأدنى.

Baadj, Amar Salem. (2013) The Struggle for North Africa between ALmohads, Ayyubids, and Banu Ghaniya (Late Twelfth To Early Thirteenth centuries A.D.). PhD thesis. University of Toronto. p: 94.

(٣) ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٣. ص ٢٥٠.

(٤) هو مالك بن يحيى بن وهيب بن أحمد بن سعيد الأزدي من كبار الرجال بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها، أصله من لورة، وولد بإشبيلية سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م وتوفي بمدينة مراكش سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك. (١٩٨٩م). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم. تح: إبراهيم الإياري. ج ٣. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ص ١٠١. ص ٨٩٧.

(٥) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠١؛ الزركشي، محمد بن إبراهيم. (١٩٦٦م). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح: محمد ماضور. المكتبة العتيقة. تونس. ط ٢. ص ٥.

(٦) هم العلماء ورجال الدين الذين يعملون على تنفيذ أحكام الدين على سائر الرعية أيضاً، لكن بعد الرجوع إلى الفقهاء قبل إصدار أحكامهم. ابن عبدون. رسالة في آداب الحسية. ص ٩؛ حسن. الحضارة. ص ٣٤٢.

(٧) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٥٠-١٥١؛ ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٧٢-٧٣.

(٨) أبو الفضل عياض: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب، له مصنفات منها: الإكمال في شرح كتاب مسلم، ومشارك الأنوار والتبهيئات وغيرها من الكتب، ولد بمدينة سبتة سنة

جمع بين القضاء والقيادة العسكرية عمران بن إبراهيم الصنهاجي ندب لقتال قبيلة برغواطة^(٢).

وقد تميزت هذه الفئة من الفقهاء والقضاة بالثراء الفاحش عن بقية الرعية في عصر المرابطين، فالرعية كثيراً ما كانوا يلتفون حولهم يلتمسون الوساطة والشفاعة منهم رغم سوء صفاتهم، فمن اقترب منهم وعرف حالهم وصفهم بأهل السوء، وصورهم بمظهر المنافق المستغل للنفوذ، فهم فاسقوا الأخلاق في حياتهم الخاصة، لكنهم يدعون الصلاح والتقوى أمام الناس، حتى أنهم تعلموا الشريعة، وظهروا بمظهر المتورعين متقني علوم الدين؛ بهدف الوصول إلى المراتب العالية وجمع المال من أوقاف المساجد، وفي الليل يصرفون أموالهم على مجالس اللهو والفسق، ولا يهتمون بمعاونة الرعية^(٣)، لكنّ الناس هادنت وتقربت من بعضهم لمسلكتهم الصحيح وتزهدهم، ومع انهيار دولة المرابطين تزعم الفقهاء والقضاة مدّتهم في الأندلس، وأعلنوا الثورة^(٤)؛ ممّا تسبب فيما عرف بـ "عصر الطوائف الثاني".

خلاصة القول من ذلك: إنّ الحكومة المرابطة أبعدت القبائل المناهضة لها عن المناصب مثل قبيلة مصمودة التي استغلت سوء الأوضاع لإعلان نهضتها مع دعوة المهدي محمد بن تومرت.

(٣) فئة العامة:

يطلق اسم العامة على الناس كافة غنيهم وفقيرهم الذين لم يكن لهم مناصب إدارية في الدولة رغم أن المؤرخين أطلقوا اسم العامة؛ ليميزوهم عن الأشراف وأعيان البلد^(٥)، أما القصد من تناول هذه الفئة فهو تقسيمها إلى فئتين: أغنياء يستغلون النزاعات لتحصيل أرزاقهم، وفقراء عانوا من سياسة الاستغلال التي تبنتها الدولة، فأصبحوا الوقود الذي يغذي الثورات أو الجنود الذين يقمعونها.

أ- الأغنياء: تعدّ هذه الفئة صاحبة النصيب الأكبر من الجاه والمال؛ لأنّه عن طريقها تتم عملية البيع والشراء في الدول؛ ممّا جعلها تؤثر في المجتمع المرابطي سلبياً وإيجابياً، فبعض أفرادها

٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، تولى قضاء سبتة ثم نقل لقضاء مدينة غرناطة. ابن خلكان. (٩٧٠م). وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٤٨٣-٤٨٥.

(١) السلاوى. الاستقصا. ج ٢. ص ١١٣-١١٤.

(٢) هو من بيت بنى أبى الحاج الذين تولّوا القضاء فى مدينة فاس وعرفوا بالعدل. ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف. (٩٧٢م).

بيوتات فاس الكبرى. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب. ص ٤٤-٤٥.

(٣) ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم. (١٩٩٤م). **ديوان ابن خفاجة**. دار القلم للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ص ١٣٨؛ ابن قزمان، محمد بن عيسى. (١٩٩٥م). **ديوان ابن قزمان**. تح: فيديريكو كورينتي. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة: مصر. ص ٤٠٩-٤١٠؛ دندش. **الأندلس**. ص ٢٧٤-٢٧٥.

(^٤) الفضلي، مثني فليفل سلمان. (٢٠١٥م). الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. دار مكتبة عدنان. بغداد: العراق. ط١. ص٧١-٧٣؛ بوشيش. مباحث. ص١٤٨-١٤٩.

(^٥) ذكر أن العامة خلاف الخاصة. الصفي، خليل بن أبيك. (٢٠٠٧م). نكت الهميان في نكت العبيان. تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٢؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط. ص ٦٢٩.

اهتمّ بما يرضي مصالحه، ويحقق له رغباته فلم يهتم بالحروب^(١)، وبعضهم الآخر كان يقف إلى جانب الطبقة الحاكمة طالما تحقق له مصالحه، وإن لم تستطع تحقيق هذا الهدف، فإنّه لا يتردد في مساعدة الأعداء للتخلص منها، وهذا ما حصل مع قبيلة زناتة عندما عجزت عن حماية أهل السهول من غارات البدو، وفرضها للإتاوات على تجّار سجماسة، ومنازعة الملمّنين لها على الطرق التجارية المارة بديار جدالة ولمتونة؛ ممّا جعل الملمّنين يستغلون ذلك ليؤسسوا دولة المرابطين ذات السلطة السياسية التي تحفظ للتجار والسكان الأمن والاستقرار^(٢)، لكن دولة المرابطين أيضاً وقعت بما أصاب الدولة الزناتية في مرحلة الانحطاط من ارتفاع الأسعار والضرائب وهبوط مستوى المعيشة، فاحتكر التجار السلع مساهمين بذلك في إسقاط الدولة بسبب ما حلّ بالسكان من جوع وأوبئة^(٣)، أمّا التجار المخلصون والمنتفعون من سياسة الدولة التي دعمت تجارتهم^(٤) مثل تجار أغمات وسجماسة وسلا^(٥) فقد وقفوا مناصرين لها في حروبها جميعها حتّى أنّ تجار أغمات تصدوا للموحدين مع سكان المدينة^(٦).

وفي الأندلس كثيراً ما كانت تميل هذه الفئة إلى الشرب واللهو لاهيةً عمّا يحيط بالبلاد من خطر الممالك المسيحية الإسبانية، كما ظهر في قصيدة لأبي الحسن بن الجد؛ إذ وصف فيها الطبقة الأرستقراطية على أنّها طبقة تميل للإهمال والسكر؛ متعاضين عن أمور الجهاد والدفاع عن أرضهم^(٧).

ب- الفقراء: مثل هذه الفئة الفقراء وذوي الدخل المنخفض والعاجزين عن ردع آثار الحروب والمجاعات ودفع الضرائب، من صغار الصناع والمزارعين، والمدرسين وصغار التجار، ومن ضمنهم كانت فئة الطلبة التي اشتهر بها المصامدة^(٨) وقبائل البوادي الذين عانوا من تعالي أفراد قبائلهم على

(١) المقرئ. نفح الطيب. ج ٤. ص ٤٧٧.

(٢) القلقشندي. (١٩١٥م). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج ٥. المطبعة الأميرية. القاهرة: مصر. ص ٢٨٦-٢٨٧؛ محمود.

قيام دولة المرابطين. ص ٨٧-٨٩.

(٣) بونتشيش. مباحث. ص ٢١٠-٢١٥.

(٤) ذكر كاميلو أن أساس تأسيس دولة المرابطين هو السيطرة على الطرق التجارية المارة بالصحراء، وتوحيد قبائلها لخدمة مصالحهم.

Rivas, Camilo Gomez. (2020). Berber Role and Abbasid legitimacy: The AL moravids. Us Santa Cruz. p:95.

(٥) الإدريسي. نزهة المشتاق. ج ١. ص ١٠٥، ٢٣٩.

(٦) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٥٨.

(٧) ابن الخطيب، لسان الدين. (٢٠٠٣م). أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام. تح: سيد كسروي حسن. ج ٢. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢١٩-٢٢٠؛ دندش. الأندلس. ص ٢٧٨؛ ذكر الشنتريني ملهاة ب مذهب الشنتريني. النخبة. مج ١. ق ٢. ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٨) الفقيه عبد الله بن ياسين كان يبعث الأموال إلى الطلبة من المصامدة مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس. ابن أبي

غيرهم من أفراد القبيلة بسبب جبايتهم الضرائب إلى البلاط والاستفادة من الغنائم^(١).

وهذا ما أظهر تبايناً اجتماعياً كان سببه نقمة الفقراء على الأعيان والوجهاء والفقهاء، وأفضى إلى قيام ثورات مثل ثورة قرطبة^(٢)، وثورة غمارة التي قادها رجلٌ عرف باسم ابن الزنر بحارى^(٣)، وهذا ما خدم الدعوة الموحدية أيضاً، حيث قدم المهدي بن تومرت نظام الدولة المرابطية على أنه جهازٌ فاسدٌ مستبدٌ، خاصةً بعد ظهور المتسولين^(٤)؛ ممّا أدّى لتجاوب المجتمع المرابطي مع دعوتهم.

٤) المرأة:

كان للمرأة دورٌ بارزٌ ومكانة عالية داخل المجتمع المرابطي وفي حراكه السياسي، فتمتعها بالحرية^(٥) والنفوذ أعطاهما سلطة تحديد ولي العرش، وهذا ما أثار حفيظة المهدي محمد بن تومرت عندما نادى بالإصلاح، فزينب النفزاوية^(٦) زوجة الأمير يوسف بن تاشفين تمتعت بمكانة رفيعة في الدولة، حتّى أن تولية زوجها يوسف بن تاشفين كانت بنصيحة قدمتها له^(٧)، وقمر والدة سير بن علي بن تاشفين عزلت في بادئ الأمر تاشفين بن علي عن الولاية قبل أن تخفق في ذلك^(٨)، حتّى أنّ المرأة المرابطية برزت في ميادين أخرى مثل تميمة بنت يوسف بن تاشفين التي برزت في ميادين الشعر والأدب^(٩)، وفانو بنت عمر بن يئنان التي برزت في الحرب والقتال إلى جانب الرجال عند اشتداد أمر الموحدين^(١٠)، لكن ما دعم دعوة المهدي محمد بن تومرت وحجته ضد المرابطين وسياستهم هو ظهور المرأة سافرة الوجه في الأسواق واختلاطها بالرجال؛ ممّا أعطى أعداء الدولة

زرع. الأنيس المطرب. ص ١٢٦.

(١) بوتشيش. مباحث. ص ٢١٠، ٢٢٨-٢٢٩؛ مغنية، غرداين. (٢٠١٦م). نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين = الموحدين دراسة مقارنة (٥-٧هـ/١١-١٣م). دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة

أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر. ص ١٢٠.

(٢) مجهول. الحلل الموشية. ص ٨٦، ١٠٢.

(٣) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٥٨.

(٤) بوتشيش. مباحث. ص ١٩٠.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي. ص ١٣.

(٦) هي زينب بنت إسحق الهواري ابنة تاجر من مدينة القيروان، تزوجها الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين، وعندما أقدم الأمير على الذهاب إلى الصحراء طلقها لحسنها وجمالها حتّى أنها لقبّت بالساحرة لذكائها، هذا الذكاء الذي جعلها تنقّم من الأمير أبي بكر عند زواجها من الأمير يوسف بن تاشفين بتخليصه عرشه في بلاد المغرب ثمّ مقتله في الصحراء بسهم مسموم بسبب معرفتها لنقطة ضعفه من طيبة قلب وغيره على الإسلام. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٣٤-١٣٥؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢١-٢٢.

(٧) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٢٥؛ ابن الخطيب. أعلام الأعلام. ج ٣. ص ٢٣٢-٢٣٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٤٥.

(٨) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٩٧.

(٩) ابن القاضي. جنوة المقتبس. ج ١. ص ١٧٣-١٧٤.

(١٠) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٩.

المرابطة سبباً مقنعاً للانتفاضة في وجه هذه الظاهرة المخالفة لتعاليم الإسلام، فعندما رأى المهدي محمد بن تومرت أخت الأمير علي بن يوسف وهي سافرة الوجه مع جواريتها، أنكر ذلك وأمرهنّ بستر وجوههنّ، واستغل ذلك في اتهام المرابطين بالخروج عن الدين^(١).

خلاصة القول من ذلك: إنّ المرأة المرابطية قوية، وتتمتع بكثير من الحقوق؛ ممّا جعلها تسيطر على شؤون الدولة وهذا ما جعل الرجال ينتفضون في وجه هذه الظاهرة الاجتماعية غير المألوفة في بلاد المغرب العربي الإسلامي تحت راية المهدي محمد بن تومرت.

يُلاحظ مما تقدم أنّ المجتمع المغربي رغم تعدد فئاته وعناصره البشرية كان يعاني من الشرخ الاجتماعي والسياسي والسعي المتبادل بين قبائله للانفراد بالسلطة سواء بحجج تاريخية أو اجتماعية قبلية أو طبقية، رغم كلّ محاولات المؤرخين لإثبات نقيض ذلك بنسبهم إلى أقوام وشعوب تلبّي مصالحهم ودعواتهم كمساهمة في استغلال واقعهم الاجتماعي والقبلي وتحقيق غايتهم في السيطرة على القبائل المغربية الأخرى وتوجيهها، حتّى أسرى الحروب والرقيق كانت الغاية من إدخالهم إلى المغرب العربي الإسلامي تأزيم واقعه الاجتماعي^(٢)، خاصة أنّ الأمراء المرابطين والخلفاء الموحدين استغلوا ذلك لتحقيق مصالحهم السياسيّة على حساب من أنهوا وجودهم من دول ودعاة، وهذا ما سنتناوله الفصول القادمة من البحث.

خامساً: المذاهب في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس، وأثرها في الفكر السياسي

للدول:

إنّ للإسلام فرقاً ومذاهب، والأكثر أثراً فيها هو الأكثر عدة وعدداً، وهذا ما أدى إلى الاختلاف في الآراء والحياة الاجتماعية، فما يتبنّاه الناس من مذاهب، يسعون إلى سيادته وتطبيقه كقانون يحكم حياتهم، وهذه حياة قبائل المغرب التي ذكرها ابن خلدون على أنّها عصبية قبلية تميزهم ودعوة إلى حركة دينية تحفزهم على التغيير بدعوة ما، وتصحيح مسار حركة دينية وإصلاحها تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣) هذا المبدأ الذي يخفي وراءه أهدافاً ودوافع ثورية ضد السلطة لتحقيق حياة أفضل بعيداً عن حياة البداوة؛ ليبقى السؤال ما الأوضاع السياسية والمذهبية التي

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢١-٢٢؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٣؛ محمود. قيام دولة المرابطين. ص ٤١٦-٤١٧.

(٢) ذكر باسكال أنّ المرابطين في عهد الأمير يوسف بن تاشفين استخدموا العبيد والمرترقة؛ للتخلص من السلطة القبلية التي كانت أساس الدولة، وربما قصد عهد ابنه الأمير علي؛ لأنّ يوسف لم يظهر في عهده هذه النية علنياً بقدر ما ظهرت في عهد ابنه، ويُلاحظ من ذلك أنّ الخلفاء الموحدين استعملوا الأسلوب نفسه أيضاً.

Buresi, Pascal. (2018). Preparing The Almohad Caliphate: The Almoravids. University of Mariland. The Journal of Middle East Medievalists. P:60.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٩٩-٢٠٢، ٢٠٦؛ النجار، عبد المجيد. (١٩٩٥م). تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا. ص ٣١-٣٦.

أسهمت في التنوع المذهبي في المغرب العربي الإسلامي؟ وما المصادر الفقهية التي اعتمدت عليها عقيدة محمد بن تومرت لتحقيق مبادئ تتوافق مع طبيعة سكان المغرب العربي الإسلامي؟

من المعروف أنّ تاريخ المغرب العربي الإسلامي منذ منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي هو تغير مذهبي وانقسام سياسي متأثر بالتصدع السياسي للخلافة العباسية التي كونت دعوات مذهبية مختلفة سواء كانت سنية أو خارجية أو شيعية؛ ممّا أدى لاختلاط السياسة بالدين، ويردّ ذلك إلى اندماج عصر التابعين بتلاميذهم؛ لينقسم العالم الإسلامي إلى مدرستين: **مدرسة أهل الحديث**: متبنية أفكار الإمام الأوزاعي ت. ١٠٧هـ/ ٧٢٥م في الشام والإمام سفيان ت. ١٦١هـ/ ٧٧٧م في مكة والإمام مالك بن أنس ت. ١٧٩هـ/ ٧٩٥م في المدينة المنورة، و**مدرسة أهل الرأي**: متبنية آراء الإمام أبي حنيفة النعمان ت. ١٥٠هـ/ ٧٦٧م^(١)، فكانت هذه المدارس مصدر التفقه الديني وطلبة العلم المغاربة؛ لذلك من الطبيعي أن تؤثر الأوضاع السياسية والمذهبية للمشرق العربي الإسلامي في مغربه طيلة مرحلة الدراسة؛ فالمذاهب الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي كانت بمنزلة أحزاب سياسية تشكلت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان^(٢)، ومنها تفرق المسلمون إلى طوائف مذهبية وفرق كلامية، لتُعدّ كل طائفة مبادئها جزءاً من عقيدتها وقانوناً يجب تنفيذه ومثالاً أخلاقياً يجب الاقتداء به، وهذا يؤكد التطور الثقافي للإسلام^(٣) الذي امتدّ من المشرق العربي الإسلامي إلى مغربه حيث الأرض الخصبة والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الملائمة لما كانت تمرّ بها منطقة المغرب العربي الإسلامي من ظلم واضطراب سياسي ومذهبي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجريين/ أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين.

وأهم ما يميز الحقبة الأولى من التاريخ الإسلامي هو أنّها امتداد للمرحلة التي شملت ظهور المهدي محمد بن تومرت، فوضّع المغرب العربي الإسلامي في العصور الأولى مماثل لما كانت عليه الأوضاع عند ظهور المهدي محمد بن تومرت؛ لذلك لا بدّ من دراسة وافية لأوضاع المغرب والأندلس المذهبية وتأثيرها في السياسة العامة للدولة لاستنباط أسباب دعوة الإمام محمد بن تومرت الجديدة ومبادئها، وهذا لا يتمّ إلا بالتعرف إلى أهم المذاهب والفرق التي سيطرت على المغرب وتفاعلها مع بعضها لإنتاج دعوة تميز بها المهدي محمد بن تومرت.

١ - التعريف بالمذاهب المؤثرة في الفكر السياسي الموحيدي، وأماكن انتشارها في المغرب

العربي الإسلامي:

(١) الخضري، محمد بك. (١٩٧٠م). **تاريخ التشريع الإسلامي**. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ١٤٠-١٤١؛ سزكين، فؤاد.

(١٩٨٣م). **تاريخ التراث العربي**. تر: محمود فهمي حجازي. ج ٢. السعودية. ص ٢٢٣.

(٢) الجاحظ، عمر بن بحر. (د.ت). **رسائل الجاحظ**. تح: عبد السلام بن هارون. ج ٢. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ص ٧.

(٣) لقبال. **المغرب الإسلامي**. ص ١٤٨-١٤٩.

(١) **الخوارج:** أول الفرق انشفاقاً بأفكارها عن المبادئ الأولى للإسلام رغم أنهم يعدّون أنفسهم ليسوا بخارجين عن الدين الإسلامي إنّما خارجون لأجله، أمّا تاريخ حركتهم فمعظمه خروجٌ عن الحكام؛ لأنّهم يعتقدون أنهم لم يحققوا العدل؛ ولأنّ الخوارج يؤمنون وفق مبادئهم أن الإمامة الكبرى تجوز في غير قبيلة قريش، خاصةً أنها من الفرق المفرطة في استعمال العنف والتكفير لمن يخرج عن مبادئها^(١) هذا لم يساعدهم في تكوين دولة مستقلة في المشرق العربي، لكن عاونتهم على تكوين دول في المغرب العربي الإسلامي، وذلك بسبب وضوح مبادئهم وبعدها عن التعقيد، واستغلالهم سوء إدارة الحكام الأمويين لسكان المغرب العربي الإسلامي الذين كانت أنفسهم تنزع للاستقلال، وبفضل ذلك أسسوا بعد أن انقسموا إلى الخوارج الإباضية والصفورية دولتين هما دولة بني مدرار الصفورية بمنطقة سجماسة وأجزاء من الصحراء المغربية، ودولة بني رستم الإباضية في تاهرت وطرابلس الغرب وجبل نفوسة^(٢)، وقد كان للخوارج دورٌ في المجال السياسي في المغرب العربي الإسلامي قبل أن يذوبوا في المذاهب الأخرى؛ بسبب عدم اتخاذ مذهبهم شخصيةً قياديةً موحدةً يلتفون حولها ويمنع انقسامهم؛ ممّا سهل القضاء عليهم.^(٣)

(٢) **الشيعة (الإسماعيلية):** المذهب الشيعي من أهم المذاهب الإسلامية وأكثرها تأثيراً في المسلمين إلى جانب المذاهب السنية، ويعود ظهور التشيع لآل البيت إلى زمن حياة الرسول ﷺ^(٤) حيث عرف كلّ من التفّ حول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بلقب شيعي^(٥) ومبدؤهم في البداية يدور حول إمامته وولده من بعده^(٦)، ومنهم كان المقداد بن الأسود الكندي ت. ٣٧هـ/٦٥٧م

(١) فهم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة، سواء أكان خارجاً على الأئمة الراشدين أو على التابعين. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (١٩٩٢م). **الملل والنحل**. ج ١. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ١٠٦-١٢١.

(٢) عبد الرزاق، محمود إسماعيل. (١٩٨٥م). **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. دار الثقافة. الدار البيضاء: المغرب. ط ٢. ص ٥١-٥٥، ١١٠-١١١.

(٣) نسيم، نوار. (٢٠١١م). **النزاع السني الشيعي ببلاد المغرب وأثره في تجدد المذهب المالكي من قيام الدولة الفاطمية إلى حدوث القطيعة الزيرية (٢٩٦-٤٤٣هـ/ ٩٠٩-١٠٥١م)**. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر ٢ بوزريعة. الجزائر. ص ٢٦-٢٧.

(٤) تؤكد بعض الدراسات أن علماء الشيعة يحاولون إثبات ظهور التشيع مع ظهور الإسلام، وأنه لا أثر لظهور التشيع الروحي أو السياسي في عصر الرسول ﷺ، والانقسام إلى شيعة وسنة لم يكن له أثر في ذلك العصر، وهذا الادعاء جاء من متأخري مؤرخي الشيعة لاكتساب السند التاريخي والشرعي لقيام طائفة الشيعة، رغم أن الشيعة يعدّون أن السند قائم ولا حاجة لإثباته. عبد القادر، محمد أحمد. (٢٠٠٥م). **الأصيل والدخيل في الفكر الإسلامي**. دار المعرفة الجامعية. القاهرة: مصر. ص ١٧٩؛ نسيم. **النزاع السني**. ص ٤٨-٥١.

(٥) الرازي، أحمد بن حمدان. (د.ت). **الزينة في الكلمات العربية الإسلامية**. تح: عبد الله سلوم السامرائي. ج ٣. كلية دار العلوم. القاهرة: مصر. ص ٣٥؛ الأشعري، علي بن إسماعيل. (١٩٩٠م). **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تح: محمد محي الدين عبد الحميد. ج ١. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ص ٦٥.

(٦) الشهرستاني: **الملل**، ج ١، ص ١٤٤.

وسلمان الفارسي ت. ٣٥٠هـ/٦٥٥م^(١)، ثم تطور مفهوم التشيع ليقدم الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه والطعن بمن سبقهم من الخلفاء المسلمين رضي الله عنهم، وارتقى مفهوم التشيع فيما بعد حسب زعم بعض الباحثين ليتحول إلى مذهب إسلامي يحوي أفكاراً ومعتقدات مختلفة متأثرة بالاديان والمذاهب الأخرى^(٢)، وينقسم إلى فرق متعددة أهمها الإسماعيلية والاثني عشرية^(٣).

وما يعنى به البحث هو فرقة الإسماعيلية التي انتشرت في المغرب العربي الإسلامي تحت لواء الدولة الفاطمية، وتعود هذه الفرقة في فكرها إلى اتحاد تيارات فلسفية وباطنية تعمل تحت راية الإمام محمد بن إسماعيل ت. ١٩٨هـ/٨١٣م، فهم القائلون بإمامته وتفضيله على أعمامه بوصاية من الله بعد قضية وفاة أبيه الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وذلك لأن الإمامة حسب معتقدهم لا تنتقل من أخ إلى أخ آخر بعد الإمامين الحسن والحسين أبناء الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)^(٤)، والإمامة عندهم تنقسم إلى إمامة الاستقرار التي تمنح وراثياً للأبناء وإمامة الاستيداع التي تفوض مرحلياً وبصيغة مؤقتة للسلطة^(٥)، وحول الإمامة يدور المعتقد الشيعي للإسماعيلية، ومنه ينطلق مفهومهم السياسي في تسيير أمور الدولة^(٦).

ويُلاحظ من فكرهم أن الإمام لديهم يقابل الخليفة في المفهوم، وإن لم يطلق عليه هذا اللقب حتى أنه منصب إلهي كالنبوة^(٧)؛ وذلك لأنَّ الله حسب مفهومهم فوق متناول العقل البشري الذي يعجز

(١) النوبختي، الحسن بن موسى، والقمي، سعد بن عبد الله. (١٩٩٢م). فرق الشيعة. تح: عبد المنعم الحفني. دار الرشاد. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٢٨.

(٢) أمين، أحمد. (١٩٦٩م). فجر الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان. ص ٢٧٦؛ ديورانت، ول وإيريل. (د.ت). قصة الحضارة. تر: محمد بدران. مج ٤. دار الجليل. بيروت: لبنان. ص ١٣٠؛ تيسهر، أجناس جولد. (د.ت). العقيدة والشريعة في الإسلام. تر: محمد يوسف موسى. دار الكتب الحديثة. مصر. ط ٢. ص ٢٠٦؛ نسيم. النزاع السني. ص ٤٨-٥١.

(٣) الاثنا عشرية: هم الذين يدعون أنَّ الإمام المنتظر هو الثاني عشر من نسل الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فنقلت هذه الفرقة الإمامة من الإمام جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم ت. ١٨٣هـ/٧٩٩م. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. (١٩٨٨م). الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. تح: محمد عثمان الخشت. مكتبة ابن سينا. القاهرة: مصر. ص ٦٤.

(٤) النوبختي والقمي. فرق الشيعة. ص ٧٨؛ الرازي. الزينة. ج ٣. ص ٦٤؛ السمعاني، عبد الكريم بن محمد. (١٩٧٧م). الأنساب. تح: عبد الرحمن بن المعلمي اليماني، وآخرون. ج ١. دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد: الهند. ط ١. ص ٢٤٦.

(٥) مجاني، بوبة. (١٩٩٥م). النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي. دكتوراه غير منشورة. قسم التاريخ. معهد العلوم الاجتماعية. جامعة قسنطينة. الجزائر. ص ٨٢.

(٦) فهم يؤمنون أن للقرآن الكريم ظاهراً نصياً وباطناً معنوياً لا يعرفه سوى الإمام المعصوم وحده، بذلك يخضع الناس لسلطة الإمام الحاصل على علم الغيب، وهو ما يسمى بالتأويل الباطني كأداة مثلى للدعوة إلى المهدي المنتظر من آل البيت. القاضي النعمان، النعمان بن محمد. (١٩٩٦م). المجالس والمسائرات. تح: الحبيب الفقي، وآخرون. دار المنتظر. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٤؛ المراكبي، محمود. (١٩٩٦م). ظاهر الدين وباطنه (السلف- الباطنية- الشيعة- الصوفية). دار الطباعة والنشر الإسلامية. القاهرة: مصر. ص ١٧٩-١٨٤؛ مجاني. النظم الإدارية. ص ٧٨-٧٩.

(٧) الإمام عند الشيعة يقوم بإدارة أمور الدين والدنيا، وفي يده السلطة الروحية، ومن صفات الإمام عندهم أنه معصوم عن الخطأ، ويوثق به ثقة عمياء في جميع الشؤون. حسن. تاريخ الحشيشة. ص ٥٢.

عن إدراكه^(١)، والإمام يدير شؤون الناس، وهذا يشابه مفهوم خليفة الله على الأرض، لكن ما يميزهم عن باقي المذاهب الإسلامية أنهم عدّوا أن الأسماء والصفات التي صرفت للعقل الكلي هي نفسها أسماء وصفات الإمام^(٢)، وهذا يندرج تحت اسم التجسيم الذي عرف في الديانة المسيحية^(٣)؛ بحسبان السيد المسيح ذا طبيعتين إنسانية وإلهية.

كما عرفت الإسماعيلية بأهل التوحيد لتوحيدهم أسماء وصفات الله تعالى^(٤) تحت اسم العقل الكلي، وهذا الأمر لم يجزم به أهل السنة؛ لأنهم يقرون بالصفات الواردة فقط في القرآن الكريم والسنة والإيمان بها^(٥)، ولعلّ هذا ما جعل الفرق الشيعية تتبنّى أفكار فرقة المعتزلة المعارضة لأهل السنة^(٦)، لكن ذلك غير مؤكد لأنّ الخلاف يعود لأسباب سياسية أكثر منها دينية وذلك لما تعرض إليه الشيعة من ظلم الخلفاء الأمويين والعباسيين؛ لذلك انتشرت هذه الأفكار ووجدت غايتها في المغرب العربي الإسلامي، ومقاومة أهل المغرب العربي الإسلامي لعبد الله المهدي الذي ادعى الربوبية والخليفة المعزّ الذي ادعى النبوة والخليفة الحاكم لأمر الله الذي ادعى الألوهية^(٧) خير دليل على ذلك.

أما عن مناطق انتشار المذهب الشيعي في المغرب العربي الإسلامي كان بعد أن قدم رجالان من المشرق العربي الإسلامي بعثهما الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد (عليه السلام) سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ليبسط ظاهر علم الأئمة وينشر فضلهم^(٨)، وهي المرحلة التي كثفت فيها الإسماعيلية

(١) الخطيب، محمد أحمد. (١٩٩١م). **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي**. مؤسسة الإسراء. قسنطينة: الجزائر. ط ٢. ص ٨٥؛ وهذا يتناقض مع قولهم إنّ العقل هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة الكاملة والحقيقة المطلقة إلا إذا كان يقصد بالعقل هنا الإمام؛ لأنّه حسب رأيهم العقل الكلي في العالم الأعلى هو الله يقابله في العالم الجسماني الإمام. القاضي النعمان. (١٩٦٠م). **أساس التأويل**. =تح: عارف تامر. دار الثقافة. بيروت: لبنان. ص ٣٦٢؛ غالب، مصطفى. (١٩٦٥م). **تاريخ الدعوة الإسماعيلية**. دار الأندلس. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٥٠-٥١؛ السلومي، سليمان عبد الله. (٢٠٠١م). **أصول الإسماعيلية**. مج ٢. دار الفضيلة. الرياض: السعودية. ص ٥١٧-٥٢٣.

(٢) حسين، محمد كامل. (١٩٥٩م). **طائفة الإسماعيلية**. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: مصر. ط ١. ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) كذلك ذكرت الحابطية من أتباع أحمد بن حابط ت. ٢٣٢هـ/٨٤٦م أن ذكر الرب والملك في القرآن الكريم يقصد بهما السيد المسيح الذي تدرع بالجسد الجسماني؛ مؤكداً ذلك من قول الرسول ﷺ أن آدم خلق على صورة الله. **سورة الفجر**. الآية ٢٢؛ **سورة البقرة**. الآية ٢١٠؛ البخاري، محمد بن إسماعيل. (٢٠٠٢م). **صحيح البخاري**. دار ابن كثير. دمشق: سورية. ط ١. ص ١٥٥٤؛ البغدادي. **الفرق**. ص ٢٤١؛ الشهرستاني. **الملل**. ج ١. ص ٥٤.

(٤) نفى الإسماعيلية الأسماء والصفات الإلهية. الجرجاني، علي بن محمد. (١٩٨٥م). **التعريفات**. مكتبة لبنان. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٢٧.

(٥) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. (٢٠٠٨م). **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. تح: أسامة بن إبراهيم. ج ٦. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. القاهرة: مصر. ط ٤. ص ١٣٤-١٣٥.

(٦) عبد الرزاق، محمود إسماعيل. (٢٠٠٦م). **الحركات السرية في الإسلام**. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة: مصر. ط ٦. ص ١٤٦.

(٧) الثعالبي، عبد العزيز. (١٩٩٠م). **تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية**. تح: محمد إدريس، وأحمد ابن ميلاد. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٢٦٧-٢٦٨.

نشاطها وإرسالها الدعاة إلى الأقاليم الإسلامية المختلفة في منتصف القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي، وذلك يعود إلى قوة الدولة العباسية وضغطها على الإسماعيلية للانتقال من مدينة الكوفة في العراق إلى مدينة السلمية في حماة؛ إذ كانت دعوتهم سرية وهذا ما أخاف الدولة العباسية التي انطلقت دعوتها أيضاً من الكوفة^(٢)، ولم تتمكّن الإسماعيلية من إعلان مبادئها إلا بعد أن أسسوا أول دولة لهم في اليمن بعد دعوة ابن حوشب ت. ٣٠٢هـ/ ٩١٤م إلى المهدي من آل البيت حوالي سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م^(٣)، ومن اليمن انطلق دعائهم إلى المناطق المختلفة التي كانت من ضمنها مصر والمغرب العربي الإسلامي^(٤)، ولم يثبت المذهب الإسماعيلي نفسه في المغرب العربي الإسلامي إلا مع وصول عبد الله الشيعي بأمر من ابن حوشب، ولعلّ كلّ الذين سبقوا أبا عبد الله كانوا للتمهيد فقط^(٥)، ولم يتوسع المذهب في المغرب العربي الإسلامي إلا بعد إنشاء الدولة الفاطمية من قبل الإمام عبد الله المهدي الذي أوضح مبدأ الإمامة في المعتنق الشيعي بإعلانه الخلافة على المسلمين؛ ليشمل المذهب جميع المناطق التي سيطرت عليها الدولة، ولم ينتشر في المغرب الأقصى والأندلس؛ وإنما تسرّب إلى بعض مناطقها، وذلك لمعارضة الدولة الأموية في الأندلس والأدارسة في المغرب الأقصى للمذهب الشيعي وتبنيهم المذاهب السنية.

٣) المذاهب السنية:

ساد في المغرب العربي الإسلامي عددٌ من المذاهب السنية التي لم يكتب لها البقاء (الملحق رقم ٩، ص ٢٦٠-٢٦١)، بسبب قوة تعلق أهل المغرب العربي الإسلامي بالمذهب المالكي، ولأنّها اختصرت نشاطها على مناطق جغرافية معينة، ولم تؤسس مدارس مختصة بها لتزيد من تعلق أهل المغرب بها؛ لكن من أهم هذه المذاهب التي أثرت في حركة الموحدين ودعوتهم كان:

أ- **المذهب الظاهري**: ينسب المذهب إلى مؤسسه داود بن علي الملقب بالظاهري ٢٠١-٢٧٠هـ/ ٨١٦-٨٨٢م، وهو من المذاهب التي تعتمد ظاهر النصوص من الكتاب والسنة، وتتكبر القياس^(٦) والرأي^(١) والتأويل^(٢)؛ وهذا ما جعل العلماء والفقهاء يتهمون المذهب بالبدعة^(٣)؛ لأنّ القياس

(١) الرجلان هما الحلواني وأبو سفيان اللذان توفيا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. القاضي النعمان. (١٩٧٥م). **افتتاح الدعوة**. تح: فرحات الدشراوي. الشركة التونسية للتوزيع. تونس. ط ٢. ص ٢٦-٢٧.

(٢) لقبال، موسى. (١٩٧٩م). **دور كتابات في تاريخ الخلافة الفاطمية**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ص ٢٠٤؛ عطوان، حسين. (د.ت). **الدعوة العباسية مبادئ وأساليب**. دار الجليل. بيروت: لبنان. ص ١٩٥-١٩٩.

(٣) الحمادي، محمد بن مالك. (١٩٩٤م). **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**. تح: محمد بن علي. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء. ط ١. ص ٩٣؛ حسين. **طائفة الإسماعيلية**. ص ٢٢.

(٤) القاضي النعمان. **افتتاح الدعوة**. ص ١٧-١٨.

(٥) ابن الأثير. (١٩٨٧م). **الكامل**. ج ٦. ص ٤٥٠؛ نسيم. **النزاع السني**. ص ٧٨-٧٩.

(٦) القياس: هو الدليل الرابع من أدلة الفقه، وهو لفظ له إطلاقان: الأول: التقدير: أي معرفة قدر أحد الأمرين بالآخر، والثاني:

حسب رأيهم بدعة ودليل خلاف القرآن الكريم وإجماع الصحابة، أما أهم مناطق رواج المذهب كانت الأندلس^(٤) التي انتشرت فيها ظاهرة التحايل على نصوص الشريعة لدى الفقهاء والمناظرات في المسائل العقدية حول الأسماء والصفات^(٥).

بـ المذهب المالكي: مذهب الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر ٩٣- ١٧٩هـ/ ٧١٢-٧٩٥م من قبيلة الأصابع بن حمير اليمنية^(٦)، تعود جذور المذهب إلى مدرسة أهل الحديث^(٧)، ويعتمد المذهب على الاستنباط^(٨) والتحليل في أحكامه، وقواعده من النصوص وما يتوافق معها من اجتهاد وقياس^(٩)، ومن أهم كتب المذهب "الموطأ" الذي يعتمد على فقه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتاويه^(١٠)، على الرغم من أن الإمام مالك لم يشر إلى أصول مذهب كما فعل الشافعي

المساواة بين الشيعيين، وهو حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما في حكم أو صفة مستتبطة منه. الباجي، سليمان بن خلف. (٢٠٠٣م). الإشارة في أصول الفقه. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٧٦؛ الكلبى الغرناطي، محمد بن أحمد. (٢٠٠٣م). تقريب الوصول إلى علم الأصول. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٨٥. ^(١) الرأي: اعتقاد إدراك صواب الحكم الذي لم ينص عليه، أما الاجتهاد، فهو معنى طلب الصواب. الباجي. (٢٠٠٣م). الحدود في الأصول. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١١٨.

^(٢) تأويل الكلام أي عاقبته وما يؤول إليه، والتأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح يحتمله، لدليل دل عليه ذلك، أما من عرف أو لوضح أو استعمال، فإذا ورد وجب حمله على ظاهره إلا أن يرد دليل يصرفه عن ذلك الظاهر إلى بعض = ما يحتمله. الباجي: الحدود في الأصول، ص ١٠٩؛ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد. (٢٠٠٥م). مذكرة أصول الفقه عن روضة الناظر. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع. مكة المكرمة: السعودية. ط ١. ص ٢٧٥-٢٧٦؛ صالح، محمد أديب. (١٩٩٣م). تفسير النصوص في الفقه الإسلامي. المكتب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ٣٦٦.

^(٣) الونشريسي، أحمد بن يحيى. (١٩٨١م). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب. ج ٢. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية. الرباط: المغرب. ص ٤٩١.

^(٤) ابن الفرسي. تاريخ علماء الأندلس. ج ١. ص ٢٩٧. ^(٥) الحشني، محمد بن الحارث. (٢٠٠٦م). طبقات علماء إفريقيا. تح: محمد بن أبي شنب. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص ٢٢٠؛ الإدريسي، علي. (٢٠٠٥م). الجدل الفكري في القبروان من خلال كتاب رياض النفوس للمالكي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ص ١٢٧-١٤٠.

^(٦) ابن سعد، محمد بن منيع. (٢٠٠١م). كتاب الطبقات الكبير. تح: علي محمد عمر. ج ٧. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٥٧٠؛ القاضي، عياض بن موسى. (١٩٨٣م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تح: محمد بن تارويت الطبخي. ج ١. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط: المغرب. ط ٢. ص ١٠٤؛ المالكي، ابن فرحون. (د.ت). السديج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تح: محمد الأحمد أبو النور. ج ١. دار التراث للطباعة والنشر. القاهرة: مصر. ص ٨٢.

^(٧) ابن قتيبة صنف الإمام مالك ضمن أهل الرأي وابن خلكان قال إنه استعمل الرأي. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. (١٩٦٩م). المعارف. تح: ثروت عكاشة. القاهرة: مصر. دار المعارف. ص ٤٩٩؛ ابن خلكان. (د.ت). وفيات الأعيان. ج ٤. ص ١٣٧-١٣٨.

^(٨) الاستنباط: هو استخراج المعاني من النصوص الشرعية بفرط الذهن. الشريف الجرجاني. التعريفات. ص ٢٢. ^(٩) ينقسم المجتهدون من الفقهاء والأئمة إلى أهل الحديث وهم أهل الحجاز من أصحاب مالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري؛ وذلك لأنهم يعتنون بتحصيل الحديث وبناء الأحكام؛ معتمدين على النصوص ولا يرجعون للقياس ما وجدوا خبراً أو أثر، أما أهل الرأي وهم أهل العراق من أصحاب أبي حنيفة كان أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستتبطن من الأحكام وبناء الحوادث عليها. الشهرستاني. الملل. ج ١. ص ٢١٧-٢٢١؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ٥٦٤.

^(١٠) يحيى، عز الدين. (٢٠٠٤م). آفاق المذهب المالكي في القرن الجديد من خلال أصوله وخصائصه. مجلة البحوث العلمية

في كتابه "الرسالة" إلا أنه يمكن استخلاص أهم أصول مذهب من فتاويه ومسائله التي رتبها في كتابه الموطأ، لذلك كان أهم أصول المذهب كتاب الله والسنة النبوية، والقياس، والإجماع، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابة، والمصلحة المرسله، وسد الذرائع، والاستصحاب^(١)، والاستحسان^(٢).

أما عن دخوله لبلاد المغرب العربي الإسلامي، فقد اختلفت الدراسات في تحديد وجهته إلى المغرب العربي الإسلامي؛ إذ ذكر أنه دخل من الأندلس منذ مطلع القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي على يد البعثات والوفود التي كانت تتجول بين العدوتين^(٣)، لكن فريقاً آخر قال إن مصر هي بوابة المذهب للمغرب العربي الإسلامي بعد نشره باليمن في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وتأسيس المدرسة المالكية من قبل عثمان بن الحكم الجذامي ت. ١٦٣هـ/ ٧٧٩م وعبد الرحمن بن خالد الجمحي ت. ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، ثم نقل إلى المغرب العربي الإسلامي^(٤)؛ وفي عصر الأدارسة نشر بتأثير من الفقيه جبر الله بن القاسم الذي أدخل المذهب إلى مدينة فاس^(٥) وكتاب الموطأ الذي أدخل على يد القاضي عامر بن محمد بن سعيد القسي^(٦)، أما مصر فقد أسهمت بنشره في إفريقية والمغرب الأوسط^(٧)؛ رغم أن مدينة القيروان قوي فيها المذهب على يد العلماء الذين كان أبرزهم سحنون^(٨) حين تولى القضاء في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي .

والدراسات الإسلامية. ع ١٠. الجزائر. ص ٣٧٢.

(١) الاستصحاب: الحكم الذي يثبت في الزمن الثاني بناء على الزمن الأول. الشريف الجرجاني. التعريفات. ص ٢٢.

(٢) أبو زهرة، محمد. (١٩٥٢م). مالك حياته وعصره وآرائه وفقهه. دار الفكر العربي. القاهرة: مصر. ص ٢٧٦.

(٣) ومنهم كان الغازي بن قيس ت. ١٩٩هـ/ ٨١٤م وزيد ابن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشطبون ت. ٢٠٤هـ/ ٨١٩م تلامذة الإمام مالك، ثم بني جامع القرويين سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. القاضي عياض. ترتيب المدارك. ج ١. ص ٢٥-٢٧؛ ج ٣. ص ٨٠؛ جلاب، حسن. (١٩٩٥م). الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب. ط ٣. ص ١٧.

(٤) لأن مصر بوابته والحجاج المغاربة تزودوا بالأفكار المالكية بعد أن عبروها للوصول إلى المدينة المنورة، كما أسهم طلاب المغاربة الذين توجهوا للمدينة المنورة في نشر المذهب في بلادهم بالمغرب. القاضي عياض. (١٩٨٣م). ترتيب المدارك. تح: عبد القادر الصحراري. ج ٣. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ص ٥٤-٥٥، ٣٦٣-٣٦٨؛ ابن فرحون. السديج المذهب. ج ١. ص ١٨٧؛ بلعيد، محمد منصور علي. (٢٠١٣م). أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي وانكفاؤه في اليمن حتى القرن الرابع الهجري (دراسة مقارنة). الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك. الجامعة الأسمرية الإسلامية. ليبيا. ص ٩١٦.

(٥) الجزائني. زهرة الآس. ص ٩٥.

(٦) الجيدي، عمر. (١٩٩٣م). مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، طبعة المغرب. ص ١٩؛ ذكر ابن حوقل وجود جماعة مالكية وشيعية بالمناطق الجنوبية لبلاد المغرب (منطقة السوس). ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٩٠.

(٧) ليس من المؤكد دخوله إلى هذه المناطق إن كان في القرن الثاني أو الرابع الهجري/ الثامن أو العاشر الميلادي. الجيدي. مباحث. ص ١٩.

(٨) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن ربيعة؛ أبو سعيد لقب بسحنون لحدثه في المسائل، أصله من الشام من مدينة حمص، ولد سنة ١٦٠هـ/ ٨٧٧م، حصلت له رئاسة المذهب المالكي بإفريقية وأصبح قاضي مدينة القيروان، توفي سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. أبي العرب، محمد بن أحمد. (د.ت). طبقات علماء إفريقية. دار الكتاب اللبناني. لبنان. ص ١٠١-١٠٤؛ المالكي. رياض النفوس. ج ١. ص ٣٤٥-٣٧٥؛ القاضي عياض. (١٩٨٣م). ترتيب المدارك. تح: عبد القادر الصحراري. ج ٤. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. ص ٤٥-٨٨.

أما الجانب الغربي من المغرب الأوسط خاصة في مدينة تنس، فيعود نشر المذهب إلى الاستقرار في الأندلس^(١)، كما ذكر البكري أن مدينة تلمسان دار للعلم وحملة رأي على المذهب المالكي^(٢)؛ وتعود أهمية ذكر مناطق انتشار المذهب المالكي وكيف دخل إلى المغرب العربي الإسلامي، لتشابهها مع دخول العقيدة التومرتية إلى المغرب، ومناطق انتشارها كما سيلاحظ فيما بعد.

٤) **المعتزلة:** أتباع واصل بن عطاء الغزال ٨٠-١٢١هـ/٦٩٩-٧٤٩م، يعتمد مبدؤهم على التوحيد والعدل ويبني على أساس التناهي في الأفكار السائدة في عصرهم، أخذوا بعض الأفكار عن الفرق والمذاهب التي سبقتهم، فعن الجهمية القول بنفي الصفات وخلق القرآن الكريم متفقين بذلك مع الخوارج الإباضية أيضاً، وعن الخوارج مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتفقوا مع الشيعة في كثير من الآراء عن الإمامة، لكن أساس مذهبهم خمسة أصول، هي: التوحيد والعدل، إنفاذ الوعيد، المنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣).

ورغم أن الدراسات تؤكد أن المعتزلة لم يكن لهم نشاط ملحوظ في المغرب العربي الإسلامي قبل ظهور المهدي محمد بن تومرت؛ مستندين إلى ما ذكره الشهرستاني الذي عاصر فترة قيام دولة الموحدين "وبالمغرب الآن شرذمة قليلة"^(٤)، إلا إن الإشارات تدل على دور المعتزلة قبل انتشار المذهب المالكي في المغرب العربي الإسلامي^(٥)، وذكر ياقوت الحموي أن الوصلية كانوا قريبين من مدينة تاهرت، وأشار إلى أن عددهم نحو الثلاثين ألف يقيمون في بيوت كيبوت الأعراب يحملونها^(٦)، وهذا يدل على أنهم ذابوا في المجتمع المغربي في عصر الموحدين بعد أن نشروا معتقدهم بقوة السلطان عندما احتلوا أعلى المناصب في عصر الأغلبية الذين تبنا مذهبهم^(٧)، فتسبب ذلك بكره

(١) بلعيد. أسباب انتشار المذهب المالكي. ص ٩٢١.

(٢) البكري. المغرب. ص ٧٧.

(٣) التوحيد: نفي الصفات عن الله وإثبات أسماء لا معاني لها، العدل: نفي القدر، وأن العباد خالقون لأفعالهم، إنفاذ الوعيد: خلود مرتكب الكبيرة بالنار، المنزلة بين المنزلتين: أن الفاسق لا مؤمن ولا كافر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: جواز الخروج على الأئمة. الشهرستاني. الملل. ج ١. ص ٣٦ وما بعدها.

(٤) الشهرستاني. الملل. ج ١. ص ٤٠.

(٥) ذكر ابن حوقل انتشار الاعتزال بين قبائل زناتة، وأشار البكري إلى أن زعيم قبيلة أوروبا كان معتزلاً قبل تأسيس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى. ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٩٤؛ البكري. المغرب. ص ١١٨؛ وأكبر انتشار لهم كان في المغرب الأدنى وإفريقية في عصر الأغلبية، ولعل الشهرستاني قصد بقوله المغرب الأقصى والأندلس؛ لأن واصل بن عطاء بعث أصحابه إلى الأمصار؛ لينشروا مذهبه، وكان من بينهم عبد الله بن الحارث الذي بعثه إلى إفريقية. المجذوب، عبد العزيز. (١٩٧٥م). الصراع المذهبي بإفريقيا. الدار التونسية للنشر. تونس. ص ٩٢-٩٣.

(٦) ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٢. ص ٨.

(٧) تماشياً مع قرار الخليفة العباسي المأمون قام الأمير الأغلبي زياد الله الأول بتقديم الاعتزال كمذهب عقدي رسمي في دولته. الطالبي، محمد. (١٩٩٥م). الدولة الأغلبية التاريخ السياسي. تر: المنجي الصيادي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٢٥٨-٢٦٠.

المذاهب الأخرى لهم، حتى أنهم وقفوا في وجه امتدادهم في شمال إفريقيا ومنهم من كان المذهب المالكي الذي قال فيه أسد بن فرات ت. ٢١٣هـ/٨٢٨م عن كتاب التوحيد "أو جهل الناس التوحيد ليضع لهم فيه كتاباً؟ هذه نبوة ادّعاها"^(١)، بذلك وقف المذهب المالكي في وجه امتدادهم^(٢)، في حين أنّ المعتزلة وقفت في وجه المذهب الحنفي بتسميته مرجئاً^(٣)؛ لأنّه يعرف الإيمان بأنه تصديق للقلب^(٤)، ولم يقتصر الأمر على السبب المذهبي بل كان هناك أسباب سياسية وعقائدية منها العداء بين الأمويين في الأندلس والعباسيين الذين يمثلهم الأغلبية في المغرب العربي، ومعتقد المعتزلة ذو النظر الفلسفي والتعقيد العقدي والتأويلات النظرية^(٥)، فهذا أمر يصعب على البربر فهمه لميلهم نحو الوضوح أكثر من الحجج العقلية، ولكن أهم ما يحسب للمعتزلة في المغرب العربي الإسلامي في مسلك المعتقد هو دورهم في خروج فقهاء السنة من مجالات الفقه والرواية إلى مجالات الخوض في الكلام والتأويل^(٦).

٥) مذاهب مختلفة خارجة عن الإسلام، ومؤثرة في الفكر السياسي الموحد:

كان المغرب العربي الإسلامي موطناً للديانات المختلفة قبل دخول الإسلام، منها الوثنية واليهودية والمسيحية ومع دخول الإسلام انضم البربر إلى المذاهب والعناصر المعادية للمذهب السني؛ بسبب ما لقوه من ظلم الولاة الأمويين، وعدم توغل الإسلام إلى البوادي والجبّال، فصدقوا كل معتقد يقوده رجل بربري منهم، وذلك لتحقيق مبدأ حكم أنفسهم بأنفسهم؛ ممّا تسبب بظهور الديانة البرغواطية^(٧) والغمارية^(٨) وديانة عاصم بن جميل المقلد للديانة الغمارية^(٩)، ولم يقتصر الأمر على

(١) المالكي. رياض النفوس. ج ١. ص ٢٦٤.

(٢) المقدسي. أحسن التقاسيم. ص ٢٣٦؛ المقري. نفح الطيب. ج ٣. ص ١٧٦.

(٣) المرجئة: هم الذين قالوا بتفضيل الإيمان على العمل. الشهرستاني. الملل. ج ١. ص ١٣٧.

(٤) الشهرستاني. الملل. ج ١. ص ١٣٩.

(٥) غلاب، عبد الكريم. (٢٠٠٥م). قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٦) نسيم. النزاع السني. ص ٣٧.

(٧) الديانة البرغواطية: مؤسسها صالح بن طريف الذي ادّعى النبوة في القبيلة المصمودية، وأن القرآن نزل عليه بلسان البربر، وأنه المهدي الأكبر، والسيد المسيح يكون من أصحابه. البكري. المغرب. ص ١٣٤-١٤١؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٣٠-١٣١؛ السلاوي. الإستقصا. ج ٢. ص ١٥-١٦.

(٨) الديانة الغمارية: ادّعى النبوة رجل من قبائل غمارة المصمودية يدعى حاميم بن أبي خلف من الله، ووضع قرآناً بلغتهم، ووضع لهم قواعد في الصوم والصلاة والمحرمات. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٩٨-٩٩.

(٩) عاصم بن جميل: من الخوارج الصفرية ادّعى النبوة والكهانة، زاد في الصلاة واسقط ذكر الرسول ﷺ، استولى على القيروان سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، ثم سار لقتال عبد الرحمن بن حبيب الفهري في جبال الأوراس، فانتصر عليه. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٤. ص ٢٤٤؛ محميد، أحمد جاسم والمعموري، محمد عبد الله. (٢٠١٥م). قبيلة زناتة وأثرها في حركة الخوارج في المغرب العربي. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. ج ٢٣. جامعة بابل. العراق. ص ٣٢٦.

ذلك ففي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي آمن أهل نواحي تلمسان بمؤذن أول القرآن الكريم^(١).

٢- التفاعل المذهبي في المغرب العربي الإسلامي والأندلس، وأثره في السياسة العامة

للدولة:

عندما تغيب هوية المواطنة تستيقظ الهويات الأخرى؛ فالمغرب العربي الإسلامي في المرحلة السابقة للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عرف مذاهب فقهية مختلفة وقفت أمام امتداد الخوارج في المغرب والأندلس؛ ليتسبب ذلك بالتنوع المذهبي والفقهي الذي كان قوامه المنافسة بين المذاهب الإسلامية؛ إذ عرفت إفريقية نوعاً من الحرية الفكرية عندما سيطر عليها المذهب الحنفي على حساب المذهب الثوري تحت لواء دولة الأغلبية؛ ممّا أتاح لأتباع المذاهب والفرق المخالفة من التحليق في جامع مدينة القيروان^(٢)، أمّا في الأندلس انتشر المذهب المالكي على حساب المذهب الأوزاعي ليشمل المغرب الأقصى أيضاً بصيغة مباشرة، وغير مباشرة إفريقية والمغرب الأوسط، إذ يعدّ المذهبان الإسماعيلي والمالكي من أكثر المذاهب انتشاراً بين سكان المغرب العربي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ وذلك لطبيعة الصراع بين المذهبين فكل واحد منهما يريد الامتداد على حساب الآخر، ويبقى السؤال هنا ما الرابط بين الامتداد المذهبي والامتداد السياسي في المغرب العربي الإسلامي؟ وما الظروف المذهبية التي أتاحت للمهدي محمد بن تومرت فرصة تكوين معتقد جديد أسهم في تجديد المذهب المالكي؟ وهل تعود الفكرة إلى عصر سابق لعهد المهدي محمد بن تومرت؟

للإجابة عن ذلك لابدّ من عرض الوضع السياسي، وتأثيره في الصراع الفكري العقائدي في المغرب العربي الإسلامي؛ خاصة أنّ المصادر تؤكد أنّ المذهب المالكي فرض بقوة السلطان لأسباب سياسية أكثر منها دينية، وذلك لأنّ الخوارج كثرت ثوراتهم بعد انتشار أفكارهم بين البربر، كما قاموا بأعمال انتقامية بحق سكان مدينة القيروان العرب خصوصاً في سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م من قبل قبيلة ورفجومة^(٣)، ومن أجل إيقاف ذلك اختار أهل إفريقية المذهب المالكي لإبطال امتداد المذهب الخارجي؛ لأنّه أكثر المذاهب السنية تحاملاً على الخوارج^(٤)، وعندما قامت الدعوة الفاطمية بين قبيلة كتامة في سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بقيادة أبي عبد الله الشيعي ونجاحها في تأسيس دولة اتخذ مؤسسها الإمام عبد الله المهدي لقب أمير المؤمنين المهدي بالله، وهنا ظهر المعنى الحقيقي للإمامة وهي

(١) جلاب. الدولة الموحدية. ص ١٤.

(٢) الهنتاتي، نجم الدين. (٢٠٠٤م). المذهب المالكي بالغرب الإسلامي. منشورات تير الزمان. تونس. ص ٢١.

(٣) الرقيق القيرواني، إبراهيم بن القاسم. (١٩٩٤م). تاريخ إفريقيا والمغرب. تح: محمد زينهم محمد عزب. دار الفرجاني للنشر والتوزيع. مصر. ص ٨١؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٤. ص ٢٤٤؛ محميد والمعموري. قبيلة زناتة. ص ٣٢٦.

(٤) الهنتاتي. المذهب المالكي. ص ٩٠-٩١.

خلافة المسلمين، وكان ذلك بتعهد الخليفة عبد الله بإزاحة العباسيين، وتقويض النظام الذي شيده أعداؤه الأمويون بالأندلس^(١)، بالفعل نجح الفاطميون في القضاء على الأغلبية، وأزاحوا الخلافة العباسية عن المغرب العربي الإسلامي، لكن نجاحهم كان محدوداً في الأندلس والمغرب الأقصى^(٢)،^(٣)، وكانت المنطقتان على المذهب السني^(٤)؛ ممّا أسهم في تدخل الأمويين بالأندلس؛ ليقسم البربر في المغرب العربي الإسلامي إلى البتر والبرنس؛ مستغلين العداء بينهم منذ القدم، وتسخيرهم لخدمة المصالح السياسية والأطماع التوسعية للدولتين الفاطمية والأموية، بذلك تحول المغرب العربي الإسلامي لساحة صراع بين النظامين، أدى لتقسيمه إلى مغرب أقصى تحت سلطة الدولة الأموية، وأوسط تحت زعامة زناتة، وأجزاء من غرب المغرب الأوسط وإفريقية تحت زعامة الدولة الفاطمية، كلّ ذلك كان سبباً لتقوية المذهبين الشيعي والمالكي في المغرب العربي الإسلامي ومصر^(٥)؛ يُلاحظ من ذلك أنّه كان أحد أسباب دخول الفاطميين لمصر وتضييقهم على أهل السنة فيها، كما كان سبباً في هجرة عددٍ من فقهاء المذهب المالكي إلى الأندلس خاصةً إلى مدينة قرطبة^(٦)، في حين أنّ المذهب السني أصبح سرياً في مدينة القيروان في العصر الفاطمي^(٧)، واتهم أتباعه بالجاسوسية لمصلحة الدولة الأموية بالأندلس، كما حدث مع أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن يزيد المعروف بابن

(١) القاضي النعمان. افتتاح الدعوة. ص ٢٩٣-٢٩٤؛ طقوش، محمد سهيل. (٢٠٠٧م). تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام. دار النفائس. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٧٩.

(٢) ذلك يعود لتأصل المذهب المالكي في تلك المناطق؛ إذ عملوا على جذب أهل الأندلس لإثارة الفوضى كمساهمة لإسقاط النظام الإداري، وأرسلوا الدعاة إلى أطراف المغرب الأقصى. زغروت، فتحي. (٢٠٠٦م). العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي. دار التوزيع والنشر الإسلامية. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٢٦٠-٢٦٨؛ طقوش. تاريخ الفاطميين. ص ١١٤-١١٥.

(٣) عندما دعموا ثورة عمر بن حفصون في الأندلس ٢٦٧-٣٠٥هـ/٨٨٠-٩٠٧م الذي اعترف بإمامة عبد الله المهدي، فمدّت إليه الدولة الفاطمية يد العون، وأرسلت بعض قطع الأسطول لمده بالذخائر سنة ٣٠١هـ/٩١٣م. ابن عذاري. (١٩٨٠م). البيان. تح: ج. س كولان، وليفي بروفنسال. ج ٢. دار الثقافة. بيروت: لبنان. ص ١٦٥؛ الرويضان، سعد سالم مرشد. (١٩٩٨م). ثورة عمر بن حفصون وأولاده في جنوب الدولة الأموية في الأندلس. ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. الأردن. ص ١٣٤-١٣٥، ١٩٠، ٢٠٤-٢٠٦؛ وعندما أرسلوا دعوة لصالح بن سعيد صاحب نكور في المغرب الأقصى للدخول في طاعتهم وإلا استعملوا القوة معه، لكنه رفض، فأحرز الفاطميون النصر عليه وعلى الأدارسة في مدينة فاس. ابن الأبار. الحلة. ج ١. ص ١٩٣-١٩٤؛ ابن عذاري. البيان. ج ١. ص ١٩٨-٢٠١؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٤) الطاهري، أحمد. (١٩٩٨م). إمارة بني صالح في بلاد نكور. الخزانة العامة للكتاب والوثائق. المغرب. ص ٧٥-٧٦.

(٥) لأنّ المكاسب الجغرافية والسياسية (الجيوستراتيجية) لا تثبت دون دعم مذهبي، خاصةً أن الأمويين امتدّ تأثيرهم إلى دعم فقهاء المالكية في مصر من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر بإرساله الأموال إليهم. زغروت. العلاقات. ص ٢١، ٩٩، ١٧٦ وما بعدها؛ وهذه محاولة لتطويق الدولة الفاطمية، كما أنّ الأمويين أكدوا أنّ المذهب المالكي خالٍ من البدع، ومن سوء القول بحق غيره من المذاهب. الونشريسي. المعيار المغربي. ج ٢. ص ٣٣٣.

(٦) الحميري. الروض المعطار. ص ٤٥٦.

(٧) القاضي عياض. (١٩٨٢م). ترتيب المدارك. تح: محمد بن شريف. ط ٢. ج ٥. المغرب. مطبعة فضالة. ص ١٢١.

الأزرق ت. ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م عندما كذب ما يقوله الشيعة^(١)، وقال: "لا مهدي إلا عيسى بن مريم"^(٢)، هذا بالنسبة للسبب السياسي أما السبب العقائدي في اختيار المذهب السني المالكي لمواجهة المدّ الخارجي، ومن بعده الفاطمي كان لأنّه ينص على أهمية اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم والمحافظة على روح الأمة، وهذا ما جعله بحسب رأي حسين مؤنس سبباً لقبول الناس للمذهب بسبب ما عانوه من ثورات وميولهم للوحدة والتمسك بالنصوص القائمة على طاعة الأئمة المسلمين، فيجمع الناس على رأي واحد من دون تشتت أفكارهم حول قضايا الفقه^(٣)، وهذا أيضاً ما وجده المرابطون مناسباً لوقف المدّ الشيعي في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين خاصة مع تفاعل الأسرة الزيرية مع المذهب المالكي، ورغم محاولة المرابطين توحيد المغرب والأندلس تحت لواء المذهب المالكي إلا أنّهم أخفقوا، ولعلّ سبب فشلهم أسلوب الفقيه عبد الله بن ياسين في إخضاع قبائل الصحراء لدعوته؛ إذ خرج لملاقاتهم بالقوة وتأييدهم لتطبيق الشريعة الإسلامية بشكلها الصحيح؛ متجاهلاً طبيعتهم التي تميل للاستقلال، فتوجّه لجدالة، وأدخلها لطاعته ثم إلى باقي القبائل التي انتصر عليها، وبعد ذلك تمكّن المرابطون من إخضاع بلاد السوس^(٤)، وهذا يعني أن المذهب المالكي كان ثقیل الحمل على القبائل الصحراوية والمناطق التي خضعت للمرابطين، ليس بسبب مبادئ المذهب؛ وإنما لسياسة المرابطين وفقهاء المذهب بحقّ الناس الذين ربما تدمروا منها؛ مما سمح بدخول أفكار مغايرة إلى داخل المجتمع المرابطي، ومن الأمثلة على ذلك أفكار الإمام الغزالي التي كانت أكثر تهديداً في كتاب إحياء علوم الدين الذي قال عنه الفقيه الطرطوشي: "شحن كتابه بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أعلم كتاباً على وجه بسيط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه"^(٥)، حتى أنّه احتوى على آراء فلسفية لم تكن منتشرة عند أهل الزهد والتصوف، لكن أهم ما يحسب للكتاب مهاجمة فقهاء المالكية واتهامهم بأنهم وظّفوا علمهم في كسب الدنيا وإنكاره تعاملهم مع السلاطين، يظهر ذلك من قوله: "ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها"، وذكر

(١) فسجن بمدينة المهديّة حسب ما ذكر ثلاثة أعوام وسبعة أشهر. ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس. ج ٢. ص ١٥١-١٥٣؛ مكي، محمد علي. (٢٠٠٤م). التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٣٠-٣١.

(٢) الحديث رواه أنس بن مالك عن الرسول ﷺ تمامه " لا يزيد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدياراً، ولا الناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدي إلا عيسى ابن مريم". البستوي، عبد العظيم عبد العظيم. (١٩٩٩م). الموسوعة في =أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة. المكتبة المكية. السعودية. ط ١. ص ٩٤ وما بعدها.

(٣) مؤنس، حسين. (١٩٩٧م). معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار الرشاد. القاهرة: مصر. ص ٨٣-٨٤.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٢٩ وما بعدها.

(٥) الوئشريس. المعيار المغربي. ج ١٢. ص ١٨٦.

عن الرسول ﷺ أنه قال: " لا يكون المرء عالماً، حتى يكون بعلمه عاملاً" وقال: " لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار"، كما قال عن مخالطة السلطان والتقرب منه " الداغل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى، إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور"^(١)، وربما كانت معارضة الغزالي لهذه الأمور بسبب تذمر الناس من حكم المرابطين وجورهم خاصة في جمع الضرائب والغنائم للخروج من أزمته المالية وتأمين الأموال لمعسكراتهم؛ مما يعني أنّ دولة المرابطين كانت تعاني من الضعف السياسي والمذهبي العقائدي، وهذا يحتاج إلى مذهب أكثر ليونة من المذهب المالكي الذي حارب كتاب إحياء علوم الدين لطبيعة التقارب العقدي والفقهية بين الشافعية والأشعرية^(٢)؛ ولكن لا يمكن تأكيد هذا الأمر فقد استعان فقهاء المالكية بالمذهب الأشعري منذ المرحلة السابقة لعصر المرابطين خصوصاً في مدينة القيروان معقل المالكية في المغرب العربي الإسلامي؛ لذلك يرى الباحثون أن أبا زيد القيرواني ت. ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م وأبا الحسن القابسي ت. ٤٠٣/ ١٠١٢م استقبلا بحفاوة أفكار أبي الحسن الأشعري، وهذا ما أعطى المالكية القيروانية ديناميكية لمقاومة الأهواء والبدع^(٣)، خاصة في الجدالات التي تقوم حول مسألة الصفات التي أثبتتها أهل المغرب على عقيدة السلف من غير تشبيه ولا تمثيل^(٤)؛ لذلك كان المذهب الأشعري أكثر تداولاً في المغرب بين أهل السنة قبل دخوله رسمياً على يد المهدي محمد بن تومرت، حتى أنّ الدراسات قسمت دخوله ما قبل الباقلائي ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م وما بعده، وهذا التقسيم لأن الإمام الباقلائي كان حجج المغاربة ليأخذوا بالمذهب المالكي والطريقة الأشعرية معاً^(٥)، ولعلّ أبا زيد القيرواني سبق الباقلائي في هذا المجال بعد بلوغه درجة الاجتهاد وإدراكه أنّ نشاطه العلمي في باب الأحكام الفقهية لا يمكن أن

(١) الغزالي، أبو حامد محمد. (٢٠٠٥م). إحياء علوم الدين. دار ابن حزم. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٧١-٧٢، ٥٩٤.

(٢) غرميني، عبد السلام. (٢٠٠٠م). المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب. ص ٤٢٠.

(٣) مدينة القيروان شهدت توافد النحل والفرق والمذاهب المختلفة الهاربة من خلفاء المشرق العربي الإسلامي؛ لذلك وجد فقهاء المالكية بالمذهب الأشعري خيرَ منهج عقدي للدفاع عن عقيدة أهل السنة بعد نشاط حركة الجدل والمناظرات والخوض في المسائل العقدية ذات المنزع الفلسفي، ومثل هكذا حوار وتنافس يحتاج إلى الاستعانة بالتفسير خاصة أنّ الفرق الأخرى المخالفة للسنة، تستند في حججها وتأسيس مواقفها إلى القرآن الكريم؛ يظهر ذلك مما رواه المالكي عن الإمام سحنون ومسألة خلق القرآن وألا يخرج بالسيف على الأئمة إن جاروا. المالكي. رياض النفوس. ج ١. ص ٣٦٧-٣٦٨؛ عمارة، علاوة. (٢٠٠٨م). انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط. دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص ١٣٠.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٩٥م). العلو للعلي الغفاري. مكتبة أضواء السلف. الرياض: السعودية. ط ١. ص ٢٥٣.

(٥) الذهبي. (١٩٨٣م). سير أعلام النبلاء. تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرق سوسي. ط ١. ج ١٧. بيروت: لبنان. مؤسسة الرسالة. ص ٩٠-٩٣؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. (١٩٨٩م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تح: محمود الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. ج ٥. دار ابن كثير. دمشق: سورية. ط ١. ص ٢٠-٢٢.

يقوم ما لم يتم بتجديد وسائل العمل الفكري لمناهج البحث العلمي في باب الأصول العقيدية^(١)؛ رغم كل ذلك وقفت دولة المرابطين في وجه المذهب الأشعري في مرحلة نشره بالطرق الفردية في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنهم على معتقد أهل السلف في الإيمان بالصفات، فوقف معارضاً الأمير يوسف بن تاشفين بفتوى من الفقيه ابن رشد (الجد) من تدريس المذهب الأشعري، وعدّه مذهباً غامضاً، وكل من يعلمه للناس يكون كافراً^(٢)، كما كان موقف الأمير علي بن يوسف موقف أبيه نفسه، ظهر ذلك من إحراقه لكتاب إحياء علوم الدين لإمام الأشاعرة الغزالي، رغم الاختلاف في تحديد سبب هذا الموقف هل هو سياسي أم ديني؟ لأنه ذكر أن السبب يرجع لاعتقاده أن الكتاب فيه ضلالات عقيدة كلامية وأحاديث ضعيفة مكذوبة عن النبي والصحابة والتابعين كما ذكر الونشريسي، وذكر أيضاً أن السبب كان خوف المرابطين على دولتهم من المذهب الجديد^(٣) وهو الأكثر ترجيحاً؛ لأن المذهب الأشعري دخل المغرب لمقاومة المذاهب الأخرى بالأخص المذهب الشيعي^(٤) الذي بدا الأقوى على الساحة المغربية في عصر المرابطين لعجزهم في استعادة اعتناق أهل المغرب الأوسط وإفريقية للمذهب المالكي بعد إعلان تبنيه في عهد الأمير المعز بن باديس الزيري؛ ويُلاحظ من ذلك أنه كان سبباً في اتباع المهدي محمد بن تومرت للمذهب الأشعري لما لاقاه فيه من حجج تحقق غايته، وتحقق رغبة المالكية بعد ابتعاد الفقهاء بأفعالهم في عصر المرابطين عن مذهبهم المالكي، فرسخ عقيدة جديدة قوامها المذهب الأشعري يجمع حولها الناس لمقاومة فساد الفقهاء، وفرض سيادة عقيدة الإمام الغزالي، فكانت غاية المهدي محمد بن تومرت الانقلاب على دولة المرابطين في المغرب والأندلس بمخالفتها في جميع أمورها، وذلك لأنه استعان بأفكار شيعية أيضاً في عقيدته، بعكس ابن

(١) الدرقاش، الهادي. (١٩٨٩م). أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني حياته وآثاره. ط ١. بيروت: لبنان. دار قتيبة. ص ٢٨٨-٢٨٩؛ أكد ذلك نجم الدين الهنتاتي عندما ذكر عن تجدد المذهب المالكي وتطوره من الناحية العقيدية بعد أن تبني علماءه الأفارقة العقيدة الأشعرية منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وقال أيضاً: إن المذهب الأشعري مكن المالكية من الدفاع عن مذهبهم من الناحية العقيدية؛ لذلك كان المذهب الأشعري من العوامل التي أسهمت في ترسيخ المذهب المالكي بإفريقية والمغرب العربي الإسلامي وتدعيم انتصاره النهائي. الهنتاتي. **المذهب المالكي**. ص ١٨٦، ٢٢٢.

(٢) ابن رشد، محمد بن أحمد. (١٩٨٧م). **فتاوي ابن رشد**. تح: المختار بن الطاهر التليلي. ج ٢. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٠٢-٨٠٥.

(٣) أحنانا، يوسف. (٢٠٠٣م). **تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي**. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ص ٢٣-٢٤.

(٤) تقبلت الأوساط المالكية في القيروان العقيدة الأشعرية للوقوف في وجه المذ الشيعي، ولما تجنيه من الفوائد والمصالح ضمن الجدل الحقيقي الذي يجمع بين الأثر السني والنظر العقلي، وما يحسب للمذهب أن المالكية عدواً أبا الحسن يحيى بن إسماعيل الأشعري ت. ٣٢٤هـ/ ٩٣٩م، من أعيان الاتجاه السني؛ لأن الأشعري حسب رأيهم لم يأبِ ابتدعه ولا مذهب اخترعه، وسبيله في بسط القول في مسائل الأصول كسبيل الإمام مالك وغيره من الفقهاء فيما بسطوا القول فيه من مسائل الفروع. السكوني، عمر بن محمد. (١٩٧٦م). **عيون المناظرات**. تح: سعد غراب. منشورات الجامعة التونسية. تونس. ص ٢٢٣-٢٢٥؛ السبكي، عبد الوهاب ابن علي. (١٩٦٤م). **طبقات الشافعية الكبرى**. تح: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة: مصر. ص ٣٧٣-٣٧٤؛ نسيم. **النزاع السني**. ص ١٦١.

القسي الذي لم يدعي النسب العربي كما ذكر عنه سابقاً؛ وذلك يدلّ على أن المهدي محمد بن تومرت يعلم تماماً أن أهل المغرب يميلون لأهل البيت، ويُلاحظ أيضاً أنّ المذهبيين المالكي والشيوعي كان انطلاقهما للمغرب من اليمن البلد الذي ترجع إليه النظرية التي تقول أصل البربر من قبائل حمير وسبأ، لذلك ربما يعود أيضاً لهذا الأصل تفضيل أهل المغرب للمذهبيين على باقي المذاهب الأخرى.

الفصل الثاني: نظرية المهدي محمد بن تومرت من دعوته، وتكون فكره السياسي حتى لجوئه إلى مدينة تينملل، ومقارنتها بفكر حسن الصَّبَّاح:

أولاً: نشأة محمد بن تومرت، وأثرها في الفكر السياسي الموحي:

١- اسمه ونسبه.

٢- عائلته.

٣- شخصيته السياسية وصفاته.

ثانياً: مكونات الفكر السياسي عند محمد بن تومرت، ونظريته العقائدية:

١- الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت، وعقيدته.

٢- نظرية المهدي محمد بن تومرت السياسية.

ثالثاً: مراحل دعوته، والتكوين النظري لفكره السياسي:

١- المرحلة المغربية.

٢- المرحلة المشرقية وأوضاع المشرق العربي الإسلامي في ظل حكم ألب أرسلان وملك شاه بالقرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي، وبداية القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي.

٣- المرحلة الثالثة بعد عودة محمد بن تومرت من المشرق العربي الإسلامي حتى قيام فكره السياسي وتنظيم الدولة.

رابعاً: الثورة المسلحة على المرابطين، وترسيخ النظرية:

١- الثورة المسلحة.

٢- التحول إلى القسوة وسفك الدماء.

الفصل الثاني: نظرية المهدي محمد بن تومرت من دعوته، وتكون فكره

السياسي حتى لجوئه إلى مدينة تينمل، ومقارنتها بفكر حسن الصَّبَّاح.

أدت معاناة العالم الإسلامي من انحطاط عسكري وسياسي وصراع مذهبي إلى ظهور شخصيات نادت بإصلاح واقع الأمة عبر نهضة علمية شاملة، كانت بمنزلة انتفاضة صارخة في وجه الجهل والفساد والانقسام الذي عانى منه المجتمع العربي الإسلامي في العصور الأولى للإسلام، وكانت الرائدة في هذا المجال مجموعة من المدارس في المشرق العربي الإسلامي من بينهم المدرسة النظامية ٤٥٩هـ/١٠٦٦م التي خرجت مجموعة من المفكرين والعلماء^(١)، أمثال المهدي محمد بن تومرت الذي سخر علمه لخدمة قضيته وتحقيق مصالح قومه والمسلمين في المغرب العربي الإسلامي بعد رحلة دامت أكثر من عشر سنين إلى المشرق العربي الإسلامي، اطلع من خلالها على أحوال المسلمين الفاسدة في البلدان التي مرَّ بها، فصمم على تقويم أمورهم بتبنيه فكر سياسي قائم على حركة إصلاحية بدأها منذ رجوعه إلى وطنه، لكنَّ المصاعب والمحن التي تعرَّض لها بدَّلت موقفه إلى إعلان ثورة على المسلمين تجسَّدت في عقيدة جديدة كونت شعار الموحدين، وأحدثها من أجل التغلب على الشدائد وتبديل النظم والقوانين التي أفسدت أحوال الناس، وألزم أتباعه ومؤيديه على تعلُّمها؛ ممَّا جلب عليه سخط المسلمين الذين حطوا من شأنه وقدرته لتقديمه العلم على أنَّه غاية للوصول إلى الملك الذي يرضي الطموح.

ويبقى السؤال هنا: من هو المهدي محمد بن تومرت؟ وما غايته من دعوته لإصلاح العالم

(١) كان طلاب العلم يرحلون من معهد إلى آخر طلباً للعلم؛ بسبب التنافس بينهم حتى إذا تخرجوا أصبحوا من خيرة طلاب العلم والدعاة لمعهدهم، فكان محمد بن تومرت واحداً من طلبة العلم الذين أسهموا في هذا الأمر، ومن طلبة العلم الذين كانوا على طريق محمد بن تومرت ودرسوا في مدارس النظامية: أبو القاسم بن عساكر ت. ٥٧١هـ/١١٧٥م مؤلف كتاب "تاريخ دمشق" الذي بنى له نور الدين محمود الزنكي دار الحديث بدمشق، وأبو نجيب السهرودي ت. ٥٦٣هـ/١١٦٧م أحد أحفاد الخليفة أبي بكر الصديق الذي علم بالمدرسة النظامية أيضاً، والكاتب العماد الأصفهاني ت. ٥٩٧هـ/١٢٠٠م الذي أسند إليه نور الدين الإشراف على ديوان الإنشاء والتدريس في المدرسة العمادية، والقاضي بهاء الدين بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ت. ٦٣٢هـ/١٢٣٤م رفيق صلاح الدين ومؤرخه، وغيرهم من خيرة العلماء في ذلك العصر. ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٠٤-٢٠٥؛ السبكي. طبقات الشافعية. ج ٦. ص ١٧٨-١٨٣؛ وج ٧. ص ٢١٥-٢٢٣؛ وج ٨. ص ٣٦٠-٣٦٢.

الإسلامية؟ هل هي غاية شخصية أم اجتماعية سياسية؟ وهل كان أسلوبه ومنهجه في المغرب العربي الإسلامي باجتهاد شخصي أم كان بدافع علمي وفكري سياسي أتى به من المشرق العربي الإسلامي؟ كيف حاكى المجتمع المغربي القائم على العصبية القبلية والصراع المذهبي؟ وهل قصد بفكره السياسي جمع قبائل المغرب العربي الإسلامي أم خصصها لقبيلة معينة دون الأخرى مراعيًا المجال الجغرافي لدعوته؟ ومتى انتقل بفكره السياسي من الجانب النظري الاستنباطي إلى الجانب التطبيقي العملي الإصلاحي؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من معرفة الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت ومسيرة رحلته لتحديد أهداف قضيته وغايتها في ظل ما يسود المشرق العربي الإسلامي من نحل وفرق عقائدية وفكرية وفلسفية، أودت بالمشرق العربي الإسلامي للانحطاط العسكري والازدهار العلمي المتمثل بإنشاء المدارس وانتشار المناظرات التي أثبتت فاعليتها في السيطرة على عقول العامة وقيادة الأمة نحو الإصلاح الذي وجد فيه ابن تومرت خيرَ مثالٍ لتوحيد الأمة العربية الإسلامية في مشرقها ومغربها، وإنقاذ أحوالها التي ساءت في المغرب العربي الإسلامي بظل حكم المرابطين بعد أن زادوا من انقسامه سياسياً ومذهبياً.

أولاً: نشأة محمد بن تومرت، وأثرها في الفكر السياسي الموحي:

١ - اسمه ونسبه:

اسمه محمد بن عبد الله، ينسب إلى قبيلة هرغة المصمودية المستقرة في جنوب المغرب الأقصى^(١)، أشارت المصادر التاريخية إلى أنّه من نسل الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بالتحديد في أحفاده الأدارسة الذين هربوا إلى المغرب العربي الإسلامي من بطش الخلفاء العباسيين في المشرق العربي الإسلامي، لكن يشكك في صحة هذه المصادر لأسباب عديدة، منها: أن تأكيد نسبه لأهل البيت يعني أنّه من سلالة الرسول ﷺ وذلك نصرةً لدعائه المهدوية في الفكر الموحي؛ فضلاً عن ذلك فمن ذكر نسبه لآل البيت من المصادر التاريخية هم مؤرخو الدولة الموحدية ابن القطان والبيذق^(٢)، ويؤيدهم بهذا النسب كل من المراكشي الذي نسبه إلى النسب الحسن الفاطمي المحمدي^(٣)، وابن خلكان الذي أرجعه للنسب النبوي^(٤)، وابن خلدون الذي يشير إلى إمكانية نسبه إلى

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١؛ ابن القنفذ، أحمد بن حسين. (١٩٦٨م). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

تح: محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي. الدار التونسية للنشر. تونس. ص ٩٩، بروكلمان. تاريخ الشعوب. ص ٣٢٤.

(٢) البيهقي، أبو بكر بن علي. (١٩٧١م). المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تح: عبد الوهاب بن منصور. دار

المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب. ص ١٢؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٧.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ٢٤٨.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٥-٤٦.

الإمام إدريس أو إلى أخيه الإمام سليمان بعد أن لحق بأخيه إلى المغرب العربي الإسلامي^(١)، لكن هذه المصادر لم تؤكد صحة هذا النسب بل وقفت موقفاً وسطياً منه، أما المصادر الأخرى فقد وقفت موقفاً معارضاً من قضية نسبه لآل البيت مثل ابن أبي زرع الذي قال يدعي النسب الشريف^(٢)، والذهبي الذي قال يدعي النسب الحسن العلو^(٣)، يؤيدهم بذلك كل من ابن الخطيب وابن أبي دينار وابن العماد الذين قالوا إنه من مصمودة وإن الله أعلم بنسبه^(٤).

وعلى الرغم من ما ذكرته المصادر لتأكيد نسبه لآل البيت إلا أنه من المرجح انتماؤه للمصامدة ولا علاقة له بالنسب الشريف إلا لغاية سياسية أحدثها مع وصوله لقبيلته^(٥).

٢ - عائلته:

كانت عائلة محمد بن تومرت ذات مكانة دينية عالية في المجتمع المرابطي بالرغم مما ذكر عن انتماؤها للطبقة الوسطى^(٦)، إلا أنه من الواضح فيما ذكر سابقاً أنّ الدولة المرابطية نادراً ما كانت تحوي طبقة وسطى، وأن محمداً بن تومرت ينتمي لطبقة مرموقة في المجتمع المرابطي، فألقاب عائلته تدلّ على المكانة الاجتماعية العالية^(٧).

أما والد محمد بن تومرت فاسمه عبد الله رغم تشكيك الباحثين بالاسم؛ إذ يعودون به إلى أسماء البربر، ويعللون السبب بأن محمد بن تومرت سمى أباه عبد الله بعد أن سمى نفسه باسم

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٢.

(٣) الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٩٥م). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تح: عمر عبد السلام تدمري. ج ٣٦. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٠٦.

(٤) ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٣. ص ٢٦٦؛ ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٦. ص ١١٧؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ١٠٧.

(٥) المنتبغ لسيرته ومسيرة رحلته يرى أنه ينتمي إلى عائلة مصمودية لم يُذكر انتماؤها لآل البيت قبل ظهور مهديته، حتّى أنّ محمداً ابن تومرت خلال تجواله في البلاد الإسلامية لم ينتقل بينها وكأنه من النسب الشريف؛ وإنما بصفته إماماً وعالمًا بالدين الإسلامي يدافع عنه، ويحاول إصلاح شأنه، ولو أنه من آل البيت لما طُرد من مجلس الأمير علي بن يوسف، وكان الإمام الطرطوشي والغزالي والخليفة العباسية أعطوه أهمية أكبر في أثناء تواجده في ديارهم؛ لذلك ربما جاء الادعاء من المصامدة، ومن مؤرخي دولته فقط، فادعاه المهدوية كان للمّ شمل الموحّدين بعد تشتت جمعهم وتزعزع ثقتهم به، وهذا ما يدعم هذا الاستنتاج الذي يقول فيه بعض الباحثين إنّ نسبه البربري أكيد. عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٥٩؛ ويخالفه باحثون آخرون بقولهم إن مطاعن النسب تبقى فرضية لا دليل عليها. النجار. تجربة الإصلاح. ص ٥٦.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١؛ النجار. تجربة الإصلاح. ص ٥٧.

(٧) حيث عُرف جده بـ "أجليد" الذي يعني باللسان البربري الزعيم والقائد، وأبوه عرف بـ "أمغار" الذي يعني الشيخ، وهو مركز محترم بالمجتمع المغربي، حتّى أنّ محمداً بن تومرت عُرف بـ "أسفو" الذي يعني السراج الذي يوقد القناديل في المساجد، وفي مجتمع عرف باهتمامه بالعلم سواء كان الديني أو الفلكي، حيث كان منه واجاج بن زلو اللطفي، وعبد الله بن ياسين، وغيرهما من أصحاب المعرفة والعلم، وعرف عن أهله بحبهم لعلم المخفيات وتفسير الظواهر المادية وبراعتهم بأسلوب الخطاب المؤثر في السامع وفصاحتهم، يمكن عدّ منصب محمد بن تومرت من أفضل المناصب الدينية لصغار السن في ذلك الزمن. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٨ - ٨٩؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١ - ٣٠٢؛ مؤنس. معالم تاريخ المغرب. ص ٢٠٣.

محمد^(١)؛ وذلك لتأكيد مهاديته وتوافقها مع الحديث الشريف القائل إن اسم المهدي من اسم الرسول ﷺ ونسبه واسم أبيه يطابق اسم والد الرسول ﷺ^(٢)، أمّا ما ذكر عن فقر والده ثم تيسّر حاله من الهدايا التي قدمت إليه بعد ولادة محمد بن تومرت فمن الواضح أنّها من وضع الرواة للدلالة على مكانة المهدي^(٣)؛ وما يهم هنا هو تعريف عائلته التي تكونت من أخوة عدّة، هم: أبو موسى عيسى، وأبو محمد عبد العزيز اللذان ثارا على عبد المؤمن عند تسلمه الخلافة، وأحمد الكفيف؛ فضلاً عن أختين، الأولى: اسمها أم بكر زينب كان يأكل ابن تومرت من عمل يديها، والثانية: اسمها لأب^(٤).

كما اختلف المؤرخون في تحديد مكان ولادة محمد بن تومرت وتاريخها، فالمتفق عليه فيما بينهم أنّه ولد بمنطقة السوس الأقصى^(٥)؛ أمّا تاريخ ولادته^(٦) يجمع المؤرخون على أنه بين الأعوام الممتدة من ٤٧٠هـ/١٠٧٧م حتى ٤٩١هـ/١٠٩٧م، ويرى النجار أن تاريخ ولادته كان ٤٧٣هـ/١٠٨٠م؛ لأنه يتناسب مع تاريخ رحلته للمشرق العربي الإسلامي عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م

(١) النجار، عبد المجيد. (١٩٨٣م). المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب. جامعة الأزهر. مصر. ص ٣٤-٣٧؛ ذكر ميرندا أن أدبياً عاش بالأندلس يُدعى محمداً بن علي بن تومرت توفي سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م وهو صاحب كتاب ((كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة))، لذلك يعتقد الباحثون أنّه هو أبوه لمحمد بن تومرت المهدي. ميرندا، أمبروسيو هيوثي. (٢٠٠٤م). التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. تر: عبد الواحد أكيمير. النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط ١. ص ٣١-٣٢.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١١١-١١٢؛ السلمي، يوسف بن يحيى. (١٩٨٩م). عقد الدرر في أخبار المنتظر وهو المهدي. تح: مهيب بن صالح بن عبد الرحمن البوريني. مكتبة المنار. الأردن. ط ٢. ص ٢٤٤.

(٣) إذ لا يمكن لأبيه سواء أكان فقيراً أو متوسط الحال أن يتحمل أعباء رحلة مكلفة لابنه إلى المشرق الإسلامي، فمسألة فقر والد محمد بن تومرت تحتاج إلى معلومات أعمق لتأكيدّها، ومن الممكن أن أحوال محمد بن تومرت هم من رفعوا من مكانة والده مادياً؛ لأنّ والدته التي ذكرت عنها المصادر أن لقبها أم الحسين بنت وابوركن من بني يوسف من مسكالة في السوس، تزوجت من والد محمد بن تومرت بسبب عنوستها، وهذا يعني أن زواجها كان قصرياً، وليس كفيّاً معللاً ابن القطان السبب لفقر حال والد ابن تومرت، ورغم أن هذه المعلومات تحتاج إلى الدقة وإلى تفاسير أكبر، افتقرت إليها المصادر إلا أنّه يستنتج من ذلك إمّا أن أسرة والده محمد بن تومرت ذات مكانة اجتماعية عالية، وربما هي من غطت تكاليف رحلته للمشرق العربي الإسلامي، وإمّا أن ما ذكرته المصادر عن والد محمد بن تومرت ليس صحيحاً والهدف منه تغطية غاية دعوة محمد بن تومرت القبلية، وهو الأكثر ترجيحاً بحسب ما ذكر عن ألقاب أسرته ومسير رحلته وتبنيه لدعوته بين قبيلته. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٠.

(٤) البيهقي. المقتبس. ص ٢٦-٢٧؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٢٣.

(٥) ابن القطان ذكر أنّه ولد في موضع لا ماء فيه للشرب، يشرب أهله ماء المطر يدعى (نومكران)، أما المراكشي ذكر أنّه ولد في قرية تعرف بـ (أيجلي أن وارغن) على سفح جبل (أيجليز هرغة)، ومن المرجح ما ذكره المراكشي؛ لأن ابن القطان ربما قصد من ذكره للموضع إثبات فقر حال عائلة محمد بن تومرت. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٠؛ المراكشي. المعجب. ص ١٣٦.

(٦) حدّد ابن خلكان بيوم عاشوراء سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، والزركشي بسنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وذكر الزركشي أن الغرناطي دون تحديد لاسمه، الذي ربما توفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م أيضاً ذكر هذا التاريخ، أمّا ابن الخطيب ذكر تاريخ ولادته قريباً ممّا ذكره ابن خلكان عام ٤٨٦هـ/١٠٩٣م، وابتعد ابن منقذ عن التاريخين فحدّد تاريخ ولادته عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م. ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٣؛ ابن الخطيب، لسان الدين. (١٨٩٨م). رقم الحبل في نظم الدول. المطبعة العمومية. تونس. ص ٥٧؛ ابن قنفذ. الفارسية. ص ٩٩؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

ويتوافق مع ما ذكرته المصادر عن وفاته في عمر بين الخمسين والخمسين سنة^(١)، إذ وفاته كانت في عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م، كما يتناسب مع ما ذكرته المصادر من أن رحلته كانت وهو شاب^(٢).

٣ - شخصيته السياسية وصفاته:

شخصية المهدي محمد بن تومرت من أكثر الشخصيات التي تثير الدهشة والاستغراب لمتتبع سيرته، فالمؤرخون ذكروا صفات تختلف في بعضها مع سيرته ومسيرة رحلته وسياسته التي انتهجها عند وصوله إلى المغرب العربي الإسلامي، وربما يعود ذلك إلى طموحه، واصطدام هذا الطموح بدولة قوية لم تقدّر مساعيه وأهدافه، فانتهى الأمر به إلى إعلان ثورة عليها هزت كيانه ثم قضت عليها، ليستخلص من سيرته أنّ أهم صفة لديه هي الطموح، ومن خلالها انطلقت الصفات الأخرى التي حملتها شخصيته، فما علمه ودهاؤه وقوة تأثيره إلا نتاج لطموحه في الوصول إلى المراكز العالية، خاصة أنّ الطموح صفة يملكها كل طالب علم يريد الوصول بعلمه إلى أعلى المراتب، فماذا لو اقترن طموح الطالب بالافتداء بأساتذته الذين يرى بهم أخير الناس وأكثرهم علماً ومعرفة، هذا ما تظهره سيرة المهدي محمد بن تومرت ويعلل سبب تتلمذه على يد أكثر من فقيه وعالم، حتّى أنّه جال أنحاء العالم الإسلامي للوصول إليهم، ومن أهمهم كان الإمام الغزالي، لذلك لا يستغرب ترديد محمد بن تومرت لقول المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ فلا تقنّع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ (صغير) كطعم الموت في أمرٍ عظيم.^(٣)

وهذا يحتاج إلى أمور تدعمه للوصول إليه مثل التزهد والبساطة في أول مراحلها، وهكذا كان حال محمد بن تومرت زاهداً في الدنيا يبني المساجد ويعلم بها أصول الفقه، ولعلّ هدفه نتج عن بيئته المحبة للعلم والساعية إليه، لكن كثيراً ما ينتج عن ذلك آثار سلبية؛ لأنّ تحصيل العلم يبتعد بصاحبه عن ملاذ الدنيا ومتاعها، وهذا ما ذكره ابن خلدون عن المهدي محمد بن تومرت، إذ قال: "وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان يلبس العباءة المرقعة، وله قدم في التقشف والعبادة"^(٤)، حتّى أنّ

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠١؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٢٣؛ مجهول. مفخر البربر. ص ١٩٩.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥؛ ابن خلكان. وفیات الأعيان. ج ٥. ص ٤٦؛ ما يؤهله للرحيل وحده من دون رفقة أحد من أقاربه كما كان حال ابن العربي الذي ارتحل برفقة أبيه وعبد المؤمن بن علي الذي كان يود الرحيل برفقة عمه. النجار. المهدي بن تومرت. ص ٣٣.

(٣) البحر الوافر. أبو الطيب المتنبي، أحمد بن عبد الصمد. (١٩٠٠م). ديوان أبو الطيب المتنبي. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ١٩٥؛ ابن مقديش. نزهة الأنظار. ج ١. ص ٤٦١؛ حسن. تاريخ الحشيشية. ص ١٦٥؛ ووصف ابن خلكان ما كان يردده من أبيات شعر تتعلق بدعوته وأمور الحياة. ابن خلكان. وفیات الأعيان. ج ٥. ص ٥٤-٥٥.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٥.

العلم يؤثر في نفسية صاحبه، فيجعله يعتزل عن غيره، ويرى بنفسه أنه على حق والآخرين على خطأ، وذكر ما يشبه ذلك ابن خلكان عن المهدي محمد بن تومرت، فقال: "وكان قوته من غزل أخت له رغيفاً في كل يوم بقليل سمن أو زيت، ولم ينتقل عن هذا حين كثرة عليه الدنيا، ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بضم ذلك جميعه، وأحرقه، وقال ومن كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلا ما رأى، ومن يتبعني للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى"^(١).

وقرب محمد بن تومرت من الله تعالى حمله على التبحر بالشرع؛ كونه السبيل الوحيد للوصول إليه تعالى، لكنّه وصل به إلى ما يسمى بالإبداع الروحي الذي نتج عنه عقيدة جديدة شاملة لمذاهب وأفكار متعددة، ظهرت في مؤلفاته ورسائله، والدليل على هذا الإبداع ما ذكر عن عدم فهم عقيدته إلا بالإيمان بمهديته التي نجم عنها قوة تأثيره بأتباعه وأصحابه، حتّى وصل بهم الأمر إلى طاعته، حتى أصبحوا أدوات يحركهم كيفما يشاء إلى حد "لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخته أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء"^(٢)، وأكدت المصادر قوة تأثيره عندما ذكرت أمره لمسجون أن يخرج من محبسه فخرج أمام أعين الحراس وهم ساكنون لا يستطيعون أن يعارضوا^(٣)، وهذا التأثير عرف به حسن الصّبّاح أيضاً الذي ذكرت عنه أن أتباعه كانوا يقتلون أنفسهم إذا أمرهم بذلك^(٤)؛ لكن لا يمكن تصديق هذه الروايات؛ لأنه لا أحد يتقبل التصرف بهذه الطريقة، وربما وضعها المؤرخين ليبرزوا شدة الدعوة وقوتها فقط^(٥)، كذلك ليثبتوا أن محمد بن تومرت الإمام وفق المذهب الإسماعيلي، كذلك هذا يعود لقوة تأثير محمد بن تومرت بالآخرين التي أتت من الدهاء الذي تميز به والمنبثق من أن وسيلته تصل به إلى غايته، عندما نتج عن اصطدامه مع كيانات سياسية مخالفة لأفكاره وقفت في وجهه طموحه، لكنّها لم تستطع إيقافه على الرغم من الظروف التي مرّ بها، ويسوغ المؤرخون سبب ذلك بما

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٤؛ من ذلك يفهم أنّ محمداً بن تومرت لجأ إلى الله تعالى لأنّه وحده يعزيه من نظرة = المجتمع له، ومن الأذى الذي لحق به في أثناء دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريق عودته إلى بلاده، حتى أن مسألة أكله لرغيف من السمن أو الزيت تشبه ما ذكر عن يوحنا المعمدان في الكتاب المقدس من أنه لا يأكل إلا الجراد والعسل في البرية ويلبس من وبر الإبل. متى. الأصحاح ٣. ٤.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٤٣.

(٣) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ١٩. ص ٥٤٧.

(٤) الأصفهاني، محمد بن محمد. (١٩٠٠م). تاريخ دولة آل سلجوق. شركة طبع الكتب العربية. مصر. ص ٦٢-٦٣؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (١٩٩٥م). المنتظم في أخبار الملوك والأمم. تح: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا. ج ١٧. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ٦٤؛ القزويني. آثار البلاد. ص ٣٠٢؛ ابن كثير. البيداء والنهاية. ج ١٦. ص ١٧٥-١٧٦.

(٥) حتى أن ابن القطان أنفرد في وصف صفات جسمانية لمحمد بن تومرت ليثبت ملكه من خلالها وذكرتها المصادر فيما بعد؛ حيث ذكر أنه كان أسمر اللون عظيم الهامة، كبير الرأس، مربعة (متوسط القامة)، غائر العينين وحاد النظر، قليل اللحية، وله شامة سوداء على خده الأيمن، وفي خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٠، ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٣؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨١.

كان يدعيه من جنون وجهل عندما يخاف البطش والقتل في فترة ضعفه^(١)، وعندما وطدت أحواله ووجد مناصرين لدعوته، لجأ إلى أسلوب آخر في وجه من يقف أمام طموحه وغايته، وهو أسلوب سفك الدماء، حتى وصل به الأمر إلى إعلان مهادنته، وهذا ربما سبب تسارع الناس لإعلان الولاء بكافة السبل خوفاً من القتل، كما سيذكر فيما بعد.

يُلاحظ من ذلك أن قسوته لم تظهر إلا بعد أن فقد الأمل بالوصول إلى غايته بين الفقهاء والأمراء المرابطين وتجمع المصامدة حوله، فهو أراد أن يطبق الشرع بين الناس بالسبل كافة، ظهر ذلك من قوله: " فلما كان الحق لا ينصر، والدين لا يظهر إلا بأنصار الحق والمجاهدين عليه، عظم الله أمر المجاهدين، وبين فضلهم، وأخبر أن الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تنجي من عذاب أليم"^(٢)؛ لذلك تعدّ شخصية محمد بن تومرت من أكثر الشخصيات تعقيداً امتزج فيها العلم بالقسوة والعنف نتيجة أسلوبه المنحدر من المكر والخداع والقائم على العلم الواسع بشؤون الدين والشريعة؛ فضلاً عن امتلاك محمد بن تومرت الفصاحة الكبيرة باللغات البربرية والعربية المؤثرة فيمن يسمع خطابه وحديثه، فساعده ذلك على جمع أتباعه وتوظيفهم لخدمة مصالحه، فقال ابن أبي زرع عنه: "وكان مع ذلك عالماً فقيهاً، راوياً لحديث النبي ﷺ حافظاً له، عارفاً بالأصول، عالماً في علوم الاعتقاد والجدل، فصيح اللسان، مقداماً على الأمور العظام، سفاكاً للدماء، غير متورع فيها، ولا متوقف عنها"، وقال أيضاً عنه: "ذو سياسة ودهاء وفكر وناموس عظيم"^(٣)، هذا ما جعل المؤرخين يصفونه بالملك الذي يسعى بالسبل كافة لتحقيق مراده، والانتصار على أعدائه، فقال ابن القطان: "يستحق أن يكون ملك الناس أجمع بالواجب والاستدلال إذ عنده صناعة الملك وتدبير المدن قولاً وفعلاً ولا يفوته شيء من ذلك أصلاً"^(٤)، ووصفه الذهبي بقوله: " ويكل حال، فالرجل من فحول العالم، رام أمراً فتم له، وربط البربر بادعاء العصمة، وأقدم على الدماء إقدام الخوارج، ووجد ما قدم"^(٥)، يُلاحظ مما ذكره الذهبي تأثير عبد المؤمن بن علي في محمد بن تومرت؛ لأنه ينتمي لقبائل زناتة التي تبنت المذهب الخارجي؛ لذلك لا يستبعد أن يكون عبد المؤمن هو من دفع محمد بن تومرت لسفك دماء من خالفه.

ثانياً: مكونات الفكر السياسي عند محمد بن تومرت، ونظريته العقائدية:

(١) ابن مقديش. نزهة الأنظار. ج ١. ص ٤٥٣.

(٢) ابن تومرت، المهدي محمد. (د.ت). أعز ما يطلب. تح: عبد الغني أبو العزم. مؤسسة الغني للنشر. الرباط: المغرب. ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨١.

(٤) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٠٥.

(٥) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ١٩. ص ٥٥١-٥٥٢.

اشتغل المهدي محمد بن تومرت على تطبيق عقيدته، ونشر فكره السياسي في أنحاء المغرب العربي الإسلامي كافة، لكن المنية وافته قبل أن يطبق نظرياته التي أكملها من خلفه من الموحدين، وما حققه محمد بن تومرت هو تطبيق نظرياته وعقيدته على قبائل المصامدة القاطنة في جبل درن (الأطلس الكبير)، ولم يُذكر أنه تجاوز بمهديته منطقة السوس.

وما يهمُّ هنا هو فكر المهدي محمد بن تومرت وعقيدته التي لم تكن جديدة على الأمة الإسلامية من الناحية العلمية العقائدية؛ وإنما الجديد فيها هو دمج محمد بن تومرت للعلوم المختلفة التي استقى منها معلوماته، وإدخاله للتأويل الكلامي إلى المغرب الأقصى؛ لأن ما كان قبله مجرد محاولات^(١)، فالمهدي محمد بن تومرت لم يكن مثل الفقيه عبد الله بن ياسين الذي أخذ بالمذهب المالكي فقط في دعوته؛ وإنما أخذ أفكاره السياسية من المذاهب والفرق الإسلامية المختلفة بما يتناسب مع دعوته وتحقيق مصلحته الشخصية، فأخذ عن أستاذه الإمام الغزالي جهل العلماء المرابطين ودعوته عليهم ولم يأخذ بنفيه لعصمة الإمام، وأخذ عن المذهب الشيعي عصمة الإمام، وعن الإسماعيلية تحصنهم في قمم الجبال والأودية، كما أخذ عن الخوارج الثورة على الحكام الفاسدين^(٢)، وعن الوزير نظام الملوك نشره للمدارس العلمية التي تمثلت عند محمد بن تومرت ببنائه للمساجد وربط العبادة حيث يجتمع إليه الطلبة والقبائل يطلعهم على المرشدة في التوحيد باللسان البربري^(٣)، والاهتمام بالطلبة لإعداد الموظفين، أمّا ما يحسب لمحمد بن تومرت في فكره ودعوته هو ادعاؤه النبوة التي عرف بها المصامدة قبله، حتى أنهم وضعوا قرآناً وعقائد؛ وفق معتقدهم باللغة البربرية كما ذكر في الفصل الأول من الدراسة، ص ٦٩، وهذا ما فعله محمد بن تومرت من خلال كتاب التوحيد^(٤)، لكنه لم يخرج بكتابه عن المذاهب والمعتقد الإسلامي، حتى أنه نسب نفسه لقبيلة قريش العربية التي ينتمي إليها الرسول ﷺ والأئمة الأفاضل ﷺ^(٥)، لذلك خالف بفكره النبوي من سبقه من المصامدة، ليبقى السؤال هنا: لماذا ألف المهدي محمد بن تومرت عقيدته الجديدة؟ وما غايته من تنظيم أتباعه وتطبيق تعاليمه بينهم؟ وهل ادعاؤه للنسب القرشي لغاية دينية أم سياسية؟ وما المبادئ التي انتهجها لتحقيق دعوته

(١) الصلابي، علي محمد. (د.ت). صفحات من التاريخ الإسلامي - دولة الموحدين. دار البيارق. عمان: الأردن. ص ٤٩؛ كنون، عبد الله. (١٩٦٠م). النبوغ المغربي في الأدب العربي. ج ١. طنجة: المغرب. ط ٢. ص ١٢١؛ مغراوي، مصطفى. (٢٠٠٨م). دور العامل السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه (من منتصف القرن ٥هـ/ ١١م إلى بداية القرن ٨هـ/ ١٤م). ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ٤٢.

(٢) حسن. تاريخ الحشيشية. ص ١٦٢.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٣.

(٤) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٢٩.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ١١؛ المراكشي. المعجب. ص ٢٤٨؛ دعوته تشبه ما ذكره البغدادي عن حركات الشيعة ودعواتهم في المغرب الإسلامي. البغدادي: الفرق، ص ٢٤٧.

الإصلاحية؟

أراد محمد بن تومرت من تنظيم أتباعه أن يستبدل العصبية القبلية بالعصبية للدعوة الدينية، لذلك قَدَمَ المبدأ الديني على المبدأ السياسي في دعوته، حتَّى أَنَّهُ لم يولِ أهل بيته شؤون الحكم ومهامه، فاختار عبد المؤمن بن علي الزناتي خليفةً له ليحلَّ بذلك مشكلة التنافس على السلطة، وعيَّن على القبائل الموالية له رؤساء لا ينتمون إليهم مثل تعيينه عبد المؤمن بن علي على كدميوة وإسماعيل بن يسلاي الهزرجي (أيكيك، المعروف بأبي إبراهيم) على هرغة^(١) وذلك لضمان ولائهم له في الحروب، وسمى أتباعه بالموحدين لمؤاخاة بينهم؛ أي أنهم باتوا قبيلة واحدة من دون استثناءات ووعظ في ذلك شعاره قائلاً: "وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر"^(٢)، وحرص على سيادة مبدأ المساواة بينهم؛ لأن الظلم عنده أصل الشرور والمفاسد^(٣)، حتَّى أَنَّهُ عاب على المرابطين ما كان يسود مجتمعهم من ظلم فقال عنهم: "وتمادوا على الفساد في الأرض، وعلى العتوّ والطغيان، وعلى هلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل وأخذ أموال اليتامى والأرامل"^(٤)، ومن ذلك أمر محمد بن تومرت أتباعه بالعدل خاصةً في تقسيمهم للغنائم بعد الحروب، والتحذير من الاستيلاء عليها بغير حق، كما أنه جمع الزكاة ليوزعها على الفقراء^(٥)، ولكن ذلك لا يعني أَنَّهُ كان عادلاً لدرجة القداسة، فقد ذكر عنه أيضاً تعسفه بأتباعه عندما قسم أراضي أهل تينمل على الموحدين بعد قتله لأهلها^(٦)، واشتهر أتباعه بتعسفهم على الناس حتى قالوا عنهم: "ألم يقل المهدي أن أهل الجماعة وصبيانهم، عبيدهم كل من في الدنيا"^(٧).

كما وجد محمد بن تومرت نفسه بين مجموعتين من الناس منقسمين إلى أهل الخير سكان الريف وأهل المفاسد الذين معظمهم من سكان المدن والعلماء الذين آثروا نعيم الحياة، فحاول بدعوته استمالة أهل الريف وإثبات فساد العلماء وسكان المدن، ولكي لا تناقض أفكاره ادّعى المهدوية والعصمة ليظهر نفسه فوق مستوى البشر، حتى قال فيه المراكشي: "فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته"^(٨)، بذلك ربط إمامته بين الجانبين

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٦-٣٧.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ٨؛ النجار. تجربة الإصلاح. ص ١٠٤.

(٣) حسن. تاريخ الحشيشية. ص ١٥١.

(٤) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٧.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦٨؛ النجار. تجربة الإصلاح. ص ١٠٢.

(٦) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٤٠؛ ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٧.

(٧) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٥.

(٨) المراكشي. المعجب. ص ١٤٠.

النظري والعملي التطبيقي.

وادعاءه بنسبه للرسول ﷺ وقبيلة قريش العربية مع خليفته عبد المؤمن بن علي يكون قد ربط بين السياسة والدين، لأنه بعد أن وصلت القبائل العربية من سليم وهلال إلى تخوم المغرب الأقصى، واستولوا على قبائل صنهاجة الشمال، عزلوا دولة المرابطين عن العالم العربي الإسلامي، وهددوا أمن القبائل البربرية في المغرب العربي الإسلامي، لذلك لعله بادعائه نسبهم يمكن أن يستميلهم إلى صفه في ثورته مع المرابطين، خاصة بعد تبنيه للأفكار الشيعية التي تقاتل القبائل العربية لمصلحتها تحت راية الدولة الفاطمية، ويمكنه بذلك أيضاً أن يعلن نفسه أقوى حاكم في المغرب العربي الإسلامي ليستميل القبائل البربرية إلى حلفه دون تمييز بينهم، ويتخلص من الصراع القبلي، كما أن إعلانته للنسب القريشي يميزه عن الخوارج الذين يقولون بجواز الإمامة بغير قبائل قريش، ويمنع الفتنة ومخالفة تعاليمه بعد أن أعطاه النسب لقبيلة قريش الحق في خلع أمير المسلمين الحاكم باسم الخلافة العباسية^(١)، وبذلك يكون محمد بن تومرت اختلف بأفكاره عن ابن العربي في الأندلس الذي اختار الجانب التعليمي وتخلّى عن الجانب السياسي، وعن الفقيه عبد الله بن ياسين الذي اهتمّ بالقبائل البربرية دون غيرها.

ومن أجل أن يحفظ الأمن داخل تنظيمه الذي يرمي منه إلى إقامة دولة تقوم على أنقاض دولة المرابطين أخذ البيعة من القبائل الموالية له، وبثّ الجواسيس من أفراد دعوته ليكونوا عيوناً له يعلمونه بما يدور من أمور حول دعوته^(٢)، كما فرض نظاماً تربوياً تعليمياً صارماً؛ معتمداً في ذلك على طريقتين: الطريقة الأولى نظرية استدلالية وجهها إلى أهل العلم ليبين لهم أنّ الكتاب والسنة هما الأصل الذي يؤخذ منه العلم في العقيدة، وبذلك نبذ ابن تومرت المرابطين الذين يعتمدون في علمهم على الفروع، حتى قال المراكشي فيهم: "لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمن كتب المذهب وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ"^(٣)، وذكر ابن العربي عن طائفة من علماء المرابطين يعتمدون على فقه الإمام مالك كانوا ينكرون الخروج عن المذهب، فإذا جاء أحد من المشرق العربي الإسلامي حَقَّروا أمره حتى يستتر عندهم بالمالكية، ويجعل ما تعلمه في المشرق العربي الإسلامي على رسم التبعية أو يحقِّرون علمه؛ لأنه جاءهم بفائدة في الدين^(٤)، ليلحظ

(١) لأنه إن لم ينتسب لقبيلة قريش يخالف ما ذكره أستاذه الغزالي في وجوب عدة شروط في الإمام منها نسبه لقبيلة قريش. الغزالي، أبو حامد محمد. (٢٠٠١م). فضائح الباطنية. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ص ١٦٢.

(٢) مؤنس. معالم تاريخ المغرب. ص ٢٠٨.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٣١.

(٤) ابن العربي، أبو بكر. (١٩٧٤م). العواصم من القواصم. تح: عمار طالبي. مكتبة دار التراث. القاهرة: مصر. ص ٣٦٥-٣٦٦.

مما ذكره ابن العربي أنهم أرادوا أن يفعلوا ذلك مع محمد بن تومرت أيضاً، لكنه غلبهم بإرادته وتصميمه على نشر دعوته، والدليل على ذلك أنه دخل مدينتهم الملكية مراکش المحظور دخول الغرباء إليها، وأخذ يعلم بها دون رادع أو هيبة من أحد منهم حتى وصل إلى مجلس أميرهم علي بن يوسف، كما أنه وضع مؤلفات ورسائل ليبين لهم أن العلاقة تربط الأصول بالفروع ولا يأخذ أحدهما مرتبة الآخر، ومن هذه المؤلفات كتاب أعز ما يطلب ورسائل في أن الشريعة لا تثبت بالعقل، ورسائل في أصول الفقه^(١).

أما الطريقة الثانية لنظامه التربوي: كانت عملية تطبيقية ألزم بها كل فرد أن يحفظ أجزاء من الأصولين الكتاب والسنة، ومن يخالف ذلك يضرب بالسوط^(٢)، ودون لأجل ذلك مختصرين لأهم مؤلفات الحديث، هما: مختصر الموطأ^(٣) ومختصر مسلم^(٤)، واكتفى فيهما بالنص على الأسناد، لتسهيل حفظهما على العامة، وكان يستدل برسائله بالقرآن الكريم والحديث الشريف^(٥)، وما يحسب لهذه المؤلفات أنها انتقلت لتدرس في المشرق العربي الإسلامي أيضاً فقد ذكر أن فخر الدين بن عساكر ت. ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م كان يدرس كتاب المرشدة لمحمد بن تومرت في مدينة القدس^(٦).

١ - الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت، وعقيدته:

نظم محمد بن تومرت عقيدته من مجموعة أفكار عقائدية وفقهية لمذاهب مختلفة ورتبها؛ ليجعل منها مذهباً دينياً وعقائدياً سياسياً جديداً، وهذا ما دفع الباحثين للقول عن عقيدته أنها انتقائية تلفيقية^(٧)؛ لأنها مؤلفة من نظريات متعارضة يهدف منها إلى القضاء على دولة المرابطين ومخالفة أفكارهم، فأحياناً يميل بها لاستعمال العقل، وأحياناً أخرى يميل إلى النظريات التي تتعارض مع استعمال العقل البشري، فكانت تميل للألوهية والروحانية مثل ادعائه للمهدوية والعصمة وتسويغه

٣٦٦، ٣٦٩.

(١) النجار. تجربة الإصلاح. ص ٩٦.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٣.

(٣) موطأ الإمام المهدي أو محاذي الموطأ في إحدى نسخه المخطوطة بمدينة فاس الذي كتب بيد أحد تلامذة المهدي، هو عبارة عن موطأ الإمام مالك، عرف برواية يحيى بن عبد الله المخزومي ت. ٢٣١هـ/ ٨٤١م، اختصر فيه محمد بن تومرت السند واكتفى بالراوي الأول لنص الحديث. ابن تومرت، المهدي محمد بن عبد الله. (٩٠٥م). موطأ الإمام المهدي. مطبعة بوننانة الشرفية. الجزائر. ص ٢-٤؛ ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٩.

(٤) مختصر صحيح مسلم: جاء بعنوان "سفر في تلخيص كتاب مسلم للإمام المعصوم رضي الله عنه"، وجاءت نسخة باريس بعنوان "اختصار مسلم" قسم إلى أبواب الفقه وكتب الحديث، وبدء بكتاب الطهارة. ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٩-١٠.

(٥) شواكري. أسس. ص ١٥٤.

(٦) السبكي. طبقات الشافعية. ج ٨. ص ١٨٥.

(٧) بن عامر، كريمة. (٢٠٠١م). التوحيد وتحليلاته السياسية والسيوسو - ثقافية نموذج التجربة الموحدة في الأندلس. ماجستير منشورة. معهد الثقافة الشعبية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر. ص ١٣٦.

لسفك دماء المصامدة الذين أيدوا دعوته كما سيذكر فيما بعد عن قسوته، وقضية اختلاقه لحادثة نزول الملائكة لتزكية دعوته ومباركتها^(١)؛ لكن أهم ما يحسب لمحمد بن تومرت في اثناء نشره لعقيدته تمثله بأعظم شخصيتين في ذلك العصر، وهما الإمام الطرطوشي والغزالي، فزهده ونقشه كانا لتأكيد نظرية الطرطوشي للحياة؛ فنظريته السياسية كانت "الزهد والعزوف عن الملذات والشهوات، والجرأة على كل كبيرة في سبيل الحق، وفي سبيل تدعيم أمر الله سبحانه وتعالى"^(٢)، وهذا ما حاول أن يبرزه محمد بن تومرت من سيرته ورحلته، أما الإمام الغزالي تمثل بمحاولته إقناع الناس أن ما يقدم عليه من دعوة وفكر هو استمرار لفكر الإمام الغزالي^(٣)، لكن حسب ما ذكر عن محمد بن تومرت يظهر أن غايته كانت تحقيق رغبته في إسقاط دولة المرابطين وتحرير الناس من التبعية والجهل الذي أحاط بهم لعدم معرفتهم بالدين الصحيح حسب رأيه، وليس تنفيذاً لأوامر أساتذته؛ لذلك دون عدداً من التصانيف والرسائل التي تثبت أن عقيدة التوحيد^(٤) أساس دعوته؛ فقال ابن تومرت عن التوحيد: "التوحيد هو أساس الدين الذي بني عليه، وأن فروعه إنما تثبت بعد العلم بثبوتة"^(٥)، وعمل على أن يعلم التوحيد باللسان البربري وفرضه على الناس، حتى قال لهم: "من لا يحفظ هذا التوحيد ليس بمؤمن، وإنما كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا الكتاب عند المصامدة كالقرآن العزيز"^(٦)، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين لتمييزهم عن المرابطين المجسمين الذين كانوا شغله الشاغل وهدفه الأساسي من كل ما دونه^(٧)؛ لذلك اختلطت عقيدته بموارد مذهبية مناقضة لعقيدة المرابطين ومختارة بعناية فائقة.

أ- المسائل التي تحاكي العقل البشري في عقيدة المهدي محمد بن تومرت:

- (١) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٦. ص ٢٤٦؛ مغزاوي. دور العامل السياسي. ص ٤٤.
- (٢) الشيال، جمال الدين. (د.ت). أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. د.م. ص ٢٥.
- (٣) الإدريسي. الإمامة. ص ١١٠.
- (٤) جاء مفهوم التوحيد لدى محمد بن تومرت مشتركاً بين الديانات السماوية، فوصف أنه فكر كوني موجه للجميع؛ لأن عقيدة التوحيد تبدأ بالحديث النبوي الذي يقول: "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"، وأيد هذا الفكر ابن رشد الحفيد، ولذلك أرسل الله الأنبياء والرسول لإثبات عقيدة التوحيد، ومن المعتزلة أخذ محمد بن تومرت التوحيد على أنه التباعد بين الله ومخلوقاته عكس آراء أهل الظاهر التي تقرب بين الله والناس، حتى أن فكره التقارب مع الديانة المسيحية عندما أكل ووزع الأكل وقال للناس كلوا كما يأكل النبيون ونسب نفسه لبني آدم، وهو بذلك يعترف بقداصة عامة الشعب. ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢١١-٢٢٢؛ البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٣؛ أبلاغ، محمد. (٢٠١٨م). ابن رشد وعقيدة المهدي بن تومرت. بحث محكم في: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. الرباط: المغرب. ص ١٩-٢١؛ رستم، سعد. (٢٠٠٤م). الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، والنشأة، والتاريخ، والعقيدة، والتوزيع الجغرافي. دار الأوتل. دمشق: سورية. ص ٩٦-٩٧.
- (٥) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣١٣.
- (٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٧.
- (٧) عند وصوله إلى قبيلته هرغة، دون لأتباعه كتاب سماه التوحيد باللسان البربري وهو سبعة أحزاب، وكتاب القواعد، وكتاب آخر سماه الإمامة مكتوب باللغتين العربية والبربرية. مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٩-١١٠.

أخذ محمد بن تومرت مسائل عدّة تحاكي العقل لأنه لجأ إلى التأويل؛ وذلك لأنه بالعقل تثبت وحدانية الله تعالى^(١)، ولأنّ القرآن الكريم يقسم إلى آيات محكمة ومتشابهة منها ما يقبل التأويل ومنها ما لا يقبله، فالآيات المحكمة مثل (ليس كمثله مثيل، هو الله الذي لا إله إلا هو)، والآيات المتشابهة مثل (الرحمن على العرش استولى، يد الله فوق أيديهم)^(٢)، وهذه الآيات التي تحتاج إلى الحكمة حسب رأي محمد بن تومرت وابن رشد الحفيد لن يتقبلها مجمل الناس لأنهم على درجات، فهناك من هو مؤهلٌ للتأويل والمجادلات النظرية وهم العلماء والفلاسفة، ومن عليه تقبله على ما هو عليه وهم عامة الناس؛ أي إن الحكمة التي يجب إبرازها للجمهور يجب أن تلتزم بالنص الشرعي، لذلك تخاطب كلّ فئة بحسب فهمها، وما فعله علماء الكلام برأي محمد بن تومرت هو أصل الفساد؛ لأنهم يصرحون للناس بالتأويل دون مراعاة مستواهم الفكري، وعدم استيعابهم العقلي للنص^(٣)، ولكن محمداً بن تومرت صرح أن الشرع أجاز التأويل في اللغة مثل الصيام باللغة الإمساك والصلاة في اللغة الدعاء وغيرها، لذلك ناقض في هذه الناحية الأشاعرة وأستاذه الغزالي حين قال: "يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه"^(٤)، حتّى أنّه كان لا مانع لديه من تأويل بعض الآيات، وأقرّ ببعض المسائل مثل أنّه يقرّ أن قدرة الله غير متناهية من قوله: "سبحان من أوضح لعباده الآيات، وأظهر لهم الدلالات...، فاقت عظمتها الغايات، لا تنهاه له المقدورات"^(٥)، وهو بذلك يوافق المذهب الأشعري وبقية المسلمين؛ باستثناء من يرى أن مقدرة الله تنهاه في اليوم الآخرة^(٦)؛ كما أن محمداً بن تومرت يثبت أن إرادة الله تعالى مطلقة "يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء"، وزاد على ذلك أن الله لا يتصف بالظلم؛ وإنّما من تعدّى مشيئته، ولم يكن بمستواها سمّي جائراً وظالماً، وهذا الرأي يناقض المعتزلة الذين يرون أن الله يجب ألا يعاقب الإنسان على ما أراده منه لأنّه لا يريد المعاصي، ويوافق رأي الأشاعرة وابن حزم الظاهري^(٧)، ورغم ذلك يرى المعتزلة أن الطاعة توجب الثواب،

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢١٠.

(٢) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢٧٩؛ جلاب. الدولة الموحدية. ص ٣٣.

(٣) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ١٩٧، ٢٠٨؛ أبلاغ. ابن رشد. ص ٢٠-٢١.

(٤) الغزالي، أبو حامد محمد. (١٩٨٥م). قواعد العقائد. تح: موسى محمد علي. عالم الكتب. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٢٠٣؛ الغزالي، أبو حامد محمد. (د.ت). الاقتصاد في الاعتقاد. طبع بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم. مصر. ص ٨١؛ يقترب من هذا الرأي الجنسينيون من الديانة المسيحية الذين قالوا إن من أوامر الله ما لا يمكن أدائه إلا بفضل إلهي. بل، ألفرد. (١٩٨١م). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم. تر: عبد الرحمن بدوي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ٢٧٢.

(٥) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢١٥، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٩٠-٢٩١.

(٦) الإدريسي. الإمامة. ص ١٢٤.

(٧) الأشعري. مقالات الإسلاميين. ج ٢. ص ٢٣٠؛ ابن حزم، علي بن أحمد. (١٩٩٦م). الفصل في الملل والأهواء والنحل. تح: محمد إبراهيم نصير، وعبد الرحمن عميرة. ج ٣. دار الجليل. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٥٤، ١٣٦؛ ابن تومرت. أعز ما يطلب.

والعصيان يوجب العقاب^(١)، أما محمد بن تومرت يوافق الإمام الغزالي في ربط العقاب والثواب بمشيئة الله^(٢)، ويتفق مع المعتزلة وابن حزم في ناحية مرتكب الكبيرة على أنه فاسق؛ لأنه أخلّ بالعمل الذي هو شرط من شروط الإيمان لديه، بذلك خالف الأشاعرة الذين يقولون إنه مؤمن والخوارج الذين يعدّونه كافراً، ويقول إنّه بمنزلة بين المنزلتين^(٣)؛ لذلك لم يسلم محمد بن تومرت بالقياس في العقل، ويرى أنّ الشرع يكون بالبرهان، وينقض كل من قال يجوز القياس في أربعة شروط هم العلة والحكم والأصل والفرع؛ لأنّهم يفرقون الشرع بذلك^(٤)، فيوافق ابن حزم في هذه الناحية، وفي أنّ الرأي في الحديث معاذ، لأنّه الحكم السليم بالعاقبة، وفي أنّ الظن لا يعني من الحق شيئاً، ولا يغرز الشريعة لأنّه لا يثبت إلا بالعلم^(٥)؛ أمّا الأمور المسلم بها عند محمد بن تومرت أنّ الله يصنع للإنسان قدره "فكل ما ظهر وجوده بعد عدمه من أصناف الخلائق في ملك الباري سبحانه، سبق قضاؤه قدره" وكذلك "جميع المخلوقات صادرة عن قضاائه وقدره"^(٦)، ويتفق موقفه هذا مع الأشاعرة^(٧).

- نبذ الفروع والعودة إلى الأصل:

ساد المذهب المالكي في العصر المرابطي منذ إعلان الأمير المعزّ بن باديس تبنيه للمذهب لإخراج الصناهجة عن المذهب الشيعي، وبقي حتّى قيام حركة محمد بن تومرت الذي فرض المذهب الأشعري بدلاً عنه، ويعود ذلك إلى سوء فهم المغاربة للدين الإسلامي، وتطبع المجتمع المرابطي بالفقهاء الذين تولوا سيادته، ومنعوا الاشتغال بعلم الكلام وتدريس الأصولين الكتاب والسنة؛ لذلك انحصر روح الاجتهاد ومال الناس نحو الفروع والتقليد، حتّى أصبح للفقهاء سلطة واسعة يحلّون ويحرمون بها ما يحقق مصالحهم المادية والشخصية، لذلك شرع محمد بن تومرت بتعليم أصحابه هذين الأصولين، وأخذهم على حفظ أجزاء من القرآن الكريم والسنة، وعلمهم إلى جانب عقيدة التوحيد

ص ٢٢٣، ٢٦٨-٢٧١.

(١) القاضي، عبد الجبار بن أحمد. (١٩٩٦م). شرح الأصول الخمسة. تح: عبد الكريم عثمان. القاهرة: مكتبة وهبة. مصر. ط ٣. ص ٤٥٧.

(٢) الغزالي. الإقتصاد. ص ٨٤-٨٥؛ ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢٢٣؛ الإدريسي، توفيق بن أحمد الغلبزوري. (٢٠٠٦م). المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس. دار ابن حزم. الرياض: السعودية. ط ١. ص ٦٣٣.

(٣) القاضي. شرح الأصول. ص ٧٠١؛ ابن حزم. الفصل. ج ٣. ص ٢٧٣ وما بعدها؛ ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢٩٠؛ الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد. (د.ت). المواقف في علم الكلام. عالم الكتب. بيروت: لبنان. ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣٦، ٢٧٨؛ الإدريسي. المدرسة الظاهرية. ص ٣٣٧؛ الإدريسي. الإمامة. ص ١٢٩.

(٥) ابن حزم، علي بن أحمد. (١٩٨٣م). الإحكام في أصول الأحكام. ج ٧. دار الآفاق الجديدة. بيروت: لبنان. ص ١١٣؛ ج ٨. ص ٤٦-٤٧؛ ابن حزم، علي بن أحمد. (٢٠٠٣م). المحلى بالآثار. تح: عبد الغفار سليمان البنداري. ج ١. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ٣. ص ٨٦؛ ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣٥-٤٥؛ النجار. المهدي بن تومرت. ص ٢٩٩.

(٦) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢١٨-٢١٩.

(٧) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٢٦٤.

مبادئ تتعلق بالعبادات والجهاد، وأفرد محمد بن تومرت الأصل الشرعي بثلاثة أنماط هي القرآن الكريم والحديث والإجماع، ونبذ القياس، أما الفرع الفقهي وهو الحكم الشرعي فقط أبطل محمد بن تومرت ثبوته بالعقل، وقال إنه لم يبق "إلا السمع، والسمع على ضربين تواتر وآحاد فما كان تواتر أفاد العلم القطعي، وما كان آحاد أفاد العمل بالأصل المقطوع به"^(١)، وهذا يشابه المذهب الظاهري^(٢).

ويرى محمد بن تومرت أن أحكام الشرع من محتوم ومحذور ومنسوب وغيرها "باطل ثبوتها بالتقليد لعدم البيان ...، ولأن التقليد جهل، ولا يفضي إلى العلم، ومحال ثبوت الحق بالجهل"^(٣)، لذلك عمل محمد بن تومرت على نبذ الفروع؛ لأنها حسب رأيه مصدر للخطأ والشك مع إمكانية تعارضها مع الأصل، لكنه يساير العقليين في التفسير المجازي؛ لتمييز عن باقي الفقهاء ومذهب الإمام مالك، ويوافق الإمام الغزالي في الدعوة لإحلال المنهج العقلي لتقرير الأمور الشرعية بالدراسة المباشرة للأصول^(٤)، ولا يحقق غايته إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه الغاية التي كان الهدف منها في البداية إصلاح الأمة، وعندما علم محمد بن تومرت أنه لا يتم إصلاحها إلا بالقوة اتبع مبدأ أستاذه الغزالي والخوارج في الثورة على الحكام الفاسدين وتكفير كل من يمد يد العون إليهم؛ مخالفاً بذلك أستاذه الآخر الطرطوشي الذي جمع في كتابه سراج الملوك الأحاديث التي تدعو لطاعة الحكام حتى لو جاروا على عامة الناس^(٥).

لنلاحظ من ذلك أن من قال عن محمد بن تومرت إنه لم يكن مالكيًا ولا مخالفاً لهم قد أصاب بقوله^(٦)؛ لأن محمد بن تومرت لم يكن يقصد مناهضة المذهب؛ إنما رفض الفقهاء وعلمهم بالفروع، ولأنه اهتم بموطأ الإمام مالك، واختصره في كتاب "محاذي الموطأ"، كما اعتمد على أصل من أصول المالكية وهو عمل أهل المدينة؛ لذلك ما قام به من حرق لكتب المالكية^(٧) ونفيه للقياس لا يدل على عدائه للمذهب المالكي؛ إنما محاولته لتطوير المذهب بما يتناسب مع عقيدته الجديدة، وإبهار الناس

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٨-٤٩.

(٢) ابن حزم، علي بن أحمد. (١٩٨١م). النبذ في أصول الفقه. تح: أحمد حجازي السقا. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة: مصر. ص ١٦، ٢٩؛ سعد، عبد السلام. (٢٠٠٩م). ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين. دكتوراه منشورة. قسم الفلسفة. كلية العلوم الإنسانية. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ١٤٨ وما بعدها.

(٣) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٥٠؛ الإدريسي. المدرسة الظاهرية. ص ٦٦٠.

(٤) جلاب. الدولة الموحدية. ص ٣٥؛ ألفرد. الفرق الإسلامية. ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٥) الطرطوشي، محمد بن الوليد. (١٩٩٤م). سراج الملوك. تح: محمد فتحي أبو بكر. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة: مصر. ص ٤٦٢-٤٦٦؛ حسن. تاريخ الحبشية. ص ١٦٢.

(٦) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٤٩٥-٤٥٦؛ ألفرد. الفرق الإسلامية. ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٧) السملالي. الإعلام. ج ٨. ص ٣٩٦.

بعظمته وقدرته؛ لأنّه يحسب نفسه أعظم من الأئمة^(١)، ظهر ذلك في الأمور المتعلقة بالنبوة من عقيدته.

ب- أمور تتعلق بأحكام إلهية وروحية خارجة عن قدرة العقل البشري:

تناول محمد بن تومرت أموراً ومسائل عدّة، لا يمكن للعقل البشري تفسيرها، لأن قدرة العقل البشري محدودة فيها، وجعلها جزءاً من عقيدته، كان من أهمها:

أ- **الصفات:** صفات الله تعالى وردت في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي تدلّ عليها أسماء الله الحسنى، فحدد المتكلمون مثل الأشاعرة هذه الصفات بحسب الأسماء؛ لذلك نظر إليها على أنها تشخيص للألوهية مثل الثالوث المقدس عند المسيحيين، وتعددت الآراء حولها، ففيل إنها متميزة عن الذات؛ لأنّها لو كانت من ذاته لجاز توجيه الصلوات لهذه الصفات، وهناك من ينكر صفات الله، ويقول إنّّه إله واحد^(٢)، وهذا ما وافقه محمد بن تومرت بعقيدته متفقاً مع المعتزلة والظاهرية في هذه الناحية^(٣)؛ لأنّ موقفه كان التنزيه المطلق لله تعالى عن كل تشبيه أو تكليف فقال: "هو الله الذي لا يحدّ بحدّ ولا يقدر بمقدار...، ولا تكفيه العقول ولا تصوّره الأذهان"، وقال أيضاً: "له الأسماء الحسنى، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن"^(٤)، ومن صفات الله عنده أنّه العالم والمريد والقادر، وهدفه من ذلك هو محاربة المرابطين، لأنّه رأى أنّ كل من خيّر بين الصفات والذات يجب محاربته^(٥).

ب- **المهدوية والعصمة وكتاب الجفر**^(٦): لم يذكر أنّ محمداً بن تومرت تتلمذ على أيدي علماء من المذهب الشيعي؛ لذلك تبنى فكرة المهدوية عند محمد بن تومرت كانت بعد ثورته على المرابطين، خاصة أنّ أهل المغرب كان لديهم إيمان مطلق بأهل البيت والأسرة الإدريسية، ومن ثمّ دعوة عبد الله الفاطمي لمهديته التي لاقت استحساناً عند قبائل البربر في المغرب الأوسط، وتقرب أهل السوس الأقصى بالتحديد من علم الغيبيات دفعهم للتقرب أيضاً من كل من يحمل هذه الأفكار؛ ممّا ساعد محمداً بن تومرت في جمع التابعين حوله، لأنّ الإيمان بالإمامة فرض على الجميع، فهي:

(١) الإدريسي. **المدرسة الظاهرية**. ص ٦٢٩.

(٢) جلاب. **الدولة الموحدية**. ص ٣٤؛ ألفرد. **الفرق الإسلامية**. ص ٢٧٣.

(٣) الأشعري. **مقالات الإسلاميين**. ج ١. ص ٢٣٥؛ ابن حزم. **الفصل**. ج ٢. ص ٢٨٣.

(٤) ابن تومرت. **أعز ما يطلب**. ص ١٩٢، ٢١٩-٢٢٠.

(٥) جلاب. **الدولة الموحدية**. ص ٣٤.

(٦) يعتقد الشيعة أنّ الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، أو الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) كتبه لهم على جلد الماعز لمراجعته في كل ما يحتاجون إليه إلى يوم القيامة. المراكشي. **المعجب**. ص ١٣٧؛ مجمع اللغة العربية. **المعجم الوسيط**. ص ١٢٦.

" ركنٌ من أركان الدين، وعمدةٌ من عمد الشريعة، ولا يصلح قيام الحق في الدنيا إلا بوجود الاعتقاد بالإمامة في كل زمان إلى أن تقوم الساعة، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه"، ولأنه بالإمامة يتمكّن من قيادة أتباعه، أشار إلى ذلك في قوله عن الإمام "إنه المتبوع، كما يتبع في الصلاة في أفعاله وأقواله"^(١)؛ موافقاً بموقفه هذا القاضي عبد الجبار المعتزلي^(٢)، وزاد على هذه الفكرة مبدأ العصمة الذي يقول به الفكرُ الشيعيُّ الاثنا عشريُّ، حيث يرون في الإمامة أن "الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة معصومون مطهرون من كل دنس ولا يذنبون ذنباً لا صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون"^(٣)، فكانت غايته سياسية في المقام الأول من تبنيه لهذه الأفكار؛ لأنه صرح بها بعد وصوله لمدينة تينمل؛ ولأنّ غايتها ألا يخالف أتباعه أمره ويقنعهم أن ما يأمرهم به هو أمرٌ من الله تعالى للقضاء على دولة المرابطين، حتى أن محمداً بن تومرت لم يؤمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً؛ لأنه يعترف بإمامة الخليفة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ، ولم يعطِ تفسيراً لغياب الأئمة بعد الخلفاء الراشدين ﷺ؛ مخالفاً المذهب الشيعي الذي قال بإمامة أبناء الخليفة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، وأستاذه الغزالي الذي أضاف أسماء بعد الخلفاء الراشدين ﷺ مثل الخليفة العباسي المستظهر بالله^(٤) ٤٨٧-٥١٢ هـ/ ١٠٨٥-١١١٨ م، ولعلّ هدفه من ذلك إظهار نفسه على أنّه الإمام الشرعي الوحيد بعد الخلفاء الراشدين ﷺ الذي سيعيد للأمة الإسلامية مكانتها بعد تدهور أحوالها وانتشار النزاعات والفرق والآراء، والدليل أيضاً على أن محمداً بن تومرت كان يريد التقرب من المذاهب الإسلامية المختلفة وتسخيرها لمصلحته ما ذكرته المصادر عنه، فقال صاحب بيوتات فاس إنّهُ "أنكر الرأي في الفروع الفقهية، والعمل على محض الظاهرية"^(٥)، وذكر المراكشي: "كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها...، وكان يبطن شيئاً من التشيع"^(٦)، وقال ابن خلدون: "ولم

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢٩٧، ٣٠٠.

(٢) القاضي. شرح الأصول. ص ٧٥٠.

(٣) سورة التحريم. الآية ٦؛ الصدوق، محمد بن علي. (٢٠١٣ م). الإعتقادات. مؤسسة الإمام الهادي. قم: إيران. ص ٣٠٤-٣٠٥؛ مبدأ ما يأمرهم به هو من الله يعود إلى الديانتين اليهودية والمسيحية القائلة إن كل مؤمن يكون ما يحله بالأرض محلولاً في السماء وما يربطه بالأرض يكون مربوطاً بالسماء، لكن مسألة العصمة على الأنبياء والأئمة لا تحملها الديانات السماوية السابقة للإسلام؛ لأنها ذكرت في الكتاب المقدس أن الأنبياء عوقبوا لارتكابهم الخطايا، ولا يؤمن بها من مذاهب الديانة الإسلامية إلا الشيعة، أما أهل السنة والباقلاني يقولون بعدم عصمة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. متى. الأصحاح ١٨. ١٨؛ الدينوري، عبد الله بن مسلم. (١٩٩٠ م). الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء. تح: علي شيري. ج ١. دار الأضواء. بيروت: لبنان. ص ٣٤؛ أيبش، يوسف، وكوسوجي، ياسوشي. (٢٠٠٠ م). قراءات في الفكر السياسي الإسلامي. دار أمواج. بيروت: لبنان. ص ٤٦-٤٧.

(٤) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣٠٠-٣٠١؛ الغزالي. فضائح الباطنية. ص ١٥٣؛ الإدريسي. الإمامة. ص ١٤١.

(٥) ابن الأحمر. بيوتات فاس. ص ١٩.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ١٤١.

تحفظ عنه فتلة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم^(١)؛ أي إنه يحمل أفكاراً شيعية وليس من أتباع المذهب الشيعي، فبتبنيه الأفكار الشيعية ونسب نفسه لأسرة الخليفة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) يكون قد برهن أن مهاديته شرعية إلهية لا جدال بها؛ لذلك قال بنسبه القرشي وأن نسبه " من ذرية فاطمة"^(٢)، ويكون بذلك قد تقرب من الشيعة الإسماعيلية أيضاً عندما نسب نفسه إلى الفاطميين الذين اختلف معهم بقضية حقهم المغتصب بالمهديوية، واختلف مع العباسيين الذين يرون فيها حقاً وراثياً، ومن ذلك يفهم أن فكر محمد ابن تومرت كان لتأكيد مهاديته فقط وليس نصرة لإحدى الخلافتين، وهذا ما فعله عندما ربطها بـ "كتاب الجفر" المقدس لدى الشيعة، فيتمكّن بادعائه هذا أن ينصّب نفسه إماماً من أئمة الشيعة الذين توارثوا الكتاب باطلاعه عليه في المشرق العربي الإسلامي، وليؤكد ذلك ذكر أنه قرأ بالكتاب أن دفنه يكون في المغرب بمكان اسمه تينملل، وأن استقامة الأمر بالمغرب يكون على يد رجل اسمه عبد المؤمن بعد المئة الخامسة للهجرة/ الثانية عشر للميلاد، حتّى أنّه ادعى قدرته على عدّ الخلفاء بعده، وعدد من الأمور التي تتعلق بالألوهية الهدف منها إظهار نفسه بمستوى فوق البشر، وليؤكد أنّ خليفته هو عبد المؤمن بن علي، فيمنع بذلك التنافس بعده على منصب الخلافة^(٣).

٢ - أفكار المهدي محمد بن تومرت السياسية:

تكون الفكر السياسي عند المهدي محمد بن تومرت من التوحيد كونه شعار حركته، والإمامة حسب الفكر الشيعي، والطابع الانتقائي في عقيدته لمذاهب عدة، لكن أهم ما يُلحظ أيضاً من خلال تتبع رحلة محمد بن تومرت أن نظريته دارت في البداية أيضاً، حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ عمل في البداية على منع كل ما يخالف الشرع والسنة النبوية من شرب الخمر، وتقشي ظاهرة الترف في الحياة الاجتماعية، وسفور المرأة، والمناظرات العلمية في المجالس، والاهتمام بالتدريس وإقامة الصلاة؛ لذلك كان اهتمامه بطلاب العلم كونهم يمثلون الحلقة الأهم في قضيته وحركته الإصلاحية التي دعا إليها.

حاول المهدي محمد بن تومرت بناء دعوة قائمة على مبدأ ديني بدلاً من المبدأ القبلي السياسي، فلم يقدّم شيوخ قبيلته هرغة على باقي القبائل، وتابع الموحدون ذلك^(٤)، إذ عدّوا أنفسهم متفردين بالسلطة كما كان المهدي لكن تحت لواء القبائل الموالية لهم، وليس المصامدة فقط.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٥.

(٢) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٠.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٤١؛ جلاب. الدولة الموحدية. ص ٣٨-٣٩.

(٤) شواكري. أسس. ص ١٢٧-١٢٨.

كما يلحظ أنّ هدف محمد بن تومرت بعد خروجه من ملالة، الثورة على المرابطين وإنهاء حكمهم؛ لذلك جل نظرياته كانت تهدف إلى إسقاط حكمهم بسبب ابتعادهم عن الشرع ودعوته للتوحيد، ومن خلال تنظيمه لأتباعه يتبين أنّ فكر محمد بن تومرت اتجه نحو إشراك القبائل وجمعها تحت لوائه، بجمعها حول كلمته؛ لتحقيق غايته والقضاء على العصبية القبلية، وضرورة وحدة كلمتهم حتى لا تحتقرهم العامة؛ لذلك اتجه إلى المشرق العربي الإسلامي، وهذا ما يصل به إلى غايته والقضية التي تغرب من أجلها، كما أنه لم يترك مجالاً للنقاش في أمر من يتولّى الحكم من بعده؛ مراعيّاً المصلحة الشخصية على المصلحة العامة^(١)، وبذلك ضمن سماع أتباعه وطاعتهم بإعلانه المهدوية؛ أما في **المجال الاقتصادي** أنكر كل ما يخالف الشرع في جباية الأموال، والضرائب الموضوعة من قبل المرابطين، وخالف ظلم العامة^(٢)؛ وفي **المجال العسكري** دعا إلى تقسيم المناصب العسكرية بين أتباعه المخلصين، واستعمل القسوة والعنف ضد كل من لا يؤمن بعقيدته وقضيته، والابتعاد عن استخدام العناصر الدخيلة من الروم والبيد في صفوف الموحدين.

ثالثاً: مراحل دعوته، والتكوين النظري لفكره السياسي:

رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي لم يكن الغاية منها تحصيل العلم فحسب؛ وإنّما كانت رحلته بغاية سياسية سخر العلم والدين لخدمتها وسط مجتمع مغربي منقسم سياسياً ومذهبياً؛ لذلك لا بدّ لهم من رجلٍ يخلّصهم ممّا يعانون منه؛ ومن هذا المنطلق يمكن عدّ ما ذكرته مصادر الدولة الموحدية هو لإظهار الهالة الإلهية على شخصية محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي؛ لأنّ من يدرس علاقة القبائل في المغرب العربي الإسلامي وتاريخها يستنتج أكثر مما ذكرته، خاصة أن محمّداً بن تومرت على الأرجح لم يكن فقيراً كما ذكر ابن أبي زرع^(٣)، ولا من فئات المجتمع المعدومة، وإنّما كما ذكر المراكشي كان من أشرف المصامدة^(٤)، وملازمته للمساجد منذ صغره^(٥) زاد من تعلقه بالعلم والدين الذي تربّى عليه؛ لذلك لا يستبعد أن تكون فطنته ونباهته لفتت انتباه القائمين على أمر المساجد، ولعلمهم هم من نبهوه على فكرة الرحلة إلى المشرق العربي الإسلامي؛ لتلقي العلم على يد أعظم الفقهاء والعلماء الإسلاميين، يستنتج ذلك مما ذكر عن رحلته وسياسته في التعامل مع القبائل البربرية.

(١) شارف، أحمد. (د.ت). **الفكر السياسي بالمغرب والأندلس في دولة المرابطين (٤٦٢-٥٣٩هـ / ١٠٦٩-١١٤٤م)**. دكتوراه

منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية. جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله. الجزائر. ص ٢١٠-٢١٩.

(٢) ابن تومرت. **أعز ما يطلب**. ص ٤٠٧.

(٣) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٧٢.

(٤) المراكشي. **المعجب**. ص ١٣٦.

(٥) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣٠١؛ النجار. **تجربة الإصلاح**. ص ٥٧.

ويبقى السؤال عن رحلته: هل توجّه محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي مباشرة؟ أم إنه اكتفى بتلقي العلم من علماء المغرب والأندلس؟ وهل كان لرحلته وحركته الإصلاحية غاية ثورية ينهي بها حكم المرابطين أم كانت غاية اجتماعية سياسية يصلح بها حكم المرابطين ويعلي من مكانة قبيلته لديهم؟ وكيف سخر هذه الرحلة وما تعلّمه منها لتكوين قضيته، وتحقيق طموحه رغم العقبات التي اعترضته في رحلة العودة إلى موطنه؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من تتبع مراحل رحلة محمد بن تومرت ونتائج هذه الرحلة على سكان المغرب ونفسية محمد بن تومرت، فابن تومرت الذي غادر المغرب يختلف تماماً عن محمد بن تومرت العائد إليه، فالذي غادر المغرب طالب طموحاً راغب بالعلم، أما العائد إليه رجل فقيه بالعلم وأصول الدين لا يمكن مناظرته في شؤونه، قاسي القلب حازم في رأيه ومتعنت لهدفه، ولمعرفة الأسباب لا بدّ من تتبع مسيرته وما تعرض إليه من مصاعب في المشرق العربي الإسلامي ومغربه، ومن هذا المنطلق يمكن الإجابة عن جميع التساؤلات، كما سيذكر من الحديث عن رحلته.

١ - المرحلة المغربية:

نشأ محمد بن تومرت في المغرب العربي الإسلامي ملازماً للمساجد متأثراً بعائلته المقبلة على العلم ودراسة العلوم الدينية والشرعية^(١)، ولم تذكر المصادر ما يشفي الغليل عن نشأته العلمية^(٢)، وذلك لأنّ محمّداً بن تومرت نشأ في فترة الصراع والجدل والتقلبات المذهبية بين قبائل البربر التي سادها المذهب المالكي بدعم من الصنهاجة والمرابطين، ومذهب الفاطميين الشيعي الذي استقرّ بفضل استخدامهم لفرسانهم العرب في تحقيق هذه المهمة.

وهذا يعني أنّ القبائل الأخرى من البربر زال مركزها عن الساحة السياسية والعلمية في المغرب العربي الإسلامي والأندلس؛ مع انحسار الصراع بين الفاطميين وصنهاجة، ولاسترداد مكانة القبائل الأخرى لا بدّ من مقدرات علمية فائقة لا تتم إلاّ عبر طلبه العلم الطامحين والراغبين بالمعرفة، فالعلم السلاح الوحيد لتحقيق غاية صاحبه وسط دولٍ قوية تمتلك كل ما يمكنها من فرض سطوتها وطيغانيها على من هم أضعف منهم مقدرة وقوة، لذلك كان أمثال محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي هدفاً أساسياً لقبائلهم الباحثين عمّن يخدم أهدافهم، خاصةً بعد نتائج رحلة ابن العربي إلى

(١) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٩٠؛ حركات. **المغرب**. ج ١. ص ٢٤٦؛ النجار. **حركة الإصلاح**. ص ٥٧؛ حسين، حمدي عبد المنعم محمد. (١٩٩٧م). **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**. دار المعرفة الجامعية. مصر. ص ٨٤.

(٢) ذكر أن محمّداً بن تومرت كان متردداً على المساجد منذ طفولته، حافظاً للقرآن الكريم، عارفاً لبعض مبادئ الفقه والشرعية، حتى أنّه "شب قارئاً محباً للعلم"، هذا ما أكده ابن خلدون في حديثه عنه، وعمّا عرف به أهل المغرب من تحفيظ أبناءهم القرآن الكريم ومسائله حتى فترة الشباب. ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ١. ص ٧٤٠؛ وج ٦. ص ٣٠١.

المشرق العربي الإسلامي؛ لذلك من المرجح أن ما ذكّرته المصادرُ عن طفولة محمد بن تومرت هو لإبراز هذه الناحية، لكن السؤال هنا: هل يكفي هذا القدر اليسير من العلم لتحقيق أهداف القبائل؟ وهل يكفي العلم في المغرب العربي الإسلامي طموح هذا الشاب التواق للمعرفة؟

من المؤكد أنّ العلم الذي كان يتلقاه الطلبة في المغرب الإسلامي لم يكن يرضي طموحهم؛ لأن رحلاتهم لطلب العلم من المشرق العربي الإسلامي كانت عادة يتبعونها استمرت لأجيال طويلة^(١)، وبالتأكيد لم يكن الهدف من رحلاتهم تحصيل قدر ضئيل من العلم، ولو كان ذلك صحيحاً لاستغنوا بالمراكز الدينية والثقافية المنتشرة في بلادهم أو في الأندلس؛ وإنما الهدف كان تسخير الدين لخدمة مصالح قومهم ومحاولة إيجاد تفاسير لما كان ينتشر بينهم من أفكار لا ترضي اعتقادهم، يستنتج ذلك ممّا ذكره ابن العربي الأشعري الذي هاجم فقهاء أهل الحديث لتحريمهم علم الكلام؛ بحجة أنه بدعة لم يكن عليها سلف الأمة، ويعزو ذلك لعجزهم وعدم قدرتهم على ذلك، حتّى أنّه شبههم بالأنعام وقال عنهم إنّهم جاهلون في موقفهم من الصفات، وإنّه لا يقال عن هذه الطائفة: "إنّها بنت قصر أو هدمت مصرًا؛ بل هدمت الكعبة واستوطنت البيعة (كنيسة اليهود)، وحذار أن تنشؤوا معهم دليلاً، ولا تستأنفوا معهم من الكلام نفيراً ولا فتياً، فليسوا لذلك أهلاً"^(٢)، حتّى أنّ ابن العربي يعدّ أول من أدخل كتاب إحياء علوم الدين إلى المغرب قبل إحراقه بثمانين سنوات^(٣)، ويستنتج أيضاً ممّا ذكر عن محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وغيرهما من الذين سافروا إلى المشرق الإسلامي أو كان يعتزم السفر إليه، وهذا يفسر سبب عدم اقتناع محمد بن تومرت بمراكز العلم الأساسية في المغرب العربي الإسلامي مثل مدينة مراكش^(٤) وسبتة وبجاية^(٥)، رغم عدم إثبات أنه توجّه إليهم في البداية، وما تثبته المصادر أنه اختار حواضر العلم في الأندلس ومراكزها الأكثر تحرراً فكرياً ومذهبياً، وتعدّ مدارسها ومعاهدها من أكبر مراكز العلم في المغرب العربي الإسلامي^(٦).

ولكن كيف لهذا الشاب الفقير أو الذي ينتمي للطبقة الوسطى أن يتحمل أعباء طموح أكبر منه مادياً، ويقرر أن يتلقى العلم في أماكن بعيدة عن موطنه في السوس الأقصى؟ هذا ما يدفع

(١) التليسي، بشير رمضان. (٢٠٠٣). الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. دار

المدار الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١. ص ١٩٤.

(٢) ابن العربي. العواصم من القواصم. ص ٢١١-٢١٣.

(٣) بورقاق، فاطمة. (٢٠١٤م). تأثير كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في المغرب والأندلس. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم

العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة. الجزائر. ص ٤٢.

(٤) مؤنس. معالم تاريخ المغرب. ص ٢٠٣.

(٥) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٦٠-٦١.

(٦) كيب، جوزيف ماك. (١٩٨٥م). مدينة المسلمين في إسبانيا. تر: محمد تقي الدين الهاللي. مكتبة المعارف. الرباط: المغرب.

للتخمين أنَّ قبيلته هي من تحمّلت أعباء دراسته ورحلته وليس عائلته، أو أن ما ذكرته المصادر عن وضع عائلته ليس إلا لإعلاء شأن محمد بن تومرت وتقريبه من الطبقات المسحوقة اجتماعياً، ويبقى الافتراض الثاني هو المرجح؛ لأنّ المصادر لم تذكر أن قبيلته تحمّلت أعباء رحلته؛ وإنّما رحلته كانت لغاية فردية يشبع بها طموحه في تحصيل العلم.

وما أكّدته المصادر هو ذهابه إلى الأندلس، لكن اختلفت في تحديد وقت السفر والمدة التي قضاها في الأندلس^(١)، ويجمع الباحثون على أنّها كانت بين عامي ٤٩٩-٥٠١هـ/١١٠٥-١١٠٧م^(٢)، وذكر ابن القطان أنّ وجهته كانت الأندلس "إنّ الإمام المهدي رضي الله عنه جاز البحر إلى الأندلس طالباً للعلم، ووصل قرطبة"^(٣)، رغم تشكك الباحثين من ذهابه للأندلس^(٤)، إلا أنّ ما ذكره ابن القطان هو المرجح؛ لأنّ الأندلس مكان تواجد الانقلابيين على عقيدة الدولة المرابطية، أمثال ابن العربي الذي غادر إلى المشرق العربي الإسلامي؛ أي إن الأندلس تمتلك خبرة عن طرق الرحلة ومسالكتها إلى المشرق العربي الإسلامي يمكن أن يستفيد منها محمد بن تومرت في الاستدلال على المراكز العلمية المهمة التي تحقق غايته العلمية من دون أن يضيع وقت سفره عبثاً، وما ذكر عن التقائه عدداً من ممثلي المذهب الظاهري (ذكر عنه في الفصل الأول، ص ٦٥) الذي أخذ عنه المبادئ يعدّ دليلاً على ذلك^(٥)، حتى أنه التقى بالقاضي محمد بن علي بن حمدين ت. ٥٠٨هـ/١١١٤م^(٦) الذي كان من كبار علماء الأندلس وهو الذي أمر بإحراق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي^(٧)، وإن صح هذا اللقاء يمكن الاعتقاد ربما أنّ محمداً بن تومرت واحدٌ من الذين نقلوا للإمام الغزالي معارضة العلماء لكتابه؛ لأن قضية إحراق الكتاب كانت في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م أي بعد مغادرة محمد بن تومرت الأندلس ووصوله إلى المشرق الإسلامي، وربما كان ذلك أحد أسباب مغادرة محمد بن تومرت للأندلس حتى يصل إلى الإمام الغزالي وأخباره ربما عن معارضة العلماء

(١) فذكر ابن القطان أنّها كانت في السنة الأولى من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أو التي قبله سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، وذكر المراكشي أنّ رحلته كانت في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، أما ابن عذارى فحددها في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وكذلك ابن خلدون الذي ذكر أنّها كانت في بداية سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٦٢؛ المراكشي. المعجب. ص ١٣٦؛ ابن عذارى. البيان. ج ٤. ص ٥٩؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١.

(٢) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٦٥؛

Garcia Mercedes, arenal. (2006). messianism and puritanical reform mahdis of the muslim west.

translated from Spanish by: Martin Beagles. Brill. Leiden. pp: 162,10.

(٣) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٦٢.

(٤) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٦٧.

(٥) العروي. مجلد تاريخ المغرب. ج ٢. ص ١٤٥؛ ميراندا. التاريخ السياسي. ص ٣٤.

(٦) ابن قنفذ. الفارسية. ص ١٠٠؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

(٧) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٧٠.

لأفكاره، فرغم ما ذكر عن أسباب مغادرته للأندلس^(١) وعدم إطالة إقامته فيها إلا أن الأسباب تكمن في أسباب مغادرته للمغرب العربي الإسلامي نفسها؛ لذلك من المحتمل أنه التقى بمعارضين وناقمين على المرابطين وسياساتهم، حتى أنه خلال رحلته في أرجاء دولة المرابطين تبين معه بوضوح نقاط ضعف الحكم المرابطي التي تطرق إليها الفصل الأول من الدراسة، ص ٢٨-٣٧؛ فسخر هذه النقاط في مصلحة ثورته بعد عودته إلى موطنه.

وما يهم هنا هو طريق رحلته إلى المشرق الإسلامي، فبعد مغادرته ميناء مدينة ألمرية كان مقصده مدينة المهدية حيث يتواجد الفقيه أبو عبد الله المازوري ت. ٥٣٦هـ/١١٤١م الذي تلقى العلم على يده^(٢)، إلا أن النجار يشك في صحة هذا الأمر معللاً في أن الفقيه المازوري لم يكن قد سطع نجمه بعد^(٣)، والتيجاني ذكر أنه توجه إلى جزيرة جربة قبل أن يصل إلى مدينة المهدية^(٤)، أما بعض الباحثين فقال بعدم دخوله مدينة المهدية في مسير رحلته، وأنه توجه إلى مدينة الإسكندرية مباشرة^(٥)، إلا أنه ما يُلاحظ من مسيرة رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي يرجح نيته زيارة المناطق والاطلاع على أحوالها، والاستفادة من علومها، وإغناء فكره بالمعلومات عن الاستقهادات التي راودته منذ طفولته وحتى شبابه عن أصول الدين وعلومه؛ لذلك لا يستبعد أنه زار أكثر من منطقة، وعزم على الالتقاء بالفقهاء والعلماء للوصول إلى الكمال العلمي الذي لا يصل إليه إن لم يصل إلى المشرق العربي الإسلامي مقصد الحجاج لزيارة الأماكن المقدسة، ومنبع العلوم للاستبحار بها على يد علماء اشتهروا، وأثروا في دولة المرابطين أمثال الإمام الغزالي والطرطوشي.

كما يُلاحظ أن محمد بن تومرت تعرف أحوال الناس وتطبيقهم للشرع في المرحلة المغربية الأولى من رحلته؛ عن طريق زيارته لأكثر من منطقة وبلد، فمكّنه ذلك في رحلة عودته في النداء إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يعني أن غاية محمد بن تومرت في المرحلة الأولى من هذه الرحلة كانت استطلاعية تعليمية، وهذا ما أوصله إلى مدينة الإسكندرية المرحلة الثانية من رحلته.

(١) حدد الباحثون الأسباب بالقاضي ابن حمدين الذي أمر بإحراق كتاب إحياء علوم الدين، لكن ذلك الرأي لا يعد صائباً، لأن ابن حمدين أمر بإحراق الكتاب سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، وخروج محمد بن تومرت من الأندلس كان سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، وعزا بعض الباحثين ذلك إلى طبيعة أهل الأندلس التي تختلف عن عقلية أهل المغرب العربي الإسلامي، حتى أن المجتمع الأندلسي كان ينظر للبربر نظرة دونية، كما ذكر في الفصل الأول من الدراسة، ص ٢٩؛ لذلك يفترض الباحثون أن السبب كان مضايقة أهل الأندلس لمحمد بن تومرت، لكن ذلك غير صحيح؛ لأن البربر هم من كانوا يحكمون الأندلس في تلك الفترة باسم المرابطين. حسن. تاريخ = الحشيشية. ص ١٢٩-١٣٠.

(٢) الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

(٣) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٦٨-٦٩.

(٤) التيجاني. رحلة التيجاني. ص ١٢١.

(٥) ميراندا. التاريخ السياسي. ص ٣٤.

٢ - المرحلة المشرقية، وأوضاع المشرق العربي الإسلامي في ظل حكم ألب أرسلان وملك شاه بالقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وبداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي:

قصد المهدي محمد بن تومرت بعد خروجه من إفريقية مدينة الإسكندرية^(١) في مصر التي تُعدُّ من ضمن الحدود الجغرافية لبلاد المشرق العربي الإسلامي، كما أنَّ زيارته لمصر محتمة؛ لأنها بوابة الحُجَّاج المغاربة^(٢) وكل قاصداً للمشرق العربي الإسلامي، وهذا ما دفع الأمير علي بن يوسف للتواصل مع الفاطميين لحماية المغاربة العابرين من مصر، لكن ما ميز تواجد المهدي محمد بن تومرت في مصر هو أنه ربما فيها سمع عن حسن الصَّبَّاح وما تعرَّض له في أثناء تواجده في مصر، وتأسيسه دعوته القائمة على إمامة نزار بن المستنصر بالله الفاطمي ت. ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م والتي أدت لانقسام الشيعة الإسماعيليين إلى نزارية ومستعلية^(٣)، ولعلَّ ذلك كان أحد أسباب اندفاع محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي؛ لأنَّ قضية حسن الصَّبَّاح مماثلة لقضية محمد بن تومرت من ناحية الحكم، وتأسيس الدولة بعد عودته لوطنه.

فبعد أن أنهى محمد بن تومرت إقامته في الإسكندرية توجَّه إلى مكة بقصد الحجِّ، لكن النجار ذكر أن بعض الباحثين افترض عدم حجِّه إلى مكة؛ مفسرين السبب بأنه لم يُدعَ بالحجِّ كبقية أصحابه في طريق عودته لوطنه^(٤)، إلا أنَّ ابن خلدون أكدَّ أنه قصد مكة ليؤدِّي فريضة الحجِّ في طريق رحلته إلى المشرق العربي الإسلامي^(٥)، أما ابن الأثير ذكر أنَّه حجَّ في طريق عودته، وليس ذهابه للمشرق العربي الإسلامي^(٦)، وهذا ما يدفع للاعتقاد أنه قصد الحجَّ مرتين، وما يهم هنا هو أنَّه قصد من رحلته الحجاز ثم بلاد الشام والعراق، ومن المصادر التي ذكرت زيارته لبلاد الشام المراكشي الذي قال: "وقيل إنه لقي الغزالي بالشام أيام تزدهه فالله أعلم"^(٧)، يُلاحظ ممَّا ذكره المراكشي أنه غير متأكد من هذا اللقاء؛ لذلك يشكك في قضية لقائه بالإمام الغزالي؛ لأنَّ الغزالي خرج من بغداد سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م؛ معتزلاً عن الناس ما يقرب العشر سنين؛ قاصداً بلاد الشام ومن ثم الحجَّ وبعدها زار

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٦. ص ٣٠١.

(٢) قصد الحجاج المغاربة الحجاز لأداء فريضة الحج وهم من مصر والمغرب العربي. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (١٩٨٧م). تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة. تح: محمد عبد المنعم العريان. ج. ١. دار إحياء

العلوم. بيروت: لبنان. ط. ١. ص ١٤٣.

(٣) الجويني. جهان كشاي. ج. ٣. ص ١٦٤؛ سرور. تاريخ الدولة الفاطمية. ص ١٠٦؛ حسن. تاريخ الحشيشية. ص ١٠٣.

(٤) النجار. تجربة الإصلاح. ص ٥٩.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج. ٦. ص ٣٠١.

(٦) ابن الأثير. الكامل. ج. ٩. ص ١٩٥.

(٧) المراكشي. المعجب. ص ١٣٦.

القدس ومصر والإسكندرية؛ قاصداً زيارة الأمير يوسف بن تاشفين^(١)، لكن وفاة الأمير سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م منعت من زيارة المغرب حسب ما ذكر في الفصل الأول، ص ٣٢.

من ذلك يستخلص أنّ حقيقة لقائه بالإمام الغزالي في بلاد الشام غير ممكنة لأنّ محمداً بن تومرت لم يكن قد غادر المغرب في تلك المرحلة، حتّى أن بعض المصادر قد شككت في اللقاء مثل ابن خلدون والنويري اللذين كان موقفهما مشابهاً لموقف المراكشي من حقيقة هذا اللقاء^(٢)، ومنهم من نفى اللقاء نفيّاً قاطعاً مثل ابن الأثير الذي قال: "والصحيح أنه لم يجتمع به"^(٣)، أما صاحب كتاب الحلل الموشية وابن أبي زرع وابن خلكان أكدوا اللقاء^(٤) حتّى أنّ ابن القطان ذكر أن محمداً بن تومرت حضر مجالس الغزالي في المدرسة النظامية بمدينة بغداد^(٥)، وربما كان تأكيد هذا اللقاء من قبل الموحدين لأهداف سياسية، فالإمام الغزالي غادر إلى مدينة نيسابور سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م أو سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م وإلى طوس حتى وفاته فيها سنة ٥٠٥هـ/١١١١م^(٦)؛ لذلك إثبات صحة اللقاء لا يتم إلا بدليل واضح رغم أن كتاب "سر العالمين" المنسوب للإمام الغزالي يذكر حقيقة اللقاء، ويورد اسم محمد بن تومرت^(٧)، لكن الدراسات تصنف هذا الكتاب من ضمن الكتب المنحولة والمنسوبة للإمام الغزالي^(٨).

وما يمكن استخلاصه مما ذكر أن محمداً بن تومرت قصد من زيارته إلى المشرق العربي الإسلامي اللقاء بالإمام الغزالي، لأسباب عدة، منها: سماعه عنه في أثناء وجوده في الأندلس^(٩)، والأثر الذي تركه في نفوس المسلمين في الغرب العربي الإسلامي عند مباركته لدولة المرابطين، ولأنّ محمداً بن تومرت كان دائماً يبحث عن العلماء المؤثرين في مسامع المسلمين لينال منهم العلم والمباركة، كلّ ذلك يرجح أن محمداً بن تومرت ترك قرطبة وتوجه بسرعة إلى الإسكندرية للحاق

(١) الغزالي، أبو حامد محمد. (١٩٦٧م). المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال. تح: جميل صليبا، وكامل عياد. دار الأندلس. بيروت: لبنان. ط ٧. ص ١٠٥-١٠٦؛ ابن الجوزي. المنتظم. ج ١٧. ص ١٢٥-١٢٦؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٦١؛ باحنشل، أمال بنت عبد الرحمن بن أحمد. (٢٠٠٨م). الماخذ العديدة على كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. ماجستير منشورة. قسم العقيدة. كلية الدعوة وأصول الدين. جامعة أم القرى. السعودية. ص ٢٩-٣١.

(٢) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٥٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠١.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٦؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٢؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٤.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٧٢-٧٣.

(٦) بورقاق. تأثير كتاب إحياء علوم الدين. ص ١٩.

(٧) الغزالي، أبي حامد محمد. (د.ت). سر العالمين وكشف ما في الدارين. د.م. ص ٢.

(٨) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٧٥.

(٩) ذكرت المصادر أن الخليفة عبد المؤمن بن علي سأل ابن العربي فيما إذا قابل محمداً بن تومرت عند الإمام الغزالي، فأجابته أنه لم يلقه؛ وإنما سمع الإمام الغزالي يقول إنه لابدّ للبربري من الظهور بقصد إصلاح المغرب؛ لذلك من الممكن أن يكون محمد بن تومرت قد سمع بهذا الكلام، فاندفع للقاء الإمام الغزالي في المشرق العربي الإسلامي. السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ١٤٧.

بالإمام الغزالي قبل عودته إلى نيسابور؛ لأن تاريخ رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي كانت بين عامي ٤٩٩هـ/١١٠٥م و٥٠١هـ/١١٠٧م، وهو العام نفسه الذي كان فيه الإمام بالإسكندرية، وهذا يضعف ما ذكره ابن خلدون عن قصد محمد بن تومرت مكة في أثناء ذهابه إلى المشرق العربي الإسلامي؛ لأن الإمام الغزالي كان قد حجَّ إليها قبل توجهه إلى مدينة الإسكندرية، كما أن سبب تبديل فكرة الإمام الغزالي لزيارته إلى المغرب العربي الإسلامي تبقى محض الشك أيضاً؛ لأن الإمام الطرطوشي عارض كتاب إحياء علوم الدين قبل العلماء المرابطين؛ مما يعني أنَّ الإمام الغزالي تعرف إلى العلماء الرافضين لفكره في مدينة الإسكندرية، ودعم هذا الإحجام علماء المغرب العربي الإسلامي، ولعلَّ ذلك ما جعل الإمام الغزالي ينقم على العالم العربي الإسلامي، ويتوجه لبلده في نيسابور ومن ثم طوس.

ومن هذا المنطلق لا يستبعد أن يكون الإمام الغزالي قد بارك محمداً بن تومرت ودعاه لإنهاء حكم المرابطين^(١)، حتَّى أن خلفاءه كانوا ينوون قصد مصر أيضاً؛ ممَّا يعني أن الموحدين كان هدفهم هدفهم نشر دعوتهم في كلِّ المناطق التي ناقضت فكر الإمام الغزالي، ولعلَّ هذه الأسباب كانت من ضمن أسباب توقف المراسلات بين الخلافة العباسية في بغداد والأمراء المرابطين في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنَّ تاريخ الانقطاع كان مع وصول محمد بن تومرت إلى وطنه في المغرب العربي الإسلامي، وكأنَّه المبعوث الرسمي لإنهاء حكم المرابطين الذي عانى من ضعفه العالم العربي الإسلامي في مشرقه ومغربيه، كما أنَّ الحرية الفكرية التي تمتع بها المسلمون في تلك المرحلة تدلَّ على ضعف الدولة الفاطمية؛ لأنَّها كانت الرائدة في هذا المجال، وذلك يناقض ما أجمع عليه كتاب أوروبا من حذف اللقاء بين محمد بن تومرت والإمام الغزالي^(٢)؛ وهنا يبقى السؤال: لماذا لم تدخل الدولة الفاطمية في الصراع العلمي الذي دار حول أفكار الإمام الغزالي الأشعري؟ وما أوضاع المشرق العربي الإسلامي التي أسهمت في انتشار الفكر المذهبي للمدرسة النظامية وتغلُّبها على بقية الأفكار المناقضة لها؟ وكيف سخر محمد بن تومرت وجوده في المشرق العربي الإسلامي لخدمة مصالحه وطموحه؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بدَّ من دراسة أوضاع المشرق العربي الإسلامي في ظل حكم

(١) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٧٢-٧٣؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٤-١٠٥؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ١٠٧.

(٢) اجمع كتاب أوروبا على حذف اللقاء نهائياً من سيرة محمد بن تومرت، وذلك لأنَّ الإمام الغزالي غيَّر في مرحلة اللقاء فكره الفلسفي باتجاه الصوفية؛ مؤكداً أن محمداً بن تومرت لم ينقل فكره الجديد؛ وإنما نقل منهجه القديم، ولكن محمداً بن تومرت لم يقصد الإمام لينقل فكره؛ وإنما لإقناع الإمام بمباركته، ولينقل إليه ما يحدث في بلاده من نقض لكتابه إحياء علوم الدين، لذلك ما ذكره الكتاب الأوروبيون ليس صائباً.

السلطان السلجوقي ألب أرسلان وملك شاه؛ لأنه في عهدهم حدثت تطورات علمية سياسية أنهت العصر الإسلامي القديم، ليبدأ عصر آخر أكثر نضوجاً من الناحية الفكرية عن طريق بناء المدارس العلمية؛ لأهداف سياسية ومذهبية، مهمتها محاربة الأفكار الأخرى وفق المنطق والبرهان العلمي.

أ- تأثر محمد بن تومرت بحركة الإصلاح للوزير نظام الملك ٤٥٦هـ -

٤٨٥هـ/١٠٦٣-١٠٩٢م:

لَحِظَ محمد بن تومرت في أثناء تجواله في العالم العربي الإسلامي حالة الضعف التي انتابت دوله سواء من الناحية السياسية أو الفكرية؛ لذلك هو داعية سياسية أكثر مما هو داعية دينية؛ فالفتن الداخلية سيطرت عليها، والأوضاع الاقتصادية متدهورة، والخلافة العباسية وقعت ضحية سيطرة السلاجقة على شؤونها، والصليبيون غزوا المشرق العربي الإسلامي كما غزوا الأندلس، كل ذلك كان سببه وفاة شخصيات بارزة أسهمت في إصلاح البلاد العربية الإسلامية وقوضت أعداءهم، أمثال الأمير يوسف بن تاشفين والوزير نظام الملك اللذان كان لهما دورٌ بارزٌ في قوة الدولة العربية الإسلامية وسيطرتها على الأمور، فما فعله الوزير نظام الملك يعد إنجازاً من الناحية العلمية والسياسية؛ إذ أعاد للخلافة العباسية مكانتها، ودعم حكم السلاطين السلاجقة وحداً من سطوة البيزنطيين على العالم العربي الإسلامي؛ لذلك شخصية الوزير نظام الملك تُعدُّ قدوةً سياسيةً وفكريةً لكل من يريد أن يوحد العالم العربي الإسلامي، ويتحدى الغزاة المسيحيين، ويتصدى للخلافة الفاطمية التي نشرت هيمنتها على المشرق العربي الإسلامي ومغربه بتغيير معالمه المذهبية والديمقراطية.

لكنَّ محمدًا بن تومرت لم يستفد مما فعله الوزير نظام الملك فحسب؛ وإنما استفاد أيضاً من دعوة حسن الصَّبَّاح وتنظيمه لها، حتى وصله إلى تأسيس قوة النزارية شمالي بلاد فارس؛ لذلك دعوة محمد بن تومرت مرّت بمرحلتين: الأولى: كانت متمثلة بالوزير نظام الملك ولم يكن ينوي فيها الثورة على الحكم المرابطي؛ وإنما إصلاح شأنهم كما فعل الوزير نظام الملك مع الدولة السلجوقية، أما الثانية: تمثلت بالاقْتداء بما فعله حسن الصَّبَّاح وتنظيمه لدعوته حتّى وصله لتأسيس دولة قوية استمرت لمدة طويلة من الزمن.

يستنتج ذلك من اقتفاء سيرة الشخصيتين وأثرهما في أوضاع المشرق العربي الإسلامي بعد سيطرة السلاجقة على خراسان وبلاد فارس، ودخول سلطانهم طغرلبيك ت. ٤٥٥هـ/١٠٦٣م مدينة بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م الذي لقبه الخليفة العباسي بملك الشرق والغرب^(١)، وذلك كان بسبب استعانة

(١) الأصفهاني. تاريخ آل سلجوق. ص ٩-١٠؛ ابن الجوزي. المنتظم. ج ١٦. ص ٢٠.

ال خليفة العباسي القائم بأمر الله فيهم لمواجهة القائد المملوكي أرسلان البساسيري الذي أعلن تمرده عليه، ودعوته للخلافة الفاطمية في مصر سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م^(١).

وبعد وصول السلطان ألب أرسلان ٤٥٦-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م للحكم خلفاً لعمه طغرل بك تقلد نظام الملك منصب الوزارة، ليرز دوره في الحفاظ على سلطة السلاجقة والخلافة العباسية في بغداد؛ بمساعدته للسلطان ألب أرسلان وملك شاه ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م في الحفاظ على ملكهم من الثورات المناهضة لحكمهم في أنحاء بلاد فارس والري^(٢)، وردعه للخلافة الفاطمية الطامحة لإنهاء الخلافة العباسية عبر دعمها للأفكار الشيعية في بلاد الشام وفارس والعراق^(٣)، فكان الوزير نظام الملك له سلطان واسع على السلاطين السلاجقة؛ وذلك بسبب تقديمه المشورة والنصائح لهم، حتى أن سلطته كانت تشبه وزارة التفويض؛ لأنه كان يشرف على جميع دواوين الدولة السلجوقية^(٤)، ويتدخل مباشرة في حرية الخليفة العباسي حتى في اختياره لوزرائه، ففي عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م كتب للخليفة العباسي بعزل وزيره أبي شجاع^(٥) واستوزار عميد الدولة بن جهير^(٦) بدلاً منه^(٧)، كما عمل على إنهاء تمرّد الجند في الدولة السلجوقية وإرضائهم عن طريق تقديمه الإقطاعات العسكرية وزيادة رواتبهم أو استعماله للحيلة معهم^(٨)، ونجح كذلك في التعامل مع التنظيم القبلي الذي كان يسود النظام السلجوقي بتقسيمه المملكة إلى أربعة وعشرين منطقة عسكرية راعى فيها الروابط والعلاقات القبلية، فأصبح أفراد القبيلة في طاعة تامة لزعمائهم^(٩).

(١) ابن الجوزي. المنتظم. ج ١٥. ص ٣٤٨؛ ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٣٤٥-٣٤٦؛ طقوش، محمد سهيل. (٢٠١٦م). تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق. دار النفائس. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٨٣.

(٢) الري: مدينة مشهورة في بلاد فارس، وهي مدينة قريبة من بحر قزوين، كانت أكبر من أصفهان. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٣. ص ١١٦-١١٧.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٣٦٢ وما بعدها؛ الصلابي، علي محمد. (٢٠٠٦م). دولة السلاجقة. دار ابن الجوزي. القاهرة: مصر. ص ٤٧-٥٩.

(٤) السمرقندي، أحمد بن عمر. (١٩٤٩م). جهاز مقالة (المقالات الأربع). تر: يحيى الخشاب، وعبد الوهاب عزام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة: مصر. ص ٢٣.

(٥) أبو شجاع: هو الوزير العادل ظهير الدين محمد بن الحسين بن محمد الروذراوري، ولد في قلعة كنكور من أعمال همذان سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م، وتوفي سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ١٩. ص ٢٧-٣٠.

(٦) هو محمد بن محمد بن جهير عميد الدولة خدم ثلاثة خلفاء عباسيين، توفي سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ١٧٥-١٧٦؛ زامباور. (١٩٨٠م). معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. تر: تركي محمد حسن بك، وآخرون. دار الرائد العربي. بيروت: لبنان. ص ٩.

(٧) ابن الجوزي. المنتظم. ج ١٦. ص ٢٩٢-٢٩٣؛ ابن طباطبا، محمد بن علي. (د.ت). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. دار صادر. بيروت: لبنان. ص ٢٩٤.

(٨) الاصفهاني. تاريخ آل سلجوق. ص ٥٤-٥٥؛ ابن الأثير. الكامل. ج ٨. ص ٣٩٥-٣٩٧.

(٩) السبكي. طبقات الشافعية. ج ٤. ص ٣١٧؛ البسام، هيفاء عبد الله العلي. (١٩٨٠م). الوزير السلجوقي نظام الملك. رسالة ماجستير منشورة. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة الملك عبد العزيز.

يُلاحظ من ذلك أنّ الواقع القبلي الذي كان سائداً بين السلاجقة مشابه للواقع القبلي للبربر (الأمازيغ) في المغرب العربي الإسلامي، ولعلّ محمداً بن تومرت كان على اطلاع من علماء المشرق العربي الإسلامي على ما فعله الوزير نظام الملوك بالتعامل مع التنظيم القبلي ومعالجته السياسية له باللين، خلافاً لمحمد بن تومرت الذي عالجته بالقسوة؛ فكان سبباً في انقسام المغرب العربي الإسلامي وتعدد مذاهبه أيضاً؛ ممّا يفسّر سبب تنظيّمه للموحدين على أسس ومحددات جغرافية سياسية وليس قبلية، ومشاركتهم بالحكم عن طريق المجالس التي أنشأها لهم في بلاده بالسوس الأقصى، على خلاف المرابطين الذين لم يهتموا إلا بقبائل صنهاجة الجنوب من لمتونة وجدالة كما ذكر في الفصل الأول، ص ٥٣.

بذلك حلّ محمد بن تومرت المشكلة القبلية في المغرب العربي الإسلامي، ولم يبقَ أمامه سوى المشكلة العقائدية التي كانت من المعضلات التي تعرض لها الوزير نظام الملوك قبله في المشرق العربي الإسلامي؛ لأنّ ما عانى منه المجتمع المشرقي قاسى منه المجتمع في المغرب العربي الإسلامي؛ بسبب قوة الدولة الفاطمية وقدرتها على التوسع والسيطرة الفكرية والعلمية، خاصة بعد تغلغل جذورها في جسم الدولة العباسية وفي أنحاء المغرب العربي الإسلامي؛ أي إن ضعفها في مصر فترة حركة محمد بن تومرت لا يعني نهايتها، وذلك لأنّ قوتها الفكرية نبعت من خراسان المغزية الرئيسة لها بالآراء الفلسفية والبراهين المنطقية لعقيدتها^(١)، أمّا قوتها العسكرية فكانت من المغرب العربي الإسلامي؛ ممّا يعني أن إنهاء امتدادها يتم بمحاربتها فكرياً وليس عسكرياً؛ لأنّ أسلوبها كان يتكل على نشر الدعاة من العلماء الذين يتخذون وسيلتهم الإقناع المستند إلى مبدأ الحوار والمناقشة، وهذا ما ارتكز عليه هدف الوزير نظام الملوك من إنشائه للمدارس النظامية في أنحاء واسعة من الدولة العباسية؛ مختاراً لإنشائها أهم مراكز تجمع الأفكار الشيعية الإسماعيلية، مثل: مدينة البصرة، ونيسابور، وطبرستان، ومرو، والموصل، وأصفهان عاصمة السلطنة السلجوقية، وبغداد عاصمة الخلافة العباسية، وغيرها من المدن الإسلامية^(٢)، كما اختار لمدارسه الأكفيا من الأساتذة للتعليم بها؛ مشترطاً عليهم أن ينتموا للمذهب الشافعي^(٣)، مثل: الشيخ أبو إسحق الشيزري ت. ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م والإمام الغزالي وغيرهم من العلماء المتمكنين، بذلك عمل الوزير نظام الملوك على

السعودية. ص ١١٢-١١٣، ١٢٣-١٢٤.

(١) البياتي، صدام جاسم محمد. (٢٠١١م). الوزير نظام الملوك وأثره في تقدم الحركة العلمية في المشرق الإسلامي. *مجلة ديبالي*.

ع ٥٣. جامعة ديالى. العراق. ص ١٠.

(٢) السبكي. *طبقات الشافعية*. ج ٤. ص ١١٣-١١٤.

(٣) بدوي، عبد المجيد أبو الفتوح. (١٩٨٨م). *التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد*. دار الوفاء. مصر. ط ٢. ص ١٧٥ وما بعدها.

محااربة النفوذ الفاطمي بالأسلوب نفسه الذي يفرض نفسه فيه، ففقرن المقاومة السياسية بالمقاومة الفكرية؛ لتحقيق الإصلاح الذي تضمن انتقاء الموظفين الأكفاء المتخرجين في مدارسه النظامية أيضاً، حتى قال الشيزري أول مدرس في المدرسة النظامية في مدينة بغداد عن ذلك: "لما خرجت في رسالة الخليفة إلى خراسان، لم أدخل بلداً ولا قرية إلا وجدت قاضياً أو خطيباً أو مفتياً من تلامذتي"^(١)، ليلحظ من ذلك أن محمد بن تومرت حاول فرض هذا الإصلاح بدعوته قبل أن يعلن الثورة على المرابطين، وسيتناول البحث ذلك في المرحلة المغربية الثانية من رحلته.

ب- تأثر محمد بن تومرت بدعوة حسن الصَّبَّاح في قلعة الموت^(٢):

لم تكن دعوة محمد بن تومرت قائمة على استعمال وسيلة العنف والقسوة في بدايتها لإقناع الناس بالإصلاح الذي تعلمه في المشرق العربي الإسلامي، خاصة بعد ملاحظته للنجاحات التي حققتها المدرسة النظامية من بث الأفكار الإصلاحية لتوحيد المسلمين ومحااربة الأفكار المناهضة للمذاهب السنية، لكن موقفه اتجه للثورة وتبني حركة حسن الصَّبَّاح بعد أن اصطدم هدفه بالفقهاء والأمراء خاصة في مدينة بجاية وعلماء مجلس الأمير علي بن يوسف، حيث عدّوه ثائراً مناهضاً للحكام وليس عالماً مصلحاً لأحوالهم؛ لذلك حوّل أسلوبه المستند إلى العلم والدراسة إلى أسلوب الثورة وتأسيس دولة تحقق غايته في المرحلة الثانية من دعوته، ليبقى السؤال هنا: من هو حسن الصَّبَّاح؟ ولماذا غيّر موقفه من الدولة السلجوقية ومذهبه الشيعي الاثني عشري إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي؟ وما الأفكار والتنظيمات التي قدمتها حركته إلى دعوة محمد بن تومرت في السوس الأقصى؟

حسن الصَّبَّاح من أشهر الشخصيات التي ثارت على الحكم السلجوقي وهو عربي الأصل فارسي الولادة^(٣)، تعود ثورته ضد الحكم السلجوقي في المشرق العربي الإسلامي إلى وقوف صديقه وزميله الوزير نظام الملك في وجه طموحه بعد أن ساعده صديقه في الحصول على وظيفة في ديوان السلطان ملك شاه^(٤)، لكن هذه الوظيفة لا ترضي طموحه ورغبته وربما غيرته من أصدقائه^(٥)، لذلك

(١) ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٥. ص ٣٢٤.

(٢) قلعة الموت: تقع في جبال البرز شمال غرب قزوین على قمة جبل مرتفع يتم الوصول إليه عبر ممر حلزوني ضيق تحيط به الأراضي الخصبة، والموت تعني وكر العقاب أو عش النسر بالفارسية، وهي قلعة مبنية من الحجر تدعما أبراج متلاصقة مخصصة للحماية، ويلحظ أن القلعة الحصينة مشابهة لتينمل من ناحية الحصانة والتنظيم. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٤. ص ١٢١-١٢٢؛ تامر. تاريخ الإسماعيلية. ص ١٢، ١٦.

(٣) تامر. تاريخ الإسماعيلية. ج ٤. ص ١١؛ الخشت. حركة الحشاشين. ص ٥٣.

(٤) فاستغل حسن الصَّبَّاح منصبه للتقرب من السلطان والتعرض للوزير نظام الملك؛ ممّا دفع الأخير لعزله من وظيفته، فالتجأ حسن الصَّبَّاح لدراسة الفلسفة والرياضيات، ثمّ عمل في وظيفة كاتب عند أحد الوزراء. الأصفهاني. تاريخ آل سلجوق. ص ٦٢؛ ابن الجوزي. المنتظم. ج ١٧. ص ٦٣؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (١٩٨٣م). تليس إلیس. دار القلم. بيروت: لبنان.

كان يتردد إلى حضور مجالس العلم ومناظرات المذاهب الإسلامية المختلفة، للمجادلة في أمور الدين وتحصيل المعرفة، حتى حظي بفرصة التعلم على يد الدعاة الشيعة الإسماعيلية؛ المذهب الذي يعمل صديقه الوزير نظام الملك على مقاومته، فرأى حسن الصباح فيه فرصة للوصول إلى ما يرمي إليه، عدا عن ذلك كان لإيمانه الكبير بالمذهب دوراً أيضاً خاصة بعد أن عينه الإمام عبد الملك بن غطاش^(٢) داعية للمذهب ونائباً له في رئاسة الدعوة في بلاد فارس^(٣)، فأصبح بهذا المنصب في مركز متناظر مع صديقه الوزير نظام الملك وقريب من الخلافة الفاطمية في مصر، ولإتمام ما سعى إليه والوصول بعلمه للكمال قرر الذهاب إلى مصر مركز الإسماعيلية والأئمة الأفاضل، لذلك خرج إلى مصر في عام اختلفت المصادر في تحديده، لكن المجمع عليه بين الدراسات أنه كان سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م^(٤)؛ متجهاً برحلته من مدينة أصفهان قاصداً أذربيجان ثم بلاد الشام؛ وصولاً لمصر سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م، حيث خاض مناظرات فكرية وعلمية وسّع بها معرفته العلمية والفكرية بالمذاهب الإسلامية، حتى وصل به الأمر إلى الطرد من المدن^(٥)؛ فقصد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م^(٦)، ولم يعجب الوزير بدر الجمالي ت. ٤٨٧هـ/١٠٩٤م الذي أنزله

ص ١٠٧.

^(١) تذكر الدراسات أن حسن الصباح ت. ٥١٨هـ/١١٢٤م كان صديقاً وزميلاً للوزير نظام الملك ت. ٤٨٥هـ/١٠٩٢م والشاعر عمر الخيام ت. ٥١٧هـ/١١٢٣م وينفرد الدواداري بالقول إنه كان صديق الإمام الغزالي ت. ٥٠٥هـ/١١١١م في مدرسة نيسابور، كما ذكر أنه تعاهد مع الوزير نظام الملك وعمر الخيام فيما إذا وصل أحدهم إلى مركز مرموق يرفع من قدر صديقه، ويساعده في الحصول على وظيفة محترمة لدى الدولة، لكن برنارد لويس يشك بهذه الرواية على اعتبار أن الوزير نظام الملك أكبر سناً من حسن وعمر، لكن ذلك لا يمنع صداقتهم؛ لأن نظام الملك توفي في حادثة اغتيال وهذا لا يعطي تأكيداً عن عمره. الدواداري، عبد الله بن أبيك. = (١٩٦١م). **كنز الدرر وجامع الغرر**. تح: صلاح الدين المنجد. ج ٦. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة: مصر. ص ٤٩٤؛ بروكلمان. **تاريخ الشعوب**. ص ٢٨١؛ لويس، برنارد. (٢٠٠٦م). **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**. تر: محمد العزب موسى. مكتبة مدبولي. القاهرة: مصر. ط ٢. ص ٦٩-٧٠.

^(٢) هو الرئيس أحمد بن عبد الملك بن غطاش العجمي، كان شجاعاً ومطاعاً يجتمع أتباعه حوله، واستولى على قلعة أصفهان في عهد السلطان ملك شاه. الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. ج ١٩. ص ٢٦٧.

^(٣) الجويني. **جهان كشاي**. ج ٣. ص ١٧٢.

^(٤) حسنين، عبد النعيم محمد. (١٩٨٢م). **إيران والعراق في العصر السلجوقي**. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٠؛ دفتري. **خرافات**. ص ٥٧؛ بدوي، عبد الرحمن. (١٩٩٧م). **مذاهب الإسلاميين**. ج ٢. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان. ص ١٠٦٣.

^(٥) يحدد ابن ميسر تاريخ وصول حسن الصباح إلى مصر بسنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وذكر أنه أقام بها مدة، لكن هذا التاريخ لا يتفق مع مسير دعوته؛ لأن الوزير نظام الملك والسلطان ملك شاه توفيا عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وهذا وقت قصير لا يسمح لحسن الصباح بتنظيم دعوته ونشرها في بلاد فارس، والتي عمل على محاربتهم بها، حتى أنه يحدد وقت تجميعه لأتباعه بعام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وهو تاريخ امتلاكه لقلعة ألموت، أي إن تاريخ امتداد دعوته لا يتوافق مع حكم ملك شاه للاستيلاء على قلاعه. ابن ميسر، محمد بن علي. (١٩٨١م). **المنتقى من أخبار مصر**. تح: أيمن فؤاد سيد. المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. مصر. ص ٤٧-٤٨.

^(٦) رغم اختلاف الآراء حول لقائه بالخليفة الفاطمي إلا أنه من المرجح أنه التقاه لأنه سافر إلى مصر بصفته مبعوثاً رسمياً عن إسماعيلية بلاد فارس، ولأنه خرج بفكرة جديدة في مصر استخلص منها دعوته عندما عاد إلى بلاد فارس، تدور هذه الفكرة حول إمامة نزار الأبن الأكبر للخليفة المستنصر بالله. ابن الأثير. **الكامل**. ج ٨. ص ٢٢٠، ٤٩٧-٤٩٨، ج ٩. ص ٣٩؛ الجويني. **جهان كشاي**. ج ٣. ص ١٧٢-١٧٣؛ دفتري، فرهاد. (١٩٩٩م). **الإسماعيليون في العصر الوسيط**. تر: سيف الدين القصير. دار المدى.

سجن دمياط ونفاه خارج مصر بسبب دعوته^(١)، كل ذلك دعاه لمغادرة مصر لإتمام دعوته^(٢)؛ متجهاً إلى بلاد فارس المركز الفكري للدعوة الإسماعيلية، حتى وصل بدعوته إلى كشغر^(٣) على حدود الصين، وانتقل بها من جنوب فارس إلى الحدود المتاخمة لبحر قزوين شمالاً^(٤)؛ مبتعداً في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عن مراكز الدولة السلجوقية، حيث بدأ يبتث الدعاء لفكره الجديد بعد أن استمر لتسع سنوات يحشد لهم لتأييد فكرة إمامة نزار، وعمل لإنجاح دعوته على إيقاظ الروح القومية الفارسية القديمة^(٥)، وتحريض السكان ضد الحكام الأتراك والسلاجقة بعد ما عانوه من ظلم في عهدهم؛ مستهدفاً بدعوته بالدرجة الأولى الطبقات الفقيرة والمهمشة مثل الفلاحين^(٦) الذين قاسوا من نظام الإقطاع العسكري الذي أوجده الوزير نظام الملك لإرضاء الجند، كما أنه عمل على الاستفادة من الفكر الفارسي القديم المرتبط بالأديان والعقائد القديمة والأفكار الثورية التي بقيت إيران حاضنة لها بعد الفتح العربي الإسلامي، فاستفاد من حركة بابك الخرمي في التحصين بقمم الجبال والمرتفعات والأودية لإنجاح ثورته^(٧)؛ لذلك استقر في قلعة الموت التي باستقراره بها انتقل بدعوته من الجانب التبشيري التنظيري إلى الجانب التطبيقي المرتكز على تأسيس دولة إسماعيلية جديدة في بلاد فارس؛ مستعملاً لأجل ذلك أساليب منها السياسية القائمة على الإقناع، ومنها العسكرية القائمة على سفك الدماء والعنف، للسيطرة على القلاع المحيطة بآلموت مثل قلعة شاه دز وغيردكوه وسمكوه

دمشق: سورية. ص ١٩٠-١٩١؛ حسين، محمد كمال. (١٩٥٩م). طائفة الإسماعيلية تاريخها نظمها عقائدها. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: مصر. ط ١. ص ٦٨-٦٩؛ حسنين. إيران والعراق. ص ٨٠؛ بدوي. مذاهب الإسلاميين. ج ٢. ص ١٠٦٤.

(١) ذكرت المصادر سبب الخلاف بين ابن الوزير بدر الجمالي (الأفضل) والإمام نزار حول تولية أخيه أحمد (المستعلي) الصغير بالسن وصهر بدر الجمالي؛ لذلك هذه الفكرة لم تعجب الوزير بدر. ابن ميسر. المنتقى. ص ٩٩، ١٠٢؛ الجويني. جهان كشاي. = ج ٣. ص ١٧٣؛ سرور. تاريخ الدولة الفاطمية. ص ١٠٦.

(٢) ذكر أنه غادر على متن سفينة، وقد غرقت هذه السفينة في البحر، وهذا مطابق لقصة مغادرة محمد بن تومرت للإسكندرية لذلك لا يستبعد أمر النفي لكل مخالف للسياسة الفاطمية مهما كان، وربما هذا القانون الذي اتبعته الخلافة الفاطمية مع معارضيها في تلك الفترة. برنارد. الحشاشون. ص ٧٠.

(٣) القلقشندي. صبح الأعشى. ج ١. ص ١٢٠.

(٤) بدوي. مذاهب الإسلاميين. ج ٢. ص ١٠٦٤-١٠٦٥.

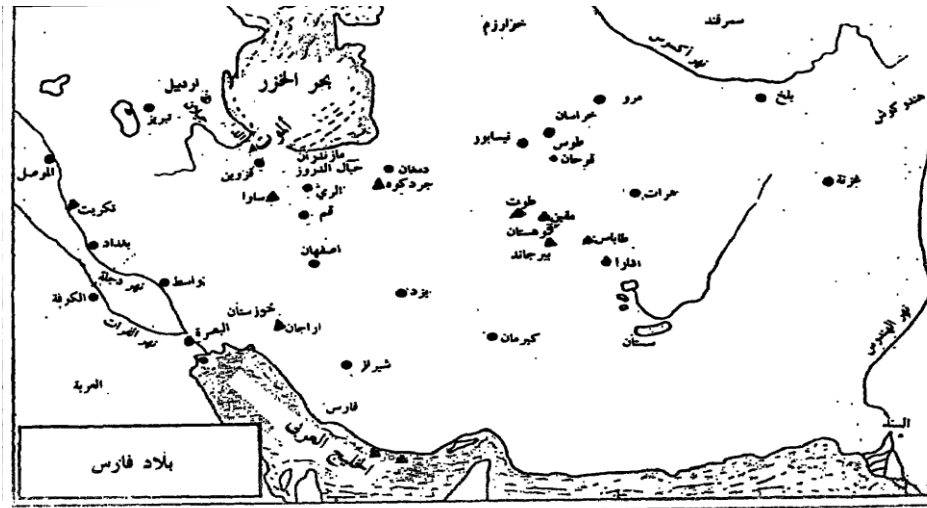
(٥) أركون، محمد كالد، نورمان كوير، جان إسماعيل، عزيز كندي، هيو مهدي، محسن، وآخرون. (٢٠٠٤م). المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام. تر: ناصح ميرزا. دار الساقى. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٦٦.

(٦) حسين. طائفة الإسماعيلية. ص ٦٣؛ تحدث إيتيان عن ذلك تحت اسم الطغاة الذي يفهم من كلامه أن حسن الصبّاح ومحمد بن تومرت هما من ضمن من يتصف بهذا الكلام. دو لا بويسي، إيتيان. (٢٠٠٨م). مقالة العبودية الطوعية. تر: عبود كاسوكة. المنظمة العربية للترجمة. لبنان. ط ١. ص ١٠٦-١٢٣.

(٧) مجهول. (١٨٧١م). العيون والحدائق في أخبار الحقائق. ج ٣. نشره دي خويه. مطبعة برييل. ليدين: هولندا. ص ٣٨٣ وما بعدها؛ حسن. تاريخ الحشيشية. ص ٩٤-٩٥؛ العزيز، حسين قاسم. (١٩٦٦م). البابكية. دكتوراه منشورة باللغة العربية. معهد اللغات الشرقية. جامعة موسكو. موسكو: روسيا. ص ٢٠٦ وما بعدها.

وأستوناوند وكردكوه وغيرها^(١).

كما أنّ حسن الصَّبَّاح اتبع أساليب لكسب انتماء الناس لدعوته، كأن ينتقي الأشخاص بعد معرفته قدرتهم وبيت الطمأنينة في قلوبهم، وبعد ذلك يزعم انتماءهم لعقيدتهم الأصلية ويشوّقهم للدخول في مذهبه حتى يأنسوا المذهب، ومن ثم يثبت المعلومات الأساسية للمذهب الإسماعيلي في عقولهم ليضمن وفاءهم للمذهب الجديد^(٢)، كذلك قسم حسن الصَّبَّاح مناطق دعوته إلى اثني عشر قسماً يطلق عليها اسم الجزيرة لينتشر فيها الدعاة الذين يقال لهم حَجّة الجزيرة^(٣)، ونظم أتباعه طبقاً لمراتبهم؛ إذ ذكروا وفق الآتي: الإمام الغامض في المرتبة الأولى^(٤)، والحجّة التي مثلها هو نفسه بالمرتبة الثانية؛ كونه حَجّة الإمام والنائب عنه^(٥)، أما المرتبة الثالثة كانت لكبار الدعاة المسؤولين عن تصريف أمور الدعوة والدولة، والمرتبة الرابعة أيضاً لكبار الدعاة المسؤولين عن نشر الدعوة، والمراتب الأخرى تشمل العلماء والفدائيين واللاصقين الذين يأخذون العهد من الناس، وكانت آخر مرتبة للمستجيبين من عامة الناس^(٦).



المصور رقم ٥، خارطة بلاد فارس وقلاعها.

(١) الجويني. **جهان كشاي**. ج ٣. ص ١٧٦-١٧٩؛ القلقشندي. **صبح الأعشى**. ج ١. ص ١٢٠-١٢١؛ بدوي. **مذاهب الإسلاميين**.

ج ٢. ص ١٠٦٧-١٠٦٩؛ برنارد. **الحشاشون**. ص ٨٣-٨٤.

(٢) حسن. **تاريخ الإسلام**. ج ٤. ص ٢٦٠-٢٦١.

(٣) نوح، علي. (١٩٩٤م). **الخطاب الإسماعيلي في التجديد الفكري الإسلامي المعاصر**. دار الينابيع. دمشق: سورية. ص ٦٢.

(٤) ذكر القزويني أنه عندما عاد الحسن بن الصَّبَّاح إلى بلاد فارس كان معه طفل من سلالة الإمام محمد بن إسماعيل. القزويني.

أثار البلاد. ص ٣٠٢.

(٥) وضع حسن إبراهيم في المرتبة الأولى من التنظيم حسن الصَّبَّاح، ولم يذكر في التنظيم سيرة الإمام، أما حسن يسري قسمهم

لمرتبتين فوضع الإمام في المرتبة الأولى وحثه في المرتبة الثانية. حسن. **تاريخ الإسلام**. ج ٤. ص ٢٥٩؛ حسن. **تاريخ**

الحشيشية. ص ١١٨-١١٩.

(٦) حسن. **تاريخ الإسلام**. ج ٤. ص ٢٥٨-٢٦٠؛ برنارد. **الحشاشون**. ص ٨١؛ دفتري. **خرافات الحشاشين**. ص ٦٠؛ تامر. **تاريخ**

الإسماعيلية. ج ٤. ص ٩٢.

(الخشت. حركة الحشاشين. ص ٤٧).

ليلاحظ من ذلك أنّ محمّداً بن تومرت اتّبع أسلوب حسن الصّبّاح نفسه في انتقائه لأصحابه؛ وبالتحديد عبد المؤمن بن علي الكومي في أثناء دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنّه انتقل بدعوته من جانب نظري إلى تطبيقي بعد تحصّنه في جبل تينمل؛ متبعاً أسلوب حسن الصّبّاح في الدعوة وتنظيم أتباعه وتقسيم المناطق عليهم، وتتشابه حركة محمد بن تومرت مع حركة حسن الصّبّاح، حتى أن رحلة حسن الصباح إلى مصر مطابقة لرحلة المهدي محمد بن تومرت إلى المغرب العربي الإسلامي، وما مرّ بها من ظروف ومناظرات حتى وصوله إلى تينمل، وتشمل أيضاً عدم الإيمان بمبدأ وراثته الحكم واختيار معاونيهم^(١)، حتّى في تزهدهم وتقشفهم عن متاع الدنيا، وحبهم للعلم والتشدد في تطبيق الشرع حيث ذكر أنّ حسن الصّبّاح قتل أبناءه لعصيانهم أمور العقيدة، فقتل ابنه الأستاذ حسيناً لاشتراكه بقتل أحد الدعاة، وقتل ابنه محمّداً لشربه الخمر^(٢)، كما أن محمد بن تومرت عاد إلى العقيدة والفكر الأمازيغي تماماً كما عاد حسن الصباح إلى الفكر الفارسي القديم.

وخلاصة القول من ذلك إن المرحلة التي قضاها محمد بن تومرت في المشرق العربي الإسلامي وما لحظّه فيه من نهضة علمية وفكرية وسياسية فيه، أعطته نظرة لما يجب أن يفعله في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنّ أحوال العالم الإسلامي متطابقة حتّى في قبائل السلاجقة التي كانت تنظم كما تنظم قبائل البربر في المغرب العربي الإسلامي، وترتحل طلباً للعيش والكلأ والمراعي التي تصلح لقطعانها^(٣)، وتعامل الوزير نظام الملوك مع هذه القبائل، وحسن الصّبّاح مع النظام الناقم عليه، ومن ثم تأسيسه لدولة ذات تنظيم وكيان مستقل وفق دعوة جديدة أضاف لها مبادئه التي أتى بها من رحلته إلى مصر، أنشئت لدى محمد بن تومرت فكرة يستطيع من خلالها تخليص المغرب العربي الإسلامي من واقعه المظلم، وهي مطابقة لثورة حسن الصّبّاح، ومختلفة عنها في هدفه المتمثل بنشر معتقد المدرسة النظامية في المغرب العربي الإسلامي، ولعلّ للخلافة العباسية دوراً في حركة محمد ابن تومرت؛ لأنّه لم تعد تذكر المصادر عن مراسلات بينها وبين الأمير علي بن يوسف بعد نجاح حركة محمد بن تومرت بالمغرب العربي الإسلامي، حتّى أنّ أغلب مؤرخي الدولة الموحدية ذكروا مباركة الإمام الغزالي لمحمد بن تومرت، وتتلّمذه على يد علماء كبار، مثل: المبارك بن عبد الجبار^(٤)

(١) عهد حسن الصّبّاح إلى القائد بزرگ أوميد من قلعة لمسر (جنوب بحر قزوين) ليحل مكانه، ونصب كيا با جعفر قائد الجيش، وأبا علي الأردستاني الإشراف على الأمور الدينية داعي دعاة قزوين، وأمر ألا تدبر الأمور إلا باتفاق الأربعة جميعهم إلى أن يأتي الإمام المهدي إلى ملكه. الجويني. **جهان كشاي**. ج ٣. ص ١٩١.

(٢) الجويني. **جهان كشاي**. ج ٣. ص ١٨٨.

(٣) البسام. **الوزير السلجوقي**. ص ١٢٣.

(٤) المبارك: هو ابن الطيوري كان محدثاً، لم يشتغل قط بغير الحديث، توفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م. العسقلاني، أحمد بن علي. (٢٠٠٢م). **لسان الميزان**. تج: عبد الفتاح أبي غدة. ج ٦. دار البشائر الإسلامية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٤٥١-٤٥٣.

الذي سمع عنه محمد بن تومرت الحديث؛ مما يعني أن تاريخ وصول محمد بن تومرت إلى المشرق العربي الإسلامي كان عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م^(١)؛ حيث تلقى محمد بن تومرت قدر عظيم من العلم في المشرق العربي الإسلامي، حتى قيل بـ محمد بن تومرت أنه رأى في منامه "كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين"^(٢)، ويؤكد قدر العلوم في المشرق العربي الإسلامي ما ذكره ابن العربي عند زيارته لمدينة بغداد عام ٤٨٦هـ/١٠٩٣م "فألفيت بها من رؤساء العلم ورؤوسه، وأشياخ الملة، وأحبارها، ما يملأ الخافقين، فقلت: هذه ضالتي التي كنت أنشد"^(٣)، كل ذلك يدل على أن المدرسة النظامية أنتجت عالماً جديداً وداعيةً يمدُّ نفوذها ليشمل المغرب العربي الإسلامي، بعد تحول العدو من الدولة الفاطمية التي انتابها الضعف إلى الصليبيين الذين احتلوا مراكز واسعة من بلاد الشام والأندلس، وغزوا المغرب العربي الإسلامي.

وبعد أن قضى محمد بن تومرت ما يزيد على العشر سنوات في المشرق العربي الإسلامي ينهل العلم والمعرفة التي وصل بها إلى ما يرضي طموحه، قرَّر العودة إلى بلاده ليصلحها وفق ما تعلَّمه في المشرق العربي الإسلامي، لكنَّ تاريخ عودته اختلف به المؤرخون أيضاً^(٤)، والمرجح هو ما اتفق عليه الباحثون على أن ما ذكره ابن أبي زرع عن تاريخ عودته سنة ٥١٠هـ/١١١٦م ووصوله إلى المغرب سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م الأصح^(٥)، أمَّا نقطة انطلاقه إلى المغرب العربي الإسلامي، فكانت مدينة مكة حسب ما ذكر ابن العماد، حيث دعا فيها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٦)، لكنه لم يدعِ المهدوية فيها، ولم يدعِ للإطاحة بحكم المرابطين؛ لأنه لم يقصد من دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الثورة على الأئمة والحكام؛ إنما كان في هذه المسألة في البداية على المذهب المالكي؛ أي إنَّه يريد إصلاح المجتمع العربي الإسلامي وليس الثورة، يستخلص ذلك من تتبع مسير عودته بعد طرده من مكة ومن الإسكندرية بسبب مبالغته في الإنكار على أهلها، وما يلفت النظر

(١) لأن الإمام عبد الجبار توفي في هذا العام، والإمام أبو بكر الشاشي ت. ٥٠٧هـ/١١١٣م الذي أخذ عنه أصول الفقه وأصول الدين، والإمام أبو بكر الطرطوشي ت. ٥٢٠هـ/١١٢٦م الذي كان متبحراً في السياسة من خلال كتابه سراج الملوك وغيرهم من العلماء. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٦؛ ج ٢. ص ٢١٩-٢٢٠، ٢٦٢-٢٦٤؛ النجار. المهدي بن تومرت. ص ٨٣-٨٤.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٦؛ الذهبي. تاريخ الإسلام. ج ٣٦. ص ١٠٧.

(٣) ابن العربي. العواصم من القواصم. ص ٥٦.

(٤) ابن الأثير ذكره بسنة ٥٠٥هـ/١١١١م، والزركشي بسنة ٥١٤هـ/١١٢٠م. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

(٥) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٣؛ النجار. المهدي بن تومرت. ص ٨٥-٨٦؛ ذلك لأن كتاب نظم الجمان ذكر وصوله لمدينة بجاية سنة ٥١١هـ/١١١٧م، وابن القلانسي ذكر وصوله إلى جبل درن سنة ٥١٢هـ/١١١٨م. ابن القلانسي. تاريخ دمشق. ص ٤٥٤؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٢.

(٦) ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٦. ص ١١٧.

دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكان تواجد إمام من أفضل الأئمة الإسلاميين في ذلك العصر وهو الإمام الطرطوشي؛ مما يعني أن محمداً بن تومرت أنكر مجتمعه وتأييده مؤيديه لتعاليم الشرع؛ ليتناقض هنا ابن القطان مع نفسه عندما ذكر أن محمداً بن تومرت حضر مجلس الإمام الطرطوشي الذي ودعه عندما عزم على الرجوع إلى المغرب العربي الإسلامي^(١)، لذلك ربما بالغ ابن القطان في قضية توديع الإمام الطرطوشي لمحمد بن تومرت، أو أن محمداً بن تومرت فعل ذلك متعمداً في مكان تواجد الإمام الطرطوشي بسبب معارضة الإمام لأفكار الإمام الغزالي وتعاليمه؛ لذلك نفاه متولي الإسكندرية عن المدينة^(٢)، وما يهم هنا أن محمداً بن تومرت خرج على ظهر سفينة من الإسكندرية؛ قاصداً إفريقية وبلاد في المغرب الأقصى؛ لتبدأ المرحلة الثالثة من رحلته وهي مرحلة العودة إلى المغرب العربي الإسلامي.

٣- المرحلة الثالثة بعد عودة محمد بن تومرت من المشرق العربي الإسلامي حتى تكوين فكره السياسي وتنظيم الدولة:

قضى محمد بن تومرت مدة طويلة في المشرق العربي الإسلامي مكنته من التعرف إلى العلوم الدينية والفقهية المختلفة، والوصول بعلمه إلى مركز يمكنه من مناظرة كبار فقهاء المغرب العربي الإسلامي والوقوف في وجههم، ولكن أهم ما توصل إليه في المشرق هو أخذه عن الإمام الغزالي جهل الفقهاء لعلم الأصول ومجادلاتهم السطحية؛ لأن رحلته إلى المشرق العربي الإسلامي لم تكن بسبب إحراق كتاب إحياء علوم الدين؛ وإنما ما يحتويه الكتاب الذي ينتسب إلى المذهب الشافعي لكاتبه الإمام الغزالي الصوفي الذي ينتهج الفلسفة الكلامية التي ينفر منها المالكية، على هذا الأساس اتبع محمد بن تومرت طريقة طلب العلم والمناظرات ثم اختيار الأتباع، ثم إعلان الثورة في نهاية طريق عودته إلى وطنه، فطلبه للعلم انتهى مع وصوله إلى مدينة بجاية، وبدأ مرحلة اختيار الأتباع الذين كانوا بمنزلة دعاة له في ملالة، ولم يكن هدفه إسقاط حكم المرابطين وإنما إصلاح أمرهم؛ لأنه لم يعلن الثورة عليهم إلا عندما رفضوا دعوته الإصلاحية، وأرسلوا جيشهم في طلبه، كل ذلك يستنتج من مراحل طريق عودته في إفريقية والمغرب العربي الإسلامي:

أ- المرحلة السياسية ما قبل ملالة ٥١٠-٥١٣هـ/١١١٧-١١١٩م:

هي مرحلة نقد مخالفة الناس للشرع والعقيدة الإسلامية، ولم تتضمن هذه المرحلة إعلان محمد بن تومرت ثورة على السلطة؛ وإنما الهدف من قضيته فيها كان إصلاحياً، ويمكن وصف محمد ابن تومرت فيها بالإمام لقيامه بمهام التدريس إلى جانب الوعظ والإرشاد، وذلك بعد طرده من مدينة

(١) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩١-٩٢.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٣٧.

الإسكندرية إلى بلاده في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنه لم يتوقف عن الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بعد وصوله لبلاده في السوس الأقصى، وهو بذلك مشابه لقضية دعوة حسن الصَّبَّاح الذي أصرَّ على إمامة نزار^(١)؛ أي إن حركة محمد بن تومرت تستند إلى دعوته التي بدأها في مكة، ومنها ستتطلق أفكاره لمبادئ عقيدته الجديدة، ولكن رحلته هذه في المغرب العربي الإسلامي أضاف إليها مؤرخو الدولة الموحدية نوعاً من القداسة والغموض حين ذكروا التنبؤات التي قالها محمد ابن تومرت، ليؤكدوا أنها بداية لإعلان مهديته التي لم يصرَّح بها إلا بعد وصوله إلى تينملل، حتى أنهم لأجل ذلك سردوا القصص الأسطورية ليعلموا وضع المغرب العربي الإسلامي الفاسد الذي سعى لتغييره الإمام، منها قضية سفره على ظهر السفينة من مدينة الإسكندرية عندما وعظ ركابها ينهيهم عن شرب الخمر ويدعوهم لإقامة الصلاة، فطردوه من السفينة إلى البحر ليجري وراءهم ما يقارب النصف يوم ولم يصبه شيء، وعندما رأوه أرسلوا إليه من ينقذه ليعظم في صدورهم^(٢)، وفي رواية أخرى طلبوا الدعاء منه لإنقاذهم من هول كاد يغرقهم بعد أن غضبوا عليه وهددوا بإلقائه في البحر^(٣)، ولكن ما يهم من هذه القصة هو وصوله إلى مدينة طرابلس (الغرب) حيث بدأ دعوته إلى منهج التأويل في العقيدة "معنياً بمذهبه ذلك مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه"^(٤)، حتى أنه أخذ يدرس العلم بنفسه في أحد مساجد مدينة طرابلس الذي جاز منه إلى مدينة المهديّة^(٥)، ولم تذكر المصادر ما يشفي الغليل عن إقامته في مدينة طرابلس، ولكن من الواضح أنه لم تطل إقامته فيها متوجهاً إلى المهديّة حيث درس العلم فيها، وواصل دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ متسبباً باضطراب داخل المدينة بسبب دعوته، ذلك الاضطراب الذي أوصله لأول لقاء له مع أمير وهو الأمير علي بن تميم^(٦) الذي ذكر أنه طلب الدعاء منه^(٧)، ثم غادر المدينة بعد أن لقي الفقيه المازوري، وطلب منه الرحيل خوفاً من بطش الأمير، فتوجه إلى المستنيرة^(٨) ثم تونس^(٩) حيث قصده طلاب العلم ليأخذوا عنه، ولشدة تعلقهم به تبعه بعضهم، مثل: يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمن

(١) ابن ميسر. المنتقى. ص ٩٧؛ سرور. تاريخ الدولة الفاطمية. ص ١٠٦.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٣٧.

(٣) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٢.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٢.

(٥) التيجاني. رحلة التيجاني. ص ٢٤٥.

(٦) ذكر محقق كتاب نظم الجمان أنه ليس الأمير يحيى الذي توفي عام ٥٠٩هـ/١١١٥م المقصود كما ذكر ابن الأثير وابن خلكان مؤيداً ما ذكر الزركشي أنه الأمير علي بن يحيى الذي توفي عام ٥١٥هـ/١١٢١م. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٢؛ الذهبي.

سير أعلام النبلاء. ج ١٩. ص ٤١٢-٤١٤؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

(٧) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٧.

(٨) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٥؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٣.

(٩) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١١-١٢؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٤.

وأبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق، ولعلّ سبب ذلك كان لتعلق الناس في تونس بالدين أكثر من باقي المناطق التي مرّ بها محمد بن تومرت قبل وصوله إليها، يظهر ذلك ممّا ذكر عن حادثة دفن رجل يظهر اليهودية فلم يقدّم أهل المدينة الصلاة له إلا بعد أن شهد بعض الناس بأنه كان يصلي فعرفهم محمد بن تومرت بالسنة ليدلّ ذلك على حسن نيتهم وجهلهم للشرع، وينفرد البيذق بذكر دخول محمد بن تومرت مدينة قسنطينة في المغرب الأوسط ليتابع طريقه في تدريس الطلبة ويلقن الناس أصول الدين، فاستنكر عليهم ضرب أحد الأشخاص لسرقة اقترفها، وقال لهم: إنّ الضرب يقوم مقام القطع ويجب عليهم قطع اليد^(١)، وهذا يدلّ على أن أهل المنطقة متعلقون بالشرع؛ لذلك تقبلوا دروس محمد بن تومرت وتقبلوا إقامته عندهم، لكنّه لم يقدّم إلا لوقت قصير وذلك ليوصل دعوته في جميع أنحاء المغرب العربي الإسلامي، ولأنّه توجّه بعدها إلى قاعدة الحكم الصنهاجي الحمّادي في المغرب الأوسط في مدينة بجاية^(٢) التي كان يحكمها الأمير العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس ت. ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وتمثل مرحلة وصوله للمدينة نقطة تحول في دعوته بسبب ما وجده فيها من المنكر الذي يناقض علمه، فالشباب يتشبهون بالنساء ويتخالطون بهم، وشرب الخمر منتشر بين سكانها في عيد الفطر، فلجأ إلى أسلوبٍ عنيفٍ لتغيير حالهم نبع من غيرته على الدين عندما استعمل العصا لأجل هذه المهمة^(٣)، فتسبب أسلوبه بوقوع الهرج في المدينة نجم عنه استدعاء محمد بن تومرت من قبل حاكم المدينة لمناظرته مع فقهاء المدينة^(٤)، ليبدو من ذلك أن هذه الطريقة كانت المتبعة في المغرب العربي الإسلامي لمناقضة آراء العلماء وأن محمداً بن تومرت تقصد أسلوبه هذا لبلوغ أصحاب السلطة؛ لأنّه يستحوذ على قلوب الناس ويخيف الحكام الذين يعملون على طرده^(٥)، وهذا ما حصل معه في المدينة التي سرعان ما طرد منها^(٦)؛ ليستقر في رباط ملالة القريب منها، ومكان تواجد قبيلة وريكة الصنهاجية^(٧) التي آوته وبنّت مسجداً له ليدرس أهل المدينة، ويستقبل فيه الطلبة الآتين إليه من كل مكان، وأخذ يغيّر المنكر فيها حيث أهرق الخمر، وقال إن الله ورسوله أمره

(١) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٢.

(٢) أبي الفداء، إسماعيل بن محمد. (١٨٥٠م). تقويم البلدان. باريس: فرنسا. دار الطباعة السلطانية. ص ١٣٧.

(٣) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٣.

(٤) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٣-٩٤.

(٥) المراكشي. المعجب. ص ١٣٧.

(٦) لم يذكر مؤرخو الدولة الموحدية أنّه طرد من مدينة؛ وإنما كانوا محافظين على صيغة الاحترام لشخصه ولعصمته ومن ذكر أمر طرده وخوفه من الأمير الحمّادي، ابن خلدون الذي ذكر أنّه غادر إلى ملالة وهو خائف من السلطة. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٢.

(٧) ذكرهم ابن خلدون أما البيذق قال عنهم بنو العزيز، وهم من قصدهم ابن خلدون. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٢.

بالحسبة^(١)؛ ممّا يدل على أن إقامته في ملالة ستطول حتّى أنه جلس فيها تحت شجرة الخروب^(٢) قبالة الطريق ليتأمل المارة، وكأنّه ينتظر وصول أحد إليه فيها، ولعل موقف حاكم بجاية ضايقه؛ لأنّه أرسل في طلبه ليقبض عليه لولا حماية قبيلة وريّاكة له^(٣)، ورأى الفرّج بقدم عبد المؤمن بن علي إليه إليه في ملالة لطلب العلم؛ لأنّ علاقته به في البداية تدلّ على أنها علاقة أستاذ بطالبيه حسب الرواية القائلة أنّ طلبة رباط تلمسان توفي أستاذهم عبد الواحد بن عمر التونسي، فاتفقوا على أن يجلبوا محمّداً بن تومرت بدلاً منه، وكان رسولهم إليه عبد المؤمن^(٤)، في حين ذكرت مصادر أخرى أن عبد المؤمن بن علي كان قد غادر موطنه برققة عمه ليقصد الحجّ والتعلم في المشرق العربي الإسلامي، ولما وصل إلى بجاية سمع عنه محمد بن تومرت العائد من المشرق العربي الإسلامي فاستأذن عمه لرؤيته^(٥)، وذكر في رواية أخرى ذات منحنى أسطوري أن محمّداً بن تومرت كان يبحث عن عبد المؤمن بن علي لعلمه السابق أن رجلاً صفته واسمه مثل عبد المؤمن سيقوم بإحياء الدين، واستبان ذلك من خط الرمل في كتاب "الجفر"؛ لذلك عندما التقى محمّداً بن تومرت سرد له عبد المؤمن عن حياته وأهله وقبيلته مثيراً دهشة الحاضرين من الطلبة الذين بشرهم^(٦)، حتّى أنّ محمّداً بن تومرت قال قال لعبد المؤمن: "وجدت علماً وشرفاً وذكرًا، أصحبني تنله فوافقه على ذلك"^(٧)، وتتابع الروايات وصفها للقاء على أن محمّداً بن تومرت فاوض عبد المؤمن على ما يعزم القيام به، فبايعه عبد المؤمن على مؤازرته، وقال ابن الأثير في ذلك: "ورأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم، والقيام بالأمر"؛ أي إن محمّداً بن تومرت اختاره ليسانده بسبب قوته، وذكر ابن الأثير أيضاً أنّه الرجل المقصود من قول الرسول: "إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس"^(٨)، ليلحظ من ذلك أن محمّداً بن تومرت كان ينتظر من يدعمه في رباط ملالة ليعلن ثورته على الحكام

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٣-١٤.

(٢) شجرة الخروب: هي شجرة تنتمي للعائلة القرنية دائمة الخضرة، تنمو على حوض البحر المتوسط في أماكن معتدلة وجافة بترية فقيرة، جلبها اليونانيون من الشرق الأوسط، ونشروها بين العرب الذين نشروها على طول الساحل الإفريقي والأندلس، وقد يصل عمرها لحوالي ٣٠٠ سنة، كما تستعمل الشجرة كغذاء ودواء لأنّ ثمارها تستعمل في صناعة الأغذية، ولثمارها فائدة في شفاء الأمراض، ذلك يدفع للاعتقاد أن المؤرخين ذكروا اسم الشجرة لأهميتها وقدرتها فهي تمثل شجرة الحياة، وليس فقط لأن محمّداً بن تومرت جلس تحتها. إبراهيم، عبده عمران محمد. (د.ت). الخروب. د.م. ص ١-٢؛

Battle, I and Tous, J. (1997). Carop Tree Ceratonia siliqua L.. International Plant Genetic Resources Institute. Rome. p:7.

(٣) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٨٠-٨١.

(٤) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٧٧.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٦-١٧.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ١٣٧-١٣٨؛ السبكي. طبقات الشافعية. ج ٦. ص ١١١.

(٧) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٨.

(٨) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٦.

وفسادهم، لكن كان ينتظر أن تأتي الفرصة المناسبة للقيام بهذه المهمة الشاقة.

ويُلاحظ أيضاً مما ذكر عن رحلة محمد بن تومرت في إفريقية والمغرب الأوسط أنه كان يغادر المناطق التي تمنح الأهمية لعلمه وتعاليمه، أما الأماكن التي كانت تعارضه كان يعسكر فيها لتغيير أحوالها، فمدينة مكة والإسكندرية غادرهما بعد طرده لأنه كان وحيداً، رغم ما ذكر عن مرافقة عدد من رجال الإسكندرية له، إلا أن حادثة السفينة تؤكد أنه كان وحيداً عند مغادرتها، ولم يعد مسموحاً لعالم مثل محمد بن تومرت أن يغادر المناطق التي تعارض علمه بعد أن عرف الناس قيمة علمه في طرابلس (الغرب) وإفريقية والمغرب الأوسط؛ لذلك توجه إلى رباط ملالة حيث استقبله أهلها وبنوا مسجداً له ليستقر بينهم ويدرسهم أصول الدين، وبدل استقراره في ملالة على أنه كان يريد أن يرد لحاكم بجاية إهانتته له بثورة السكان عليه علمياً، فحاكم بجاية يختلف عن حاكم المهدية الذي أكرمه ولم يطرده، وحتى لو كان ما ذكره ابن القطان عن حاكم المهدية من أنه أنذره وحذره، فإن باعث قناعة محمد بن تومرت للأمر هو عدم امتلاكه لقوى تدعمه في المدينة؛ لأن أتباعه انضموا إليه بعد وصوله لمدينة تونس، فالقضية واحدة تونس لا تبعد كثيراً عن المهدية وملالة رباط في بجاية، لذلك يمكن القول إن محمد بن تومرت كان في هذه المرحلة ينتقي أتباعه ومؤيديه ولا ينوي الثورة عسكرياً على الحكام؛ لأنه يلحظ سبب ذلك عندما كان في ملالة حيث يظهر عليه الخوف من القيام بحركة ضد حاكم ما في المغرب العربي الإسلامي؛ هذا الخوف الذي كسره بعد دعم قبائل المصامدة له وتحصنه في جبل تينملل، ويؤكد هذا الظن ما ذكر عنه عندما ثارت عليه العامة في الإسكندرية، وفي حادثة السفينة عندما أراق الخمر، فصاح عليه صاحبها، وشتمه ووضع يده فيه لولا اجتماع أهل السفينة حتى أسكتوه^(١).

أما حادثة لقائه بعبد المؤمن بن علي الكومي لعلها من وضع الرواة الموحدين؛ ليؤكدوا خلافته بعد محمد بن تومرت، يستنتج ذلك مما ذكر في الفصل الأول عن الصراع بين قبائل المغرب العربي الإسلامي، ص ١٨-٢٨، ٧٠، هذا الصراع الذي انتهى بتحجيم دور قبائل زناتة ومصمودة جغرافياً وسياسياً، يؤكد هذا الظن ما قاله ابن الأثير عن لقاء محمد بن تومرت بعبد المؤمن؛ لذلك من المرجح ما رواه ابن القطان عن اللقاء، لأن روايته تتفق مع الحالة السائدة بين قبائل المغرب العربي الإسلامي، ولأنه من روايته يمكن التوصل إلى أن قدوم عبد المؤمن إلى محمد بن تومرت كان لاستقدامه إلى قبيلته الزناتية، ليدعم كيانها الفكري والعلمي بعد انتشار سمعته في أرجاء المغرب العربي الإسلامي، وبذلك تستطيع زناتة أن تعود إلى ساحة الصراع السياسي كما كانت عليه قبل إرسال الدولة الفاطمية للقبائل العربية إلى المغرب العربي الإسلامي، ولأن ما كتبه ابن القطان كان

(١) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٢.

بعد الردة في العقيدة المهدوية في خلافة المأمون؛ مما جعله يتحرر بعض الشيء بأفكاره عما كان عليه مؤرخو البلاط الموحي الذين سبقوه كالبيذق^(١)، ويبقى السؤال هنا: لماذا لم يكتفِ محمد بن تومرت بخدمته لقبائل زناتة، واختار المضي إلى قبائل المصامدة في السوس الأقصى؟

ذكر أن محمد بن تومرت بقي يعلم في ملالة حتى قدوم رجلين من تينمل من جبل درن يريدان المشرق العربي الإسلامي، وعند حديثهم مع محمد بن تومرت غادر في نفس مساء الحديث قاصداً المغرب^(٢)، وذكر ابن القطان سبباً آخر للحادثة يتمثل بوصول والد محمد بن تومرت إلى بجاية طالباً رؤية محمد بن تومرت فعزم لرؤيته وقفل^(٣)، ولعل الرجلين نقلاً لرغبة والد محمد بن تومرت في الذهاب إليه، وهذا ما جعل محمد بن تومرت يعود إلى بلده شوقاً لرؤية والده، لكن محمد بن تومرت لم يعد إلى بلده مباشرة، وإنما غادر ملالة متوجهاً إلى تلمسان ثم فاس ومكناس وسلا ومراكش؛ لذلك من المرجح ما ذكره البيذق، لأن محمد بن تومرت أراد أن يجمع القبائل المغربية حول دعوته وهذا ما دفعه للذهاب إلى تلمسان^(٤).

ب- المرحلة السياسية ما بعد ملالة ٥١٣-٥١٤هـ/١١١٩-١١٢٠م:

اختار محمد بن تومرت أن يتابع مهمته التي خسر من أجلها أكثر من عشر سنوات في رحلة مكلفة وطويلة لاقى بها المتاعب والأذى والذل في بعض الأحيان، حتى أن الأحداث التي رافقت رحلته كانت من ضمن أهدافه التي سعى من خلالها لتحصيل العلم وبلوغ تعاليم الإمام الغزالي ونشر دعوته الإصلاحية، وبوصوله إلى المغرب الأقصى تكون رحلته قد وصلت لنهايتها، ليبدأ عهد الإصلاح الذي سعى من أجله، حيث قبيلته التي ستحميه ودولة المرابطين أقوى دولة في ذلك الزمن، فإن قنع المرابطون بدعوته تمكّن من توحيد المغرب العربي الإسلامي وتخليص الأمة العربية الإسلامية من الغزاة الصليبيين، ومن إعادة الهيبة لتعاليم الإمام الغزالي والمكانة الشريفة للخلافة العباسية وقبائل البربر بعد التهديد الذي سببته الخلافة الفاطمية الفاضلة لهم، خاصة أن محمد بن تومرت عاد إلى الدولة المرابطية وهو يعلم نقاط الضعف والقوة لدول المغرب العربي الإسلامي بعد المناظرات التي أجراها في طريق رحلته ولقائه بأقوى سلاطين المغرب العربي الإسلامي الذين عجزوا

(١) بنسباغ، مصطفى. (١٩٩٩م). السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين. مطابع الشويخ.

تطوان: المغرب. ط ١. ص ٣٨.

(٢) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٧.

(٣) ابن القطان. نظم الحمان. ص ٨٨.

(٤) هناك برهان ضعيف على أن ليس شوقه لوالده ما دفعه للذهاب، وربما قصد البيذق هنا عودته إلى المغرب العربي الإسلامي وليس إلى قريته؛ لأنه لا تذكر المصادر الأخرى والد محمد بن تومرت من ضمن الذين لاقوه في قبيلته. بنسباغ. السلطة. ص ٣٩-

أن يفعلوا شيئاً معه سوى أنهم طردوه من بلادهم، وهو مقتنع بما يفعل لعدم تعريض نفسه للخطر والمجازفة؛ لذلك توجه محمد بن تومرت إلى مدينة تلمسان^(١)، ولم يتجه لقبيلته هرغة في جبل الأطلس الكبير (درن)، ولعل ذلك يفسر سبب استجابة محمد بن تومرت لطلب عبد المؤمن بن علي أيضاً؛ لأنه بعد تلمسان دخل المغرب الأقصى، فغاياته كانت في البداية سلمية تتمثل بالحركة الإصلاحية للوزير نظام الملك مع السلاجقة الجهلة، فرغم جهلهم^(٢) استطاع الوزير أن يرفع من شأنهم وكلمتهم وبناتوا يتحكمون بالخلافة العباسية في بغداد، ولعل محمد بن تومرت قصد ذلك أيضاً بجمعه لقبائل البربر حوله وتوحيدهم سياسياً وفكرياً في وجه الأخطار المحيطة بهم؛ لأنه لم يذكر أنه توجه بدعوته إلى القبائل العربية المتواجدة في المغرب العربي الإسلامي قبل وصوله لموطنه، فالذين قصدهم كان إجمالاً البربر فقط، وما يهم هنا هو أنه كان يدري أن دعوته للإصلاح لا تتم إلا بالعلم وتطبيق ما تعلمه في المدرسة النظامية، والدليل أنه لم يعلن ثورته على السلطة المرابطية في ذلك الوقت؛ ويبقى السؤال: لماذا لم ينجح محمد بن تومرت بدعوته السلمية؟ ولماذا لم يستجيب العلماء المرابطون لأفكاره؟

يكنم الجواب حول هذه التساؤلات في سياسة الأمير علي بن يوسف من طريقة إخماده للثورات التي قامت ضده، وواقع الفساد الذي استشرى بدولته، والجمود العلمي والفقهية بين رجال الدين في دولته؛ مما أدى إلى سخط الناس عليهم، حتى أن قضية تولية الأمير علي من قبل والده كانت لإضعاف شوكة الصناهجة في الدولة، لكن كثرة مراكز القوة بين المرابطين في عهده تدل على أن الأمير علياً بن يوسف لم يكن له سلطة فعلية، وأن الأمير يوسف لم ينجح في غايته؛ لأن كل كبير من لمتونة بات يصرح " أنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه"^(٣)، وذلك كله يؤثر في نفوس العامة الذين باتوا محاصرين من قبل القبائل العربية شرقاً، والصليبيين شمالاً، والمحيط غرباً، فلم يكن سبيل لإنقاذهم سوى العلم والمنطق، وأسلوب الإقناع الفقهية لتوحيد المسلمين، هذا الأسلوب والعلم الذي صورته المصادر بشخصية محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي الذي سيكون له الملك شرقاً وغرباً^(٤)، وربما ذلك يؤكد نية محمد بن تومرت من خلال دعوته.

لكن طموح محمد بن تومرت اصطدم بالواقع المرابطي وجفاء العلماء لعلمه، فالمصادر ذكرت توجهه بعد خروجه من ملالة إلى المغرب الأقصى وبرفقته عدد من الأصحاب هم البيهقي والحاج بن يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمن الذين رافقوه منذ أن كان بمدينة تونس، وعبد الواحد الشرقي الذي أستاذن أمه بعد قصده للمسجد الذي في ملالة، وعبد الله بن محسن الوئشري المكنى

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٠.

(٢) بارتولد، فاسيلي. (١٩٥٢م). تاريخ الحضارة الإسلامية. تر: حمزة طاهر. دار المعارف. مصر. ط ٢. ص ٨١-٨٢.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٣٥.

(٤) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٥؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٦؛ ابن مقديش. نزهة الأنظار. ص ٤٥٤.

بالبشير من وانشريس^(١)، وعمر بن علي وعبد الحق بن عبد الله^(٢)؛ قاصداً برجلته معهم مناطق عدة قبل وصوله لعاصمة المرابطين مدينة مراكش، منها مدن تلمسان^(٣) ووعدة^(٤) وأكر سيف^(٥) وفاس ومكناس وغيرها^(٦)، حيث استمر فيهم بدعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى وصوله مدينة مراكش، فتعرض بسبب دعوته للضرب في مكناس^(٧)، وفي دشرقلال أنهى الاختلاط بين الرجال والنساء، وبأكرسيف نهى الناس عن صلب رجل، وما يحسب لابن تومرت في رحلته في المغرب الأقصى أنه لم يتعرض للناس بالقسوة ولم يثر على السلطة المرابطية، ففي دشرقلال^(٨) أمر البيذق أن يأمر الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعندما رفضوا ذلك أمر أصحابه قائلاً لهم: "سيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم"^(٩)، وكثيراً ما كان يتصل بممثلي السلطة المرابطية ويتوسط للناس لديهم^(١٠)؛ ليستنتج من ذلك أن محمداً بن تومرت لم يثر على المرابطين حتى ذلك الوقت؛ مما يعني أن هدفه إيصال علمه إلى مسامع المرابطين؛ لأن الطلبة لقوا استحساناً في تعاليمه بالطريقة الأشعرية، أما الفقهاء وقفوا في وجه تعاليمه، وتتفق جميع الدراسات على أن السبب هو ضعف علماء الفروع بعلوم الدين^(١١)، وهذا ما تسبب بغلبة محمد بن تومرت عليهم خلال المناظرات، فناظرهم في مدينة فاس، واشتكى عليه أصحاب الحانات لكسره أواني الخمر، لكن قاضي المدينة وقف إلى جانب محمد ابن تومرت، وقال لهم: "لو ما رأى في السنة ما كسرهما وفرقها، مروا فأنكم مخالفون لكن ما يؤكد غلبته كان مع وصوله لمدينة مراكش ودعوته أميرها لمناظرته، فقد فعل محمد بن تومرت ما بوسعه ليلفت انتباه أمير المسلمين ويجمعه مع أعظم فقهاء الدولة المرابطية وعلمائها، وكأنه

(١) وانشريس: جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٥. ص ٣٥٥.

(٢) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٩، ٢٣.

(٣) ذكر أن قاضي المدينة وبخه على دعوته. السملالي، العباس بن إبراهيم. (١٩٩٣م). الإعلام بمن حل مراكش وأغوات من =الأعلام. ج ٤. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ط ٢. ص ٦٢.

(٤) وعدة: مدينة بالمغرب، بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل. الحميري. الروض المعطار. ص ٦٠٧.

(٥) أكرسيف: مدينة صغيرة بالمغرب بينها وبين فاس خمسة أيام، وكذلك بينها وبين تلمسان خمسة أيام. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ١. ص ٢٣٩.

(٦) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٩-٢٦.

(٧) السملالي. الإعلام. ج ٤. ص ٦٢.

(٨) يتوقع محقق كتاب أخبار المهدي أنه الدشر المعروف بعين بوقلال على الطريق الواصل بين تازة وأكنول. البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٢.

(٩) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢١-٢٢.

(١٠) ففي وعدة نزل عند واليها وقاضيها، وتوسط لسكران أكرسيف عند واليها يحيى بن فانو على غرامة مالية لنعامه، وفي سلا (جنوبي غربي مراكش) أخذ واليها المرابطي العلم عنه وعدد من الأعيان والقضاة معه. البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢١-٢٢.

(١١) ميرندا. التاريخ السياسي. ص ٢٦-٢٧.

(١٢) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٤.

يتحدّاهم في فهم تعاليمه ليحظى برضى أمير المسلمين ويعليه عليهم، فيتمكّن بعدها من جمع الأتباع والموظفين حوله، ونشر علمه الذي تلقاه في المدرسة النظامية في المشرق العربي الإسلامي ليصلح أمر الناس فيه؛ والسؤال هنا: هل نجح محمد بن تومرت في تحقيق هدفه؟ ما العوائق التي وقفت في وجه هذا الهدف؟ وكيف تعامل محمد بن تومرت مع واقع السلطة المرابطية؟

وصل محمد بن تومرت إلى مدينة مراكش وواقعها المزري اجتماعياً؛ فهي مقصده الأساسي من رحلة عودته سنة ٥١٥هـ/١٢١١م^(١)؛ لتواجد السلطة المرابطية فيها؛ ولأنّ المفاصل الخلقية والاجتماعية كانت قد نمت فيها، وذكره ابن أبي زرع في ذلك "فارتحلوا إلى مراكش دار مملكة المرابطين لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها فسار إلى أن وصلها ...، ومعه عبد المؤمن بن علي في خدمته مشيعاً لإمامته"^(٢)؛ لذلك أخذ ينشط بدعوته فيها ناهياً أهلها عن المنكر وأمرهم بالمعروف، يلقي الدروس داخلها ويكسر أواني الخمر وآلات الطرب^(٣)، حتى أنّه لم يكتفِ بدعوته بين العامة؛ إنما وسّع نشاطه ليطلّ به الطبقة الحاكمة وحاشيتهم، حدث ذلك عندما رأى أخت أمير المسلمين سافرة الوجه مع جواربها، فأمرهم بستر وجوههن وضرب دوابهن حتى سقطت أخت الأمير (صورة) عن دابتها، فاشتكت لأخيها الأمير علي عمّا حدث^(٤)، هذه الحادثة مع ما حصل في مسجد الصومعة حيث ألقى دروسه محمد بن تومرت، تدفع للقول إنّّه تعمد الاصطدام بأمر المسلمين؛ لأنّ المصادر ذكرت الحادثة على أنّ أمير المسلمين قصد المسجد الذي يدرس فيه محمد بن تومرت ليصلي فيه، وعندما طلب المشرفون من محمد بن تومرت ترك مكانه لأمر المسلمين رفض طلبهم، وتوجّه للأمير ينصحه، حتّى أنّه أغلظ القول معه^(٥)، بذلك نجح محمد بن تومرت في غايته؛ لأن أمير المسلمين أرسل يطلب العلماء وشيوخ الدولة لمناظرته، وقال لهم: "إنما بعثت فيكم لتجزوا أمره، فإن كان عالماً اتبعناه، وإن كان جاهلاً أدبناه"^(٦)، ورغم ما ذكره البيهقي من أنه قال للأمير إن الملك (الخلافة) لله تعالى وليس لك^(٧)، يبقى ذلك للدعوة إلى محمد بن تومرت؛ لأنّه لم يعلن ثورته بعد في تلك المرحلة، ويرجّح ما ذكره صاحب الحلل الموشية بأنه قال للأمير "غير المنكر ببلادك لأنك أنت المسؤول عن

(١) الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٥؛ حسين. التاريخ السياسي. ص ٩٤؛ ذكر ابن أبي زرع أنه دخل المدينة سنة ٥١٤هـ/١٢٠٠م، وما ذكره ابن أبي زرع هو المرجح؛ لأنه يتوافق مع سنوات الأحداث التي تلت دخوله لمدينة مراكش. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٦.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) حركات. المغرب. ج ١. ص ٢٥١.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٣.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٧.

(٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٤.

(٧) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٧.

رعيّتك^(١)، لأن محمّداً بن تومرت لم يفكر بالثورة على الحكام إلا بعد المناظرة التي طلبها أمير المسلمين؛ لأنّته بسبب هذه المناظرة بدأ فكر محمد بن تومرت يميل نحو الثورة، ظهر ذلك مما قاله في رسالة له "فهذه الطوائف الثلاث التي سخروا وتجرؤوا لهدم الدين والمعانّة (المعاندة) أي أهل التجسيم المثلثين (المرابطين) والبربر المفسدين والمكارين الملبسين من الطلبة (يقصد الفقهاء) وهم شر ثلاثة تسموا باسم العلم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وتزينوا بالفقه والدين"^(٢)، وما يؤكد أن سبب خروجه على السلطة هو موقف الفقهاء المعارض له في قوله: "فجميع ما قالوه تحريف وتشنيع؛ بل هو بالصد لما قالوه ...، فمعاذ الله أن تكفّر مسلماً كما قالوه، أو نمنع من الصلاة على أهل القبلة...، أو نخرج عن إجماع المسلمين أو نخالف أئمة المسلمين وأمرأهم"^(٣).

أما مناظرته فقد ذكرت المصادر أنّها كانت برئاسة محمد بن أسود قاضي المرية وعدد من كبار الفقهاء^(٤)، وتجمع المصادر على تفوق محمد بن تومرت عليهم بعلوم الاعتقاد؛ أي أصول الدين، لأنّهم أصحاب حديث وفروع ليس لهم معرفة بالأصول والجدل، فذكر المراكشي "وكان جل ما يدعون إليه علم الاعتقاد على الطريقة الأشعرية، وكان أهل المغرب... على ما ذكرنا يتنافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه"^(٥)، لكنّ المغرب لم يخلوا من هذه العلوم والمرابطين قربوا إليهم من عرف أصول الدين مثل أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي ت. ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م^(٦)، حتّى أن المراكشي ذكر أن الفقيه مالكا بن وهب شارك في جميع العلوم، وبأنه ملّم بعلم الأصول والفلسفة^(٧)، لكن علمهم هذا لم يكن بمستوى محمد بن تومرت الذي مزج في الجدل العلم بالخبرة التي اكتسبها من رحلته، ويدل ذلك أيضاً على أنّ علماء المغرب العربي الإسلامي كانوا عاجزين عن مواجهة أعداء الدولة من الناحية الفكرية والعلمية، وإن وجد علماء لهم مقدرة على ذلك في المغرب العربي الإسلامي فيبدو أن الخوف كان قد سيطر عليهم؛ لدرجة أنّهم اختاروا الصمت والابتعاد بعلمهم عن الناس، وقال في ذلك محمد بن تومرت من خلال إحدى رسائله إلى أصحابه "محزوم (أي الفقهاء)، غروهم (المرابطين) لبسوا عليهم ليتحيّلوا بذلك على ما في أيديهم، وليصونوا بذلك

(١) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٠.

(٢) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٨؛ عزاوي، أحمد. (١٩٩٥م). رسائل موحديّة مجموعة جديدة. ج ١. جامعة ابن طفيل.

القنيطرة: المغرب. ط ١. ص ٤٨.

(٣) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٦٧-٦٨.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٤٩-٥٠.

(٥) المراكشي. المعجب. ص ١٣٩.

(٦) الحضرمي، محمد بن الحسن. (٢٠٠٣م). السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة. تح: محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد

المزيدي. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٥؛ ابن يشكوال. الصلة. ج ٣. ص ٨٧٣-٨٧٤.

(٧) المراكشي. المعجب. ص ١٣٩-١٤٠.

دنياهم، ففرتهم الدنيا حتى استيقنته أنفسهم من الحق لينالوا بذلك الحظ العاجل ويجمعوا به الحرام^(١)، وما يحسب لمحمد ابن تومرت في هذه الناحية أنه كان واثقاً من دعوته لا يخشى بها سلطة ولا يخاف أذى أمير، حتى أن المراكشي وصف ثقته بنفسه وقوته قائلاً: "لا يتعذر عليه مراد، ولا يمتنع عليه مطلوب، قد سخرت له الرعية، وذلت له الجبابرة"^(٢)، ويدلّ على ذلك أيضاً وعظه للأمير المسلمين وتذكيره بواجباته إزاء الرعية، وإخبار الأمير أنه ليس بطالب الدنيا وليس له بها؛ وإنما قصده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّ الأمير أولى بهذه المهمة منه؛ لأنه المسؤول عنها، لذلك ووجب عليه إحياء السنة وإماتة البدعة في مجتمعه الذي ظهر فيه المنكرات والبدع^(٣).

هذه النصائح التي عجز علماء الدولة المرابطية عن قولها للأمير وأذهلت أمير المسلمين، ولعلّ قوة محمد بن تومرت وتصريحه هذا كان السبب في اختيار الأمير لإطلاق سراحه بعد أن نصحه علماءها بسجنه وطرده خارج مراكش، فقد ذكرت المصادر أن وزيره^(٤) طلب إطلاق سراحه قائلاً للأمير: "يا أمير المسلمين كيف تكون أمير المسلمين وتظلم رجلاً من علماء المسلمين؟"^(٥)، كان هذا الطلب بعد نصيحة العلماء بطرده خارج مدينة مراكش، ويعلل الباحثون السبب بعدم قدرتهم على الرد على حججه العلمية والدينية فاتهموه بأنه خارجي وأحمق وجاهل، أما مالك بن وهب فأشار على الأمير بسجنه قائلاً: "إني خائف عليك من هذا الرجل وأرى أنك تعتقله وأصحابه، وتتفق عليهم كل يوم ديناراً، لتكتفي شره، وإن لم تفعل لتنفق عليه خزانك كلها، ثم لا ينفعك ذلك"^(٦)، وذكر البيهقي أنّه قال أيضاً: "ثقفه يا أمير المسلمين...، واجعل عليه كبلًا كي لا تسمع له طبعاً (أي يسجن كي لا يثور على الدولة)، لهذه الصفة صاحب الدرهم المكن (المربع)"^(٧)، ما ذكره البيهقي يبالغ فيه؛ لأنّه لا يوجد ما يؤكد أن الدرهم ضرب في عهد محمد بن تومرت؛ وإنّما في عهد خليفته عبد المؤمن بن علي^(٨).

وما يهم هنا هو طريقة تعامل محمد بن تومرت مع الموقف بعد أن ذهّل من ردة فعل الفقهاء وعدم تجاوبهم مع علمه ودعوته، حتى أنّه ذكر أنّه لم يُعطِ الأميرَ ظهره عند مغادرته المجلس ولم

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٩؛ عزاوي. رسائل موحديّة. ج ١. ص ٤٨.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٣٩.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٤.

(٤) ذكر البيهقي أن اسمه بنتان بن عمر، ويضيف إليه سير بن ورييل، أما ابن الأثير ذكر اسمه ببيان بن عثمان ولا يذكر اسم سير.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٨؛ ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٦.

(٦) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٨.

(٧) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٠.

(٨) ألح مالك بن وهب على الأمير علي أن يضعه بالسجن كي لا يألب المصامدة على الحكم. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت.

ص ٢٧-٢٨.

(٨) بنسباغ. السلطة. ص ٤٥.

يحوّل وجهه عنه، ولمّا سأله عن السبب قال: "أردت ألا يفارق وجهي الباطل حتى أغیره ما استطعت"^(١)، وذكرت المصادر أن الأمير علياً قال لمحمد بن تومرت "أيها الرجل اتّق الله في نفسك، ألم أنّهك عن عقد الجموع والأحزاب وأمرتك بالخروج من المدينة"، فردّ عليه محمد بن تومرت "قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة إلى الجبابة فبنيت خيمة بين الموتى، واشتغلت بطلب الآخرة، فلا تسمع لأقوال المضلين"^(٢)، وهذا الموقف مشابه لما فعله في بجاية حين اختار رباط ملالة ليعلم فيه؛ لذلك اختار مقابر المدينة ليستقبل بها طلبة العلم، ولعله كان يأمل أن تغيّر السلطة من موقفها تجاهه، ويجمع الناس حوله لينقذ البلاد من المفسد، وهزائم المرابطين أمام الممالك المسيحية؛ خاصة بعد سقوط سرقسطة بيدهم وهزيمة المرابطين في معارك عدّة معهم والثورات التي عمّت الأندلس^(٣).

ج- مرحلة الثورة على السلطة المرابطية ٥١٥هـ/١١٢١م:

أخفق محمد بن تومرت في دعوته السلمية للإصلاح بعد أن تبدد أمله عندما أحضره الأمير علي بن يوسف ثانيةً وأمره بمغادرة المدينة وضواحيها؛ لذلك بدأ محمد بن تومرت يفكر بطريقة أخرى لتحقيق غايته التي سافر من أجلها إلى المشرق العربي الإسلامي، هذه الطريقة تمثلت بحركة حسن الصّباح، بجمعه للأتباع والمناصرين ومن ثم إعلان الثورة على الحكم المرابطي، خاصةً أنّ ثقته بنفسه كانت منبثقة من درايته لإمكاناته العلمية والسياسية في جمع الطلبة من حوله والأتباع من المراكز والطبقات كافة، وإيمانه الكامل بفساد دولة المرابطين وعلمائها، لذلك توجّه من مراكش نحو مدينة أغمات إيلان ثم أغمات وريكة عاقداً فيها المناظرات^(٤)؛ لأنها الطريقة الوحيدة لجمع الأتباع حوله، ورغم عدم وجود معلومات كافية عن مناظراته إلا أن ابن خلدون قال فيها: "وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية.. وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية"^(٥)، وقال المراكشي "فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العامة"^(٦)، لكن مقصد محمد بن تومرت لم يكن مدينة أغمات؛ لأنه لم يطل إقامته فيها، على الرغم أنّ المصادر ذكرت أنّ أحد المصامدة يدعى عبد الحق بن إبراهيم المصمودي نصح محمداً بن تومرت بترك المدينة والتوجّه لمكان يحميه من بطش المرابطين، وأخبره أن أحسن المواضع

(١) الذهبي. تاريخ الإسلام. ج ٣٦. ص ١٠٩؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٨٤.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٥.

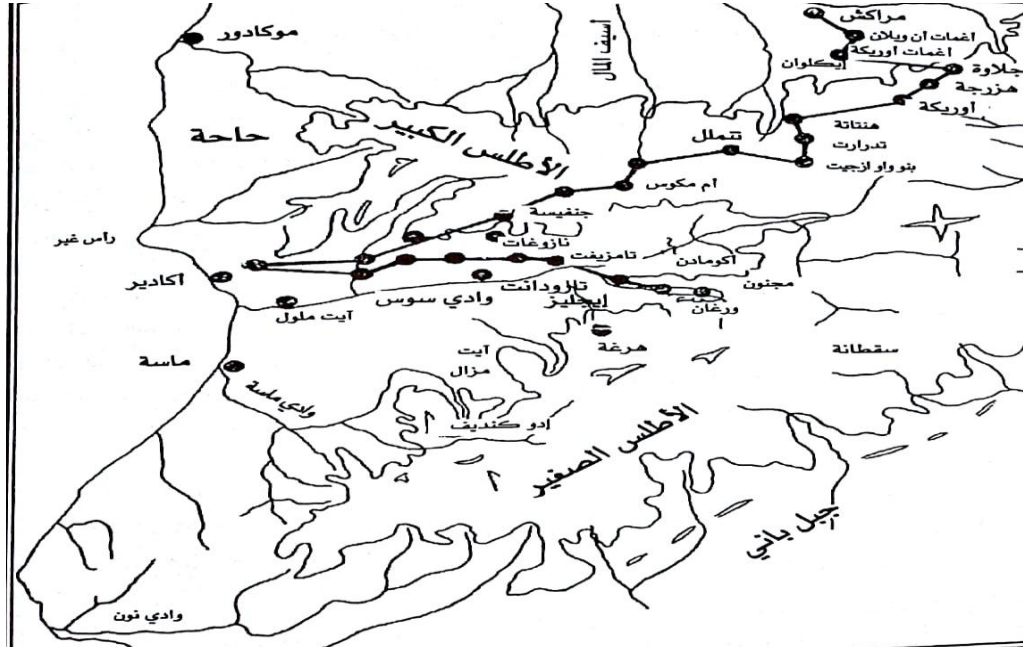
(٣) عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ٨٤، ١٠١، ١٠٣.

(٤) أغمات: مدينة على بعد ٤٠ كم جنوب مدينة مراكش، وتقسّم إلى قريتين: أغمات هيلانة أو إيلان وأغمات وريكة جنوبها، كانت حاضرة البلاد قبل بناء مدينة مراكش. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٩-٣٠؛ أبي الفداء. تقويم البلدان. ص ١٣٥.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٢.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ١٣٩.

تتمثل، وتستكمل الرواية تذكر محمد بن تومرت أنه قرأ اسم المدينة في كتاب الجفر^(١)، إلا أنه من المرجح أن سبب مغادرته كان طرد والي المدينة لمحمد بن تومرت^(٢) وذلك يتوافق مع ما ذكره المراكشي؛ فضلاً عن طموحه بالوصول إلى موقع تتمثل الحصين؛ لأنه حين توجه إلى قرية إيكوان^(٣) وتسرب الخبر إلى المرابطين فأرسلوا في طلبه كتيبة من سلاح الفرسان، لكنهم أخفقوا في القبض عليه لنجدة أحد طلبته له بعد دعوته لأفراد قبيلته فحموه وأخرجوه من أيكوان إلى إيسماني قرب هزرجة، ومنها إلى مناطق عدة قام ببناء المساجد فيها^(٤).



المصور رقم ٦، المحطات التي مر فيها محمد بن تومرت أثناء هروبه إلى جبل إيجليز.

(ميرندا. التاريخ السياسي. ص ٦٠).

أما زمن خلع محمد بن تومرت للأمير علي بن يوسف ذكره ابن القطان عندما كان بيرج في مساجد أغمات بعد الانتهاء من المناظرة^(٥)، ومصطفى بنسباغ حدده بعد حادثة إيكوان^(٦)، أما البيهقي البيهقي ذكر أن محمد بن تومرت مرّ على عدد من المواقع والقرى ثم بدأ يدعو للخروج على السلطة المرابطية منهم، حتى وصوله إلى جبل إيجليز موطنه في هرغة^(٧)، وقبل وصوله إلى موطنه مرّ على

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٠-٥١؛ الذهبي. تاريخ الإسلام. ج ٣٦. ص ١٠٩.

(٢) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠١.

(٣) إيكوان: قال عنها محقق كتاب أخبار المهدي إنها قرية موجودة ببطن بني عبد السلام، وهي بحوز مدينة مراكش. البيهقي. أخبار

المهدي بن تومرت. ص ٣١.

(٤) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣١.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٣.

(٦) بنسباغ. السلطة. ص ٤٩.

(٧) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣١-٣٣.

على قبيلة هنتانة حيث التقى أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني الذي كان أحد زعماء قبيلته، وأصبح من أهم أتباع محمد بن تومرت وأصحابه^(١).

يلحظ من ذلك أنّ محمداً بن تومرت أعلن ثورته بسبب رفض المرابطين لدعوته والاستخفاف بقدراته، ولعلّ الفقهاء لم يقصدوه شخصياً، وإنما استهدفوا ما كان يدعو إليه؛ لأنّه مخالف للمذهب المالكي في اعتقادهم، كما يلحظ أنّ المرابطين سمحوا لمحمد بن تومرت بالوصول لقبيلته وهم يعلمون أنّه عند وصوله إلى قبيلته سيعلن الثورة عليهم، وربما ذلك يدل على أن الناس كانت تتوي الثورة على الحكام والفقهاء بعد تعسفهم في قمع ثوراتهم عند استلام الأمير علي بن يوسف، واستعانة الأمير بالجنود الروم والعبيد؛ مما يشير إلى أن الناس عرّفت قدرة محمد بن تومرت على التغيير، لكن أمير المسلمين علي بن تاشفين وعلماءه لم يعترفوا بهذه القدرة، وهذا ما دفع السكان لمساعدة محمد ابن تومرت في الوصول إلى أهله؛ ليعلن دعوته كعقيدة جديدة، تجمع حوله أتباعه المخلصين بعد تنظيمهم وتهيئتهم للإعلان عن قيام دولة جديدة قائمة على أساس العقيدة وليس التنظيم القبلي، والدليل على الواقع المأساوي للناس يُستنتج ممّا ذكرته المصادر، فذكر أنّه في أكرسيف عانى الناس من سوء الأوضاع الأمنية، كما ذكر أن دابة محمد بن تومرت سرقت في سلا، وظهر النظام الضرائبي المأساوي عند عبور محمد بن تومرت لنهر أم الربيع حينما طلب منه أداء ضريبة العبور، وكذلك الوضع السياسي والاجتماعي المنحط الذي لحظه محمد بن تومرت في مدينة فاس، فدخله المدينة تزامناً مع قيام ثورة غمارة وقمعها، ومن ثم تعليق رؤوس ثلاثة من زعماء الثورة على أبواب المدينة^(٢)؛ فضلاً عن أحداث الأندلس واخلق المرابطين في الدفاع عنها، كل ذلك كان مصدر إلهام لمحمد بن تومرت لإعلان الثورة على المرابطين، لكن السؤال هنا: كيف تمكّن محمد بن تومرت من إقناع المصامدة بعلمه الجديد؟ وكيف استطاع التخلص من المعارضين لفكره، وهل طبق ما تعلّمه في المشرق العربي الإسلامي بين قبائل البربر؟

بوصول محمد بن تومرت إلى قبيلته في أيكلي أو أجليز سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م كما ذكر البيهقي^(٣) هذا التاريخ أول مرة في مؤلفه، يكون محمد بن تومرت قد أنهى رحلته التي تعلّم فيها أسلوب الجدل والمناظرات، وتمرّس فيها على أصناف الناس لمعرفة نفسيّتهم، بذلك أتمّ علمه الذي أكسبه القدرة على قيادة الناس والتأثير فيهم في أكثر من مكان زاره، وبوصوله لقبيلته تبدأ مرحلة حصاد ثمار

(١) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٨٥.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٢٤، ٢٦.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٢؛ وذكر صاحب الحل أن تاريخ وصوله هو عام ٥١٥هـ/١١٢١م. مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠١.

ما سعى إليه من علمٍ ومعرفَةٍ، حيث اجتمع إليه عددٌ من الطلبة من شتى القبائل يطلبون العلم^(١)، وذكر أن أيجليز بات مركز تجمع المصامدة الناقمين على حكم المرابطين^(٢)؛ ممّا عزز ثقته بنفسه أكثر لدرجة إعلانه أنه المهدي المنتظر الذي بشرت فيه الأحاديث النبوية، لكن المصادر اختلفت في تحديد تاريخ هذا الإعلان، فابن الأثير ذكره بسنة ٥١٤هـ/١١٢٠م^(٣)، وابن زرع وصاحب الحلل الموشية وابن خلدون حدّدوا أنه كان سنة ٥١٥هـ/١١٢١م^(٤)، أما ابن عذاري ذكره بين سنتي ٥١٦-٥١٨هـ/١١٢٢-١١٢٤م^(٥)، ويجمع الباحثون على أنه كان سنة ٥١٥هـ/١١٢١م بعد خروجه من مدينة أغمات^(٦)، وكان محمد بن تومرت قبل مبايعته من قبل الموحدين فقيهاً، ذكر ذلك ابن خلدون "ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام"^(٧).

ومهدوية محمد بن تومرت مرّت بمرحلتين في نظرية السلطة السياسية، **المرحلة الأولى:** كانت سنية غايتها إنقاذ الأمة الإسلامية من المفسد، ويعود إعلانها لمساعي السلطة المرابطية في طلب محمد بن تومرت، فحين لم ينجح الأمير علي بن يوسف في القبض على محمد بن تومرت حاول اغتياله بوساطة عامله على السوس في قبيلة هرغة، وعندما لم يفلح عامله في هذه المهمة ردّ عليهم محمد بن تومرت بأنّه فقيه ثائر غايته الإصلاح في رسالة جاء فيها "وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أدّيتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله قتلكم حتى نمحو آثاركم"^(٨)، ولكن المرابطين اختاروا قتال محمد بن تومرت وأتباعه، ففرضوا الحصار الاقتصادي والعسكري عليهم في جبل أيجليز، فانعدمت الأقوات لديهم حتى الخبز أصبح معدوماً عندهم^(٩)، جعل هذا الحصار محمّداً بن تومرت يفكر في التخلي عن ثورته عندما قال لأصحابه إنّ المرابطين يريدونه وسيغادر بلدهم، ليسلموا شر المرابطين^(١٠)، وهذا الموقف يتوافق مع النظرية السنية التي تعدّه فقيهاً ثائراً أراد التراجع عن ثورته والخروج على أتباعه، ويناقض النظرية الشيعية للمهدي المعصوم المنتصر على خصومه^(١١)، لذلك من المرجح أنّه كان فقيهاً ثائراً على السلطة في تلك المرحلة على عكس ما ذكره

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٣.

(٢) حسن. تاريخ الحشيشية. ص ١٤٢.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٦-١٩٧.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٦؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٤.

(٥) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٦٨.

(٦) ميرندا. التاريخ السياسي. ص ٦١.

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٤.

(٨) مجهول. الحلل الموشية. ص ١١١-١١٢؛ عزوي. رسائل موحدية. ج ١. ص ٤٣.

(٩) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٨.

(١٠) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٧؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٥٤.

(١١) بنسباغ. السلطة. ص ٥٢.

ابن أبي زرع من أنه أعلن مهاديته عند وصوله إلى المغرب الأقصى^(١)، أما المرحلة الثانية: فكانت شيعية ظهرت عند انتقاله لجبل تينمل، حيث بايعه أصحابه تحت شجرة الخروب وأخذ العهد منهم، ويلحظ أن المهدي بن تومرت اتخذ من سيرة الرسول ﷺ قدوة، فذكر البيهقي أنه بعد أن قضى أياماً داخل غارٍ أمر بتحضير الطعام ووضع الملح بيده، وقال: "هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة"، فأخذ البيعة تحت شجرة الخروب بعد أن انتقل إلى تينمل^(٢)، وهو بذلك سار على درب الرسول ﷺ في تردده إلى غار حراء، وأخذ البيعة تحت شجرة في بيعة الرضوان^(٣)، وهجرته من جبل أجليز إلى تينمل تماثل الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة^(٤)، وما ذكره البيهقي يعني أن محمداً ابن تومرت أخذ بيعته بالمهدوية في جبل تينمل الذي غادر إليه سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م؛ لذلك يرجح ما ذكره ابن عذاري حين قال إنه في سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م تسمى محمداً بن تومرت السوسي بالمهدي^(٥).

وهناك رواية أخرى تعود بفكرة المهدوية إلى ما قبل دخول محمد بن تومرت المغرب الأقصى عندما كان في رباط ملالة، تذكر أن محمداً بن تومرت نادى عبد المؤمن بن علي ومحمداً البشير، وتظاهر بالمهدوية ضد التعسف؛ فقال لهما: "إنما الله إله واحد، والرسول حق، والمهدي حق، والخليفة حق، فأقروا حديث أبي داود تعرفوا الأمر، عليكم بالسمع والطاعة لربكم"^(٦)، وعندما أصبح بمدينة أغمات ازدادت الفكرة وضوحاً بعد خلع مبايعه الأمير علي بن يوسف عن أعناق تابعيه وأصحابه^(٧)؛ مما يشير إلى أن الفكرة من الناحية النظرية بدأت مع عدم تقبل تعاليمه في بجاية، ومن ثم في مدينة مراكش، وذلك يعني أن الدافع لدعوته ليس سياسياً فحسب؛ وإنما شخصي أيضاً، وهو بذلك يشابه ما حصل بين الوزير نظام الملك وحسن الصبّاح الذي اتخذ الإمامة سبيلاً لدعوته ضد الدولة السلجوقية، حتّى أنّ طريقة محمد ابن تومرت في اختيار أتباعه هي نفسها الطريقة التي اتبعتها الإسماعيلية وحسن الصبّاح في ضمّ أتباعهم، حيث عمل محمد بن تومرت على زعزعة الثقة بالسلطة المرابطية وبعلمائها، ومن ثم شرح لمؤيديه فكره الجديد ودعوته للمذهب الأشعري، وبعدها خلع طاعتهم

(١) لعلّ قصده كان إعلانه لفئة معينة من الناس؛ لأن ذلك يناقض ما ذكره عن سنة إعلان المهدوية عام ٥١٥هـ/١١٢١م. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٣.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٣-٣٤.

(٣) زنبير، محمد. (١٩٩٩م). المغرب في العصر الوسيط الدولة والمدينة والاقتصاد. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط ١. ص ١٢٨.

(٤) المراكشي، عبد الواحد. (١٩٩٧م). وثائق المرابطين والموحدين. تح: حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. مصر. ط ١. ص ٧٤.

(٥) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٦٨.

(٦) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٧.

(٧) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٤؛ النجار. المهدي بن تومرت. ص ١١١-١١٢.

للسلطة المرابطية وضمهم لدعوته؛ معلناً بينهم أنه المهدي المنتظر؛ مطبقاً فكره الذي تأمله في ملالة عندما وصل إلى تينملل، ولم يعلن عن فكره في ملالة؛ لأنَّ غايته كانت فيها اختيار الأشخاص الذين سيحمونه ويساعدونه في الوصول لغايته، ولأنَّ أمله كان بأن تلقى دعوته ترحيباً من السلطة المرابطية، ولعلَّ إعلانه لمهديته كان بسبب خشيته من ارتداد أتباعه عنه عندما فرض المرابطون عليهم الحصار، حيث ذكر أنَّ بعض أتباعه أخذوا بالتفكير للعودة إلى السلطة المرابطية، وذكر ابن الأثير في ذلك " فاجتمع أعيان أهل تينملل وأرادوا إصلاح الأمر مع أمير المسلمين^(١)؛ لذلك المهدوية أفضل طريقة لإقناع أهل السوس بدعوته؛ لأنَّ هذه الفكرة بين أهل السوس تعود إلى اقتراب الشيعة من المغرب الأقصى، حيث ذكر أن منطقة السوس كانت مكان صراع بين الشيعة والمالكية^(٢)، ولأنَّها تعود أيضاً إلى انتشار الشعوذة بينهم؛ ممَّا يسرَّ تقبلهم لفكرة المهدوية، حتَّى أنَّ أحاديث للرسول ﷺ كانت تروج بينهم تتنبأ بظهور المهدي من أرض المغرب الأقصى، فاستفاد محمد بن تومرت من ذلك لجذب التابعين حوله.

وعمل أيضاً على إظهار أنَّ دعوته هي طريق الحق، وأنَّهم الطائفة المعنية التي تقاتل على الحق وتقوم به آخر الزمان؛ موضحاً لهم أنَّها تظهر بالمغرب وهم المعنيون بهذه الأحاديث^(٣)، وبقوله هذا شابه ما فعله الإمام عبد الله الفاطمي عندما نزل بمكان فج الأخيار بإيكجان^(٤) لاستقطاب قبيلة كتامة لمناصرته، فقال لهم: "وهذا فج الأخيار، وما سمي إلا بكم"، ثم يواصل حديثه إليهم: "وقد جاء في الآثار: للمهدي هجرة تنبو (غير مناسب له) عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتق من الكتمان"^(٥)، ليلحظ من ذلك أن محمداً بن تومرت وضع الأحاديث النبوية في خدمة دعوته، وتقرب من الطرق الإسماعيلية في نشرها، وفي الطعن بأعدائه عندما حاول إظهار المرابطين على أنهم أهل باطل غير مخلصين لفقه التوحيد، لما يخالط قصورهم من تشبيه وتجسيم للذات الإلهية، أبدوا ذلك عندما ناظرهم، واتهمهم بالتمييز الطائفي والظلم الاجتماعي، وأنَّهم يقربون إليهم من يخل بالدين الإسلامي، وربما كان ذلك لترويج المرابطين أنَّه يكفِّر المسلمين ويمتنع عن الصلاة على أهل القبلة، حتَّى أنَّه صنع للمرابطين الألقاب مثل الزراجنة نسبة لطائر أسود البطن

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٨.

(٢) ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٩٠.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٧؛ النجار. المهدي بن تومرت. ص ١١٣-١١٤.

(٤) إيكجان: جبل بالقرب من سطيف بينه وبين بجاية مرحلة ونصف، فيه قبائل كتامة. الإدريسي. نزهة المشتاق. ج ١. ص ٢٦٩؛

الحميري. الروض المعطار. ص ٧١-٧٢.

(٥) المقرئ. إيعاظ الحنفا. ج ١. ص ٥٧.

أبيض الريش، والحشم لتلثمهم، والمجسمون، لأنهم لقبوا أتباعه بالخوارج^(١)، واستطاع محمد بن تومرت بما فعل أن يقنع الناس بضرورة جهادهم ضد المرابطين، حتى أنه قال لهم: "جهاد المثلثين قد تعين على كل مؤمن بالله واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجة له عند الله"^(٢).

د - تنظيم محمد بن تومرت لمؤيدي دعوته السياسية:

بعد أن اجتمع لمحمد بن تومرت عددٌ غفيرٌ من المؤيدين لدعوته اقتنع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعيد للإسلام مكانته وصفاته إلا بقيام دولة تكفل مبادئه، ولقيام هذه الدولة وجب عليه تنظيم أتباعه الموحيدين لضمان أمنها، ليلحظ من طريقة تنظيمه لهم أنها تماثل تنظيم حسن الصَّبَّاح لأتباعه، وفيها شبه لما فعله الرسول ﷺ مع العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة^(٣)، ظهر ذلك من تسمية محمد بن تومرت لجماعة من أصحابه بجماعة العشرة "ايت عشرة"، كما أن محمداً ابن تومرت عمل بتنظيمه على المؤاخاة بين أتباعه من القبائل المختلفة، على نهج الرسول ﷺ مع المهاجرين والأنصار في المدينة^(٤)، ووافق حسن الصَّبَّاح في هذه الناحية أيضاً؛ إذ نظموا أتباعهم على أساس مهامهم وليس على انتمائهم القبلي، وخالف بذلك مبدأ الطبقة الحاكمة عند المرابطين التي كانت تحتلها قبائل صنهاجة الجنوب فقط، كما أنه اختلف مع حسن الصَّبَّاح حول مسألة الإمام بتنظيمه؛ لأن حسن الصَّبَّاح لم يقل إنه الإمام؛ وإنما هو حجة الإمام جاعلاً من نفسه في المرتبة الثانية من تنظيمه، أما محمد بن تومرت قال إنه الإمام والمهدي المنتظر؛ أي إنه تقلد رأس الهيكل التنظيمي الذي أوجده ورتبه بحسب أهمية أعضائه ومهامهم وفق الآتي:

(١) ايت عشرة (أهل العشرة): وزراء اختارهم من بين أول من بايعه وكان يرجع إليهم في كل أمور تنظيم الحركة ويستشيرهم في الأمور الكبيرة، وأطلق عليهم ابن القطان لفظ الوزراء، ثلاثة منهم ليسوا من المصامدة هم: عبد المؤمن بن علي الكومي، وأبو محمد البشير الونشريسي من منطقة الشلف^(٥)، وعبد الله بن يعلى بن ملوية الزناتي من منطقة تازة^(٦)، أما السبعة الآخرون كانوا من بطون مصمودة، رغم اختلاف المصادر في تحديد أسمائهم إلا أنها تتفق على ثلاثة منهم هم: عبد المؤمن

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٤-٤١٠؛ البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٨؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٣٢.

(٢) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٧.

(٣) ذكر الأصبهاني أسماء الصحابة المبشرين في الجنة في كتابه معرفة الصحابة. الأصبهاني، أحمد بن عبد الله. (١٩٩٨م).

معرفة الصحابة. تج: عادل بن يوسف العزازي. ج ١. دار الوطن للنشر. الرياض: السعودية. ط ١. ص ٢١.

(٤) مؤنس. معالم تاريخ المغرب. ص ٢٠٧.

(٥) مدينة على نهر الشلف قريبة من مدينة مليانة. مجهول. الاستبصار. ص ١٧١.

(٦) تازة: من بلاد المغرب، هي على الطريق المار من المغرب إلى المشرق، وتسمى مكناسة تازا. الحميري. الروض المعطار.

ابن علي، وأبو محمد البشير، وعمر بن يحيى الهنتاني^(١)، وكان ذكرهم لتأثيرهم في التنظيم، فكان عبد المؤمن خليفة المهدي محمد بن تومرت، والبشير قائداً للجيش الموحي، وعمر الهنتاني له قوة وتأثير في قبيلته هنتانة^(٢)، وهذا مشابه للمهام التي أكلها حسن الصباح لقواده، ص ١٠٩، أما البقية فكتاب الأنساب يذكر عددهم بأكثر من سبعة أشخاص، ويجعل عدد أعضاء المجلس اثني عشر عضواً، وليس عشرة كما ذكر ابن القطان، لكن أعضاء المجلس لم يستمروا لمدة طويلة؛ لأن عدداً منهم توفي في معركة البحيرة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م قبل المهدي محمد بن تومرت^(٣).

(٢) **أيت خمسين (أهل الخمسين):** مجلس يضم رؤساء القبائل الموالية لدعوة المهدي محمد بن تومرت، وكان هذا المجلس بمنزلة المجلس الاستشاري^(٤)، يتكوّن من ممثلين للقبائل الموحدية الأساسية، فوجد فيه ممثلون عن قبيلة هرغة وتينمل، وهنتانة، وجدميوة، وجنفيصة، وهسكورة، وصنهاجة، وقبائل الغرباء الذين لم يتم تحديد المقصود بهم والمستدركون بعد التمييز الذي اتبعه المهدي محمد بن تومرت للتخلص من معارضيه، وقد ذكر المستدركون البيذق ولم يذكرهم ابن القطان، حتّى أنّ البيذق جعل عدد الأعضاء أكثر من الذين ذكرهم ابن القطان الذين لا يتعدون الأربعين عضواً^(٥).

لنلاحظ من تنظيم مجلس الخمسين أن المهدي محمد بن تومرت أصلح ما أخفق فيه نظام المرابطين، فأشرك جميع القبائل في تنظيمه؛ ممّا أشعرهم بأهميتهم السياسية لكي يتجنب ثورتهم عليه، وهذا ما أغفله الأمير علي بن يوسف عند حضور محمد بن تومرت لمجلسه، لأنّه لو فطن الأمير علي لأهمية محمد بن تومرت لجنّب بلاده ثورة أنهت وجودها، ولكن أشعر المصامدة بأهميتهم، وهذا ما صحا إليه محمد بن تومرت حين أرضى القبائل باختيار أعضائهم بما يتناسب من قريبهم منه وأسبقيتهم للانضمام إلى دعوته، وجهودهم في نصرته؛ لهذا السبب كان اختياره لأعضاء المجلس لم يتناسب مع أعداد أفراد كل قبيلة، فأعداد ممثلي قبيلتي هرغة وتينمل أكبر من أعداد ممثلي باقي القبائل، ويعلل الباحثون السبب بأهمية القبيلتين كمركز للدعوة وانتماء محمد بن تومرت لقبيلة هرغة^(٦)، لكن هدف محمد بن تومرت لم يكن تحييزاً وإنما إصلاح، لهذا على الأرجح أن قصده كان استقطاب الأتباع وتدافعهم وتنافسهم لإنجاح دعوته والحصول على عدد أوفر من ممثليهم في

(١) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٧٦؛ مجهول. **الحلل الموشية**. ص ١٠٨؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣٠٤.

(٢) حسن. **تاريخ الحشيشية**. ص ١٤٨؛ زنبير. **المغرب**. ص ١٢١.

(٣) البيذق. **المقتبس**. ص ٣٠-٣٢؛ ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ١٢٤-١٢٨.

(٤) زنبير. **المغرب**. ص ١٢٧؛ حركات. **المغرب**. ج ١. ص ٢٥٣.

(٥) البيذق. **المقتبس**. ص ٣٢ وما بعدها؛ ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٨٤-٨٦.

(٦) حسن. **تاريخ الحشيشية**. ص ١٤٩.

المجلس.

(٣) **آيت سبعين (أهل السبعين):** مجلس يضم أعضاء الخمسين؛ فضلاً عن عشرين عضواً آخرين من القبائل الأقل أهمية^(١)، وأهمل ذكر مجلس أهل السبعين لدى بعض المصادر، مثل ابن القطان الذي اعترف أنه يعرف أهل السبعة الذين كانوا من أهل المشورة، ولا يعرف شيئاً عن مجلس السبعين^(٢)، ولعلّ هذا الإهمال كان لأن المجلس وضع لأسباب سياسية تكمن في إرضاء القبائل ومشاركتهم للحكم^(٣).

(٤) **الطلبة:** أهملت المصادر هذه الطبقة من التنظيم، ولم يُول لها أهمية سوى ابن القطان الذي جعلها في المرتبة الرابعة^(٤)، والمراكشي الذي قسمهم إلى طلبة الحضر الذين يجلبون من جميع المناطق من غير المصامدة، وطلبة الموحدين الذين كانوا من المصامدة، وبحسب ما ذكر عن الطلبة وحضورهم مجالس الخلفاء^(٥) يظن أنهم كانوا بعد دعوة محمد بن تومرت؛ لأنه كان يطلق لقب الطلبة على أصحابه الذين ولّاهم مناصب مهمة، قال ابن خلدون في ذلك: "كان يسمي أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين"^(٦)، لذلك لعل هذه الطبقة من أهم طبقات التنظيم، لأنّه من المرجح أن مهمتهم كانت نشر الدعوة في المساجد، ولأنّهم يتلقون علومهم من محمد بن تومرت مباشرة^(٧)، لذلك كانوا الأكثر تأثيراً في الدولة بعد وفاة محمد بن تومرت.

(٥) **الحفاظ:** لعل هذه الطبقة هي نفسها طبقة الطلبة^(٨)، لكن في جبل تينمل؛ لأن محمداً بن تومرت كان يدرّبهم على منهج دعوته^(٩)، أي بعد ثورته على المرابطين، وأصبحت هذه الطبقة تقدم الموظفين للدولة في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي^(١٠).

(٦) **أهل الدار:** هذه الطبقة ذات مكانة شرفية، تتكون من تسعة عشر نفرًا، مهمتها خدمة محمد بن تومرت في داره، وإحاطة الزعماء بكثير من الهيبة والوقار^(١١)؛ لذلك كان يختارهم محمد بن

(١) النجار. **تجربة الإصلاح**. ص ١٠٠؛ حركات. **المغرب**. ج ١. ص ٢٥٤.

(٢) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٨٣-٨٤.

(٣) ذكر المراكشي نقلاً عن ابن القطان أن هذا المجلس يناقش الأمور الهينة فقط، وهذا يؤكد أن الهدف من إنشائه لا يتعدى المنحى السياسي. ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ١٢٨؛ المراكشي. **وثائق المرابطين**. ص ٧٧.

(٤) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٨٢.

(٥) المراكشي. **المعجب**. ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٦) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣٠٤.

(٧) ذكر ابن الخطيب أن الطلبة والحفاظ كانت مهمتهم حمل العلم والتلقي. ابن الخطيب. **رقم الحلال**. ص ٥٧.

(٨) ذكر ابن القطان أنهم صغار الطلبة. ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٨٢.

(٩) ذكر البيهقي أن من الحفاظ كان من أهل الدار. البيهقي. **المقتبس**. ص ٥٩.

(١٠) مجهول. **الحلل الموشية**. ص ١٥٠-١٥١.

(١١) البيهقي. **المقتبس**. ص ٢٥-٢٦؛ ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ٨٦.

تومرت بعناية^(١).

أما المؤرخون فقد رتبوا بحسب أهميتهم واختصاصهم، واختلفوا في عدد الطبقات وترتيبها، ذُكرت طبقات أخرى يظن أنها كانت بعد الدعوة، مثل: المحتسب والغزاة^(٢) والرماة وغيرهم^(٣)، وما يهم في هذا التنظيم أن محمداً بن تومرت حدّد مهمته في نشر الدعوة وقتال المرابطين إن لم تقبل القبائل دعوتهم إلى "التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة"^(٤)، ليلحظ من ذلك أن النظام الذي أوجده محمد بن تومرت هو جهاز سياسي وحربي وتربوي وعقائدي، قصد منه دعم أتباعه من كل النواحي للتصدي لأعدائهم، ولعله اشتقه من نظام الشورى الذي عمل به الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون، وأضاف إليه ما كان سائداً في نظام مجلس الأعيان الذي حكم قبائل البربر قبل عصر المرابطين^(٥).

رابعاً: الثورة المسلحة على المرابطين، وترسيخ النظرية:

١ - الثورة المسلحة:

كانت الثورة المسلحة على المرابطين بعد أن لاحظ محمد بن تومرت عدداً كبيراً من أبناء جبل تينملل شقراً بعكس آبائهم السمر، فسألهم عن السبب، فقالوا له إن ممالك (الروم) المرابطين يختلون بنسائهم في كل عام دون أن يتمكنوا من مقاومتهم ودفعهم^(٦)، فاستغل محمد بن تومرت هذه الحادثة لترسيخ نظريته، ودفع الناس للإعلان عن وقوفهم في وجه السلطة؛ معلناً ذلك في قوله لهم: "والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح؟، فقالوا: بالرغم لا بالرضى، قال: رأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟، قالوا: كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت، ثم قالوا: من هو؟ قال: هو ضيفكم، يعني نفسه، فقالوا: السمع والطاعة ...، فلما حضر الممالك، فعل أهل الجبل ما أشار به المهدي"^(٧).

يستنتج من هذه الرواية أن أهل البلد كانوا يحضرون للثورة بإخفائهم الأسلحة قبل قدوم محمد ابن تومرت إليهم؛ لأنه لم يذكر أن محمداً بن تومرت أحضر السلاح إليهم، ومقولة أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح تدل على مقدرة عظيمة لديهم لا يمكن لفلول ضعيفة من الممالك هزيمتهم أو أن يفعلوا بهم مثل هكذا أمر وهم ساكتون، وما يفهم من الرواية أن أهل البلد كانوا جاهزين للثورة،

(١) الإدريسي. الإمامة. ص ٢١١.

(٢) ذكرهم ابن القطان باسم الغرات التي تعني الأحداث الصغار الأميين، ووضعهم في الصنف الثالث عشر من التنظيم، في حين صاحب الحل الموشية قال إنهم هم نفسهم الرماة. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٢؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٩.

(٣) البيهقي. المقتبس. ص ٥٧-٥٩؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٠٩.

(٤) البيهقي. (١٩٢٨م). أخبار المهدي بن تومرت. تح: لافي بروفنسال. طبعة باريس. ص ٢.

(٥) النجار. المهدي بن تومرت. ص ١١٨.

(٦) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٧-١٩٨.

(٧) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥١-٥٢؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٨٧.

ولعل الرجلين اللذين قابلا محمد بن تومرت في ملالة كانوا يدعونه لمناصرتهم في بلاده وهذا ما عزز ثقته بنفسه في مجلس الأمير علي بن تاشفين، وما يدل على ذلك أيضاً أن المصامدة اعتمدوا على الزراعة في معيشتهم، فعندما أسس المرابطون عاصمتهم في مدينة مراكش الملكية في مناطقهم، أثرت اقتصادياً في زراعتهم، فمياه المدينة كانت من أراضيهم في أغمات جلبوها إلى المدينة عن طريق السواقي، كما أن الخشب الذي استعملوه في البناء كان من غابات المصامدة التي قطعوها^(١)؛ لذلك ربما كان المصامدة يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض على مدينة مراكش المرابطية التي استبدت بمائهم ومراعيهم، ووجدوا الفرصة مناسبة عندما بدأ محمد بن تومرت بتطبيق دعوته بينهم؛ وهذا سبب وقوفهم موقفاً واحداً مع محمد بن تومرت مكّنهم من التصدي للحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم المرابطون سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، وجعلت من محمد بن تومرت يبذل موقفه من الدفاع إلى الهجوم على المراكز، ويخطط للسيطرة على أنحاء السوس الأقصى بعد أن اتخذ شعاراً جديداً لجيشه، وهو عبارة عن علم أبيض كتب على أحد وجهيه (الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله)، وعلى الوجه الثاني (وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله)^(٢)، بذلك دعم عزيمة أتباعه للاستمرار بقتالهم للمرابطين طوال المدة الممتدة بين عامي ٥١٦-٥٢٣هـ/١١٢٢-١١٢٨م، حيث حقق فيها الموحدون انتصارات عظيمة على الجيش المرابطي^(٣)؛ ممّا شجعهم على غزو مدينة مراكش، ففي عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م جهّز جيشاً بقيادة البشير لغزو أراضي كيك شمال تينملل وغرب أغمات، فاصطدم جيشه بالجيش المرابطي الذي لم يتمكّن من إيقاف جيش الموحدين حتى وصولهم إلى حدود مدينة مراكش ثم عودتهم إلى السوس^(٤)، ليلحظ من ذلك أن الموحدين كان لهم الأسلوب نفسه الذي استعملته الممالك المسيحية في حروبها مع المرابطين في الأندلس، هذا الأسلوب القائم على الكرّ والفرّ؛ أي الغزو ثم العودة من المواقع التي تمّ غزوها وعدم تثبيت نقاط متقدمة أو المخاطرة في اختيار النقاط المهمة لاحتلالها، يبدو أن هذا الأسلوب العسكري أثبت فاعليته ضد القوات المرابطية، فمهما كانت قوية لن تستطيع أن تصمد كثيراً بسبب استنزاف قواها، في حين تثبت القوات المعادية نقاطها بالقرب من المناطق التي غزتها، لكن ما يحسب لمحمد بن تومرت وقائده البشير هو اسراعهم في محاصرة مدينة مراكش، وتثبيت قواتهم حول المدينة؛ لأنّ المرابطين لهم خبرة

(١) الإدريسي. نزهة المشتاق. مج ١. ص ٢٣٤؛ حركات. المغرب. ج ١. ص ٢٢٢؛ جلاب، حسن. (١٩٩٤م). الحركة الصوفية في مراكش ظاهرة سبعة رجال. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب. ط ١. ص ٥٧؛ إسماعيل، عثمان. (١٩٩٢م). تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى. ج ٢. مطبعة المعارف. الرباط: المغرب. ص ٩٩.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦٨؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٩٦.

(٣) ابتسام. العلاقة. ص ٨٥-٩٠؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٧٨ وما بعدها.

(٤) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٧٥؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٥؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٨٤.

طويلة بالقتال ولديهم الأسلحة التي تمكّنهم من قتال أعدائهم، خاصة أنهم يعلمون أن احتلال مدينة مراكش يعني نهاية دولتهم؛ لذلك سيعملون جاهدين لردع عدوهم، وهذا ما فعلوه عند انسحابهم إلى خلف أسوار مدينة مراكش؛ جاعلين من قوات الموحدين تحيط بأسوار المدينة، وتثبت نقاطها لمدة أربعين يوماً^(١)، تمكّن المرابطون بهم من استنزاف قوات الموحدين، حيث باتوا هم من يقومون بعملية الكرّ والفرّ وليس الموحدين، وعندما وجد المرابطون الفرصة مناسبةً للانقضاض على أعدائهم بعد إنهاكهم وجهوا ضربةً قويةً لهم في عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م عُرِفَتْ بموقعة البحيرة^(٢)، أنزلوا هزيمةً فادحةً بقوات محمد بن تومرت حيث قتل عددٌ كبيرٌ من جنوده وأصحابه، ولم يتبقّ منهم سوى القليل، فقتل عدد من أصحابه العشرة ومنهم البشير، وتعرض أبو حفص بن عمر لإصابة خطيرة، وهرب عبد المؤمن بمن معه عائدين إلى تينمل^(٣)، حيث تعقبتهم أربعة فرق عسكرية مرابطية محاولة إنهاءهم في تينمل، لولا اتخاذ الموحدين لموقفٍ دفاعيٍّ مكّنهم من الصمود، وذلك بقطعهم للمسالك الجبلية وإقامتهم لأبراج المراقبة المزودة بالطبول لتتذرهم باقتراب الخطر المرابطي منهم، وبعد الهزيمة استمر محمد بن تومرت بتحسين تينمل لمدة ثلاثة أشهر^(٤) قبل وفاته في شهر رمضان سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م^(٥).

٢ - التحول إلى القسوة وسفك الدماء:

عدم قناعة محمد بن تومرت بولاء أتباعه بعد إعلانه الثورة على المرابطين دفعه لاستعمال أسلوب عنيف قائم على سفك دماء المسلمين، لاكتساب الهيبة في تطبيق الشرع وعدم الارتداد عن دعوته ومهديته، ولعلّ رغبته في ذلك امتلاك أتباع أوفياء لدعوته على غرار الفدائيين الذين عرفوا عند حسن الصّباح، ولكنه أفرط في سفك الدماء حتى قيل عنه إنه متسرع في الدماء غير متوقف عنه، يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه^(٦).

ومن الطبيعي أن يسفك دماء من يقف أمام طموحه الذي غادر من أجله إلى المشرق العربي الإسلامي؛ متحدياً مشقة رحلته لتحصيل العلم، وعندما حصل على هذا العلم أراد أن يصلح حال الأمة الإسلامية، وأعلن تمرّده على الأمراء الذين وقفوا في وجه دعوته، فكيف تكون حاله عندما تُهدّد طموحه قبائلُ كانت أمله الوحيد في الوصول لغايته للإصلاح؛ لذلك سفك دماءهم بعد دخوله تينمل،

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٠؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦٠؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١١٤.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦١.

(٣) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦١؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ١٨٩.

(٤) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٠-٤١.

(٥) ميرندا. التاريخ السياسي. ص ٨٣.

(٦) ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٦. ص ١١٩؛ السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ١٣٧.

حتى أنه قضى المدة بين عامي ٥١٧-٥١٨هـ/١١٢٣-١١٢٤م في صراع مستمر مع قبائل المصامدة التي رفضت دعوته؛ ليفرض سيطرته عليها بالكامل عام ٥١٨هـ/١١٢٤م ويضم رجالها إلى جيشه^(١)، من ذلك يفهم أن عقوبة القتل تفرض على كل من يخالف الشرع والدين ومهديته، وذلك مشابه لما ذكر عن حسن الصَّبَّاح نوعاً ما عندما قتل أبناءه لمخالفتهم الدين.

والقتل كان عند محمد بن تومرت لمن يشكُّ بولايته في محاولة منه لفرض الهالة الإلهية والهيبة على الناس، وفعل ذلك بعد دخوله إلى تينمل، حيث ذكر: "فبعد دخولها وتسليم أهلها بالخضوع له والطاعة رأى أن مدينتهم حصينة، فخاف الرجوع عنه، فأمرهم أن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح، ففعلوا عدة أيام ثم إنه أمر أصحابه أن يقتلوهم، فخرجوا عليهم وقتلوهم، ثم دخلوا المدينة فقتل فيها وأكثر وسبى الحريم ونهب الأموال فكان عدد القتلى خمسة عشر ألفاً"^(٢)، وما يؤكد فرض هيئته أيضاً تخلصه من معارضييه قبل الهجوم على مدينة مراكش عندما اتفق مع الونشريسي على أن يظهر في صورة فقيه عالم بالمعجزات الإلهية، ويميز بين أهل الجنة والنار، فيخرج قوم من مؤيدي محمد بن تومرت إلى يمينه ويزعم أنهم من أهل الجنة، وقوم على يساره ويزعم أنهم من أهل النار فيؤخذون بالقتل^(٣)، ولما اجتمع أحد الفقهاء قال له: " كيف تقتل أقواماً بايعوك ودخلوا في طاعتك وتقسم أموالهم؟ فأمر به فقتل وصلب لأنه كان شاكاً في عصمته"^(٤)، ليلحظ من ذلك أن محمداً بن تومرت خالف ما كان يدعو إليه في طريق عودته حين ناشد الناس لتطبيق الشرع على أصوله، رغم تسويق المصادر لموقفه على أنه عليم من مخابراته أنهم سيتصلون بالسلطة المرابطية ويصلحون حالهم معها^(٥)، لكن قتله للفقهاء الذي نصحه لا يدل على أن ما ذكرته المصادر صحيح؛ وإنما يدل على أنه يريد ضمان الطاعة العمياء لخطئه وتعاليمه حتى لو خالف بها الشرع، ليظهر ذلك أيضاً ممّا ذكره ابن أبي زرع عن استعماله للحيلة بعد هزيمة معركة البحيرة، حيث دفن أصحابه وهم أحياء، وقال لهم أن يشهدوا له أنه المهدي الحق، وبعد أن شهدوا له دفنهم حتى لا يخرجوا ويخبروا الناس عنه^(٦)، ورغم أن ابن أبي زرع من معارضي المهدي، ويشكك في صحة روايته، إلا أن ما ذكره يتوافق مع شخصية محمد بن تومرت التي ذكرتها المصادر المعارضة لفكره، حتى أن المصادر المؤيدة له ذكرت أحداثاً عنه، وكأنها تشبّهه بالإله أو القديس ليست بمستوى العقل

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٨؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون.

ج ٦. ص ٣٠٤-٣٠٥؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٦.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٧.

(٣) ابن القطان. نظم الحمان. ص ١٤٦-١٤٨.

(٤) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٦٧.

(٥) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ١٩٨؛ الصلابي. دولة الموحدين. ص ٦٩.

(٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٢.

البشري، مثل قضية وفاته، حيث ذكر فيها أنه ركب دابته بعد أن وعظ الناس طوال النهار، وقال إنه مسافرٌ سَفراً بعيداً^(١)، أي إنه لم يذكر أنه توفي بل دخل مكاناً مجهولاً ومن بعدها لم يره أحد.

لنلاحظ ممّا ذكر أن محمّداً بن تومرت سخر لخدمة دعوته إلى الثورة على المرابطين جميع المذاهب والفرق المناهضة لفكرهم وعلمهم، ليتمكّن بذلك من حمل أتباعه على قتل إخوانهم بالدين المرابطين ومحاربتهم الذين قال فيهم: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدعين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم"^(٢)، وذلك يعني أن ما قاله لأمير المسلمين في مدينة مراكش يجب تطبيقه برضاه أو رغماً عنه، حتّى أنّه دفع بأتباعه للإحاطة بالمرابطين امتثالاً لأمر الله تعالى "ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون"^(٣)، لهذه الغاية كانت مهادته سياسية أكثر منها عقائدية، يؤكد ذلك ما ذكره في كتاب أعز ما يطلب "أن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه كافر، وأنه المعصوم فيما دعا إليه من الحق، لا يجوز عليه الخطأ فيه، وأنه لا يكابر ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع، وأنه فرد في زمانه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبارة والدجاجلة، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها"^(٤)، بذلك يكون المهدي في فكر محمد بن تومرت هو المصلح للمجتمع الفاسد والقائم بالحق، ليقترّب بفكره هذا من الفكر الفلسفي القائل إن الحاكم يعتمد على العقل ويمثل الخير، وحكمه مطلق يجمع بيده جميع الحقوق ويضع السلطة تحت القانون^(٥)، هذا القانون الذي كان عند محمد بن تومرت متمثلاً بكتاب التوحيد.

خلاصة القول: إنّ محمّداً بن تومرت رحل إلى المشرق العربي الإسلامي من أجل الإصلاح وتحصيل العلم الذي لم يكن جديداً على أهل الأندلس؛ لأن أبا بكر بن العربي سبق محمّداً بن تومرت في أفكاره، لكن ما يميز محمد بن تومرت عن ابن العربي هو تحصيله لدعوته عن طريق العنف وسفك دماء المصامدة ليظهر أمره وأمر الله بأفعاله؛ مما يقربه من فكر العقائد التي تقول بعقوبة من يعصي الله الموت، ويبعده عن ابن العربي الذي استعمل العلم والمعرفة فقط في دعوته إلى السلطة، وتقربه هذه الطريقة من الفقيه عبد الله بن ياسين عندما أخضع أهل السوس في محاولة منه لإصلاح حالهم ووقف امتداد القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، لكنّه خالفه في نقاطٍ عدّة، منها: تبنيه لأفكار مذهبية عدّة، الهدف منها تهديد الفكر المرابطي دون أن تطلّ القبائل العربية التي أعادت للخلافة

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٢؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦٧.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٤٤.

(٣) سورة الشعراء. الآية ١٥١-١٥٢.

(٤) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٥) كرم، يوسف. (٢٠١٢م). تاريخ الفلسفة الحديثة. مؤسسة هنداوي. مصر. ص ٦١، ٢١٤-٢١٥.

الفاطمية مركزها في المغرب العربي الإسلامي، والفقير عبد الله بن ياسين لم يكن يتبني سوى الفكر المالكي ولم يدع أنه المهدي المعصوم، بعكس محمد بن تومرت الذي كان أول بربري يدعي المهدوية بعد مهدوية عبد الله الفاطمي في المغرب العربي الإسلامي، ولكنه لم يكن أول من يدعي النبوة والمهدوية في المغرب العربي الإسلامي^(١)، لأنه سبقه في ذلك شخصيات عدة ذكرت في الفصل الأول من هذه الدراسة ص ٣٧، ٦٩-٧١، ليلحظ أن المهدوية كانت تقوم في وجه الظلم الذي انتهجه الخلفاء الأمويون والأمراء المرابطون في المغرب العربي الإسلامي، كذلك الفقير عبد الله بن ياسين قصد بتطبيقه لدعوته كل القبائل البربرية، أما محمد بن تومرت فدعوته كانت على السبيل النظري لدى قبائل المغرب العربي الإسلامي ولم يطبقها إلا بين المصامدة، حتى أن عقيدته لم تطبق في عموم المغرب العربي الإسلامي إلا بعد وفاته، وتولي الخلفاء الموحدون أمورها من بعده، لأن معتقده في عهده لم يتجاوز جبل درن من الناحية التطبيقية، رغم محاولاته دمج فكره بفكر الخوارج والشيعة؛ بغرض استقطاب قبائل زناتة والقبائل العربية إلى صفه، لكنه لم ينجح بذلك إلا بعد تولي عيد المؤمن بن علي منصب الخلافة من بعده، وما يحسب لمحمد بن تومرت من دعوته هو نشره لمذاهب متعددة في المغرب الأقصى كان محرماً عليها الدخول إليه إلا بشكل محدود مثل الفكر الشيعي، والمعتزلي، والأشعري، والظاهرية، وما كان يدعو إليه الإمام الغزالي والمدرسة النظامية في المشرق العربي الإسلامي ليكون أحد أعلام هذه المدرسة في المغرب العربي الإسلامي من خلال متابعته حركة الإصلاح التي دعت إليه مدارسها، هذا الإصلاح الذي واصله خلفاؤه من بعده.

(١) ذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية حركة الأمير محمد بن هشام سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م في الأندلس عندما أعلن =نفسه الخليفة الأموي، وتلقب بالمهدي. بروكلمان. تاريخ الشعوب. ص ٣٠٥.

الفصل الثالث: دور عبد المؤمن بن علي والخلفاء الموحدين في تأسيس الدولة، وتطبيق الفكر السياسي الموحي:

أولاً: أثر نشأة عبد المؤمن بن علي في الفكر السياسي للموحدين:

- ١- نسبه.
- ٢- عائلته.
- ٣- تاريخ ولادته ومكانها.
- ٤- شخصيته السياسية.
- ٥- توليه الخلافة ولقب أمير المؤمنين ٥٢٨هـ/١١٣٣م.

ثانياً: الفكر السياسي لعبد المؤمن بن علي عند تأسيس الدولة، وتوسعها:

- ١- إنهاء حكم المرابطين في المغرب العربي الإسلامي.
- ٢- الاستيلاء على الأندلس.
- ٣- السيطرة على الدولة الحمادية والجزيرية في المغرب الأوسط والأدنى.

ثالثاً: تطبيق الخلفاء الموحدين للفكر السياسي الموحي:

- ١- الإجراءات الإدارية.
 - ٢- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية العلمية.
 - ٣- الجانب العسكري، وأثره في الفكر السياسي للموحدين.
 - ٤- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية الاقتصادية.
 - ٥- سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية الاجتماعية.
- رابعاً: انقلاب الخليفة المنصور يعقوب بن يوسف وإدريس المأمون على العقيدة:
- ١- موقف الخلفاء الموحدين من المذاهب الإسلامية في الدولة الموحدية.
 - ٢- نقض العقيدة التومرتية، وفكرها السياسي.

الفصل الثالث: دور عبد المؤمن بن علي والخلفاء الموحدين في تأسيس

الدولة، وتطبيق الفكر السياسي الموحي:

أكمل الموحدون دعوة محمد بن تومرت بعد وفاته، وكان على رأسهم خلفه عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م مؤسس دولة الموحدين، ومتمم الدعوة، وناشرها في المغرب العربي الإسلامي؛ مستعملاً أسلوب معاملة متناقضاً يعتمد على الشدة أحياناً، والدبلوماسية أحياناً أخرى في سبيل تحقيق أهدافه، فتسبب ذلك بخروجه مع أسرته عن تعاليم المهدي بن تومرت في قضايا عدة، كونت نظاماً سياسياً مطابقاً لأنظمة الحكم في الدول الإسلامية التي سبقت دولة الموحدين وبالأخص دولة المرابطين، والسبب في ذلك هو انتقال حركة الموحدين في عهده من نظام ثوري هدفه الإصلاح إلى نظام حكم هدفه الحفاظ على سيادة الدولة وكيانها المستقل، وتابع خلفاؤه هذه الطريق التي أسسها لهم الخليفة عبد المؤمن بعد توليه السلطة واتخاذه لقب أمير المؤمنين^(١)؛ مؤكداً بذلك حرصه على الاقتداء بسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ومبرهنناً على أن محمداً بن تومرت ادعى المهدوية لسبب سياسي^(٢)، وذلك لأن تولية عبد المؤمن لحركة الموحدين كانت بسبب سياسة المهدي محمد بن تومرت التي استندت إلى العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، وليس كما ذكر عن عدم وجود ولد للمهدي محمد بن تومرت يخلفه^(٣)، أما عبد المؤمن فقد خرج على مهدية محمد بن تومرت عندما حصر السلطة بأسرته من أجل تحقيق مصالحه، وتابع خلفاؤه من بعده هذه الطريق في عدم التزامهم إلا بما يحقق مصالحهم؛ مبتعدين عن تعاليم المهدي التي نقضها الخليفة يعقوب المنصور، وألغاها الخليفة إدريس المأمون.

ويبقى السؤال: كيف تمت مبايعة عبد المؤمن بن علي؟ وما مساعيه لنشر دعوة محمد بن تومرت ومبادئه، ودحر من ناقضهم، وادعى خروجهم عن تعاليم الإسلام؟ وهل المناطق التي ضمها عبد المؤمن إلى دولته تتفق مع النطاق الجغرافي لرحلة محمد بن تومرت؟ لماذا خرج عبد المؤمن بن علي في بعض مواقفه السياسية عن الفكر السياسي للمهدي محمد بن تومرت في أثناء تبديل دعوته من حركة إلى دولة؟ وما موقف الخلفاء الموحدين من سياسة مؤسس دولتهم؟

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ٢٨٦.

(٢) بنسباغ. السلطة. ص ٦٠.

(٣) ذكر أن المهدي بن تومرت كان حصوراً لا يأتي النساء. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٩٠.

للإجابة عن ذلك، لا بدّ من دراسة مراحل تحول دعوة الموحدين من حركة إلى دولة، لاستنتاج الأسباب والنتائج التي أدت إلى تعديل الخليفة عبد المؤمن لنظام الموحدين تحت نظرية المستبد العادل، وبما يتناسب مع طبيعة القبائل الجديدة ومستواها الفكري والقبلي بعد توسع نطاق الدعوة وانضمام قبائل جديدة إليها، خاصة أنّ عبد المؤمن كان غريباً عن قبائل المصامدة الذين عرفوا بالرغبة في الاستقرار والحكم الذاتي، وربما هذا ما دفع بالخلفاء الموحدين للعودة إلى الأنظمة السابقة للحفاظ على سلطتهم، يستنتج ذلك من تتبع سياستهم سواء في تأسيس الدولة وتعاملها مع الواقع المغربي، أو في نظرتهم المتقلبة للمذاهب الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي، كما يستخلص ذلك بعد التعرف إلى عبد المؤمن بن علي وتوليّه الخلافة، وتأسيسه للقانون الجديد الذي سار عليه خلفاؤه من بعده.

أولاً: أثر نشأة عبد المؤمن بن علي في الفكر السياسي للموحدين:

١ - نسبه:

نسب المؤرخون عبد المؤمن بن علي إلى العرب من نسل هود بن مادغيس بن بر بن قيس ابن عيلان بن نزار بن معد بن عدنان^(١) القيسي^(٢)، ويؤكد البيهقي انتماءه إلى آل البيت عن طريق الأدارسة من أسرة الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه^(٣)؛ مؤيداً شرعية خلافته للمهدي المنتظر، ومن المرجح أن المؤرخين وضعوا هذا النسب لأسباب عدة، منها:

(١) ما عرف عن المؤرخين المغاربة ومحاولتهم نسب أنفسهم إلى شبه الجزيرة العربية متقربين من العرب لأغراض سياسية ودينية.

(٢) إعادة نسب عبد المؤمن إلى مادغيس بن بر بن قيس بن عيلان يناقض نفي الخليفة لنسبه البربري (الأمازيغي)؛ لأنّ هذا النسب أرجعه المؤرخون إلى البربر أيضاً، فقال المراكشي في ذلك: إن لهم حق الجوار والنشاء عليهم والبربر هم أحوال الخليفة^(٤)، بذلك فصل البربر عن العرب، وربما تقصد ذلك المراكشي؛ لأن النظرية الشيعية للإمامة أو الخلافة تنتقل بالنسل، وهذا يعني أنّ أخوة المهدي هم أحقّ بالخلافة من عبد المؤمن بن علي، لكن انتماء عبد المؤمن لآل البيت يثبت أحقيته أيضاً بالخلافة على غرار الخلافة العباسية في المشرق، ليعود بذلك إلى النظرية السنية بدلاً من الشيعية.

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ٢١-٢٣؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٣؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٤٢؛ ابن القاضي. جذوة الاقتباس. ج ٢. ص ٤٤٦.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣، ص ٢٣٧؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٣. ص ٢٧١.

(٣) البيهقي. المقتبس. ص ١٥-١٦.

(٤) المراكشي. المعجب. ص ١٤٨.

(٣) اختلاف المصادر في تحديد نسبه، فلم ينسبه للإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) إلا البيهقي مؤرخه^(١)، أما المصادر الأخرى فمنها ما أكد النسب العربي مثل صاحب كتاب الحل الموشية^(٢)، ومنها من وقف موقفاً وسطياً من النسب العربي والبربري مثل المراكشي الذي وصله بمضر بن نزار، وقال: إن أمه من كومية^(٣)، أما ابن أبي دينار والساوي وابن أبي زرع وصاحب مفاخر البربر ذكروا أنه من زناتة^(٤)، وقال ابن خلدون إن نسبه إلى الرسول ﷺ وقبيلة قريش ليس إلا ادعاءً مصنوعاً من المؤرخين^(٥).

لذلك حاول عبد المؤمن تمييز نفسه عن بقية الناس مختلفاً النسب العربي ومحاولاً فصل قبيلة زناتة عن النسب العربي، فبدعم بذلك سلطته السياسية والدينية وببرهن خلافته، كما يستنتج من ذلك أنه حاول إرضاء المغاربة بهذا الادعاء، فالمغاربة لم يرضهم تلقب الأمير يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وحاولوا تلقينه بأمر المؤمنين الخاص بالخلفاء المسلمين، والمصامدة كثيراً ما ادّعوا النبوة والألوهية، وهذا اللقب يرضي طموحهم ويتوافق مع مبادئهم، كما ذكر في الفصل الأول، ص ٤٥، ٦٨، لذلك ذكر ابن خلدون عن هذا الموضوع أن الرياسة لا تتم إلا بالنسب؛ لأنه يحقق المصلحة للعصبية ولا يهم هذا النسب أن يكون حقيقياً أو وهمياً "الرياسة لا بد أن تكون موروثية عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية"؛ لذلك القبائل البربرية مثل زناتة وبني زيان ادّعوا النسب العربي والنبوي، رغم أن حصولهم على الملك كان بسبب عصبيتهم وليس نسبهم، وتنبه لذلك ابن خلدون عندما لم يشترط النسب لآل البيت والرسول ﷺ للوصول إلى الرياسة؛ إنما يكفي أن يكون من يصل للملك من بيت شريف ويتصف بالأخلاق الحميدة^(٦)، وهذا ما حاولت المصادر الموحدية برهنته في صفات المهدي محمد بن تومرت وخلفائه، بجمعها للصفتين النسب لآل البيت والنسب لأسرة شريفة ذات الأخلاق الحميدة التي توارثها الخلفاء من عائلاتهم.

٢ - عائلته:

نسبت عائلته إلى العرب الذين انتقلوا إلى المغرب العربي الإسلامي؛ قاصدين الأندلس ثم منطقة تلمسان بعد اضطراب أحوال الأندلس، حيث استوطنوا عند قبيلة زناتة^(٧)، كما ذكر أن عائلته

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ٢٢-٢٣.

(٢) مجهول. الحل الموشية. ص ١٤٢.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٤٨.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٣؛ مجهول. مفاخر البربر. ص ١٩٩؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ١١٠؛ الساوي.

الاستقصا. ج ٢. ص ٩٩.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٦٦.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٦٥.

(٧) البيهقي. المقتبس. ص ١٤-١٥.

كانت من الطبقة الوسطى في المجتمع^(١)، وهذا يتناقض مع ما ذكره البيهقي عن تولي والده القضاء في المغرب^(٢)؛ لأنّ هذا المنصب في العصر المرابطي كان يدر على صاحبه الأموال الطائلة كما ذكر في الفصل الأول، ص ٥٧، لذلك ربما عنيت المصادر مما ذكرته تأكيداً لرياسة عبد المؤمن وتأكيده نزاهته، يظهر ذلك ممّا ذكر أيضاً عن والده أنّه كان كثير الصوم والصلاة محباً للعلم والمعرفة وسماع الدروس، فأثر ذلك في نفسية ابنه عبد المؤمن، وجعله يميل للتفقه في أمور الدين^(٣)، لذلك من المرجح أن والده كان ميسور الحال، يظهر ذلك ممّا ذكر عن عمل في تجارة الفخار وصناعته^(٤)، ولأنّ ما ذكرته المصادر عن عائلة عبد المؤمن ذكرته عن عائلة المهدي محمد بن تومرت يثير الاشتباه والشك في نفس الباحث.

أما أمه فمن المرجح أن البيهقي اختلق نسبها أيضاً؛ لأنّه ذكر أنّها تعلو بنت عطية بنت إدريس بن الحسن بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فهو بذلك نسبها لآل البيت في حين أنّ الخليفة عبد المؤمن قال إنّ البربر أحواله، وربما ذكر البيهقي ذلك لتأكيد النسب الشريف في أسرة عبد المؤمن؛ لأنّه ذكر أن له اثنين من الأخوة، وهما يوسف ومحمد وأخت من أمه التي تزوجت من رجل آخر بعد وفاة والده^(٥)، وبما ذكره البيهقي عن نسب أمه يكون قد أكد النسب الشريف لأخته أيضاً.

٣- تاريخ ولادته ومكانها:

اختلفت المصادر في تحديد تاريخ ولادته^(٦)، لذلك يرجح أنّه ولد سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م أو ٤٩٥هـ/١١٠١م، وهذا التاريخ يتفق مع ما ذكر عن لقائه بالمهدي محمد بن تومرت في ملالة برفقة عمه، ومع سنة وفاته عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م عن عمر ثلاث أو أربع وستين^(٧)، أمّا مكان ولادته فمن المتفق عليه أنّه ولد في مدينة تاجرا^(٨) من أعمال مدينة تلمسان قرب مدينة ندرومة^(٩).

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٣٧؛ ذكر أنّه من أسرة فقيرة. الجيلاني، عبد الرحمن بن محمد. (١٩٦٥م). تاريخ الجزائر العام. ج ٢. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان. ص ٢٩٤.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ٢٧.

(٣) ابن قرية، صالح. (١٩٩١م). عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص ٨؛ قصاري، سكورة، وسوداني، نعيمة. (٢٠١٥م). عبد المؤمن بن علي ودوره في الدولة الموحدية (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٣٠-١١٦٤م). ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة ألكلي محند أولحاج. الجزائر. ص ١٨.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٣٧؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٣.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. طبعة باريس. ص ٢٣-٢٤.

(٦) فذكر أنّه ولد سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م في عهد الأمير يوسف بن تاشفين، وذكر ابن خلكان تاريخين سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م وسنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م. المراكشي. المعجب. ص ١٤٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٣٩؛ الذهبي. (١٩٨٢م). سير أعلام النبلاء. ج ٢. ص ٢٥٥٧.

(٧) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٥٥.

(٨) تاجرا: بفتح الجيم والراء، بلدة صغيرة في المغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان، وهي منطقة غابات وفيرة محصورة بين البحر المتوسط ومدينة تلمسان. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٢. ص ٥؛ ابن قرية. عبد المؤمن. ص ٥.

٤ - شخصيته السياسية:

عملت المصادر على إضفاء نوع من القداسة على صفات عبد المؤمن وشخصيته، وقيادته التوفيقية بين المذاهب والعشائر؛ لإثبات خلافته للمهدي، ولتوافق ذلك مع طبيعة قبائل المصامدة الميالة للنبوّة والخلال الحميدة؛ بحسب ما ذكره ابن خلدون عن شروط الرياسة، فقال: " أن يعدّ الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين، تكون لهم بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم"^(١)، وربما ذلك يظهر مما ذكرته المصادر عن حادثة النحل عندما كان نائماً في صغره^(٢)، والأسد والعصفور عند بيعته^(٣)، والحلم الذي رأيته والدته عندما كانت حاملاً فيه^(٤)، وهذه الحوادث مشابهة لمبدأ اليهود في مسح القداسة بين الحكام^(٥)، وحادثة ولادة السيد المسيح^(٦)، وربما هذا ما دفع ابن خلدون لقول نظريته في الرياسة.

كذلك يُلاحظ ممّا ذكر عن نشأته وتعلمه أنّه كان محباً للعلم والقراءة منذ طفولته^(٧)، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الصلاة بسبب تأثير والده فيه بما تلقاه من دروس في مسجد تلمسان، فشجعه ذلك على تلقي العلم^(٨)، أنّه مشابه لما ذكر عن المهدي محمد بن تومرت، وكأنّهم شخص واحد، وهذا يرجح أن السبب لذلك هو سياسيّ دعائيّ للدعوة الموحّدية، لكن ما ميّز عبد المؤمن عن المهدي محمد بن تومرت فيما ذكرته المصادر هو أنّ المصادر المؤيدة والمعارضة

(١) تقع مدينة ندرومة غرب الجزائر، وهي مدينة صغيرة بينها وبين مدينة تلمسان العاصمة مسافة ٦٠ كم، وتبعد عن الحدود المغربية الجزائرية حوالي ٤٥ كم، وعن مدينة وهران حوالي ١٦٠ كم، كما ترتفع عن سطح البحر حوالي ٣٦٠ م أو ٤٧٠ م في جنوب مرتفع جبل فلاوسن الذي يقدر ارتفاعه بحوالي ١٣٦ م، تبعد عن مرسى الفزوات وشاطئ سيدنا يوشع حوالي ١٨ كم شمالاً، وبين مدينة =ندرومة ومرسى هنين حوالي ١٣ ميلاً (٢٠٩٢١، ٤٧ م)، خاصة أن الجبال الممتدة بين مرسى هنين ومدينة ندرومة كانت مستقرّاً لقبيلة كومية، فكانت منطقة مدينة ندرومة تعج بالقبائل التي اتخذت القرى على شكل حصون وقلاع. رابح فيسة، محمد. (٢٠٠٤ م). المنشآت المرابطة في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية. ماجستير منشورة. معهد الآثار. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ١٣-١٤؛ بركات، أنيسة. (١٩٩٥). محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. د.م. ص ٣٠٣؛

Grandguillaume, Grand. (1976). Nadrouma L'evolution D'Une Medina. Brill. Leiden. p:75; Canal, George.

(1988). Monographie De Tlemcen. Bulletin De La Societe D'Archeologie D'Oran. p:83.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٦٧.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٥؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ٢. ص ٢٥٥٧؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٩٩.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٤-١٨٥؛ معراجي، فاطمة. (٢٠١٥ م). دور عبد المؤمن بن علي في رسم السياسة العلمية للموحدين. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة. الجزائر. ص ٣٠-٣١.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٥.

(٦) الخروج. الأصحاح ٣٠. ٣١-٣٠؛ الملوك الأول. الأصحاح ١٩. ١٥-١٦.

(٧) متى. الأصحاح ١. ٢٠-٢٣؛ لوقا. الأصحاح ٢. ٨-١٩.

(٨) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٣.

(٩) ابن قرية. عيد المؤمن. ص ٨.

أشادت بعبد المؤمن بعكس محمد بن تومرت، فذكر ابن زرع عن عبد المؤمن " لم يكن في ملوك الموحدين مثله أحسن عطية ولا فروسية ولا دين ولا أكثر علماً منه....، ففيها في علم الأصول، حافظاً لحديث الرسول، متقن الرواية ...، منصوراً مؤيداً لم يعتمد بلداً قط إلا وفتحته، ولا قاتل جيشاً إلا هزمه"^(١)، وذكر عنه ابن الأثير أنه " كان عاقلاً حازماً سديد الرأي حسن السياسة للأمور...، يعظم أمر الدين ويقويه"^(٢)، ووصفه ابن العماد أنه " كان ملكاً عازماً سائساً، عظيم الهيبة، عالي الهمة، كثير المحاسن، متين الديانة، قليل المثل، وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن الكريم"^(٣)، وقال عنه لي تزنو: " كان قائداً حربياً جيداً، كما كان رئيساً سياسياً جيداً"^(٤)، وربما وصفه بسفك دماء من خالفه^(٥) كان مع بداية تأسيسه للدولة التي مرت بمرحلتين كما سيذكر فيما بعد عنه.

أما صفاته الجسمانية فهي مشابهة نوعاً ما للمهدي محمد بن تومرت، حيث ذكر أنه كان أبيض اللون، أكحل العينين، مقوس الحاجبين، قويم الأنف، معتدل القامة، شعره أسود، بخده الأيمن خال، وله لحية مستديرة^(٦).

٥ - توليه الخلافة، ولقب أمير المؤمنين ٥٢٨هـ / ١١٣٣م:

بيعة عبد المؤمن بن علي وإعلان خلافته على المسلمين هو انقسام للعالم العربي الإسلامي وعدم اعتراف بالخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، وهذا فكر المهدي محمد بن تومرت عندما لم يعترف إلا بالخلفاء الراشدين ﷺ في الإسلام على الرغم من حملته لمبادئ المدرسة النظامية التابعة للخلافة العباسية، لكن بعد استقراره في مدينة تينمل دمج أفكار المدرسة مع أفكار أخرى؛ تبعاً للظروف التي اعترضت مجال دعوته؛ ليتسبب ذلك في انفراد بعقيدة جديدة تختلف عن بقية المذاهب الإسلامية الأخرى، وتابع خليفته عبد المؤمن هذا الأمر عندما اقتدى بالعصر الأول للإسلام؛ لذلك كان نسب عبد المؤمن وشخصيته؛ فضلاً عن بيعته من الأمور المتممة للفكر التومرتي التي أفرد لها الموحدون المؤلفات من أجل برهانها بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية.

ويبقى السؤال هنا: ما أسباب خلافة عبد المؤمن؟ ولماذا لم يطبق الفكر الشيعي في تولية أحد من أهل المهدي محمد بن تومرت للخلافة الموحدية؟ وما الأساس الشرعي الذي اعتمد عليه الموحدون لتولية عبد المؤمن ابن علي أمر قيادتهم خلفاً للمهدي محمد بن تومرت؟

(١) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٦١.

(٣) ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٦. ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٤) لي تزنو، روجي. (١٩٨٢م). حركة الموحدين في المغرب. تر: أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. تونس. ص ٦٧.

(٥) ابن العماد. شذرات الذهب. ج ٦. ص ٣٠٦.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ١٤٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٣٩؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠٣.

انتقلت قيادة حركة الموحيدين بعد وفاة داعيتها المهدي محمد بن تومرت إلى عبد المؤمن بن علي، وذكرت المصادر الوصية التي قلّد بها المهدي تلميذه عبد المؤمن شأن الموحيدين من بعده، فكانت هذه الوصية سبباً في اختيار عبد المؤمن، لكن بالعودة إلى تاريخ أهل المغرب في العصور العربية الإسلامية وما ذكر عنهم في الفصل الأول، يستنتج سبب آخر لاختيار عبد المؤمن، حيث ظهر أن بني زيان طمعوا بمنصب الخلافة وبلقب أمير المؤمنين عندما أعلنوا جذورهم العربية في ظل السيادة الفاطمية، وتأبيدهم للحركات التي خرجت بهذه الفكرة، لكن القبائل المغربية لم تعلن عن رغبتها هذه إلا في عهد الأمير يوسف بن تاشفين الذي رفضها، ونفذها لهم الخليفة عبد المؤمن بن علي؛ لذلك ربما ما ذكرته مصادر الموحيدين أو من نقل عنها عن الوصية سببه الدعاية للخليفة المغربي عبد المؤمن، ولعلّ ذلك كان سبب اختلاف المصادر في ذكر دعوة عبد المؤمن لخلافة المسلمين، فالبيذق ذكر أن المهدي محمد بن تومرت رأى بعبد المؤمن خليفة له وهو في ملالة^(١)، ومن المعروف أن المهدي لم يعلن ثورته على المرابطين في ملالة؛ لذلك ربما ما ذكره البيذق غير صحيح، أمّا المراكشي ذكر تولية عبد المؤمن مع وفاة المهدي الذي استدعى أهل الجماعة وأعضاء هيئات النظام الموحيدي وقدم لهم وصيته باختيار عبد المؤمن^(٢)، وأيد ابن أبي زرع الوصية^(٣)، وابن القطان لم يذكر الوصية من الأساس^(٤)، ولقي ما ذكره ابن خلدون معارضةً من الدراسات الحديثة عندما نقل عن ابن الأثير والنويري أن تولية عبد المؤمن كان لأنه كبير صحابة المهدي محمد بن تومرت^(٥)، وربما ذكر ابن خلدون ذلك بعد معركة البحيرة^(٦)؛ لأنّ أصحاب المهدي بن تومرت كتموا أمر وفاته حتّى أقاموا عبد المؤمن عليهم^(٧)، فالقرار من أصحاب المهدي وليس منه، ولم يذكر الوصية إلا المراكشي الذي كتب كتابه في المشرق العربي الإسلامي، أمّا المصادر التاريخية ذكرت السبب في تعاضل أمر عبد المؤمن من قبل المهدي، ومنعاً لتفرق كلمة الموحيدين بعد معركة البحيرة اتفق علىبيعة عبد المؤمن لأنه غريب عنهم^(٨)؛ ممّا أدى لصراع داخل حركتهم بين عبد المؤمن وأقرباء المهدي وزعماء الموحيدين

(١) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ١٦-١٧.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) لكّنه عاد للقول إن بني عبد المؤمن هم الذين زعموا أن المهدي محمد بن تومرت استخلف عبد المؤمن. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٧٩-١٨٤.

(٤) لكّنه ذكر أن المهدي محمد بن تومرت أقرّ بخلافة عبد المؤمن. ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٧٠-١٧٣.

(٥) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠٠؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٥٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٥.

(٦) لأنّ لي تورنو يقول إنّ البشير كان المفضل لدى المهدي أكثر من عبد المؤمن وإنّهُ الأشدّ ولاءً للمهدي، أما ميرندا فقد قال إنّ البشير كان المرشح للخلافة لولا مقتله في معركة البحيرة. لي تورنو. حركة الموحيدين. ص ٤٦؛ ميرندا. التاريخ السياسي. ص ٩٣.

(٧) مجهول. الحلل الموشية. ص ١١٧.

(٨) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٤.

مثل عبد الله بن يعلى الزناتي المعروف بابن ملوية^(١).

أما لقب أمير المؤمنين، فقد اتخذه عبد المؤمن سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م^(٢) قبل أن ينهي سلطة المرابطين في المغرب العربي الإسلامي، وهو يسيطر فقط على جبال الأطلس الكبير، والقول إن السبب في اتخاذ اللقب هو أنَّ المهدي قال للمصامدة سنة ٥١٧هـ/١٢٣م عندما عينه عليهم أنهم المؤمنون وعبد المؤمن هو أميرهم^(٣)، يحتاج لتفسير أكبر من فهم هذا القول على أنَّ عبد المؤمن هو خليفة للمسلمين^(٤)، وقد سمّت المصادر هذه البيعة بالبيعة الخاصة سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م، أما البيعة العامة كانت سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م^(٥)؛ أي قبل أن يتلقب بأمر المؤمنين، ليدلّ ذلك على أنه اتخذ اللقب بعد أن سيطر على أمور الموحدين، رغم أن المراكشي ذكر بيعة واحدة فقط، وقال إنَّ عبد المؤمن قام بالأمر بعد المهدي وبايعه المصامدة ثم بقيّة الموحدين^(٦)، فيلاحظ ممّا ذكرته المصادر الموحدية أنها اختلفت في ذكر من هياً له البيعة^(٧)؛ لذلك ربّما عملت المصادر الموحدية على إثبات خلافة عبد المؤمن بنحو لا يخالف عقيدة المهدي محمد بن تومرت ودعوته وإخفاء كل ما يناقض ذلك في بيعته، لكنها ذكرت في مواضع كثيرة خروج الخليفة عبد المؤمن عن العقيدة في الأمور المتعلقة بتأسيسه للدولة وسياسته فيها.

ثانياً: الفكر السياسي عند عبد المؤمن بن علي بعد تأسيس الدولة، وتوسّعها:

(١) ابن ملوية: من أعضاء مجلس العشرة، كان مقرباً من المهدي بن تومرت، وقائد قبيلة جنفيسة، قتلته قبيلة جنفيسة بعد ارتداده عن الخليفة عبد المؤمن، وكان أول ثائر على الموحدين. البيهقي. المقتبس. ص ٣١؛ البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٣٧، ٤٦.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٧، ٢٦٢.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٤٤.

(٤) ذلك لأن قبيلة المصامدة لا تشمل جميع المسلمين في المشرق والمغرب العربي الإسلامي، ولأنه لا يمكن تلقب عبد المؤمن بأمر المؤمنين في ظل حياة المهدي وسيادته، ولعل الموحدين صحوا لهذه المدعاة فوضعوا سبباً آخر لتوليته وهو كتاب الجفر الذي قرأه المهدي محمد بن تومرت في المشرق العربي الإسلامي، وهذا الأمر ليس مؤكداً، ويتعلق بأمر فوق مستوى العقل البشري، والقول في ذلك يعني أنَّ المهدي كان قد قرر الثورة على المرابطين وهو في المشرق العربي الإسلامي، وحسب ما ذكر عن دعوته فإنه لم يكن قد أعلن الثورة أو أضمرها للمرابطين؛ لذلك من المرجح أنَّ الموحدين استغلوا ذلك لإثبات خلافة عبد المؤمن والقضاء على معارضيه، والذي يؤكد ذلك ما ذكره ابن قنفذ عن مبايعة الموحدين لرجلٍ منهم من أصحاب المهدي العشرة وهو الشيخ أبو يحيى عمر الصنهاجي المعروف بالزناج، لكنه تنازل لعبد المؤمن احتراماً لرغبة المهدي، ومثل هكذا تصرف من قبل رجال ميّزهم المهدي محمد بن تومرت عن غيرهم واختارهم لدعوته لإيمانهم، يدلّ ربما على تسييس المصادر الموحدية أمر البيعة لصالح المنتصر، هذا النصر الذي حققه عبد المؤمن بإخفاء خبر وفاة المهدي حتّى تعزّيز سلطته بين الموحدين، وضمان مبايعة أكبر صحابته من الموحدين، وأهل داره وأخته زينب. ابن قنفذ. الفراسية. ص ١٠١؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٧.

(٥) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٦؛ ابن أبي دينار. المؤنس. ص ١١٠؛ ذكر ابن القطان أن البيعة العامة كانت سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٣٦.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ١٤٦.

(٧) حتّى قال ميرندا في ذلك إنَّ عمر الهنتاني الذي اختاره المهدي بعد عبد المؤمن لم يكن موجوداً عند مبايعة عبد المؤمن. ميرندا. التاريخ السياسي. ص ١٠٢.

استمرت العمليات العسكرية لحركة الموحدين مستغلةً العوامل الطبيعية التي مرّ بها المغرب العربي الإسلامي بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت، حيث رافق حروبهم مع المرابطين عوامل قحط وجفاف؛ فضلاً عن هجمات الجراد بين سنتي ٥٢٤-٥٣٠هـ/١١٢٩-١١٣٥م^(١)، فأسهم ذلك في القضاء على الثروات الحيوانية والزراعية في أنحاء المغرب الأقصى، واستنفاد المرابطين لمواردهم واحتياطهم من مؤن وإمداد للجيش، وقيام دولة بديلة ونظام جديد قائم على إتمام مشروع المهدي محمد ابن تومرت التوسعي بعد أن أقام لخلفائه العصبية القوية التي لمّت شملهم وقوّت صفوفهم؛ لأنّه من دون عصبية لا فائدة من النسب للخلفاء الموحدين؛ ذكر ذلك ابن خلدون عندما قال: " حيث تكون العصبية مرهوبة، والمنبت فيها زكي محمي، تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى، وتعيد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها "^(٢)؛ ليبقى السؤال هنا: ما السياسة التي اتبعها الخليفة عبد المؤمن لتقوية نفوذه داخل المجتمع المصمودي؟ وهل الأماكن التي سيطر عليها كانت لإتمام دعوة المهدي محمد بن تومرت في سيادة المغرب العربي الإسلامي وتوحيده أم كانت لمطامع شخصية أراد بها دمج العصبية المصمودية بعصبيات أخرى أقوى منها تحقق سيادته الكاملة على الدولة؟

للإجابة عن ذلك، لا بدّ من دراسة المراحل التي مرّ بها عبد المؤمن لتأسيس دولة الموحدين، ومعرفة الدوافع التي أسهمت في توسيع نفوذه في أراضي المغرب والأندلس؛ لأنّ فكره السياسي اختلف من مرحلة لأخرى، ففي مرحلة الحركة كان مهتماً بإرضاء المصامدة، ومنفذاً لأوامرهم لأنهم أساس قوته، ولكن عندما سقطت مدينة مراکش بين يديه بدأ سياسة الانفراد بالسلطة لمصلحته الشخصية؛ مبتعداً عن تعاليم المهدي؛ لذلك لم ينفذ الموحدون أوامره في بداية الدولة، ظهر ذلك عندما طلب قصاص قاتل أخيه الذي كان من أبناء أحد أعضاء مجلس الجماعة، لكن الموحدين وقفوا في وجه خليفته ومنعوه من أخذ الثأر لأخيه؛ بحجة أن المهدي أوصى بأهل الجماعة وصبيانهم، فامتنع عبد المؤمن عن المطالبة بالثأر لأخيه؛ لتنفيذ تعاليم المهدي، ولاقتناعه أن هذه الوصية حماية لأبنائه وضمان لأحفاده، وهناك أيضاً حادثة أخرى تظهر تمرد الموحدين على أوامر الخليفة بعد فتحهم مدينة مراکش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، حيث رفض أبو الحسن بن وكاك أو واجاج^(٣) أوامر الخليفة بعدم قتل

(١) البياض، عبد الهادي. (٢٠١٢م). أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب والأندلس. المجلة العربية. الرياض: السعودية. ص ١٨، ٢٣-٢٤؛ البياض. (٢٠٠٨م). الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوكيات وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس. دار الطليعة. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢٠-٢١.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٦٧.

(٣) كان أبو الحسن بن يوكوك بن وراك أحد أعضاء مجلس الخمسين في عهد المهدي بن تومرت، وذكره البيهقي ضمن أهل مدينة تينملل. البيهقي. المقتبس. ص ٣٣.

الأمير المرابطي أبي إسحق إبراهيم، واتهم الخليفة بالارتداد وأجبره على قتل الأمير^(١)، ليلحظ من ذلك ضعف موقف الخليفة عبد المؤمن في مرحلة الانتقال بالدعوة من حركة إلى دولة، لكن هذا الموقف تبدل نحو السيطرة الكاملة على مقاليد الأمور بعد توسّعه في أرجاء المغرب والأندلس.

١ - إنهاء حكم المرابطين في المغرب العربي الإسلامي:

بعد مبايعة عبد المؤمن بن علي لقيادة الموحدين وجب عليه إتمام ما بدأه المهدي محمد بن تومرت من إنهاء لحكم المرابطين في المغرب العربي الإسلامي؛ خاصة بعد الهزيمة في معركة البحيرة التي أودت بحياة أعظم قادة المهدي وأقربهم إليه، والتي كان لها أثرٌ عظيمٌ في نفس القادة الموحدين؛ إذ أكسبتهم خبرةً في تسيير الأمور العسكرية قبل البدء بأي مشروع عسكري ضد أعدائهم؛ متخذين من نصيحة المهدي محمد بن تومرت بألا يقاتلوا في السهول^(٢) قاعدةً أساسيةً في حروبهم، فهزيمة الموحدين وقائدهم المهدي محمد بن تومرت في معركة البحيرة كانت نتيجة عدم التزامهم بهذه القاعدة، لكن خسائرهم الكبيرة في هذه المعركة لم تثني من عزيمتهم في تحقيق غايتهم من المرابطين، وكانت سبباً في تقوية نفوسهم وتنظيم أمورهم تحت راية خليفتهم عبد المؤمن بن علي الذي رأى بعينه قوة جيش المرابطين، واقتنع أن السيف أفضل سبيل لهزيمة المرابطين من الرسائل والدعوات^(٣)، لكنه لم يوقف مراسلتهم ودعوتهم رغم ذلك بقي يدعوهم لاتباع الحق، ويهددهم بنفاذ صبره واستعداده لقتالهم بعد تنظيمه للموحدين^(٤).

ليبدأ معاركه مع المرابطين في منطقة السوس بالمغرب الأقصى حيث استعمل أسلوب الغزوات على الطريقة المسيحية في الأندلس، إذ تحاشى الاصطدام المباشر مع قوات المرابطين، وربما كان هذا الأسلوب هو أحد الأسباب الجوهرية لتأسيسه للإمبراطورية الموحدية؛ لأن الخليفة عبد المؤمن هاجم الشريان الحيوي للدولة المرابطية في منطقة السوس فأضعفها اقتصادياً، بعد اتلافه للمحاصيل وسيطرته على الطرق التجارية بين شمال المغرب وجنوبه وسلب مواشي المرابطين^(٥)، ليتسبب ذلك بتدمير البنية الاقتصادية للدولة المعادية بعد حملاته على المناطق المهمة فيها، كما تنبه الخليفة عبد المؤمن إلى فكرة محاصرة دولة المرابطين بالكامل، وليس مدينة مراكش فقط؛ لذلك عمل على الاستيلاء على القبائل والمناطق المجاورة له لضمان ولائها مثل مناطق بنيونوين واجرفرجان

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٥، ٦٥؛ شواكري. أسس. ص ١١٥-١١٦.

(٢) مجهول. الحلل الموشية. ص ١١٣.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٦٨.

(٤) ابن القلانسي. تاريخ دمشق. ص ٤٥٧.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٣٨.

وتارودانت^(١)، وخرج من تينمل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م ليدخل حصن تازاجورت، ثم درعة؛ ليعود بعدها إلى تينمل، وفي السنة نفسها استولى على تاسفيرات وحصن جلاوة وهزرجة ومدينة جشجال، وأدخل قبائل هزرجة وهسكورة التي ارتدت^(٢)، فعزز بذلك ثقة قواته بقيادته، وربما هذا ما أسهم في بيعته البيعة العامة، ليلحظ من سياسته مع القبائل أنه كان يرمي لضمّها إلى صفّه بعد إعلانها التوحيد، وذلك لزيادة عدد قواته وتوسيع نطاقها العسكري، يظهر ذلك ممّا ذكر عن انضمام قبيلتي صنهاجة الجبل وهسكورة الجبل إلى صفه سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، ليتمكّن الموحدون بهم من دخول تارودانت وإجلي^(٣)، وذكر أيضاً أنه في العام نفسه خرج الخليفة عبد المؤمن لغزو بني بيغر من قبيلة هنتانة الأطلس الكبير على بعد كيلومترات من تينمل، لرفضهم دعوة المهدي ولشجاعتهم التي هزموا بها جيش الخليفة^(٤).

ليدلّ ذلك أن قوات الموحدين تجاوزت هزيمة البحيرة، وعادت لممارسة نشاطها من جديد بعد استلام عبد المؤمن الحكم، حتّى أنّ ما ذكرت المصادر لغزوهم منطقة تادلا^(٥) شمال مراكش ليحاصروها في تلك المرحلة، يبرهن على قوة الموحدين وقدرتهم على ضرب عدوها في أي مكان وإنهاكه اقتصادياً وعسكرياً، وهذا يعود ربما لأسلوبهم الحربي المعتمد على الغزو الذي أثبت فاعليته مع قوات المرابطين في منطقة السوس.

ومن أجل إتمام الخليفة عبد المؤمن مهمته في القضاء على دولة المرابطين وجّه قواته نحو المرحلة الثانية من معاركه معهم بعد سيطرته على السوس، والتي هدف منها إسقاط عاصمتهم، ومنع إمدادهم بالقوات المرابطية في الأندلس، حتى لا يقع في خطأ معركة البحيرة، فاختار المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من المغرب العربي الإسلامي للسيطرة عليها؛ مستغلاً قدرة قواته ومرونتها في التنقل بين الجبال، بعكس قوات المرابطين ثقيلة الحركة^(٦)، بذلك ضمّ إليه قلعة فازار وبلاد تازة وجبال غياثة^(٧) ثم تاجرا مسقط رأسه^(٨)؛ ليدخل المغرب الأوسط ضمن نفوذه، ويضم قبائل تدعم قواته من

(١) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٣٨؛ ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٩٤.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٢٣-٢٢٦؛ عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٨-٤٩.

(٤) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٥) ذكر ابن خلدون الغزوة عام ٥٢٦هـ/١١٣١م، أما ابن القطان ذكرها في عامين مختلفين: عام ٥٢٦هـ/١١٣١م وعام ٥٣٠هـ/١١٣٥م. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٢٣، ٢٤٩-٢٥٠؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٦.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٥.

(٧) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٦-١٨٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٦؛ ذكر ابن القطان أن الخليفة عبد المؤمن هزم زناتة في جرندة من جبل غياثة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م ليضمهم إليه مع قبائل منانة وجزولة. ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٥٣-٢٥٤؛ وذكر البيهقي مناطق عدة استولى عليها الموحدون، مثل: حصن داي بين قسبة تادلا وبني ملال قرب حصن تاكرارات، وأزرو قرية جنوب مكناس وغيرها. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٩-٥٢.

صنهاجة وزناتة، ويتمكّن من إحداث انشقاق داخل صفوف المرابطين أنفسهم بضمّه قبائل صنهاجة إلى دعوة التوحيد؛ لذلك تميّز أسلوبه في هذه المرحلة بتسخير القبائل البربرية لمصلحته بعد استخدامها كعيون يطلّع بها على أحوال الجيش المرابطي ومن ثم حصاره بعد تفريقه عن بعضه^(٢)، يظهر ذلك من توجّه عبد المؤمن إلى تلمسان ومحاولة الجيش المرابطي التصدي له خارجاً من مدينة مراکش من دون حساب خطورة الوضع؛ إذ كان الشتاء وقواتهم ثقيلة الحركة في الأرض اللينة بعكس الموحيدين الذين تنقلوا في الجبال؛ وهذا ما تسبب بهزيمة المرابطين في مرج الحمر بالقرب من تلمسان، ثم توجّه عبد المؤمن إلى قبائل غماره حيث أطاعوه^(٣)، وتبعه تاشفين بن علي إلى كل المناطق في محاولة لهزيمة قواته^(٤)، لكن ذلك ربما تسبب بإنهك قوات تاشفين، ليبقى الأمر على حاله حتى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م عندما توفي الأمير علي بن يوسف وتولى حكم المرابطين ابنه الأمير تاشفين بن علي متسبباً ذلك بتوزع قوات المرابطين في المغرب والأندلس^(٥)؛ ممّا ساعد على قيام أول معركة حقيقية بين الموحيدين والمرابطين بعد معركة البحيرة في سهل وهران، لكن في هذه المعركة مال النصر للموحيدين لأسباب عدة:

(١) استعمال الموحيدين لأسلوب عسكري يعتمد على المربعات^(٦) يمكن أن يطلق عليه اسم الدبابة.

(٢) إنهك جيش الأمير تاشفين بن علي بسبب ملاحقته للموحيدين في محاولة لهزيمتهم من دون النظر إلى القوة التي تمتع بها الجيش الموحيدي بعد سيطرته على منطقة السوس، فتسبب ذلك باستنزاف قواته.

بذلك تمكّن الموحدون من هزيمة المرابطين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م وتراجع الأمير تاشفين إلى مدينة وهران، فلققه جيش الموحيدين بقيادة أبي حفص عمر الهنتاني، وعندما حاول الأمير تاشفين الهرب من المدينة إلى الأندلس لقي حتفه من على جرف صخري سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م وحُمِلت جثته إلى مدينة تينمل، ليدخل بعدها الجيش الموحيدي مدينة وهران التي قال عنها ابن عذاري: إنّ أكثر

(١) ابن قريّة. عبد المؤمن. ص ٢٩.

(٢) استغل الخليفة نزاع قبيلة مسوفة مع لمتونة في جيش المرابطين؛ لتعلن مسوفة بيعتها للخليفة وولاءها؛ بسبب خوفها من لمتونة. = ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٣) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٥٩-١٦٠.

(٤) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠١-٢٠٢.

(٥) ذكر ابن الأثير أن وفاة الأمير علي كان في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م، لكن الأصح ما ذكره ابن عذاري؛ لأن ابن الأثير انتقل من سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م إلى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م؛ لذلك ربما أخطأ في تاريخ وفاة الأمير علي بن يوسف. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠١-٢٠٢؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحيدين. ص ١٦-١٧.

(٦) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٣٢؛ مصطفى. دور عبد المؤمن. ص ٨١.

أهلها ماتوا عطشاً من الموحدين^(١)، وقتل الموحدون كلَّ مَنْ ساند الجيش المرابطيَّ، ثم خرج أهلُ تلمسان لملاقاة الخليفة عبد المؤمن ليدخلها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م^(٢) أو ٥٤٠هـ/١١٤٥م^(٣)، ولم يتطرق البيذق لضم مدينة تلمسان، ربما لأنَّها مكان إقامة أهل الخليفة عبد المؤمن الذي أقام بالمنطقة سبعة أشهر لتوطيد أمورها^(٤)، فضمن بذلك عدم وصول إمداد إلى المرابطين من الأندلس؛ لينتجبه بعدها إلى مدينة فاس ومراكش للقضاء نهائياً على الوجود المرابطي بالمغرب العربي الإسلامي.

يُلاحظ مما ذكر أن الخليفة عبد المؤمن قصد المناطق المحيطة بمدينة تلمسان ليخوض بها معاركه ضد القوات المرابطية، وذلك لأسباب عدة، منها: أنها منطقة نشأته وقبائلها أغلبهم أهله من زناتة أو من قبائل المصامدة من غمارة، فوفروا له المعلومات عن جيش المرابطين حتى تمكَّن من هزيمته، حتَّى أنَّهم كانوا أوائل من أيَّد دعوة محمد بن تومرت، وبنوا له مسجداً في تلك المناطق، واستقبلوه في تلمسان كما ذكر في الفصل الثاني، ص ١١٥، وباختيار الخليفة عبد المؤمن للمنطقة الشمالية لملاقاة قوات الأمير تاشفين بن علي يكون قد ضمن الولاء القبلي لقواته^(٥).

وما يهم هنا هو أنَّ الخليفة عبد المؤمن بعد هزيمته للمرابطين في وهران توجَّه لمحاصرة مدينة فاس ومراكش أهم مدن المرابطين في المغرب الأقصى؛ مستغلاً نشر قواته في جنوب وشمال وشرق المغرب الأقصى؛ ليمنع المرابطين من طلب الإمداد؛ لذلك عمل على ضمِّ مناطق وجدات وأكرسيف ثم انطلق إلى فاس مقيماً بالمقرمدة، وبعد أن أتاه أبو بكر بن الجبير أحد أعضاء مجلس الخمسين بعسكر من غمارة سلَّمه المهمة، وضمَّ إليه عسكر من صنهاجة وهسكورة حتَّى تمكَّنوا من الوصول إلى جبل زلاغ شمال مدينة فاس، ولم يستطع قائد فاس يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بالصحراوي مع جيشه من لمتونة التصدي للموحدين، وقرر العودة إلى فاس، لكنَّ الخليفة عبد المؤمن قسم الموحدين إلى قسمين: قسم قاده أبو بكر بن الجبير من صنهاجة وهسكورة إلى نوك إكران، وقسم بقي مع الخليفة متوجَّهاً إلى جبل العرض، وتوجَّه قسم الخليفة نحو مدينة مكناسة أمَّا القسم الثاني تركه لحصار مدينة فاس^(٦)، فحاصرها الموحدون ستة أشهر أو تسعة أشهر

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٩-٢٢.

(٢) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٩؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٨.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٨.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٣.

(٥) يلحظ مما ذكره البيذق عن مقتل شيوخ قبيلة كومية أن الخليفة ركز في عملية تصفيته للقبائل التي ينتمي إليها على شيوخها فقط، ربما لأنَّهم مثَّلوا سلطة المرابطين على القبائل؛ فسهل ذلك عليه خوض معركة محسومة النصر في سهل وهران، ولو أنَّ الأمير تاشفين بن علي انتظر حتى معركة مراكش ربَّما لكان النصر حليفه، وذلك لأنَّه من الملاحظ أنَّ الخليفة عبد المؤمن لم يقدم على اقتحام مدينة مراكش مجدداً لمعرفة صعوبة ذلك وفضل المغرب الأوسط عليها. البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٦.

(٦) البيذق. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٠-٦٣.

بعد أن منعوا عنها الماء وهدموا أسوارها، وذكر أن الماء هو من دمر دور المدينة وسورها، لذلك اضطر الصحرابي لطلب الأمان مقابل فتحه باب المدينة، ثم هرب إلى الأندلس سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م^(١)، وحاصر عبد المؤمن مكناسة، لكنه ترك قوة من جيشه لحصارها، وتوجه هو إلى مدينة مراكش بعد أن بايعته سبتة، واستولى على سلا^(٢)، فتوجه إلى العاصمة عبر تادلا حيث زودته قبائل هسكورة وصنهاجة بالعسكر فيها، وأمدته أزمور بجيش من صنهاجة أيضاً بعد استيلائه عليها، وانضم إليه أهل دكالة لأول مرة^(٣)، ولضمان قواته من غدر قبائل برغواطية أرسل الشيخ أبا حفص الهنتاني لغزوها^(٤)، وبعدها فرض الحصار على مدينة مراكش لمدة تسعة أشهر^(٥)، ورافق حصاره للمدينة وضع قبة الحمراء فوق جبل أيجليز، وربما كان ذلك لإظهار سلطانه أمام المرابطين الذين هزموه في معركة البحيرة، ويثبت للمرابطين قوته الإلهية، كما بنى صومعة ومسجداً ليراقب بهم أعماله العسكرية، وعندها قرر الأمير إسحق بن علي ٥٤٠-٥٤٢هـ/١١٤٥-١١٤٧م الذي خلف ابن أخيه الأمير إبراهيم بن تاشفين ٥٤٠هـ/١١٤٥م قتال الموحدين، لكنه هُزم بسبب الحصار المحكم^(٦)، ودخل الموحدون المدينة بعد تقسيمها على القبائل الموحدية، وقتل ابن واجاج أولاد الأمراء وأقرباءهم، أما الأمير إسحق توسل إلى الخليفة عبد المؤمن قائلاً: " مالي في الرأي شيء فيقول له طلحة أصمت عنا، هل رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله، فقال أمير المؤمنين لأبي الحسن اترك هؤلاء الصغار " إلا أن ابن واجاج نادى بالموحدين قائلاً: " لقد ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة"، فغضب عبد المؤمن، وخرج من مجلسه، وقتل ابن واجاج الأمير إسحق^(٧)، وهذه الحادثة تدل على متانة سياسة عبد المؤمن تجاه أعدائه، لأنه ربما أراد أن يسخر الأمير إسحق لمصلحته؛ ليسهل فتح باقي مناطق المرابطين في المغرب والأندلس، ويقنع القوات المرابطية بسلطانه دون إراقة دماء المسلمين، وهذا يعدّ أول خروج عن عقيدة المهدي محمد بن تومرت وأسلوبه الميال لسفك دماء أعدائه ومعارضيه، لكن الخليفة عبد المؤمن لم يخرج عن العقيدة في ضم كل من يعترف بالتوحيد، وتصفية كل من يشك بولائه للعقيدة في بداية تأسيسه للدولة، أكد ذلك عدة أحداث رافقت حملته العسكرية في المغرب، منها:

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠٣؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٣-٢٤؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٣.

(٤) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١٠٨.

(٥) ذكر النويري أن مدة الحصار كان أحد عشر شهراً. النويري. نهاية الأرب. ج ٢. ص ١٦٣.

(٦) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٠٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٠.

(٧) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٥.

(١) عندما انضمت إليه قوات المرابطين من قبائل صنهاجة وزناتة ومسوفة في حملته بالشمال والشمال الشرقي من المغرب العربي الإسلامي، فإنه لم يؤمن لهم وقام بعملية التمييز بينهم ليرى إخلاصهم^(١)، وظل يراقبهم، وذلك سببه أسلوبه في ضمهم إليه بأخذ نسائهم^(٢)، وهذا الأسلوب يشبه أسلوب المهدي محمد بن تومرت في تينمل.

(٢) عند استيلائه على مدينة مراكش لم يدخل الموحدون إليها مباشرة؛ لأن المهدي كان يقول: "حتى تطهروها"، فأشار عليه الفقهاء بتجديد مساجدها وبنائها من جديد، على الرغم من ما ذكر في ذلك أن السبب هو تشريق بنائها على مبدأ عقائد أهل الذمة^(٣)، لكن من الملاحظ أن عبد المؤمن عمل على تنفيذ رغبة المهدي؛ لأنه بعد دخوله لمدينة مراكش قضى على المرابطين المجسمين كما ادعى المهدي محمد بن تومرت، وهذا يعدّ نصراً لعقيدته التي أثبتت أحقيتها بانتصار الموحدين، وأسقطت اتهامهم بالخوارج في تلك الحقبة.

(٣) إشراك الخليفة عبد المؤمن لقبائل متعددة ومختلفة في حملته ضد المرابطين؛ لضمان عدم ثورتهم عليه بعد هزيمتهم، وهذا المنحى اتبعه المهدي محمد بن تومرت في معاركه مع المصامدة والمرابطين، حتى لا يشعروا أن القتال لغاية قبلية؛ وإنما سياسية عقائدية مهمتها نصر دعوته للتوحيد.

بذلك ضمن عبد المؤمن إسقاط حكم المرابطين خاصة بعد سيطرته على عاصمتهم مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م^(٤) ولم يبق أمامه سوى الأندلس التي هرب الصحرابي إليها ومدينة مكناسة في المغرب العربي الإسلامي لإنهاء وجودهم بالكامل؛ لذلك حفر خندقاً لإحكام سيطرته على مكناسة مستمراً بحصارها حتى نفذ الجوع بأهلها ليتمكن الموحدون من دخولها سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م^(٥)، وتوجّه في الوقت نفسه للسيطرة على الأندلس.

٢ - الاستيلاء على الأندلس:

أنهكت ثورة المهدي محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن القوات المرابطية، وفرقت شملهم؛ ممّا سبب ظهور عصر طوائف ثانٍ في الأندلس، كما ذكر في الفصل الأول، ص ٣٢-٣٧، ٥٧، وذلك كان بسبب حركة الاسترداد المسيحي للأندلس الذي هدّد أمن المدن الإسلامية فيها، واستدعاء

(١) ذكر ابن عذاري عملية التمييز عندما ضمن الخليفة عبد المؤمن ولاء زناتة له، ولربما عمل الخليفة على إعلاء شأن قبيلته بالتمييز. ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ١٠٠.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٤٩، ٥٦؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٢٣٨، ٢٥٠-٢٥٢.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٦؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٩-٣٠.

(٤) ابن خلدون، يحيى بن أبي بكر. (١٩٠٣م). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. ج ١. مطبعة بيبرونطانا الشرقية. الجزائر. ص ٨٦.

(٥) ابن غازي، محمد بن أحمد. (١٩٥٢م). الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون. مطبعة الأمنية. الرباط: المغرب. ص ٧-١٠.

أمراء المرابطين لجزء كبير من قواتهم إلى المغرب، فأضعفوا بذلك مقاومة المدن الأندلسية للقوات المسيحية الراجبة في السيطرة عليها^(١)، لأنها أصبحت هدفاً سهلاً يستولون عليها متى أرادوا كما كان الحال عليه عند سقوط الدولة الأموية في الأندلس؛ لذلك عاد ولاية المدن لخطتهم القديمة في الدفاع عن أنفسهم ذاتياً، بإعلان كل والٍ من ولايتها استقلاله بإقليمه منذ سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م^(٢)، عندما توفي الأمير تاشفين بن علي، وسيطر الموحدون على مناطق السوس وتلمسان وفاس والجزيرة الخضراء^(٣)، وربما كان هذا الإجراء مؤقتاً لولاة الأندلس ريثما يستقر حال المغرب العربي الإسلامي، فيستدعون بعدها القوى المنتصرة لحمايتهم عسكرياً وليس سياسياً، وذلك لأن سياستهم قامت على جعل الممالك المسيحية تظمن لهم بدفعهم الضرائب وتقديم الخدمات، وإقناعهم بخروجهم عن سلطة المرابطين بثوراتهم العديدة^(٤)، لكن ما يحسب للممالك المسيحية هو تأخرهم بالهجوم على القلاع الأندلسية ومدنها لمدة طويلة من الزمن؛ إذ فضلوا الدفاع على الهجوم رغم الأوضاع المضطربة للقوات الإسلامية في المغرب العربي الإسلامي، وبقاء تركيزهم على شرق الأندلس، فهم لم يسعوا إلى تطوير سياستهم عن عهد الأمير يوسف بن تاشفين، يظهر ذلك من خلال تحالف هذه الممالك مع محمد بن سعيد بن مردنيش^(٥) وصهره إبراهيم بن همشك^(٦) المسيطرين على بلنسية ومرسية في مرحلة نهاية دولة المرابطين^(٧)، وهذا ما تسبب بعدم استعادة الموحدين إلا لمدينة ألمرية من شرق الأندلس في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، بعد أن حاصرها براً وبحراً سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م^(٨) وحررها من المسيحيين بعد سيطرتهم عليها سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م؛ مستغلين صراعه مع المرابطين في المغرب^(٩)، وبقي شرق الأندلس خارجاً عن سيطرة الموحدين حتى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، ليلحظ من ذلك أن دوافع الحروب الصليبية اقتصادية أكثر منها دينية، فهم ركّزوا على المشرق العربي الإسلامي في مرحلة تمكّنهم من تحرير الأندلس بالكامل، عندما دمرت دولة من أجل نشوء دولة جديدة في

(١) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٣٢؛ دندش. الأندلس. ص ٣٤.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٥٤؛ مؤنس، حسين. (١٩٩٦م). موسوعة تاريخ الأندلس - فكر تاريخ حضارة تراث. ج ٢. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ص ٧٨-٧٩.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٨٨-١٨٩.

(٤) ابن الأبار. الحلة. ج ٢. ص ١٩٨؛ ابن عزاري. البيان. ج ٤. ص ١٠٥.

(٥) ابن مردنيش: يعرف بالملك لوبو، أصله إسباني، ثار ضد المرابطين، واستعان بالممالك المسيحية ضد الموحدين، توفي عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٨٠.

(٦) ابن همشك: إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، جده مسيحي من أصل إسباني أسلم على يد أحد ملوك بني هود بسرقة وكان مقطوع الأذن. ابن الخطيب. الإحاطة. ج ١. ص ٦٠١.

(٧) عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٨) أبو رميلة، هشام. (١٩٨٤م). علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية بالأندلس. دار الفرقان. الأردن. ط ١. ص ١٠٢-١٠٣.

(٩) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٦٥.

المغرب العربي الإسلامي.

أما غربي الأندلس ووسطها وجنوبها فقد سيطر الموحدون عليها بعد استدعاء ولاية مدنها ووجهائها للخليفة عبد المؤمن، من أجل مساعدتهم في الحدّ من الاضطرابات والثورات التي عصفت بهم بعد حسم النصر لمصلحة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي، وأهمّ هذه الثورات ثورة أحمد بن الحسن ابن القسي؛ لأنّ الخليفة عبد المؤمن استغلها لمصلحته السياسية والتوسعية، رغم أنّ ابن القسي خالف عقيدة المهدي محمد بن تومرت بادعائه المهدوية أيضاً، لكنّ الخليفة عبد المؤمن لم يقتله ويسفك دماء من أيده؛ وإنما أدخلهم في جيشه لتحقيق مصالحه، وهذا يدلّ على أنّ الخليفة فضّل المصلحة العامة على العقيدة، وأنّ إيمانه بالعقيدة لم يكن عميقاً، ليظهر ذلك بوضوح في عهد أحفاده يعقوب المنصور وابنه إدريس المأمون.

يظهر ذلك ممّا ذكر عن إعلان ابن القسي لثورته في مدينة شلب (جنوب البرتغال) سنة ٥٣٩-٥٤٠هـ/١١٤٤-١١٤٥م، وخلع طاعة المرابطين وادعائه المهدوية والإمامة، ليعرف أتباعه باسم المريدين^(١)، لكنّ القائد المرابطي يحيى بن غانية^(٢) وقف في وجه ابن القسي^(٣)؛ ممّا دفع ابن القسي للاستيلاء على قصبة ميرتلة وإيفاد السفراء إلى الخليفة عبد المؤمن ليستنجد به، لكنّ الخليفة لم يستجب له في البداية، حتى موصلته السير إلى مدينة لبلى، عندها دعا الخليفة عبد المؤمن للاستيلاء على الأندلس، فاستجاب له الخليفة وأرسل معه جيشاً من الموحدين وصلوا حتى مدينة شريش التي دخلت في الطاعة سلباً، ثم توجّهوا نحو مدن شلب وإشبيلية التي دخلوها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، ولم يتخذ الخليفة أي إجراء سياسي ضد المريدين الذين أبقاهم في أماكنهم^(٤)، وفي السنة نفسها وصل وفدٌ من الأندلس إلى الخليفة عبد المؤمن بزعمارة أبي بكر بن العربي؛ ليعلن الطاعة والبيعة للخليفة وأكثره من أهل إشبيلية^(٥)؛ لذلك كان هذا سبب اهتمام الموحدين بمدينة إشبيلية التي جعلوها عاصمة لهم في الأندلس^(٦)، لكن ما فعله أخوا المهدي محمد بن تومرت عيسى وعبد

(١) المريدون: يطلق هذا اللقب في الأندلس على أصحاب الجماعات الصوفية المرابطة، تحولت هذه الجماعات من الصوفية إلى جماعات تطلب الملك، منهم جماعات ابن القسي وابن حمدين، قضى عليهم الموحدون. ابن الأبار. الحلة. ج ٢. ص ٢٠٤.

(٢) أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحرابي من قبيلة مسوفة، ولد في قرطبة، كان والده من كبار رجال الأمير يوسف بن تاشفين، ولده الأمير علي بن يوسف بلنسية، توفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. ابن الأبار. الحلة. ج ٢. ص ٢٠٥-٢٠٦؛ إلياس، علي قنبر. (٢٠١٠م). أسرة بني غانية ودورهم السياسي والعسكري في التصدي لدولة الموحدين في المغرب والأندلس. مجلة التربية والعلم. مج ١٧. ع ١. الموصول. ص ٨٩-٩١.

(٣) أشباح. (٢٠١٤م). تاريخ الأندلس. ج ١. ص ٢١٧-٢١٨.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٢-٣١٣؛ الغنای، عقيلة. (٢٠٠٨م). قيام دولة الموحدين. منشورات جامعة قاريونس. بنغازي: ليبيا. ص ٦٩، ٧٧-٧٨.

(٥) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٣.

(٦) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٤٧.

العزیز فی الأندلس وإساءتهم التصرف مع أهلها، تسبب بالفوضى واتصال سكان إشبيلية بابن غانية، فدفع ذلك الخليفة عبد المؤمن إلى إرسال قواته للأندلس لإعادة الطاعة للموحدين^(١)، وإرضاخ زعماء المعارضة الذين توجهوا سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م للاجتماع مع الخليفة في سلا وإعادة البيعة له، ولم يتخلف عن تجديد البيعة سوى ابن القسي الذي تعاون مع ملك البرتغال ألفونسو هنري (ابن الرنك) ٥٣٢-٥٨١هـ/١١٣٨-١١٨٥م فثار عليه العامة وقتلوه^(٢).

أما مدينة قرطبة، فقد سيطر عليها الموحدون في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م بعد أن استولى عليها الفقيه حمدين بن محمد الملقب بابن حمدين ت. ٥٤٧هـ/١١٥٢م سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وتسمى بناصر الدين وأمير المؤمنين وأمير المسلمين، فسبب ذلك اضطراباً في المدينة لانقسام سكانها إلى قسمين: قسم مؤيد لسيف الدولة بن هود، وقسم آخر لابن حمدين^(٣)، فاستدعى ذلك تدخل ابن غانية لمحاصرتها، لكن حكامها طلبوا العون من ملك قشتالة ألفونسو السابع ٥٢٠-٥٥٢هـ/١١٢٦-١١٥٧م الذي أدخل بعض قواته إلى المدينة؛ مما دفع سكانها للاستجداد بالموحدين، فسارع ألفونسو للتفاوض مع ابن غانية ليبقى حاجزاً بينهم وبين الموحدين، وغادر ألفونسو قرطبة بعد فرضه على ابن غانية مبلغاً من المال وتخليه عن مدينتي أبدة وبياسة لصالح ألفونسو^(٤)، وأدت مطالب المسيحيين من ابن غانية إلى اتصاله بالموحدين وتسليمهم مدينتي قرطبة وقرمونة، ومحاولته إقناع أمير غرناطة ميمون بن بدر اللمتوني^(٥) بطاعة الموحدين، لكنه توفي فيها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م^(٦).

كما أرسلت قوات موحدية سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م نحو وادي أش بقيادة الشيخ أبي حفص الهنتاني، وأعلنت البلاد التوحيد، لكن تحالف ابن مردنيش مع كونت برشلونة منع أبا حفص من ضم المناطق لسلطة الموحدين^(٧)، ولم يبق للموحدين سوى شرق الأندلس بعد ضمهم مدينة مالقة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م^(٨)، وذلك لأن ابن مردنيش وابن همشك افتعلوا الاضطرابات عبرها، وهاجموا المدن

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٣.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٥٦؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٥؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١١٩.

(٣) النباهي، أبو الحسن بن عبد الله. (١٩٨٣م). تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. تح: لجنة إحياء التراث العربي. دار الأفاق الجديدة. بيروت: لبنان. ص ١٠٣؛ أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ١. ص ٢٢٠-٢٢١.

(٤) الضبي، أحمد بن حيان. (١٩٨٩م). بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس. تح: إبراهيم الإبياري. ج ١. دار الكتاب

الليباني. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٦٦؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٢٩-٢٣٠؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٤.

(٥) ميمون بن بدر بن ياسين الصنهاجي اللمتوني يكنى بأبي عمر، أصله من صحراء المغرب العربي، سكن مدينة ألمرية.

السملاي. الإعلام. ج ٧. ص ٣٠٨.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٤.

(٧) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٨٨؛ ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٣٧٠.

(٨) ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٣١.

بمساعدة الممالك المسيحية، خاصةً بعد احتفال الموحدين بالاستيلاء على المهدية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، فهاجم ابن همشك قرطبة مستغلاً ذلك^(١)، ليدفع ذلك الخليفة عبد المؤمن إلى بناء مدينة الفتح على جبل طارق استعداداً لأي هجوم ضده، ولاستقبال وفود من يريد مبايعته من سكان الأندلس^(٢)، لكن ابن مردنيش وابن همشك جعلوا الخليفة يستعمل سياسة مختلفة عن سابقيه من الحكام، تقوم على تسليح أهل المدن ودعمهم وإمدادهم بالمؤن لمواجهة أي حصار يتعرضون إليه، وهذه مجازفة من قبل الخليفة؛ لأن أي ثورة ضده تعني تهديد وجود الموحدين بالأندلس، كما أنه نقل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، وولى أبناءه على الأندلس؛ ليبقى السؤال هنا: لماذا سلّح عبد المؤمن أهل المدن؟

ما دفعه لذلك خطورة معارضيته المتحالفين مع الممالك المسيحية وتهديدهم المستمر للمدن الإسلامية في الأندلس، خاصةً بعد افتعال فتنة قرمونة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م^(٣)، وتهديد المرافق العامة في مدينة إشبيلية، ومحاصرة ابن مردنيش وابن همشك مدينة غرناطة^(٤)؛ لذلك عمل الخليفة عبد المؤمن على إنهاء معارضيته، لكن إصابته بمرضٍ خطير منعه من إتمام المهمة، وتسبب بوفاته سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م في مدينة سلا^(٥)؛ تاركاً إتمام هذه المهمة إلى ابنه أبي يعقوب يوسف الذي خلفه.



المصور رقم ٧، خريطة الأندلس في عصر المرابطين والموحدين.

(جوليان. تاريخ إفريقيا. ج ٢. ص ١١٢).

يلحظ ممّا ذكر تحول سياسة الخليفة عبد المؤمن في الأندلس ممّا كانت عليه في المغرب

(١) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ٧٠-٧٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ٨٤-٨٥؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١٤٠-١٤١.

(٣) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٢١، ١٣٧-١٣٨؛ ١٤٧-١٤٨.

(٤) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٨٠-٨١؛ ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٢٢-١٢٦؛ ابن خلدون. تاريخ ابن

خلدون. ج ٦. ص ٣١٨-٣١٩.

(٥) المراكشي. المعجب. ص ١٧٣.

العربي الإسلامي، فسياسته في الأندلس العفو وفي المغرب المحاسبة، حيث عفا عن المرابطين عند مبايعتهم إياه وتقديمتهم الطاعة له، ولم ينتقد إيمانهم بالعقيدة حتى لو ثاروا عليه ونقضوا بيعته، لتختلف هذه السياسة عن سياسته في المغرب العربي الإسلامي الذي استعمل فيها العيون والتميز، وليخرج بها عن سياسة المهدي محمد بن تومرت عندما كانت دعوته منحصرة في بلاد السوس، وربما يعود ذلك إلى ضمانه انضمام القبائل البربرية (الأمازيغية) والعربية إلى صفه، وتوافر الرجال في صفوف جيشه فلم يعد بحاجة للقوات؛ وإنما للطاعة فقط، ويظهر من ذلك أيضاً أن عقيدة المهدي محمد بن تومرت كانت لتمكين صفوف الموحدين، ووضع قواعد أساسية يسيرون عليها في إتمام دعوتهم.

٣- السيطرة على الدولة الحمادية والزييرية في المغرب العربي:

بعد سيطرة الموحدين على المغرب الأقصى أصبح باقي المغرب العربي الإسلامي هدفاً لتطلعاتهم التوسعية، وذلك بسبب الضعف والانقسام والفساد الذي عانى منه المغرب العربي الإسلامي تحت حكم قبائل صنهاجة، وهذا ما لحظه المهدي محمد بن تومرت ودعا إليه في أثناء رحلته إلى المشرق العربي الإسلامي، لكن دولة المرابطين شكّلت عائقاً أمامه؛ لذلك قضى عليها خليفته عبد المؤمن بن علي لإتمام مهمة المهدي محمد بن تومرت وتحقيق تنبؤاته التي لا يمكن إثبات مهديّة محمد بن تومرت وخلافة عبد المؤمن وأبنائه على المسلمين إلا بتحققها، وهذا يفسّر تطلع الخلفاء الموحدين للسيطرة على المغرب والمشرق العربي الإسلامي، لكن لم يكن السبب عقائدياً فقط؛ وإنما هناك أسباب أخرى دعتهم لمحاولة السيطرة على المسلمين خاصة في عهد الخليفة عبد المؤمن الذي رسم حدود الدولة في المغرب العربي الإسلامي، فكان من بين هذه الأسباب الحركات المضادة لحركة الموحدين ومحاولته إحكام قبضته عليها، خاصة بعد إسقاطه لدولة المرابطين، وقيام ثورات ضد الموحدين في شمال المغرب الأقصى بعد ارتداد أهلها عن مبايعة الخليفة عبد المؤمن، منها ثورة برغواطة في جبال الريف الذين هزموا جيش الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني، واستولوا على مدينة سبتة؛ ليستعين والي المدينة بابن غانية في الأندلس، معلناً طاعته للمرابطين، وقاد هذه الثورة يحيى الصحراوي عندما انضمت قبائل عدّة إلى صفه من برغواطة ودكالة وأهل سلا وطنجة وسبتة وغيرها^(١)، وهذا تحالفٌ قبليّ مضادٌّ للتحالف الموحدي؛ مما يعني أنّ إمكانية امتداده في المغرب العربي الإسلامي محتملة؛ لذلك قاد الخليفة عبد المؤمن جيش الموحدين لاستعاد سلا ومكناسة وطنجة وحاصر سبتة حتى تمكن من السيطرة عليها، وأخضع بني ورياغل وبرغواطة لسيادته؛ فضلاً عن

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٧-٦٨؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٢-٣٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١١؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١١٤.

حركة ارتداد أخرى قامت في مدينة فاس ومكناس وهي حركة الفحاميين، ليظهر من هذه الحركات أنّ أهل المغرب الأقصى يظهرون خلاف ما يظنون حول عقيدة التوحيد التي لم يفهموها، ونقّه الخليفة عبد المؤمن هذه القضية لذلك علّم الناس العقيدة، واهتم بمؤلفات المهدي محمد بن تومرت لتصبح مصدر التشريع الأول في الدولة، كما أمر بمتابعة المرتدين عن العقيدة حتّى قضى عليهم سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م^(١)، وربما الخليفة عبد المؤمن تنبه إلى هذه الحركات التي يمكن أن تنتهي دولته إن استمدت دعمها من دول أسهمت في اضطراب دولة المرابطين، مثل الدولة الحمادية التي أجبرت الأمير يوسف بن تاشفين على العودة إلى المغرب العربي الإسلامي بعد معركة الزلاقة، وأنهت عملياته العسكرية الضخمة ضد الممالك المسيحية بعد هزيمتهم كما ذكر في الفصل الأول، ص ٣١، والنورمان الذين استولوا على سواحل إفريقية؛ لتأمين الطريق البحرية نحو المشرق العربي الإسلامي، خاصة أنّ ملك صقلية روجر الثاني أرسل الحملات نحو المغرب العربي الإسلامي، منها حملتان إلى مدينة طرابلس سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وسنة ٥٤١هـ/١١٤٦م لتصبح أول قاعدة بحرية له في المغرب العربي الإسلامي، كما تدخل في تنصيب أمراء قابس سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، واحتل الصليبيون جزيرة جربة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م بمباركة البابا إينوسنت الثاني ٥٢٥-٥٣٨هـ/١١٣٠-١١٤٣م، وطرده الأمير حسن بن علي الصنهاجي الزيري ٥١٥-٥٤٣هـ/١١٢١-١١٤٨م صاحب إفريقية إلى جزائر بني فرغناي (الجزائر)، ليحتلوا بعدها جزيرة قوصرة ومدينة المهدية وتونس وسوسة وصفاقس، ثم ثغر بونة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م^(٢)؛ لذلك ربما توجّه الخليفة لإخضاع هذه الدول التي يمكن أن توقف توسعه في الأندلس، وتهدّد أمن دولته لاستعانتها بالقبائل العربية أو محاولتها الاستعانة بها^(٣)، خاصة أنّ هذه القبائل أنهت وجود قبيلة زناتة على الصعيد العسكري والسياسي في المغرب العربي الإسلامي وغيرت من معالمه الديموغرافية كما ذكر في الفصل الأول، ص ١٩-٢٣، وربما لهذا السبب طمح الخليفة عبد المؤمن للتخلّص من هذه القبائل، إما بمحاربتهم أو بضمّهم إلى صفّه، فيعيد ذلك إلى قبيلته زناتة مركزها الذي خسرت، ويضمن له عدم استغلال القبائل العربية من قبل القوى المعادية لدولته.

لهذه الأسباب توجّه الخليفة عبد المؤمن نحو المغرب الأوسط والأدنى؛ مستغلّاً الظروف التي وقعت في صفوف أعدائه، فالملك روجر الثاني كان قد توفي عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، ووصول

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٩-٧٢.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٢٨٦، ٣٢٦، ٣٣٨، ٣٤٧، ٣٥٠-٣٥٢؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٥. ص ٢٣٢-٢٣٦؛ جولييان، شارل أندري. (١٩٨٣م). تاريخ أفريقيا الشمالية. تر: محمد مزالي، والبشير بن سلامة. ج ٢. الدار التونسية للنشر. تونس. ص ١٤٠-١٤٣.

(٣) ذكر أن ملك صقلية حاول أن يستعين بالقبائل العربية ضد الموحدين، إلا أنهم رفضوا طلبه، وقالوا له إنهم لا يقاثلون إلا بصفوف المسلمين. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٣٩٠.

ال خليفة إلى فرغانية (الجزائر) أمّن له محالفة الحسن بن علي الصنهاجي، فسهل عليه ذلك بثّ العيون لدخول بجاية، والسيطرة عليها من الأمير يحيى بن عبد العزيز بن حماد ٥١٥-٥٤٧هـ/١١٢١-١١٥٢م الذي هرب من المدينة، حيث استولى عليها دون قتال سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م^(١)، بذلك ثار الخليفة عبد المؤمن من سكانها الذين طردوا المهدي محمد بن تومرت، وضَمّن قاعدة في المغرب الأوسط لإتمام مشروعه، لكن خوف السكان من الموحدين دفعهم لإقامة تحالف من صنهاجة ولواتة وكتامة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م للوقوف في وجه الموحدين والتصدي لهم شرقي بجاية، حيث هزموا من قبل الموحدين، وأُخذت نساؤهم وأولادهم كرهائن حتّى يعلنوا التوحيد^(٢)، ولم يلق الخليفة بعدها معارضة داخل الدولة الحمادية إلّا من القبائل العربية التي وجّه إليها حملةً عسكريةً بعد دخوله قلعة بني حماد، لكنّهم تمكّنوا من هزيمة جيش الموحدين، وقتلوا صهر الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، عندها خرج الخليفة بنفسه لقتالهم بعد معرفة مدى ولاء جيشه لسلطته واستعداده للقتال، والتقى الطرفان في مدينة سطيف سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، حيث هزم الموحدون القبائل العربية، وسبوا نساءهم وأولادهم وأموالهم، ونقلوهم إلى مراكش، واتصل الخليفة بالقبائل العربية يُعلمهم أن أهلهم بخير، ويطلب منهم طاعته وقدمهم إلى مراكش لتجنيدهم في جيشه^(٣)، ليلحظ من ذلك أنّ الخليفة عبد المؤمن لم يهدف من سياسته هذه إلى إنهاء القبائل البربرية (الأمازيغية) والعربية؛ وإنّما إخضاعهم لسلطته والاستفادة منهم كقوة بشرية تدعم جيشه وسلطانه؛ لأنّ الخليفة عبد المؤمن أمّن حدود دولته الشرقية بعد سيطرته على القبائل العربية وقضائه على الدولة الحمادية التي قد تهدّد دولته؛ لذلك سيطر على أغلب مدنها مثل بونة وجزائر بني مزغنة وقسنطينة وغيرها من المدن، ليستكمل بعد ذلك عملياته العسكرية ضد الخطر الثاني المتمثل بالصليبيين، ولكن بعد انتهائه من الوجود المرابطي في الأندلس، حيث ذكر أنّه بعد سيطرته على الأندلس توجه لإنهاء الوجود الصليبي في إفريقية سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م^(٤)؛ استكمالاً لحصار القبائل العربية مدينة المهديّة سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م^(٥)، ولحصوله على قطع الأسطول التي تمكّنه من مواجهة الصليبيين في البحر، وربما كان السبب في مساعي الخليفة للسيطرة على إفريقية هو التخلص من دعم الأسطول الصليبي لمدن شرق الأندلس التي لم يستطع الاستيلاء عليها، وهذا

(١) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٣٧٢-٣٧٣؛ النويري. **نهاية الأرب**. ج ٢٤. ص ١٦٧.

(٢) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٣٧٣.

(٣) البيهقي. **أخبار المهدي بن تومرت**. ص ٧٤-٧٥؛ ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٣٩١؛ ذكر ابن خلدون أن ذلك وقع عام

٥٤٧هـ/١١٥٢م. ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣١٥-٣١٦.

(٤) ابن أبي دينار. **المؤنس**. ص ١١١.

(٥) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٤٠٣-٤٠٤.

سبب حصاره لمدينة تونس والاستيلاء عليها من بني خراسان سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(١)، ثم توجهه نحو مدينة الزويلة لإحكام محاصرته لقاعدة الصليبيين في المهديّة، لكنّ محاصرته لمدينة المهديّة تماثل محاصرة المهدي محمد بن تومرت لمدينة مراكش؛ إذ استعمل الصليبيون الأسلوب نفسه الذي استعمله المرابطون في معركة البحيرة؛ متسببين بخسائر كبيرة لقوات الموحدين، ولعلّ الموحدين كانوا قد هزموا في هذه المعركة لو لم يثبتوا أقدامهم في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنّ الخليفة عبد المؤمن اختار الصبر في أثناء حصاره للمدينة، وجمع القوات لإتمام هذا الحصار، كما أنّه عمل على قطع الإمداد عن المدينة؛ بإرساله ابنه عبد الله لمحاصرة مدينة قابس، واستيلائه على قصبة من بني الورد، والأرد من بني فتانة العرب، وعلى القيروان وسوسة وصفاقص وطرابلس (الغرب) سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٢)، بذلك لم يبق للصليبيين إلا مدينة المهديّة المحاصرة، فعملوا على إنقاذها؛ بإرسال الملك الصقلي وليم بن روجر ٥٤٩-٥٦٢هـ/١١٥٤-١١٦٦م أسطولاً لفكّ حصارها وتقديم الإمدادات، لكن أسطوله اصطدم مع الأسطول الموحيدي في معركة تسببت بهزيمة الصليبيين، وكان نتيجة هذه الهزيمة طلب الملك الصقلي من الخليفة الأمان مقابل نقل المسيحيين من المهديّة إلى صقلية، فوافق الخليفة عبد المؤمن ودخل المهديّة سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م^(٣)، ليؤسس دولة موحديّة امتدّت في عهده من برقة شرقاً إلى الأطلسي غرباً، ومن الصحراء الكبرى وغانة جنوباً إلى البحر المتوسط والأندلس شمالاً، فشملت دولته الحدود التي ذكرت لبلاد المغرب العربي الإسلامي في الفصل الأول، ص ١٣-١٤، ولكن لم يذكر أنّ الخليفة عبد المؤمن توجه لإخضاع الصحراء عسكرياً^(٤)، وربما السبب في ذلك هو انشغاله في الأعمال التوسعية حتّى وفاته سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، ولأنّ قواته اعتادت القتال في الجبال والمناطق الوعرة، أمّا الصحراء فلم تعد القتال فيها لصعوبة تضاريسها، فضلاً عن سبب آخر ذكر في الفصل الأول، ص ١٩-٢٢، ٢٦-٢٧، هو هروب قبائل زناتة إلى الصحراء، ممّا يعني أن ضمها يتم سياسياً، وليس عسكرياً بعدها أحد أفرادها.

(١) المراكشي. **المعجب**. ص ١٦٨؛ ابن قرية. **عبد المؤمن**. ص ٤٢.

(٢) ذكر المراكشي أن الخليفة استولى على مدينة المهديّة ثم على قابس وطرابلس الغرب. المراكشي. **المعجب**. ص ١٦٩.

(٣) ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٤٢٨-٤٣١؛ النويري. **نهاية الأرب**. ج ٢٤. ص ١٧٠-١٧٣؛ مجهول. **الحلل الموشية**. ص ١٥٤؛

ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣١٧-٣١٨.

(٤) ذكر ابن الأثير في أكثر من موضع خوف الخليفة عبد المؤمن من الاشتباك مع أعدائه في الصحراء؛ خاصة عندما كان الأمير تاشفين بن علي يترصده فيها. ابن الأثير. **الكامل**. ج ٩. ص ٢٠٢.

ليبقى السؤال هنا: لماذا خرج الخليفة عبد المؤمن بن علي عن عقيدة المهدي محمد بن تومرت في بعض مواقفه السياسية؟ ولماذا لم يعلن الخروج نهائياً عن العقيدة إلا في عهد الخليفة يعقوب المنصور وادريس المأمون؟ هل كان لتوسع دولة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي

والأندلس أثرٌ في سياسة الموحدين وقبائلهم؟ متى بدأت دولة الموحدين بالانهيار السياسي والابتعاد عن العالم العربي الإسلامي؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من معرفة الأوضاع السياسية لدولة الموحدين بعد وفاة المهدي محمد ابن تومرت مؤسس نهجها السياسي، وتعامل الخلفاء من بعده مع نظمها وقوانينها التي جمعها في مؤلفاته، وظهرت مع محاكاته لواقع قبائل المغرب العربي الإسلامي، فالخليفة عبد المؤمن خرج عن معتقد المهدي عندما عفا عن المرابطين الذين أعلنوا طاعتهم وبيعتهم لخلافته دون أن يمتحن شدة ولائهم لعقيدة التوحيد، ليتسبب ذلك بخروج حركات تدعو إلى العودة للحكم المرابطي، مثل بني غانية المناصرين للخلافة العباسية في المشرق العربي الإسلامي والمناهضين للخلافة الموحدية، وذلك لأن عقيدة الدولة لم تعد مهمة كما كانت عليه حين انحصرت في السوس، فأصبحت تستعمل لأغراض اجتماعية أكثر منها سياسية بعد تأسيس الدولة، ولجمع الناس على تأييد الخلفاء ووضع الأسس والقوانين التي يسيرون عليها، ولم تستعمل للتقرب من بقية المسلمين المخالفين لخلافة الحكام الموحدين، يستنتج ذلك من الإجراءات السياسية التي اتبعها الخليفة عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه لتمكين دولتهم.

١ - الإجراءات الإدارية لفرض السيطرة السياسية على الموحدين:

ركّزت الإجراءات التي اتخذها الخليفة عبد المؤمن على دعوة التوحيد؛ لأنّه في البداية تسيطر المصلحة العامة على المصلحة الفردية، كما ذكر ابن خلدون عن طور البناء والتأسيس، فقال: "ولا ينفرد دونهم بشيء، لأنّ ذلك هو مقتضى العصبية"، لذلك يرتبط الزعيم بأهل عصبته في تقاسم المكاسب والريع ويشركهم في أمور الحكم، ثمّ يسودهم جو من التسامح وتكريم العلماء والأشراف، ليظهر الجديد الذي أدخلوه للدولة الجديدة على أساس ديني اقتضي تنفيذ الشرع، ليناقض الدولة الهرمة التي سادها الضعف، لكن ابن خلدون ربما قصد بنظريته للأطوار^(١) الدول التي تقوم على أساس ملكي في الحكم؛ لأنّه في بداية الدولة يكون الهدف الأول تحقيق مصلحة العامة بمختلف فئاتهم، وهرمها يكون نتيجة محاولة الحكام الحفاظ على ملكهم المحصور في عائلتهم فقط وتنافسهم للوصول إلى القيادة، وهذا ما حصل في دولتي المرابطين والموحدين، فالخليفة عبد المؤمن ابن علي ما إن وطد دولته حتّى أخذ بتنفيذ مشروعه الإداري للحفاظ على سلطته أسرته؛ بسبب خلافه مع الموحدين حول تسلّم السلطة، ليمنعه ذلك من إحكام قبضته عليهم، يلحظ ذلك من حادثة مقتل أخيه في السوس، ومن إرغامه على قتل الأمير المرابطي إسحق بن علي. لكن ما السبب في التحكم

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ٢١٣-٢١٥، ٢١٩-٢٢١.

بقرارات الخليفة؟ ولماذا عمل الموحدون على انتقاد خليفتهم الجديد؟

السبب لذلك هو ماهية ترسيم الخليفة عبد المؤمن، حيث إنّ مبايعته هدفت إلى منع التنافس بين قبائل الموحدين والحفاظ على وحدة صفهم، بذلك يُحْكَم سيطرته على القبائل دون انتهاك سيادة شيوخ الموحدين الذين سيطروا على قرار خليفتهم^(١)، لكنهم أخفقوا في هذه الغاية، وربما يعود سبب إلى معارضة بعض الشيوخ لهذا الإجراء، مثل: عبد الله بن يعلى الزناتي المعروف بابن ملوية من أهل العشرة وأخو المهدي محمد بن تومرت، فابن ملوية استغل غياب الخليفة عبد المؤمن عن تينمل؛ ليعلن تحالفه مع الأمير علي بن تاشفين طمعاً بالزعامة، وأخو المهدي اللذان ثارا في مراكش مستغلين غيابه أيضاً^(٢)؛ فضلاً عن ذلك فإنّ شيوخ الموحدين لم يقتنعوا بسلطة خليفتهم الذي بدأ عهده بمحاولة الانفراد بالسبايا والغنائم لنفسه، وإسناده المناصب لأقربائه^(٣)، وهذا الصراع بين الخليفة عبد المؤمن وأسياد الموحدين دفع الخليفة لاتخاذ سياسة اللين معهم في البداية، إلى حين وصول الإمداد إليه؛ لتقوية نفوذه بينهم والتخلص منهم واحداً تلو الآخر لفرض سيادته عليهم، ففي **المرحلة الأولى**: قسم المروس (المخازن) بالبنود وأجرى قرعة حول إحدى السبايا، وربما يدل هذا التصرف على طمع الخليفة بالغنائم إلى جانب السلطة، ويؤكد ذلك حادثة أبي بكر بن تيزمت مستشار الأمير علي بن يوسف عندما حاول منع الخليفة عبد المؤمن من قتله بإخباره أنّ لديه ذهب يخبئه^(٤)، وما أمر به الخليفة بعدم بيع نساء المرابطين، ليخالف هذا الأمر أخو المهدي محمد بن تومرت عيسى وعبد العزيز، وهذا يدلّ على أنّ سياسة اللين التي اتبعتها الخليفة قد تسبب في تقسيم دولته؛ لأنّ أقارب المهدي لم يخالفوا أوامرهم فقط؛ وإنّما حاولوا إكراه الناس لخلافته بفرضهم الضرائب في الأندلس^(٥)؛ لذلك كان هدفه الأول لترسيخ سلطته القضاء على الفساد ومعارضيه من أقارب المهدي، ليبدأ عمله هذا بإرساله رسالته التي أسماها **"الجامعة لأنواع من الأوامر"** سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م^(٦)، ثم إرسال صهر المهدي يصلاسن بن المعز مع صهره عبد الله بن وانودين لمواجهة القبائل العربية في شرق المغرب العربي الإسلامي، وربما كان ذلك محاولة من الخليفة للتخلص من يصلاسن؛ لأنّه تخلى عن عبد الله في المعركة، ليتسبب ذلك في مقتل صهر الخليفة، فردّ الخليفة على ذلك بسجن يصلاسن

(١) الصلاحي. **دولة الموحدين**. ص ٩٩-١٠٠.

(٢) البيهقي. **أخبار المهدي بن تومرت**. ص ٤٦؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣١٦.

(٣) ذكر حسين مؤنس أنّ الخليفة عبد المؤمن قسم القيادات والولايات على أبنائه وأبناء الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني. مؤنس.

معالم. ص ٢٣٦.

(٤) البيهقي. **أخبار المهدي بن تومرت**. ص ٥٥-٥٦، ٦٥-٦٦.

(٥) ابن عذاري. **البيان - قسم الموحدين**. ص ٣٠، ٣٨.

(٦) عزاوي. **رسائل موحديّة**. ج ١. ص ٦١-٧١؛ ج ٢. ص ١٤.

وقتلته^(١)، والدليل على ذلك أن الخليفة قتل قاتل صهره ولم يقتل أخيه الذي دعاه للحضور إليه بعد تنصيبه^(٢)، وذكر البيهقي المحاولة الثانية للقضاء على أسرة المهدي محمد بن تومرت، فقال أنه: "في عام ثمانية وأربعين، خالف علينا هرغة وأهل تينمل فقتلهم الخليفة رضي الله عنه، وهجر بني أمغار ودفعهم إلى فاس وأسكنهم فيها"^(٣)؛ حيث ذكر أن أخوي المهدي تركا مدينة فاس وتوجّها إلى مراكش؛ مستغلين انشغال الخليفة بتولية العهد لابنه في مدينة سلا، وحاولا الثورة على الخليفة، لكن والي مدينة مراكش تمكّن من ثورتهم وقتلهم سنة ٥٤٨ أو ٥٤٩ هـ/ ١١٥٣ أو ١١٥٤ م^(٤)، ليقتضي الخليفة على أشد منافسيه للسلطة خاصة أن أغلب أصحاب المهدي محمد بن تومرت، كانوا قد توفوا إما لمقتلهم في معركة البحيرة أو لكبر سنهم، ولم يبق منهم سوى أبي حفص عمر الهنتاني^(٥)، وهذا ما ساعده على التخلص من معارضيهِ داخل الحزب الموحيدي، فكانت المرحلة الثانية: التخلص من نظام الطبقات الذي أوجده المهدي محمد بن تومرت، هذا النظام الذي تدخل في قرارات الخليفة وحجم من دوره؛ لذلك قسمه إلى ثلاث طبقات، ليضمّ القبائل الموالية التي أدخلها الخليفة بعد توسع حركة الموحيدين، وليكون مجلس الشيوخ في الدولة، فألغى طبقة الجماعة ومجلس الخمسين والسبعين، وجعل الطبقة الأولى من الذين انضموا للدعوة حتّى معركة البحيرة، بذلك سيطر على الطبقة الأولى؛ لأن أغلب أفرادها قد توفوا، أمّا الطبقة الثانية كانت حتّى فتح مدينة وهران، فضمّ لهذه الطبقة القبائل الموالية له، أمّا الطبقة الثالثة كانت من فتح وهران حتّى وقت اتخاذ القرار^(٦)، لعلّ ذلك ضمن ضمّ القبائل العربية إلى الطبقات أيضاً، بذلك أصبح هذا المجلس هو الهيئة الاستشارية^(٧) الخاضعة لسلطان الخليفة دون التدخل بقراراته، ويتقسّمه للمجلس أقنع الموحيدين أنه لم يخرج عن نظام المهدي محمد بن تومرت، وحدّ من النزاعات بين القبائل كما فعل المهدي محمد بن تومرت، ولم يبق أمامه سوى شيوخ الموحيدين أصحابه الذين وقفوا إلى جانب المهدي، وربما هؤلاء لم يرضخوا لسلطته؛ لأنهم كانوا في مرتبته خلال حياة المهدي؛ لذلك اتبع معهم طريقة أخرى لا تهين مركزهم وهي تربية أولادهم وتدريبهم على طاعته وطريقة إدارة البلاد، ثمّ قال لهم: "إنّي أريد أن تكونوا عندي، أستعين بكم عمّا أنا بصددّه، ويكون أولادكم في الأعمال لأنهم علماء فقهاء، فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون،

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٦-٧٤.

(٢) ذكر البيهقي أن الموحيدين منذ هذه الحادثة قسموا المروس بالبندود. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٥.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٦.

(٤) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٨-٧٩؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحيدين. ص ٥٠-٥١.

(٥) الصلاحي. دولة الموحيدين. ص ١٢٤.

(٦) بروفنسال. مجموع رسائل موحديّة. ج ١٠. ص ٥٤.

(٧) عزوي. (٢٠٠١م). رسائل موحديّة. ج ٢. ص ٢٢٥-٢٢٨.

مسرورون، فولى أولادهم^(١)، بذلك يكون الخليفة عبد المؤمن بن علي الأمر الناهي في البلاد، وبقيّة أفراد التنظيم الموحي هم ليسوا إلا أعواناً له ومستشاريه.

لكن هذا الإجراء لم يُضعف عزيمتهم لاستعادة مكانتهم في عهد خلفائه الذين تدخلوا في توليتهم، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٢-١١٨٤م تم توليته بعد مساعي شقيقه أبي حفص عمر على إرضاء إخوته وشيوخ الموحدين، ولم يستعمل العنف تجاه منافسيه^(٢)، بعكس ابنه يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م الذي أقدم على قتل عمّه أبي ربيع سليمان وأخيه أبي حفص عمر الملقب بالرشيد^(٣) وأخيه الآخر أبي يحيى لإشاعته أنّ المنصور قد توفي داعياً لنفسه بخلافته^(٤)، لتعود السلطة من جديد إلى مجلس الشيوخ بعد وفاة الخليفة محمد الناصر ٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م، حيث أصبح اختيار الخليفة من مهامهم، فولّوا من أرادوا وخلعوا من كرهوا؛ مختارين لحكمهم مَنْ هم ضعفاء أو في سنّ الشيخوخة لسهولة التحكم بهم، لكنّ تأثير تنظيم الخليفة عبد المؤمن في هذا المجلس بقي إذ إنّهم لم يخرجوا عن أسرته، حيث اختاروا الخليفة يوسف المستنصر ٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م لصغر سنه^(٥) ثمّ بايعوا الخليفة عبد الواحد بن عبد المؤمن ٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م لكبر سنه، ثمّ الخليفة العادل ٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م بعد مقتل عبد الواحد^(٦)، وحاول الخليفة المأمون ٦٢٧-٦٣٠هـ/١٢٢٩-١٢٣٢م التخلص من سيطرتهم على الخلفاء عن طريق الاستجداد بالمسيحيين؛ لأنّهم بايعوا الخليفة يحيى بن الناصر ٦٢٤-٦٢٧هـ/١٢٢٦-١٢٢٩م، لكنّ سلطتهم لم تنحصر بهذا الإجراء؛ لأنّهم أيّدوا الخليفة السعيد علي أبي الحسن ٦٤٠-٦٤٦هـ/١٢٤٢-١٢٤٨م، ثمّ الخليفة أبي حفص عمر المرتضى ٦٤٦-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م بعد وفاة الخليفة السعيد^(٧)، لذلك كان أهم ما يميّز إدارة الموحدين للدولة أمرين:

أ- تحويل نظام الحكم، وأثره في تبدل السياسة العامة للدولة:

بدأت ميول دولة الموحدين تتحوّل منحى الوراثة (ولاية العهد) في الحكم منذ عهد الخليفة عبد

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٠٨.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ١٧٤؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٨٣.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٢٨؛ عنان، محمد عبد الله. (١٩٦٤م). دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين. ج ٥. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ص ١٦٧-١٦٨.

(٤) المراكشي. المعجب. ص ٢٠٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢١٨.

(٥) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٤٢.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦٩.

(٧) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٨٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٤٥-٣٥٠؛ موسى، عز الدين أحمد. (١٩٨٣م). دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي. دار الشروق. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٨-٨٩.

المؤمن بن علي باستقطابه للقبائل العربية إلى المغرب الأقصى وكسبه تأييد الموحدين لسلطانه؛ لذلك اتخذ الخليفة منحى سياسياً مخالفاً لتعاليم المهدي محمد بن تومرت ومطابقاً لسياسة باقي الدول العربية الإسلامية، بعد توليته لابنه محمد ولاية العهد بعده سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م^(١)؛ ليخرج بهذا الإجراء عن نظام الشورى الذي ساد في العصر الراشدي، ونادى به المهدي محمد بن تومرت، وربما تأثر الخليفة عبد المؤمن بالفكر الشيعي للإمامة التي حصرها بأكبر أبنائه، ويعود ذلك للقبائل العربية التي حرصته على ذلك، ظهر ذلك عندما أرسل إلى طلبة سبته وطنجة يخبرهم أنه اتخذ هذا القرار بمبادرة من شيوخ الموحدين والقبائل العربية، وذكر ابن الأثير عن ذلك "فأحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدي وغيرهم إليه ووصلهم، وأحسن إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن، ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك، يرجع الناس إليه بعدك، ففعلوا ذلك، فلم يجبه إكراهاً لعمر؛ لعلو منزلته بين الموحدين، وقال لهم إن الأمر لأبي حفص عمر"، ليدل ما ذكره ابن الأثير على أن الخليفة عبد المؤمن أعد لهذا التنصيب مسبقاً، ويؤكد ذلك ما ذكر عن خوف الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني من الخليفة ليقدم على خلع نفسه وإعلانه البيعة لمحمد بن عبد المؤمن^(٢)، وعن توطيد الخليفة للنظام الوراثي بعد القضاء على أسرة المهدي محمد بن تومرت سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، ليضع بذلك شروطاً لولاية العهد بحصرها بين أبنائه، وليعمل على إثبات أحقيته بالخلافة وتثبيت سلطانه؛ لذلك حاول عدم الخروج عن عقيدة المهدي محمد بن تومرت علناً؛ لأن ذلك يعطي الموحدين مسوغاً لخلعه، حيث قال المهدي محمد بن تومرت في هذا الأمر: "فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده"^(٣)، وربما هذا سبب خلعه لابنه محمد من البيعة سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م بعد ثبوته شرب الخمر ومبايعته ابنه يوسف بدلاً منه^(٤)، ليخالف بذلك أيضاً الفكر الشيعي الذي نادى بعدم وجوب انتقال الإمامة من الأخ لأخيه، لكن هناك رواية أخرى عن تولية العهد ذكرت أن شيوخ الموحدين هم من خلعوا محمد وبايعوا يوسف، ومن المرجح هذه الرواية التي تقول إن خلع الخليفة محمد كان من تدبير أخويه يوسف وعمر خوفاً على مستقبل الدولة من جبن أخيه محمد وطيشه ومرضه، ليتفق عمر بن عبد المؤمن مع شيوخ الموحدين على تولية شقيقه يوسف بعد خلافة محمد

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٤٩؛ قصاري وسوداني. عبد المؤمن. ص ٥٦؛ ذكر ابن الأثير أن البيعة كانت سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٠٧.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٠٧-٤٠٨؛ محمود، صادق شكري. (٢٠٠٩م). الفكر السياسي عند الموحدين في عصر عبد المؤمن ابن علي. مجلة القادسية للعلوم الإنسانية. مج ١٢. ع ٣. الكويت. ص ٢٤.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٤٧.

(٤) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٥٠؛ ١٥٤-١٥٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠٢.

للموحدين خمسة وأربعين يوماً^(١)، ويؤكد هذه الرواية ما ذكر عن امتناع الشيخ أبي حفص الهنتاني خمس سنين حتى بايع يوسف سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م قائلاً: " لا أبايعه حتى يظهر منه من الخصل الحميدة ما يستوجب به المبايعة"^(٢)، ليظهر من ذلك أن تولية يوسف كانت بدعم من شقيقه عمر، وامتناع أبي حفص عن البيعة يؤكد أنها لم تتم في عهد الخليفة عبد المؤمن الذي توفي في العام نفسه الذي ذكر فيه خلع ابنه محمد، وما يهم هنا أنه أصبح منصب الخلافة متوارثاً بعد تولية يوسف لابنه يعقوب، ولم يخالف شيوخ الموحدون هذه القاعدة في تولية الحكم، فأبو يعقوب الثاني يوسف بن محمد المستنصر لم يبايع أحداً من خاصته بعده، لكن عامة الناس أجمعت على تولية عبد الواحد أبي محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن^(٣)؛ لذلك لم يفكر الموحدون بتولية خليفة لهم خارج أسرة الخليفة عبد المؤمن^(٤)، ليلحظ من هذه السياسة أنها كانت بداية نهاية دولة الموحدون، حيث كثرت الانشقاقات والصراعات على منصب الخلافة خاصة بعد مرحلة الضعف التي حلت بالدولة في عهد خلفاء محمد الناصر.

ب- تولية الوظائف في الدولة:

اقتصرت تولية الوظائف في دولة الموحدون على تنظيم الموحدون دون غيرهم، لأن من يتولّى الوظائف هم الطلبة الذين أعدهم المهدي محمد بن تومرت وخلفاؤه من الموحدون طوال مدة حكمهم للمغرب والأندلس، لكن اختلف الخلفاء مع المهدي في حصر المراتب العليا من الوظائف بالأسرة الحاكمة، فعندما قسم الخليفة عبد المؤمن دولته إلى ولايات ولى عليها أبناءه وأصهاره وأقرباءه، يساعدهم أبناء شيوخ الموحدون في الحفاظ على إدارتها^(٥)، ولمنع معارضة سياسته الإدارية استعمل طريقة عجيبة لإقناع الموحدون بها، فبعد أن استخدم أبناء شيوخ الموحدون على البلاد قال لهم: "أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء، مع ما فيهم من العلم والسياسة...، فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا: نحب أن نستخدم على البلاد السادة أولادك، فقال لا أفعل، فلم يزالوا، حتى فعل لهم ذلك"، ليظهر من ذلك أن سياسته خفّضت نفوذ الموحدون وقوّت نفوذ أبنائه الذين ولّاهم البلاد سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م^(٦)، وتابع الخلفاء الموحدون سياسة الخليفة عبد المؤمن

(١) المراكشي. المعجب. ص ١٧٣.

(٢) ابن قنفذ. الفراسية. ص ١٠٢؛ ذكر ابن الأثير والنويري شرطاً بين أبي حفص عمر الهنتاني والخليفة عبد المؤمن على أن يتولى

أبو حفص عمر الخلافة بعد عبد المؤمن. ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٠٨؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٦٩.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ٢٤١.

(٤) مغنية. نظام الحكم. ص ٢١٥-٢١٧.

(٥) عنان. دولة الإسلام. ق ١. ص ٤٠٣.

(٦) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٠٨؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٦٩-١٧٠.

مبتعدين عن تعاليم المهدي في جعل السلطة متداولة ومتقاسمة بين قبائل الموحدين، ولم يهتم الخلفاء إلا بالطلبة الذين أعدوهم على عقيدة التوحيد للحفاظ على نفوذهم، وربما كان ذلك ليس اهتماماً بالعقيدة؛ لأنها بدأت تتدهور منذ عهد الخليفة المنصور.

لكن لهذه السياسة سلباتها فعندما ضعفت الدولة استبدت الولاة بولاياتهم، وانقسموا إلى ثلاثة أنواع: الأول: كان من السادة أبناء الخليفة عبد المؤمن الذين استقلوا بولاياتهم؛ ليتخذوها نواة للمطالبة بالحكم، والنوع الثاني: كان من الذين ينتمون لأسرة موحدية عريقة لها الفضل في الدعوة، تحاول نزع القيادة من أبناء الخليفة عبد المؤمن، أما النوع الثالث: كان من قبل أشخاص أقوياء لا يقوى عليهم الحكام^(١)، ليظهر من هذا الانقسام أن سببه محاولة الخلفاء تحجيم سلطة الشيوخ منذ عهد الخليفة عبد المؤمن، فعملوا على إغراق البلاد بالفتن والاضطرابات كإظهار اعتراضهم على سياسة الخلفاء، وربما سبب ذلك كان عدم اتباع الخليفة عبد المؤمن مذهباً دينياً معيناً عند استبداده بالسلطة، فذهب وراء العصبية القبلية دون تأييد ديني لها؛ لأن المهدي محمد بن تومرت وضع قواعداً وأسساً لم يلتزم بها الخليفة مثل تولية العرش، فسمح ذلك لكل طامع بتنفيذ مأربه خاصة في مرحلة ضعف الدولة، ووصل بهم الأمر إلى قتل الخليفة محمد الناصر مسموماً؛ لأنه تقطن لمكائدهم وحاول قتل وزرائه^(٢)، وسبقه الخليفة عبد المؤمن في قتل الوزراء، عندما قتل وزيره أبا جعفر بن عطية القضاعي^(٣) لظلمه الناس ووزير عبد السلام بن محمد الكومي الذي قتله سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م لاحتجابه الأموال واتهام ابن الخليفة أبي حفص بشرب الخمر^(٤)، كما عاقب الخليفة يوسف ولاته بسبب خيانتهم للدولة مثل محاسبته لمحمد بن سعيد مسؤول الأعمال المخزنية في إشبيلية^(٥)؛ لذلك كان دستور عبد المؤمن الجديد على الموحدين سبباً في التنافس بين أبنائه ووزرائهم من أبناء شيوخ الموحدين الذين لا يقبلون متسلطاً عليهم من غير قبيلتهم المصمودية، وربما كان هذا الأمر من بين أسباب قيام الخليفة المنصور بتولية ذوي الكفاية المناصب بدلاً من حصرها بأسرته فقط^(٦)، لكن هذا الأسلوب تسبب في

(١) موسى. دراسات. ص ٨٩-٩٠.

(٢) الصلابي. دولة الموحدين. ص ٢١٩.

(٣) أحمد بن أبي جعفر بن محمد، أصله من طرطوشة ومن ثم دانية كان كاتب لإسحق بن علي اللمتوني، توفي سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م. ابن الخطيب. الإحاطة. ج ١. ص ٥٢٩-٥٤٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٠-٣١١.

(٤) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٥٧؛ المراكشي. المعجب. ص ١٤٩؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٥٧، ٦٧-٦٨.

(٥) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٥٤.

(٦) الأوسي، محمد بن محمد. (٢٠١٢م). الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تح: إحسان عباس، ومحمد بن شريفة، وبشار عواد معروف. ج ١. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط ١. ص ٧٤٢-٧٤٣؛ الهوبي، محمد جمال محمود. (٢٠١٧م). أسباب النصر والتمكين للدولة الموحدية في عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٩٩-١١٨٤م). ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين. ص ٨١.

ضعف الدولة؛ لأنه لا يمكن تولية أكفيا طامحين تحت سيادة نظام حكم ملكي، يظهر ذلك من تسلط الوزراء والموظفين على الجهاز الإداري للدولة، فأصبحت مهمتهم التوجيه ووضع الأسس السياسية بعد أن كانت مقتصرة على التنفيذ والتبليغ، فالوزير أبو سعيد بن جامع استعلى على الخليفة محمد الناصر مع أشياخ الموحدين والأجناد الأندلسيين ليتسبب ذلك بهزيمته في معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م، واستعلى الوزير أبو زيد محمد بن الشيخ أبا حفص على الخليفة العادل، وفي عهد الرشيد أعطي الوزير أبو زكريا بن أبي الغمر صلاحيات واسعة، ووصل الأمر في عهد الخليفة المرتضى إلى تدخل الوزراء بالشؤون العسكرية للدولة^(١)، لذلك ربما لو أن الخلفاء الموحدين اكتفوا بتسيير الأمور الدينية، وفوضوا الأمور الإدارية إلى ذوي الكفايات، لكان عمر الدولة أطول، كما كانت عليه الخلافة العباسية في بغداد في ذلك الوقت، يظهر ذلك ممّا ذكر عن الخلفاء الموحدين وتعاملهم مع القيادات، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن لم يستمع لنصائح أحد من قواده في معاركه في الأندلس؛ ممّا تسبب بهزيمته في شنترين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م^(٢)، والخليفة يعقوب المنصور تدخل في الأمور القضائية والقانونية منذ بداية حكمه، وأصبح القاضي الأول الذي ترفع إليه الشكاوي^(٣)، وهذا ربما جعل الناس يسعون للتخلص من الموحدين، حيث قام بإطلاق سراح المسجونين^(٤)، ومثل هكذا إجراء متسرع يمنع الناس من تحصيل حقوقهم بالقانون، فقراره ربما تسبب بضياح حق الناس من المسجونين، وسمح للمجرمين بالعودة إلى أفعالهم دون تأديب ليتناقض ذلك مع ما ذكره أشباخ عن كسبه لمحبة الناس بهذا الإجراء؛ فضلاً عن ذلك رفع من أجور الفقهاء والقضاة^(٥)، هذه الفئة التي نقم عليها المهدي محمد بن تومرت، ووصفهم بأولياء الشياطين^(٦)، حتّى أنهم كانوا أحد أسباب سقوط دولة المرابطين، ويرفع أجورهم يكون الخليفة المنصور ربما قد أعادهم لأطماعهم السابقة؛ لأنّ عهده سادته العداء المذهبي والاضطهاد وظهور بني غانية المنادين بالعودة إلى الحكم المرابطي، بعكس جدّه الخليفة عبد المؤمن الذي راعى الأمور المذهبية لدولته في تولية المناصب، فأبقى قضاة الجماعة من المالكية لإرضاء العامة في إفريقية والأندلس، وأبقى قضاة الموحدين في الأماكن التي يكثر فيها، ثم بدأ بالتغيير بعد تحقيقه الأمن والاستقرار للدولة ليعين قاضي الجماعة من قبله وتحت سلطانه^(٧)، ليلحظ من ذلك أنّ تقرب

(١) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٣٨؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٣٩، ٣٤٨، ٣٥٠؛ موسى. دراسات. ص ٩١-٩٢.

(٢) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٤٨-١٥٢.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ٢٠٨.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢١٧.

(٥) أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٧٧.

(٦) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٨.

(٧) أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢٤٢؛ قال هوبكنز: إن أي تمييز ضد المالكية في منصب قاضي الجماعة لم يبق بعد عهد

الخلفاء الموحدين من الفقهاء كان أحد عوامل تخليهم عن عقيدة المهدي محمد بن تومرت وعن العامة من الناس؛ لأنّ تقريبهم اقتصر على الفقهاء والقضاة السائرين على منهج الموحدين الباحثين في عقيدتهم، أمّا المخالفون فقد عوملوا بالبطش والقسوة؛ ليدفعوهم إلى خارج البلاد خوفاً من الظلم^(١)، بذلك تخلّى الخلفاء عن أهم مبادئ دعوة المهدي محمد بن تومرت وابن العربي أستاذهما الغزالي للإصلاح كما ذكر في الفصل الأول، ص ٧٢-٧٣، والفصل الثاني، ص ٩٦، ١٠٠، ١١٩-١٢٢، ١٢٧.

٢ - سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية العلمية:

اهتمّ الخلفاء الموحدون بالتعليم لجمع الناس حول سلطتهم ونشر عقيدة التوحيد، وتطبيق عقيدة المهدي محمد بن تومرت وإتمامها حتّى عهد الخليفة المنصور الذي سخر التعليم لخدمة أهدافه السياسية؛ مبتعداً عن عقيدة الموحدين، فالخليفة عبد المؤمن بن علي تابع طريق المهدي محمد بن تومرت بنشره العلم بين الناس وفق تعاليم المهدي ومبادئه معاقباً من لا يتعلمها^(٢)، ومهتماً بتدريس تعاليم المهدي محمد بن تومرت؛ ليحافظ بذلك على طبقة الطلبة والحفاظ التي أنشأها المهدي محمد ابن تومرت، فاهتم بها وأضاف إليها فئة ثالثة هم طلبة الحضر الذين أتى بهم من أرجاء الدولة كافة، كما أنّه أغدق عليهم الأموال من خزانة الدولة وصرفهم عن الأمور العسكرية والمدنية^(٣)، وتابع الخلفاء العناية بالطلبة لاشتغالهم بالعلم والمعرفة^(٤)، فقال عنهم الخليفة المنصور: "وهؤلاء الطلبة - يعني طلبة الحضر - تجعلون لهم موضعاً يكون لخاصتهم يشغلون فيه بالذاكرة، حتى يشيب محمد، ويكمل عقله بعقولهم"، كما إنّ الخليفة المنصور عدّ نفسه المسؤول عنهم ولم يستخدمهم إلا في العلم والمذكرات حتى لا يلتهاوا بغيرها^(٥)، كما ظهر الاهتمام بهم عندما قال للموحدين: "يا معشر الموحدين أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر فأنا ملجأهم، وإلي فزعهم، وإلي ينتسبون، فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالف الموحدون في برهم وإكرامهم"^(٦)، لكن من الواضح مبالغة المراكشي في القول منذ أيام الخليفة

الخليفة عبد المؤمن. هوبكنز، ج. ف. ب. (١٩٧٧م). النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى. تر: أمين توفيق الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا. ص ٢٢٣.

(١) أحمد، علي. (١٩٨٩م). الاندلسيون والمغاربة في بلاد الشام. دار طلاس للنشر. دمشق: سورية. ط ١. ص ٨٨.

(٢) حسن. الحضارة. ص ٤٦١.

(٣) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) حسن. الحضارة. ص ٣٣٢-٣٣٦.

(٥) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٣١-٢٣٢؛ ابن المؤقت، محمد بن محمد. (٢٠١١م). السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب. ط ٣. ص ١٧٩-١٨٠.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ٢٠٤.

المنصور عظم أمر الطلبة لأنّ سياسته معهم هي استمرار لتعامل المهدي محمد بن تومرت وجده الخليفة عبد المؤمن، وهذه السياسة استقدمها الموحدون من المشرق العربي الإسلامي المتأثر بمدارس الهند^(١)، لكنّ الخليفة عبد المؤمن طوّر هذه الفئة في بلاد المغرب والأندلس وعين لهم مشرفاً عاماً يمثلهم في حضرته ويقدم شكاويهم إليه، سمّي شيخ الطلبة واستمرّ هذا المنصب في عهد الخلفاء الموحدين^(٢)، وسبب عناية الخلفاء بالطلبة كان لمحو آثار المرابطين، يلحظ ذلك من رفع الخليفة عبد المؤمن الحظر عن مجموعة من الكتب منع المرابطون قراءتها أو استنساخها، وتشجيعه لنشر كتب في المغرب والأندلس، كانت دولة المرابطين تعدّها كتباً مخالفةً للدين، وتأمّر بإحراقها أينما وجدت، كما أنّه عمل على الاستفادة من فئة الطلبة لمقارعة العلماء المعارضين لعقيدة التوحيد بالحجة والمنطق كما كان عليه الحال في عهد المهدي محمد بن تومرت، فأنتج علماء يمتازون بقوة الدليل والمنطق بكتابة الردود عليهم، وربما كانت مكانة ابن طفيل في حضرة الخلفاء الموحدين لهذه الغاية^(٣)، فاعتنوا بالفلسفة وتقربوا من محمد عبد الملك بن طفيل ت. ٥٨١هـ/١١٨٥م^(٤)، لكن ذلك لم يمنع الخلفاء من معاقبة الفلاسفة المخالفين فكراً للدولة، مثل معاقبة الخليفة المنصور للفيلسوف ابن رشد الحفيد بسبب اتهامه بالارتداد إلى الدين اليهودي، وتقربه من المسيحيين الذين ترجموا كتابه تهافت التهافت^(٥) وتفضيله للفلاسفة القدماء^(٦)، لذلك أمر الخليفة المنصور بسجنه مع مَنْ اشتغل معه في هذا المجال، مثل أبي عبد الله إبراهيم الأصولي ت. ٦١٢هـ/١٢١٥م، وأمر بحرق كتب الفلسفة والمنطق^(٧)، ولعلّ الخليفة المنصور أقدم على ذلك لإرضاء الرأي العام؛ لأنّه لم يقتل ابن رشد ولم يعده خائناً؛ وإنّما أطلق سراحه مع أصدقائه عندما عاد من إشبيلية إلى مراكش^(٨)، وهذا حال المذهب

(١) البسام. الوزير السلجوقي. ص ١٤٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٦٠؛ ابن سعيد. المغرب. ج ٢. ص ٣٢١؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٦٣؛ حتى أنهم نالوا دنيا عريضة من الثراء. التنبكتي، أحمد بابا. (٢٠٠٠م). نبيل الابتهاج بتطريز الديباج. دار الكاتب. طرابلس: ليبيا. ط ٢. ص ٢١١.

(٣) أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٥٤؛ صادق. الفكر السياسي. مج ١٢. ع ٣٠. ص ٣٠.

(٤) دقة، القدري، ولزهاري، عوادي. (٢٠١٨م). يعقوب المنصور إسهاماته العلمية وعلاقته بالعلماء (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م). ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة حمه لخضر - الوادي. الجزائر. ص ٤٣.

(٥) التهافت معناه التناقض أي تنافض الفلاسفة في أفكارهم وتعارضها وتساقطها، ألف الكتاب ابن رشد الحفيد للرد على الإمام الغزالي. ابن رشد الحفيد، محمد بن أحمد بن محمد. (د.ت). تهافت التهافت. تح: سليمان دنيا. ق ١. دار المعارف. القاهرة: مصر. ط ٣. ص ١٧.

(٦) القنوجي، محمد صديق حسن. (٢٠٠٧م). التاج المكلل من جواهر متأثر الطراز الآخر والأول. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ط ١. ص ٢٩٠-٢٩١.

(٧) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٥٢٣، ٥٣٢؛ الأوسي. الذيل والتكملة. ج ٤. ص ٢٦-٢٧.

(٨) المراكشي. المعجب. ص ٢٢٤-٢٢٥؛ الهوبي. أسباب النصر. ص ٦٤-٦٦.

المالكي أيضاً في عهده، ليظهر ما بداخل قلوب الموحدين تجاهه؛ إذ أعدّ الخلفاء الموحدون العلماء وبنوا المدارس والمساجد بغاية التصدي للفكر المالكي المغربي؛ خوفاً من إثارة الناس على حكمهم بسبب تهديد بني غانية لدولتهم من جهة الشرق^(١)، ليلحظ من ذلك أنّ الخليفة المنصور ناقض الفلاسفة لمنع المسيحيين من التدخل بشؤون دولته فكرياً، وعادى المذهب المالكي خوفاً من عودة بقايا المرابطين، ومنعهم من التدخل في شؤون الحكم.

لذلك ارتبط الأمن الداخلي لدولة الموحدين بإقامة المناظرات العلمية في مجالس الخلفاء، تشبهاً بمناظرة المهدي محمد بن تومرت لأهل المغرب العربي الإسلامي ولمعرفة مدى إخلاص الموحدين لفكر الدولة وسلطانها، حيث ذكر أنّ الخلفاء أشرفوا على هذه المجالس وشاركوا فيها، وجلبوا إليهم أنبغ العلماء والفقهاء، كما أقيمت مجالس سميت بمجالس الوعاظ بإشراف العلماء ومشاركة الأمراء، تعقد اجتماعاتها في المساجد والمدارس والربط والمقابر والأسواق؛ بهدف مناقشة الأمور العلمية والعقائدية والاطلاع على شكاوي الناس^(٢)، ليدلّ ذلك على أنّ الدولة اهتمت بتنقيف الناس، حتّى جعلت التعليم إلزامياً على الذكور والإناث منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي^(٣)، الذي تقيد بتعاليم المهدي محمد بن تومرت في فرض التعليم كما ذكر في الفصل الثاني، ص ٨٧، لكنّ أهم ما يميز عهود الخلفاء الموحدين عن عهد المهدي محمد بن تومرت في مجال التعليم إقرارهم باللغة العربية لغةً رسميةً للدولة، واهتمامهم بالشعر العربي^(٤)، ربما كان ذلك لتعظيم أمرهم، واستقطاب القبائل العربية إلى صفّهم في المغرب الأقصى.

٣- الجانب العسكري، وأثره في الفكر السياسي للموحدين:

ارتبطت سياسة الخلفاء الموحدين العسكرية بسياساتهم الإدارية؛ لأنّهم كثيراً ما كانوا يخضعون للأمر الواقع في تسيير شؤونهم، فالخليفة عبد المؤمن بن علي اعتمد في البداية على القبائل المصمودية في تأسيس الدولة، وعندما وصل إلى مناطق مكوث قبائله شمال المغرب العربي الإسلامي، اتبع سياسة مخالفة إلى قبائل المصامدة، لكنّها تتفق مع فكر المهدي محمد بن تومرت؛ إذ إنّهُ بعد إسقاطه للدولة الحمادية واستيلائه على مدينة بجاية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م تصدّت القبائل العربية لجيشه؛ ممّا حفزه على إرسال حملة بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاني^(٥) الذي استقرّ العربُ

(١) كنون. النووغ المغربي. ص ١٠٧.

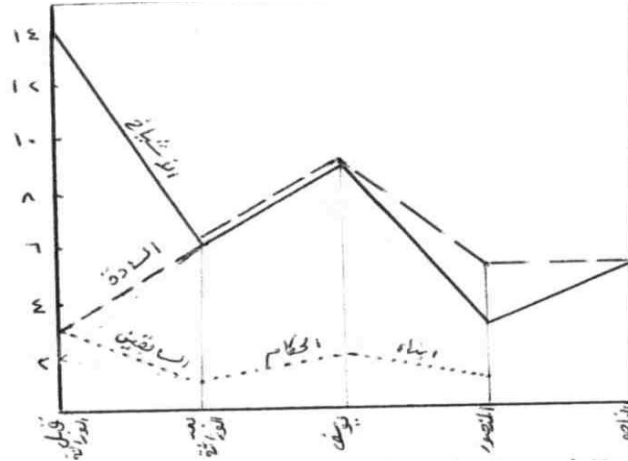
(٢) حسن. الحضارة. ص ٤١٤-٤١٨.

(٣) المنوني، محمد. (١٩٨٩م). حضارة الموحدين. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء: المغرب. ط ١. ص ٢١.

(٤) دقة، ولزهرى. يعقوب المنصور. ص ٤١-٤٢.

(٥) ذكر ابن خلدون أنّه كان القائد عبد الله بن عبد المؤمن. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣١٦.

بسببه نساءهم وأولادهم ثم دعوتهم من قبل الخليفة للانضمام إلى جيشه والنزول في مراكش^(١)، كما أرسل في طلب قبيلته كومية ليجعلهم حرسه الخاص^(٢)، وأدخل قبائل متعددة لجيشه من هزرجة وهسكورة ودكالة وغيرها^(٣)؛ بهدف إضعاف العصبية المصمودية وتقوية سلطته عليهم.



المصور رقم ٩، مراحل قيادة جيش الموحدين.

(موسى. تنظيمات الموحدين. ص ٢٧٨).

وتابع خلفاؤه من بعده هذه السياسة مستخدمين العبيد لحراستهم ثم الجنود المسيحيين والأندلسيين^(٤)، فأصبح جيش الموحدين يتكون من القبائل العربية والبربرية (الأمازيغية) والعبيد والأغزاز والمسيحيين^(٥)، لتتعدم العصبية التي قامت عليها الدولة، وينقم الجيش على الخلفاء بعد تفكك أوصاله، وقد ظهر ذلك في معركة العقاب التي انتهت بعدها تحكم الخلفاء على دولة الموحدين^(٦)، وربما سبب ذلك كان لاقتصار قيادة الجيش على الأسرة الحاكمة ومجلس الشيوخ الذي يستشار في الأمور الحربية^(٧).

ليلاحظ من ذلك ومما ذكر عن تأسيس الدولة أن سياسة الخلفاء الموحدين العسكرية ترتبط بالمجال الجغرافي لدولتهم، وبمحاولتهم إرضاء معارضيتهم بالسبل كافة دون التعرض لاستثارتهم بالسلطة، ففي البداية هاجم الخليفة عبد المؤمن المرابطين وقتلهم حتى استيلائه على مدينة مراكش،

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٣٩٠-٣٩١؛ ذكر النويري أسماء أخوي المهدي بين القواد، وربما هدف الخليفة من ذلك إنهاء بني أمغار؛ أما البيهقي فذكر أن المعركة كانت بقيادة الخليفة بعد أن قدم على كل قبيلة أشياخها. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت.

ص ٧٦؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٦٨.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠١-٢٠٢؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٧، ٦٩.

(٤) مغنية. نظام الحكم. ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٥) موسى، عز الدين عمر أحمد. (١٩٦٩م). تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب، رسالة منشورة للحصول على درجة أستاذ.

قسم التاريخ. كلية الآداب. الجامعة الأمريكية. بيروت: لبنان. ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٧) موسى. تنظيمات الموحدين. ص ٢٧٨.

ليتخذ بعدها سياسة مختلفة عن دعوة المهدي محمد بن تومرت لقتل المرابطين، ثم تابع خلفاؤه هذه السياسة مع المرابطين والصليبيين، ظهر ذلك في حوادث عدة، منها: عندما سلم القائد المرابطي ميمون بن بدر للمتوني مدينة غرناطة للموحدين أمر الخليفة عبد المؤمن بإرسال أسطول لنقل المرابطين إلى المغرب العربي الإسلامي حيث استقبلوا بترحيب وتقدير منه^(١)، وفي عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أعلن أبو القمر بن هلال بن محمد بن سعيد بن مردنيش مع أعيان شرق الأندلس طاعتهم وبيعتهم للخليفة يوسف فاستقبلهم بحفاوة^(٢) وصاهرهم وقدم لهم المناصب، فعين غانماً بن مردنيش على أسطول العدو، وأبا الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش على بلنسية، وجعل أبا القمر هلالاً مستشاره في مراكش^(٣)، وابن همشك أبقاه الخليفة في منطقته يخدم الموحدين حتى وفاته في مراكش سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م^(٤)، دون أن يأبه لتحالفهم مع الممالك المسيحية كما ذكر سابقاً، أما الخليفة المنصور فقد عفا عن أهل بجاية لمساندتهم الثوار ضده^(٥)، وعند محاصرته لمدينة طليطلة خرجت إليه والدته ألفونسو (الأدفونيش) وبناته فسامحهم وقدم لهم الأموال^(٦)، كما شهد عهده عداوة من قبل المسلمين والمسيحيين، ليعقد بسببها معاهدات صلح مع الممالك المسيحية في الأندلس ودبلوماسية مع المسلمين شرق دولته، لأن دولته أحاط بها من جهة الشرق حلف ثلاثي بين بني غانية وقراقوش^(٧) والقبائل العربية، مما يعني أن سياسة الخلفاء الموحدين أخفقت في ترويض القبائل العربية، وأن هذه القبائل لم تخضع لعقيدة الموحدين ودستورهم، لعل سبب ذلك خوفهم من الموحدين وعملهم مع أي طرف يقدم لهم الأموال، ورغم أن الخليفة المنصور تمكن من تفكيك الحلف الثلاثي باستخدام العيون (الجواسيس)، حيث تمكن من إخضاع بني غانية وقراقوش وعرب بني سليم، أما عرب بني جشم وهلال انسحبوا إلى صحراء برقة ليحتموا فيها^(٨)، لكن الصحراء بقيت مأوى للمتمردين في عهد المنصور أيضاً، ومصدر للاضطرابات في عهده لأن التحالف عاد من جديد سنة ٥٨٤-

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٥٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالامامة. ص ٣٨٠-٣٨٣.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ١٨٤؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٤٠-٢٤١.

(٤) ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٣٧.

(٥) المراكشي. المعجب. ص ١٩٩.

(٦) العيني، بدر الدين محمود. (٢٠٠٧م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي). تح: محمود رزق محمود. ج ٣. مطبعة دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة: مصر. ص ٤٢؛ المقري. نفع الطيب. ج ١. ص ٤٤٤.

(٧) شرف الدين قراقوش الأرميني، هو مملوك للملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن أخ صلاح الدين صاحب حماة؛ أحد أبرز القادة العسكريين الذين اعتمد عليهم صلاح الدين، له ألقاب عدة، منها: المظفر التقوي، الناصري والميورقي، وهو ليس بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين. ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٤٥٦؛ ج ٤. ص ٩١؛ توفيق، فواز نصرت. (٢٠١٥). حملة قراقوش على المغرب وأثرها في التوسع الأيوبي (٥٨٠-٥٨٦هـ/١١٨٥-١١٩١م)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية. مج ٧. ع ٢١. جامعة تكريت. العراق. ص ١٣٩-١٤٠.

(٨) حركات. المغرب. ج ١. ص ٢٧٤.

٥٨٥هـ/١١٨٨-١١٨٩م وبقي حتى تمكن الخليفة محمد الناصر من إنهائه واستقلال بني حفص في تونس^(١)، ومن ذلك يظهر أن سياسة الخليفة المنصور تختلف مع سياسة المهدي محمد بن تومرت تجاه من يساند معارضيه، فبني غانية لم يتوقفوا عن تقديم العون لقراقوش بسبب دافعهم السياسي والديني لذلك والقائم على الدعوة للخلافة العباسية والعودة إلى إحياء دولة المرابطين، يؤكد ذلك ما ذكر عن قول رسول بني غانية لقراقوش: "إننا قوم من بني العباس ونريد دولتهم، ونحن نريد أن نكون وإياك مجتمعين"^(٢)، وربما هذا سبب عدم تقديم الخليفة المنصور المساعدة للسلطان صلاح الدين الأيوبي ٥٦٧-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م في المشرق العربي الإسلامي، خاصة بعد عدم اعتراف الأمير شمس الدين عبد الرحمن بن منقذ ت. ٦٠٠هـ/١٢٠٣م بمعوث صلاح الدين بخلافة المنصور وتلقيه بأمر المسلمين بدلاً من أمير المؤمنين^(٣)، فهدف صلاح الدين القضاء على الخلافة الموحدية في المغرب العربي الإسلامي، وربما كان هدف صلاح الدين إقناع المنصور بالتخلي عن الخلافة وتوحيد صفوف المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي في المشرق والمغرب العربي الإسلامي، لكن أسلوب معوثه فرق بين المسلمين في المشرق والمغرب العربي الإسلامي، وما يهم هنا هو تعامل المنصور مع رسول صلاح الدين وإكرامه^(٤) رغم امتناعه عن الدعوة وإهانة المشرق العربي الإسلامي لسلطانه، وهذه سياسة مخالفة لعقيدة المهدي التي تدعو لقتل كل من يعترض مبادئها، وربما كانت الدعوة فقط لقتل المرابطين، لكن تحالف بني غانية من المرابطين مع المشرق العربي الإسلامي يدخل مسلمي المشرق ضمن نطاق دعوة المهدي لقتلهم، وهذا ما لم يفعله الخليفة المنصور، ليبقى السؤال

(١) ابتسام. العلاقات. ص ١٥٣-١٥٥.

(٢) شاهنشاه، محمد بن تقي الدين. (١٩٦٨م). مضمار الحقائق وسر الخلائق. تح: حسن حبشي. عالم الكتب. القاهرة: مصر. ص ٢٢٩.

(٣) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن. (١٩٩٢م). عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تح: أحمد البيسومي. ج ٢. منشورات وزارة الثقافة. دمشق: سورية. ص ٢٤٠؛ ابن خلكان. (د.ت). وفيات الأعيان. ج ٧. ص ١٢؛ الياقعي، عبد الله بن أسعد. (١٩٩٧م). مرآة الجنان وعبرة البقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. ج ٣. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٣٦٥؛ كلاس، فايزة. (٢٠٠٥م). العلاقات الأيوبية الموحدية أيام صلاح الدين. مجلة دراسات تاريخية. ٨٩٤-٩٠. جامعة دمشق. دمشق: سورية. ص ١١١؛ وبهذا اللقب يكون ابن منقذ قد اعترف بخلافة العباسيين لأنه لا يجوز خليفتان على المسلمين، وأعاد الدولة الموحدية إلى عصر المرابطين لأنه لقب خاص بالأمرء المرابطين، وهذه إهانة للخليفة المنصور ودعوة المهدي محمد بن تومرت ولجده عبد المؤمن الذي تلقب بأمر المؤمنين، لذلك ربما دعوة صلاح الدين كانت بمنزلة إعلانه الحرب على المغرب العربي الإسلامي، وتحريض الخلفاء الموحدين للتوجه إلى المشرق العربي الإسلامي والقضاء على الخلافة العباسية، يظهر ذلك مما ذكره المراكشي عن عزم الخليفة المنصور على الرحلة إلى المشرق لتطهيرها من البدع والمنكر، وبقي عازماً على ذلك حتى وفاته سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، وذلك يعني أن الخليفة المنصور لم يعترف بإيمان أهل المشرق العربي الإسلامي للعقيدة الصحيحة من الإسلام، لذلك ربما لم يساعدهم ضد أعدائهم الصليبيين. المراكشي. المعجب. ص ٢٠٧.

(٤) المقرئ. نفيح الطيب. ج ١. ص ٤٤٥؛ ربما كان سبب تكريم الخليفة المنصور لرسول صلاح الدين الهدايا التي حملها إليه الرسول عندما طلب مساعدته، ليقابلها الخليفة بهدايا من الثمن نفسه. أبو شامة. الروضتين. ج ٢. ص ٢٤٠؛ ابتسام. العلاقات. ص ١٦٢-١٦٣.

هنا: لماذا تخلى الخليفة المنصور عن أسلوب المهدي؟ وكيف تعامل مع الأخطار المحيطة بدولته؟

على الرغم من ما ذكره يوسف أشباخ نقلاً عن ابن خلدون عن عنف الخليفة المنصور في قمع الثورات في مدينة فاس والولايات الموحدية^(١)، إلا أن ذلك لا يتفق مع سياسته الخارجية، وربما كانت هذه السياسة إحدى أسباب نكرانه لعصمة المهدي، كمحاولة لإقناع الموحدين بأسلوبه السياسي ضد الدول والممالك الناقمة على ملكه؛ لأنه استقبل الأتراك عند توافدهم إلى المغرب العربي الإسلامي سنة ٥٨٢-٥٨٣هـ/١١٨٦-١١٨٧م، وأكرمهم بإعطائهم راتبهم كل شهر بعكس الموحدين الذين تقاضوا رواتبهم كل أربعة أشهر، وزاد من رواتب الجند النظامي لكسب ودهم، كما أنه استقبل شرف الدين قراقوش والقاضي عماد الدين من أجناد المصريين بالإكرام وتقديم الإقطاعات لهم^(٢)، وأقام علاقات ودية مع الممالك المسيحية في الأندلس، وربما كان سبب ذلك محاصرة دولته بالأعداء من كل جانب، فلم يستعمل العنف مع أعدائه إلا في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م التي دفعه المسيحيون إليها مرغماً؛ يستنتج ذلك مما ذكر عن علاقة المسيحيين بالخلفاء الموحدين، ففي عهد الخليفة يوسف تقرب المسيحيون من الموحدين وأدخلوهم في معاركهم الذاتية، مثل ملك ليون الذي وقّع معاهدة صلح مع الخليفة يوسف سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وطلب مساعدته للتخلص من معارضيهِ مقابل تخليه عن مدينة بطليموس للموحدين^(٣)، لكن بعد معركة شنترين اتبعت الممالك المسيحية في الأندلس أسلوباً استقرّ الموحدين في المغرب العربي الإسلامي ودفعهم لخوض حروب حقيقية معهم، فبعد توقف القتال بين الطرفين لمدة خمس سنوات قام ملك قشتالة بحملة عسكرية ضد الموحدين انتهت بتوقيع معاهدة صلح سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، هذه المعاهدة التي نقضها ملك قشتالة ألفونسو الثامن ٥٥٣-٦١١هـ/١١٥٨-١٢١٤م؛ بسبب استيلاء الخليفة المنصور على مدينة شلب؛ مما دفع ألفونسو لقيادة حملة وصل بها إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، ثم استقرّ الخليفة المنصور بطلبه التخلي عن بعض حصون الموحدين لمصلحته^(٤)، وإرساله كتاباً للخليفة يلحظ منه حثّ الخليفة على التلاقي مع القوات المسيحية بالسبل كافة؛ مستعملاً ألفاظاً دينيةً تحرج الخليفة المنصور أمام الموحدين^(٥)، ولعلّ السبب في ذلك محاولة مسيحيي الأندلس إضعاف المسلمين في المشرق والمغرب العربي الإسلامي بتعزيز الانشقاق بين الخلافتين العباسية والموحدية، وعلمهم أن معركة أخرى مثل معركة

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٢٧-٣٢٨؛ أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٧٨.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ٢١٠؛ أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٧٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة. المن بالامامة. ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٤) أبو رميلة. علاقات الموحدين. ص ٢٥٧-٢٥٩.

(٥) نص الكتاب على تواعد الملك ألفونسو للخليفة المنصور وتشكيكه بإيمان الموحدين، كما ذكر الملك ألفونسو في الكتاب ما يقوم به من أعمال سلب ونهب في الأندلس دون رادع وغيرها من الأمور التي تظهر حثّ الملك للخليفة على قيام معركة مصيرية بين الطرفين. ابن الأثير. الكامل. ج ١٠. ص ٢٣٦؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٢٠-٢٢١.

الزلافة وملاذكرد^(١) اللتين تسببتا بحملة صليبية إلى المشرق العربي الإسلامي ستؤدي إلى حملة مشابهة نحو الأندلس للقتال في صف ألفونسو الثامن، كما أنّ هذه المعركة ستنهي الخلاف الداخلي بين الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية وتجمعهم لقتال المسلمين، وليستنتج أيضاً أنّ ألفونسو الثامن لم يكن مهتماً لهزيمته أو انتصاره في معاركه مع الموحدين بقدر ما كان اهتمامه أن يلفت أنظار العالم المسيحي في أوروبا إلى الأندلس على أنّها لا تقل أهمية عن بيت المقدس، ويمكن القول هنا إنّ الخليفة المنصور ارتكب خطأ كبيراً بعدم تقديمه المساعدة لصالح الدين ولو على حساب سلطانه، لأنّ رده على ألفونسو الثامن في ظل الأخطار المحيطة بدولته يدلّ على ضعف تحليله للأمور العسكرية كأبيه الخليفة يوسف الذي أضاع تحرير مدينة وبذة لقلة خبرته العسكرية^(٢)، فلم يحلل الخليفة المنصور هدف كتاب الملك القشتالي؛ إنّما مرّقه وكتب على ظهر قطعة منه الآية "لنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون"^(٣)، فبدأ من ذلك أنّ الخليفة المنصور سيطر عليه الغضب من غطسة الملك ألفونسو الثامن، ودفعته غيخته على الدين الإسلامي إلى الجهاد في الأندلس، ولا يستبعد أن يكون الخليفة المنصور أراد من ذلك تحقيق نصر ضد المسيحيين مشابه لنصر صلاح الدين في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م والاستيلاء على مدينة القدس^(٤) فرفع بنصره مكانة الخلافة العباسية في قلوب المسلمين؛ لذلك جمع الخليفة المنصور الناس حوله للجهاد عابراً الجزيرة الخضراء سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م إلى الأندلس، حيث حقّق نصره الساحق على الجيوش المسيحية في معركة الأرك، ويبدو أن ألفونسو الثامن أراد أن يحوّل هذا النصر لمصلحته؛ لأنّ ملوك إسبانيا استنفروا بسبب الهزيمة، واستصرخ بابا روما داعياً لحملة إلى الأندلس التي توجّه إليها جيوش من فرنسا وهولندا وألمانيا^(٥)، ولم يحقق نصر المنصور في معركة الأرك غايته؛ لأنّ الانشقاق بين الخلافتين الإسلاميتين بقي قائماً، وأنّ هك جيش المنصور بسبب حروبه في إفريقيا والأندلس، وربما كان ذلك أحد أسباب هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة

(١) معركة ملاذكرد: معركة بين الروم البيزنطيين والسلاجقة في عهد السلطان ألب أرسلان في منطقة ملاذكرد بالأناضول، كانت المعركة في عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، انتهت بهزيمة الروم. حسن، صالح رمضان. (٢٠١١م). فتوحات الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥ / ١٠٦٣-١٠٧٢م). مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية. مج ١١. ع ٢٤. العراق. ص ٣٨٥-٣٩٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ٤١٠؛ أبو رميلة. علاقات الموحدين. ص ٢٤٧.

(٣) سورة النمل. الآية ٣٧؛ ابن الأثير. الكامل. ج ١٠. ص ٢٣٧؛ اليافعي. مرآة الجنان. ج ٣. ص ٣٦٣.

(٤) الأصفهاني، محمد بن محمد. (٢٠٠٤م). حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس المسمى الفتح القسي في الفتح القسي. دار

المنار. د.م. ص ٧٣؛ ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٦. ص ٥٨٥-٥٨٦.

(٥) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٧٢-١٧٥.

٦٠٩هـ/١٢١٢م^(١)؛ لأنَّ الخليفة المنصور لم يُقدِّم على استرداد مدينة طليطلة بعد حصارها، واختار سياسة تفريق الممالك المسيحية بدلاً من قتالهم بعقده الأحلاف معهم، مثل حلفه مع ملك نافارا وليون وعقده لهندنة مع القشتاليين سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م أو ٥٩٣هـ/١١٩٦م^(٢)، ليدلَّ ذلك على أنَّ جيش الموحدين قد أَرهق من المعارك التي خاضها، خاصة أنَّ الخليفة المنصور توجَّه عائداً إلى مراكش بسبب ثورة قامت ضده في إفريقية^(٣).



المصور رقم ١٠، مواقع حروب الموحدين والممالك المسيحية في الأندلس.
(عنان. دولة الإسلام. ج ٥. ص ٤٩).

وفي عهد الخليفة محمد الناصر انتهت قوة الجيش العسكرية مع قيادته لحملات عدّة ضد أعداء الدولة كأبيه المنصور، حيث قام بحملة على بني غانية في جزر البليار التي سيطر عليها سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، واستولى على تونس والمهدية منهم سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م^(٤)، ليفرَّ يحيى بن غانية إلى الصحراء، ويتمكّن الخليفة محمد من المغرب العربي الإسلامي بتعيين الشيخ عبد الواحد أبي حفص الهنتاني على إفريقية (جد الحفصيين) الذي كان وصياً عليه، وبذلك يكون قد أبعدته عن التحكم بشؤون دولته^(٥)، لكن سوء الإدارة العسكرية للخليفة محمد ظهرت في الأندلس عند قتله للقائد يوسف

(١) المراكشي. المعجب. ص ٢٣٦؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٢٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٣٠؛ أبو رميلة. علاقات الموحدين. ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٨٢.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٤٢، ٢٤٤؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٥) كانت وصية الخليفة المنصور أن يكون عبد الواحد من ضمن من يستشير ابنه محمد في قراراته، لكن الخليفة الناصر تخلص من معاونيه الذين كانوا مستشاري والده؛ بهدف الافراد بحكمه للدولة والتخلص من المتحكمين في قراراته، فتخلص من عبد الواحد ابن حفص بتعيينه والياً على إفريقية وإرسال وزير والده أبي زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاني لمحاربة بني غانية، ثم أقامه والياً على تلمسان، ربما فعل ذلك لأبعدهم عن البلاط. المراكشي. المعجب. ص ٢٣٠؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين.

بن قادس الذي أنقذ أرواح المسلمين من محاصرة المسيحيين الإسبان لقلعة رباح؛ بتحريض من وزيره الناصر أبي سعيد بن جامع^(١)؛ ليتسبب ذلك في تقاعس جنوده عن القتال في معركة العقاب التي هزم فيها الموحدين^(٢)، وكان من أهم نتائج هزيمته في المعركة ظهور عصر طوائف ثالث في الأندلس بسبب خروجها عن سيطرة الموحدين، وقال المقري في هذه الحادثة: " كانت سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو عليها"^(٣)، ليظهر ممّا ذكره المقري أن جيش الموحدين تفهقر ولم يعد قادراً على القتال أو إمداده بالمقاتلين من أبناء القبائل؛ لأن الخلفاء اعتمدوا على المرتزقة أكثر من الموحدين ضمن جيوشهم، فالخليفة إدريس المأمون استقدم المسيحيين إلى جيشه طالباً العون من ملك قشتالة؛ ليمده بالفرسان مقابل بناء كنيسة بمدينة مراكش، وتنازله عن عشرة حصون يختارها ملك قشتالة^(٤)، وحرص الخليفة الرشيد ٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م على الاحتفاظ بهم ثم الخليفة السعيد وزاد عددهم الخليفة المرتضى حتى صاروا يقاثلون مع من يدفع لهم أكثر، فعندما عجز الخليفة المرتضى عن تحقيق مطالبهم تحالفوا مع الخليفة أبي دبوس الواصل بالله ٦٦٥-٦٦٨هـ/ ١٢٦٦-١٢٦٩م^(٥)، والعرب أيضاً حالهم حال الجنود المسيحيين، فبعد أن استقدمهم الخليفة عبد المؤمن للقتال إلى صفّه، عاقبهم حفيده المنصور لتعاونهم مع بني غانية، وفي مرحلة ضعف الدولة لم يتردد العرب عن بيعه القائد الذي يدفع لهم المال، وأصبح همّ الجنود الموحدين جمع الغنائم وليس نشر الدعوة؛ متخذين سياسة الاستيلاء، وفرض نفوذ شخص على حساب شخص آخر^(٦).

لنلاحظ من ذلك أنّ الخلفاء الموحدين أخطأوا بنقلهم القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، لأنهم لم يستطيعوا السيطرة عليهم بسبب تحالفهم مع بني غانية^(٧)، كما أنّهم أخطأوا عند استعانتهم

ص ٢٣١، ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٣.

(١) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ٢٣٧-٢٣٨؛ بنو جامع أسرة خدمت الموحدين منذ عهد المهدي بن تومرت حتى عهد الخليفة العادل، احتلت مناصب إدارية ووزارية، أصلها من مدينة طليطلة، وأصبح جدهم إبراهيم بن جامع أحد أصحاب المهدي محمد بن تومرت بعد مغادرته إلى المغرب العربي الإسلامي، واستوزر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إدريس بن إبراهيم، وعبد الله بن إبراهيم تولى سبّعة، وفي عهد الخليفة محمد الناصر تولى بن عبد الله أبي سعيد عثمان الوزارة سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م، ليتسع سلطانه في عهد الخليفة المستنصر. ابن الأبار. **الحلة**. ج ٢. ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) كرعى، أحمد، ويورويس، وليد. (٢٠١٦م). **معركة العقاب دراسة في أسباب الهزيمة والتداعيات (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)**. ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة يحي فارس. المدينة: الجزائر. ص ٣٥-٣٦، ٥٦.

(٣) المقري. **نفع الطبيب**. ج ١. ص ٤٤٦؛ الصلابي. **دولة الموحدين**. ص ٢١٨.

(٤) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ٢٤٦؛ موسى. **دراسات**. ص ٨٤.

(٥) ابن عذاري. **البيان - قسم الموحدين**. ص ٤٣٦؛ موسى. **دراسات**. ص ٩٦.

(٦) موسى. **دراسات**. ص ٩٥-٩٦.

(٧) ذكر ابن خلدون أن الخليفة المنصور نفى القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، وأنزل بني جشم بتامسنا ورياح ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا، وذكر حسن الوزان أنّ الخليفة أسكن أشرفهم بدكالة وأزغار وأنداهم بنوميديا، واستعبد العرب

بالقوات المسيحية من الروم الذين شكلوا تهديداً للمغرب العربي الإسلامي وليس للأندلس فقط، لكن السؤال: لماذا تهاون الخليفة يعقوب المنصور وخلفاؤه من الموحدين مع المسيحيين واستخدموهم في جيوشهم، كما فعل الأمير علي بن تاشفين قبلهم؟

يبدو أنَّ رابطة الدم أقوى من رابطة العصبية والدين، وهذا سبب تهاون الحكام المسلمين الذين ربطتهم علاقة قرابة مع المسيحيين من جهة أمهاتهم، فالأمير علي بن تاشفين كانت أمه رومية كما ذكر في الفصل الأول، ص ٤٨، والخليفة يعقوب المنصور أمه رومية اسمها أم ولد سحر^(١)، وأم الخليفة المستنصر رومية اسمها قمر^(٢)، والخليفة عبد الله العادل أمه كانت من سبي شنترين اسمها سر الحسن^(٣)، وكذلك زوجة الخليفة المأمون وأم ابنه الخليفة الرشيد كانت من الجواري المسيحيات تسمى حبابة^(٤)، وأصبح لها دورٌ سياسي في الدولة، هذه القرابة بين الخلفاء الموحدين والمسيحيين دفعت الخلفاء إلى التهاون مع المسيحيين ومعتقدهم، على عكس ما كانت عليه الدعوة في عهد المهدي محمد بن تومرت والخليفة عبد المؤمن اللذين قتلا كل من لا يظهر الإسلام ويعلن التوحيد^(٥)، والبادئ باستقطاب المسيحيين إلى جيشه كان الخليفة المنصور الذي استخدمهم كحرس خاص ورماة وأسكنهم قصراً من القصور التي يملكها، وبنى لهم أول كنيسة في المغرب العربي الإسلامي في عصر الموحدين^(٦)، كما سادت العلاقات الودية بين الخليفة المنصور والبابوية حيث رَحَّب الخليفة ببعثتها لافتداء الأسرى وسهل مهمتها حتَّى تمكَّنت من شراء الأسرى في تونس وغيرها من مدن الموحدين، وتزايد عدد المسيحيين في عهد الخليفة المستنصر الذي جعل قيادتهم تحت إشراف أمراء من قشتالة والبرتغال، وتضاعف عددهم أكثر في عهد الخليفة المأمون الذي سمح لهم ببناء مدارس خاصة إلى جانب كنيستهم^(٧)، واستعان بهم الخليفة الرشيد في حربه^(٨) مع عرب الخلط^(٩)، لكن

في عهده ولم يحاولوا الوصول إلى الصحراء لسيطرة القبائل البربرية (الأمازيغ) على مسالك جبال الأطلس. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧؛ ليون الإفريقي. وصف إفريقيا. ج ١. ص ٤٧.

(١) المراكشي. المعجب. ص ١٩٢؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢١٦.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ٢٣٧.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٤٥.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٩٩.

(٥) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٧٦؛ ذكرت المصادر ما يدل على عدم التزام الخليفة عبد المؤمن بتعاليم المهدي في قضية المسيحيين، وذلك لأنَّه ذكر عن ضمِّ جيش الخليفة كتيبة من الجنود المسيحيين بعد فتح مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣١؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٣٨، ١٤٦.

(٦) كريخال، مارمول. (١٩٨٤م). إفريقيا. تر: محمد حجي، ومحمد زنيير، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق، وأحمد بنجلون. ج ٢. دار نشر المعرفة. الرباط: المغرب. ص ٥٠.

(٧) بوتشيش، إبراهيم القادري. (١٩٩٤م). تاريخ الغرب الإسلامي قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة. دار الطليعة للقرأة والنشر. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٩٠ - ٩٧.

(٨) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٣٢.

نفوذهم أصبح واضحاً في عهد الخليفة السعيد والمرتضى اللذين سادت علاقات مودة بينهما وبين بابا روما أنوسنت أو أنوسان الرابع ٦٣٢-٦٥٢هـ/١٢٣٤-١٢٥٤م^(٢).

أما الأسطول الموحدى فقد اعتنى به الخلفاء وألوه عنايةً كبيرةً بإنشائهم دوراً لصناعة السفن منذ عهد الخليفة عبد المؤمن، وزادت أهميته في عهد الخليفة المنصور الذي وسع دار صناعة السفن في سبتة^(٣) وأصبح لأسطوله أهميةً كبيرةً، أراد صلاح الدين أن يستتجد بها لقتال الصليبيين، وأنشأ الموحدون مدارسَ حربيةً لتخريج القادة البحريين، وبركة صغيرة في مدينة مراكش لتدريب المقاتلين على فنون القتال البحري^(٤)، لكن الأسطول الموحدى بدأ في الانهيار منذ سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، حتى قُيد نهائياً في عهد الخليفة السعيد الذي طلب من ملك صقلية إمداده بالقطع البحرية سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م لاسترداد إفريقية من الحفصيين^(٥).

ولم يهتم الخلفاء بالجيش والأسطول فقط؛ وإنما كذلك بالاقتداء بالمهدي محمد بن تومرت وتعاليمه في المراسيم والشعارات التي ترافق الاحتفالات العسكرية لدولتهم؛ كونها إحدى أهم معالم قوة عقيدتهم ودولتهم، فحافظوا على اللون الأبيض الذي استعمله المهدي محمد بن تومرت، وجعله الخليفة عبد المؤمن شعاراً لدولته، واستعملوا اللون الأحمر للقبّة التي يقيمها الخليفة في أثناء اشتراكه بالحرب، واللون الأخضر لإعلان الجهاد على المسيحيين، ربما استعملوا اللون الأحمر لتذكير المرابطين بشهادتهم والأخضر اقتداءً براية العصر الراشدي، حتّى إن إشارة الخليفة لبدء الحرب كانت بحمله بإحدى يديه سيفاً وباليده الأخرى المصحف^(٦)، ربما كان يقصد من ذلك الدلالة على ملكه وقوته وتعلقه بالعقيدة الإسلامية.

لكن أهم ما يميز عهد الخليفة عبد المؤمن موكبه الذي كان يسير بحسب تعليمات المهدي محمد بن تومرت؛ إذ تألف الموكب من الأشياخ والقادة حاملين أمامهم مصحف عثمان الذي غنموه

(١) عرب الخلط: تسمية عرف بها بنو عوف، وبنو معاوية من بني المنتفق بن عامر بن عقيل، وسبب تسميتهم بالخلط لاختلاطهم مع أقوام أخرى ليسوا من نسبهم، هاجروا مع قبائل بني سليم وهلال من شبه الجزيرة العربية إلى المغرب العربي الإسلامي، ثم هاجروا مع بني جشم إلى المغرب الأقصى حيث عرفوا فيه باسم عرب الخلط. جعفر، مروءة مكي. (٢٠١٤م). أثر عرب الخلط في الحياة السياسية لبلاد المغرب في عهد الدولتين الموحدية وبنو مرين (٥٢٤-٨٦٩هـ/ ١١٣٠-١٢٤٤م)، مجلة الباحث، ع ١١، جامعة كريلاء. العراق. ص ٤.

(٢) بونتشيش. تاريخ الغرب الإسلامي. ص ٩٩؛ حمادة، محمد ماهر. (١٩٨٦م). الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٤٣٥.

(٣) موسى. دراسات. ص ٥٣.

(٤) زغروت، فتحي. (٢٠٠٥م). الجيش الإسلامي وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

مصر. ط ١. ص ٢٩١-٢٩٢؛ أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢٤٨.

(٥) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٨٤؛ موسى. دراسات. ص ٩٧.

(٦) أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢٤٠-٢٤١، ٢٤٥.

من قرطبة، بعد أن وضعوه في تابوت بديع الصنع^(١) وعلى جانبيه الأعلام، يتبع الموكب الخليفة وولده وكاتب سره، وعلى مسافة قصيرة يتبعهم الأمراء وبقية أبناء الخليفة ثم القبائل بحسب ترتيبها وعدد من قارعي الطبول، ثم يتبعهم الولاة والقضاة والوزراء وغيرهم من الموحدين^(٢).

٤ - السياسة الاقتصادية للخلفاء الموحدين:

اهتمّ الموحدون بموارد الدولة وفقاً لما ينصّ عليه الشرع منذ عهد المهدي محمد بن تومرت، لتوفير متطلبات جهادهم ضد المرابطين، كما ذكر في الفصل الثاني، ص ٩٤، وحافظ الخليفة عبد المؤمن في بداية عهده على مصدر الدخل وفقاً لتعاليم المهدي محمد بن تومرت؛ إذ التزم بتعاليم الشرع معتمداً على الزكاة وأخماس المعادن وغنائم الحرب، ولم يفرض الجزية لعدم اعترافه بأهل الذمة داخل دولته^(٣)، لكنّه أحدث تغييراً على جبايته للأموال مع توسع نطاق دولته وسيطرته على الطرق التجارية الرئيسية؛ بهدف تأمين دخل ثابت يغني خزينة الدولة التي خاضت حروباً واسعة؛ لذلك قام الخليفة بمسح أراضي المغرب العربي الإسلامي، وفرض عليها الخراج بعد أن أسقط الثلث منها؛ ليحصل من كلّ قبيلة على الضرائب والجنود، فكان أول حاكم يمسح أراضي المغرب العربي الإسلامي^(٤)، وربما كان دخل دولة الموحدين أكبر من دخل دولة المرابطين؛ لأنّ دولة الموحدين أوسع من دولة المرابطين، والطريقة التي اتبعتها الخليفة عبد المؤمن في جباية الأموال ومسح الأراضي، لم يتبعها المرابطون، رغم أنّه ابتعد عن الضرائب الجائرة على الناس، كما أنّه سكّ عملةً جديدةً تختلف عن عملة المرابطين عرفت بالعملة المؤمنية، وذلك لتوحيد النقد داخل دولته بعد إلغاء العملة المرابطية والحمادية والزيرية، ولعلّ هذا الإجراء جزءاً من دعوة المهدي محمد بن تومرت للإصلاح، لأنّ عملته كانت مقسمة إلى دينار ذهبي ودرهم فضي، فالدرهم كان مربع الشكل والدينار مستدير يحتوي على شكل مربع داخل الدائرة، ونُقش عليهما اعترافه بالإمام المهدي ولقبه كأمرير للمؤمنين^(٥)، وبقيت عملته

(١) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١٢٨.

(٢) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٥٢-١٥٣؛ صادق. الفكر السياسي. مج ١٢. ص ٢٨؛ لم يكن الموحدون أول من عرف هذه المواكب؛ إذ إن النبي موسى بنى تابوت الرب ليكون علامة عهد بين الله والإنسان في المعتقد اليهودي، ويرمز التابوت إلى الشهادة التي أعطاها الله للنبي موسى عند إخراج اليهود من مصر، وإلى قيامة السيد المسيح بما أنّه رمزٌ للخلاص لدى المسيحيين واليهود كون النبي داود أشار إلى ثقب يدي الرب ورجليه، ولا يحق حمل هذا التابوت إلا لبني لاوي من اليهود لأن من يلمسه من = غيرهم يموت. سفر الخروج. الأصحاح ٢٥. ٨-١٠، ١٦؛ سفر الملوك. الأصحاح ٨. ٢١؛ سفر أخبار الأيام الثاني. الأصحاح ٦. ١١؛ سفر القضاة. الأصحاح ٢٠. ٢٧؛ سفر الملوك الأول. الأصحاح ٨. ٢١؛ سفر أخبار الأيام الثاني. الأصحاح ٦. ٤١؛ الأصحاح ٣٥. ٣؛ سفر المزامير. مزمو ٢٢. ١٦؛ مزمو ١٣٢. ٨؛ وقد ذكر التابوت في القرآن الكريم باسم التابوت الذي فيه سكينه من الرب. سورة البقرة. الآية ٢٤٨؛ حتى أن السلاوي شبهه بتابوت بني إسرائيل. السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١٢٩.

(٣) عزاري. رسائل موحدية. ج ١. ص ٦٤؛ موسى. تنظيمات الموحدين. ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٩٨-١٩٩.

(٥) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ٥٤؛ صادق. الفكر السياسي. مج ١٢. ص ٢٨؛ قصاري، وسوداني. عيد المؤمنين.

حتى سك الخليفة المنصور الدينار اليعقوبي^(١) بعد أن زاد من وزنه^(٢)، ليدلّ ذلك على الازدهار الاقتصادي لدولة الموحدين في عهده.

كما نظم الخليفة عبد المؤمن دولته اقتصادياً بإنشائه للدواوين المالية مثل ديوان الغنائم ونفقات الجند والضرائب والجباية ومراقبة الدخل والخراج، وزاد ديوان التمييز المخصص للمتطوعين في الجيش^(٣)، وعمل على فرض الأمن والاستقرار داخل دولته^(٤)، لهدفين: الأول: تأمين الطرق التجارية التي كان أهمّها: الطريق الجنوبي المار بسجلماسة ودرعة متجهاً إلى أودغست ثمّ منحى النيجر، والطريق المار عبر الساحل إلى مصر، وكذلك المار من أودغست وغانة وسجلماسة متجاوزاً الصحراء حتى الواحات الداخلية لمصر^(٥)، والثاني: تشجيع التجار على التعامل مع دولته، حيث ذكر أنّه كان يعوّض التجار عن خسائرهم في حال حدوث كوارث طبيعية، وأنّه أسقط ضريبة القبالة^(٦) عن الجسور والمراسي^(٧)، هذه الضريبة (ضريبة العبور) التي تعرّض لها المهدي محمد بن تومرت عند عبوره لنهر أمّ الربيع كما ذكر في الفصل الثاني، ص ١٢٤، كما عقد الخليفة عبد المؤمن معاهدة تجارية مع تجار دول أوروبا لحماية حقوقهم التجارية في إفريقيا^(٨)، ليلحظ من ذلك أنّ الخليفة عبد المؤمن خالف تعاليم المهدي في التعامل مع الخارجين عن عقيدة التوحيد، وذلك بغية إنعاش اقتصاد دولته وتأمين احتياجاتها من الموارد الضرورية لاستكمال أعماله الحربية وتنظيم الشؤون الداخلية، كما اهتمّ الخليفة المنصور بالتجار المسيحيين وشجعهم دائماً على التعامل مع الموحدين، وأقام الخلفاء

ص ٦٠-٦٣.

(١) ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ج ٧. ص ١٢؛ الهوبي. **أسباب النصير**. ص ٩٨.

(٢) الحكيم، علي بن يوسف. (١٩٥٨م). الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة. تح: حسين مؤنس. **معهد الدراسات الإسلامية**. مج ٦. ع ١-٢. مدريد: إسبانيا. ص ٤٩؛ السويسي، عبد الله. (١٩٧٩م). **تاريخ رباط الفتح**. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط: المغرب. ص ١٦.

(٣) حسن. **الحضارة**. ص ١٨٥-١٨٦.

(٤) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ١٨٧-٢٠٣.

(٥) على الرغم من ذلك، فإنّ الطرق الصحراوية كانت مليئةً بقطاع الطرق واللصوص. حسن. **الحضارة**. ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٦) فرضت هذه الضرائب في عهد الأمير علي بن يوسف على كل شيء يباع، وخضعت لها الفنادق والحمامات، أي قصدت المسافرين، حتى أن الموحدين فرضوا هذه الضرائب على المسافرين، خاصة الذين يريدون العودة إلى أوطانهم، بزعمهم أن المخزن له حق من ما يحملة المسافر، كما أنهم حجروا المراسي ومنعوا التصرف فيها بقصد استخلاص الرسوم من المكاتب الجمركية في الموانئ. العتيري، نضال خليفة أحمد، وحيدة، عبد النبي علي عبد الحفيظ. (٢٠٢٠م). النظام المالي في عهد الدولة الموحدية (٥٤٣هـ-١١٤٨م/٦٦٨هـ-١٢٦٩م). **مجلة كلية الآداب**. ع ٢٩٤. د.م. ص ٤٧١؛ جاسم، نبراس فوزي، ورجه، آلاء حماد. (٢٠١٨). النظام المالي في الأندلس في عصري المرابطين والموحدين (٤٨٤هـ-٦٢٠هـ/١٠٩٢-١٢٢٣م). **مجلة التراث العلمي والعربي**. ع ٣٧. جامعة بغداد. العراق. ص ١٨١.

(٧) ابن القطان. **نظم الجمان**. ص ١٩٣.

(٨) الملي. **تاريخ الجزائر**. ج ٢. ص ٣٣٢؛ هذا الإجراء يتناقض مع رسائله الموجه إلى الموحدين بعدم التعامل مع الأعداء، والاتجار معهم، لكن كما يبدو فضل الخليفة عبد المؤمن الجانب الدبلوماسي على الجانب العقائدي في سياسته. بروفنسال. **مجموع رسائل موحدية**. ج ١٠. ص ١٣-١٤، ٧١-٨١.

الموحدون الفنادق الواسعة التي تحوي كنائس لاستقبالهم^(١)، وربما كان تهاون الخليفة عبد المؤمن وخلفائه من الموحدين مع المسيحيين بسبب العلاقات المتوترة بين دولة الموحدين والمشرق العربي الإسلامي، حيث ذكر أنّ الناس في مكة ومصر، كانوا يترقبون الخلاص على أيدي الموحدين بسبب ما عانوه من ظلم الحكام لهم، فقد عانى الناس من حكم الخليفة العاضد في مصر؛ ممّا دفع فقهاء الأندلس إلى إسقاط فريضة الحج عنهم، وفي مكة المكرمة كان الحكام "يَغشرون"^(٢) تجّار المسلمين كأنّهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم، لم يُسمع بمثلها"^(٣)؛ لذلك سعى الخلفاء الموحدون لضمّ المشرق العربي الإسلامي إلى حكمهم، لكنّ الخلافة العباسية تنبّهت للمشروع الموحي واستولت على مصر بعد إسقاط صلاح الدين الأيوبي والخلافة العباسية للدولة الفاطمية فيها، وما يحسب للموحدين في تلك المرحلة عدم سيطرتهم على الطريق الصحراوي الذي استغله صلاح الدين لمصلحته في الامتداد نحو المغرب العربي الإسلامي؛ ليستنتج ممّا ذكر أنّ الخلفاء الموحدين اختاروا التعامل مع التجار المسيحيين بحكم العداء التقليدي بين الخلفاء المسلمين على مدار التاريخ العربي الإسلامي.

أمّا الزراعة فقد اهتمّ بها الخلفاء الموحدون كما اهتموا بالتجارة، فحفروا الآبار وقنوات الري ووفروا الأمن والاستقرار^(٤)، وربما كان ذلك لأسباب عدّة، منها: ضمان المزروعات وحمايتها، وتوفير دخل كبير للدولة؛ فضلاً عن اهتمام المهدي محمد بن تومرت بالمزروعات حيث ذكر ابن القطان "وأوصاهم -ابن تومرت- في سفرهم، إذ مروا على طريق متصل بها زرع نكبوا عنه ودرؤوا أهل الفساد عنه"^(٥)، وهذا ما عمل عليه الخليفة عبد المؤمن عندما أمر جنوده بعدم مساس المزروعات في طريقهم إلى إفريقيا^(٦)، كما أنّ الموحدين عملوا على استغلال مساحات أراضي دولتهم الواسعة لاستصلاحها واستثمارها، وذلك بتقديمهم الإقطاعات للجنود والناس، فأقطع الخليفة عبد المؤمن قبيلته

(١) بوتشيش. تاريخ الغرب الإسلامي. ص ٩٤-٩٦.

(٢) ضريبة العشر: رسوم تفرض على أموال تجار أهل الحرب (أهل البلاد التي بينها وبين المسلمين حرب) وأهل الذمة المارين على الثغور الإسلامية؛ فهي ضريبة غير مباشرة تفرض على الأموال المعدة للتجارة الصادرة من البلاد الإسلامية والواردة إليها أو التي تنقل ضمن الأقاليم العربية الإسلامية (ضريبة جمركية)، أول من فرضها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الإسلام، والمصدر التشريعي لها هو الاجتهاد؛ لأنه لم يذكر أن الرسول ﷺ فرض هذه الضريبة، تؤخذ من المسلمين بنسبة ٢,٥%، ومن أهل الذمة بنسبة ٥%، ومن تجار أهل الحرب بنسبة ١٠% من تجارتهم. الدحلة، سمر عبد الرحمن محمد. (د.ت). النظم الضريبية بين الفكر المالي المعاصر والفكر المالي الإسلامي. ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين. ص ١٠٥-١٠٦.

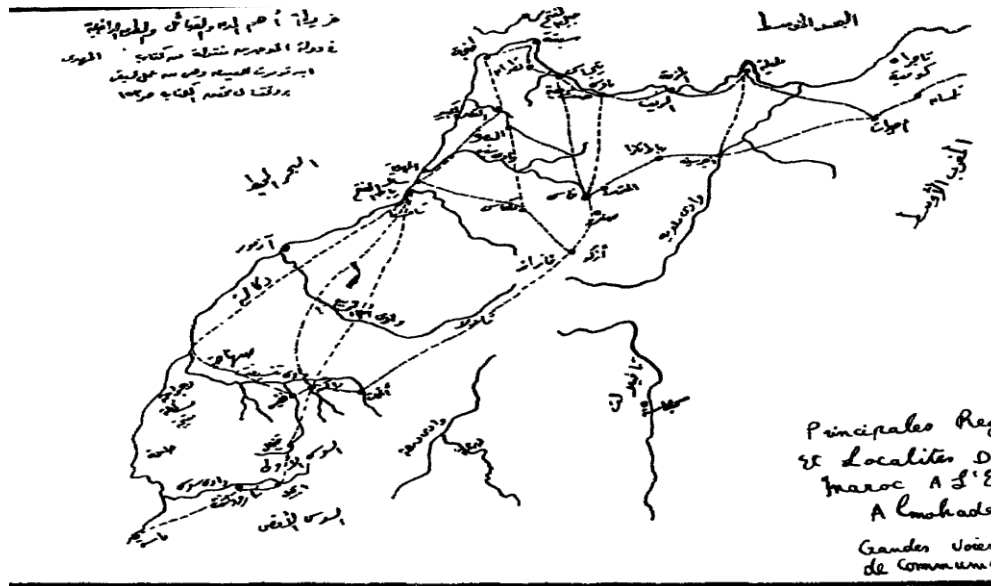
(٣) ابن جبير. رحلة ابن جبير. ص ٥٥-٥٦.

(٤) مجهول. الاستبصار. ص ٢١٠؛ المنوني. العلوم والأدب. ص ٢٤٠-٢٤١؛ حسن. الحضارة. ص ٢٤٥.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٦٩.

(٦) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٢٨؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٧١.

كومية الأراضي^(١)، وقدم الخليفة المنصور الإقطاعات لجنوده^(٢)، وربما هدَفَ الخلفاء الموحدون من إقطاع الأراضي للقبائل إلى تليين طبعهم البدوي وتوطينهم^(٣)؛ ليتخلَّوا عن أسلوبهم القائم على الغزو؛ لذلك استعملوا العرب وزناتة على أرض المغرب العربي الإسلامي، ليلحظ من ذلك أنهم اتبعوا أسلوب المهدي محمد بن تومرت في إقطاعه للموحدين أراضي تينمل كما ذكر في الفصل الثاني، ص ٨٤.



المصور رقم ١١، أهم الطرق التجارية في المغرب العربي الإسلامي.

(حسن. الحضارة. ص ٢٧٠).

٥ - سياسة الخلفاء الموحدين من الناحية الاجتماعية:

سياستهم كانت سياسة طبقية حكام ورعية؛ فقد تألف المجتمع الموحي من طبقتين تماماً، كما كان عليه المجتمع المرابطي وهم طبقة الحكام أو الفئة العليا، وطبقة عامة الناس أو الفئة الدنيا، وهذا يعني أنَّ دعوة المهدي محمد بن تومرت، لإزالة الفارق الطبقي لم تلقَ ترحاباً من خلفائه الذين حاولوا فرض تعاليمه على المجتمع، لكنهم أخفقوا في مساعيهم، كما يلحظ من سياستهم مع العامة والفئات التي تكون منها المجتمع:

أ - فئة عليا:

ضمّت هذه الفئة الخلفاء والولاة من أسرة عبد المؤمن بن علي؛ فضلاً عن قبيلته كومية التي تعالَى شأنها في عهده^(٤)، والعلماء والفقهاء والقضاة الذين تقربوا من الخلفاء وغدقت الأموال عليهم،

(١) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٣٣.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ٢١٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٣٦، ١٤١.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠٢؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٥٧.

حتىّ تغيرت حياتهم من الفقر إلى الغنى^(١)، ورغم أنّ هذه الفئة كانت سبب ثورة المهدي محمد بن تومرت على المرابطين إلا أنّ خلفاءه لم يهتموا بأهداف الثورة بقدر اهتمامهم في الحفاظ على ملكهم، وما يحسب لهم في هذه الفئة أنّهم ضموا إليهم الطلبة الذين ينتمون لقبائل متعددة؛ فضلاً عن محاولتهم دمج قبائل زناتة من البتر مع قبائل مصمودة من البرنس؛ لينتج ذلك نوعاً من التآلف بين القبائل، لم يكن سائداً من قبل في المغرب العربي الإسلامي^(٢).

ولم تضم هذه الفئة كلّ من عارض التوحيد من علماء وفقهاء؛ إذ تعرضوا لبطش الخلفاء الموحدين وظلمهم، بدأ ذلك مع خلافة عبد المؤمن بن علي عندما بنى نظاماً جديداً للدولة، لم يبق فيه الموظفين المعارضين لسلطته^(٣)، وتابع خلفاؤه ذلك فكانوا ينظرون إلى كل من يخالفهم في العقيدة والمبدأ نظرة عداوة؛ لأنّهم عدّوهم ليسوا من أهل الإيمان، ليثير ذلك الذعر لدى العلماء، يظهر ذلك ممّا ذكره الوهراني عن حكمهم " مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء، حكم سيفه في القمم، وأعمله في رقاب الأمم....، ولو أنّ للعلم لساناً، وللورقة إنساناً، لتألّمت وتنظّمت....، ولكن السكوت عن هذا أرجح، ومسألة الأفاعي أنجح"^(٤)، وممّا ذكر عن عهد الخليفة عبد المؤمن: " وأوقعوا المحن بذوي الفروع، وقتلوه وطرحوهم بالسياط، وألزموهم الإيمان المغلظة من عتق وطلاق وغيرهما، وألا يتمسكوا بشيء من كتب الفقه"^(٥).

ب- فئة عامة:

كانت هذه الفئة في عصر الموحدين مهمشةً، وربما السبب كان لاهتمام الموحدين بالعلم، لأنّ هذه الطبقة لا تضم غنياً أو متعلماً، فعاشت ظروفًا قاسيةً في ظل الحكم الموحيدي، حيث ذمّت المصادر التاريخية أفرادها بأشنع الصفات؛ فضلاً عن أصحاب المهن المهمة، مثل الفلاحين والصيادين والرعاة^(٦)، وعلى الرغم من أنّ الدولة أسقطت عن هذه الطبقة ضريبة القبالة كما ذكر سابقاً، إلا أنّ الخلفاء الموحدين فرضوا ضرائب باهظةً على أفراد دولتهم^(٧)، وكثيراً ما تعرضوا

(١) حسن. الحضارة. ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) يناقض ابن خلدون ذلك عندما ذكر أنّ زناتة سخرت مصمودة لمصلحتها في قوله: " واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشدّ توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي، فلبسوا صبغتهم وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً....، فلما خلو من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة" لكن ما ذكره ابن خلدون لا ينفي دمج القبيلتين في عصر الموحدين. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ١. ص ١٩٩.

(3) Omar, Farag IM. (2015). *Structures of government in ALmohad Iberia*. PhD thesis . University Exeter. p:4.

(٤) الوهراني، ركن الدين محمد بن محمد. (١٩٩٨م). *مناجات الوهراني ومقاماته ورسائله*. تح: محمد شعلان، ومحمد نغش. منشورات الجمل. كولونيا. ط ١. ص ١١؛ الصلابي. *دولة الموحدين*. ص ١٢٠، ١٦٠.

(٥) السملالي. *الإعلام*. ج ٨. ص ٣٩٦.

(٦) بونشيش. *مباحث*. ص ١٦٩-١٧٠.

(٧) بولعسل، أحسن. (٢٠١٣م). *الضرائب في المغرب العربي منذ عهد الولاة حتى سقوط الموحدين (٩٦-٦٦٨هـ/ ٧١٥-٧١٠*

للاستغلال في الثورات والاضطرابات التي عانت منها دولة الموحدين؛ فضلاً عن معاناتهم من الأوبئة والمجاعات، فكانوا هم من يدفع ثمن كل ذلك^(١)؛ لذلك يمكن القول إن ثورة المهدي محمد ابن تومرت لم تحم هذه الطبقة من بطش خلفائه.

ج- موقف الحلفاء الموحدين تجاه المرأة:

إنَّ التزام الدعوة الموحدية بالشرع لم يمنع المرأة من ممارسة حقّها المدني الذي حافظوا عليه، فالموحدون راعوا تعاليم المهدي محمد بن تومرت تجاه المرأة؛ ليمنعوا حرّيتها الزائدة وسفورها، لكنّهم لم يحرّموها من حقّها في التعلم، أو حصولها على مركزٍ مهمٍّ مثل زينب بنت الخليفة يوسف بن عبد المؤمن التي برعت بعلم الكلام^(٢)، وحفصة الركونية^(٣) التي درّست نساء الخليفة المنصور، وأخت الطبيب ابن زهر وغيرهم من النساء^(٤)، كما أنّ المرأة حضرت المجالس العلمية إلى جانب الرجال^(٥)؛ ممّا يعني أنّها تمتعت بحريتها في التعبير، لكنّها لم تتدخل في الأمور السياسيّة حتّى نهاية عهد الخليفة المأمون عندما تدخلت زوجته أم الرشيد في تولية ابنها الحكم بعد دفعها الأموال لكبار القادة، ثمّ أصبحت تسيّر أمور الدولة مع ابنها^(٦)، وهذا مشابّه لما فعلته قمر زوجة الأمير علي بن تاشفين، لكنّ الاختلاف بين المرابطين والموحدين أنّ المرأة تدخلت في السياسة منذ بداية دولة المرابطين، بعكس الموحدين التي جاء دورها متأخراً.

د - محاولة خلفاء المهدي بن تومرت فرض تعاليمه على المجتمع:

حرص المهدي محمد بن تومرت خلال رحلة عودته من المشرق العربي الإسلامي على تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البلاد التي مرّ بها؛ واضعاً الأسس التي على الموحدين تطبيقها بين عامة الناس في هذا المجال؛ لذلك لم يخالف خلفاؤه هذه الأسس ووصل بهم الأمر إلى قتل كل من يخرقها خاصة في عهد الخليفة عبد المؤمن وحفيده المنصور.

(١٢٦٩م). دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. قسنطينة: الجزائر. ط ١. ص ١٨٩ وما بعدها.

(١) ابن عذاري. **البيان - قسم الموحدين**. ص ٣٥١؛ شرقي. **الحياة الاجتماعية**. ص ١٠٢-١٠٣؛ مغنية. **نظام الحكم**. ص ٤٧٧.

(٢) كنون. **النبوغ المغربي**. ص ١٤٤.

(٣) حفصة بنت الحاج الركونية ولدت سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م، من أسرة غنية، برعت بالأدب والشعر، مدحت الخليفة عبد المؤمن فقدم لها العطايا، اختلف في ذكر سنة وفاتها حيث ذكر في كتاب المغرب لابن سعيد أن وفاتها كان سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م، وذكر ابن الخطيب سنة وفاتها في آخر سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أو ٥٨١هـ / ١١٨٥م، لكن من المرجح ما ذكر في كتاب ابن سعيد لأنّ ابن الخطيب ذكر أنها درّست النساء في دار الخليفة المنصور. ابن سعيد. **المغرب**. ج ٢. ص ١٣٨؛ ابن الخطيب. **الإحاطة**. ج ٢.

ص ٦٠-٦٧؛ المقرئ. **نفح الطيب**. ج ٤. ص ١٧١.

(٤) القدري، ولزهرى. **يعقوب المنصور**. ص ٢٦-٢٧.

(٥) أبو الخشب، إبراهيم. (د.ت). **تاريخ الأدب العربي في الأندلس**. دار الفكر العربي. بيروت: لبنان. ص ٦٠.

(٦) ابن عذاري. **البيان - قسم الموحدين**. ص ٢٩٨، ٣٠٦؛ ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ٢٥٤؛ ابن الخطيب. **الإحاطة**. ج ١. ص ٨٣٠.

ففي عهد الخليفة عبد المؤمن أمر بإقامة الصلاة وأخذ الزكاة وملاحقة مانعيها، وحارب بائعي الخمر وأصحاب الملاهي؛ ليتوعد الخليفة بمعاقبة كل من يخرج عن الإسلام^(١)، ولم يستثن أسرته من هذه العقوبة حين عزل ابنه محمداً عن ولاية العهد لشربه الخمر كما ذكر سابقاً، وربما الفضل يعود في ذلك للمدارس التي أنشئت في العالم العربي الإسلامي، والتي قدمت الوعي الكامل للمسلمين بوجوب تقيدهم بما ينص عليه الشرع، واستمر تأثير تعاليم المدارس في عهد خلفاء عبد المؤمن لاهتمامهم بالعلم الذي رقى من قدرة الناس على معرفة أصول الدين، فالخليفة المنصور شدد على إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس وعاقب كل من يتركها، وأمر بالنداء لها في الأسواق، ومن غفل عنها يؤنبه تأنيباً بليغاً^(٢)، كما أنه عندما بويغ رأى الناس منهمكةً بشرب الخمر، فأصدر الإنذارات وأريقّت المسكرات وحذر بالموت لمن يستعملها، كما أمر الولاة بالقبض على المغنين وأصحاب الملاهي^(٣)، ليسهم ذلك في تأديب الناس.

ولم يحارب الخلفاء الموحدون فقط المنكرات؛ لتطبيق تعاليم المهدي محمد بن تومرت؛ وإنما أيضاً أهتموا بتطبيقها على الألبسة التي ارتدوها لتمييز عن العصر المرابطي، فالرجال كشفوا عن وجوههم ولم يعودوا يتلثمون؛ ليقصر اللثام على النساء فقط بناءً على طلب المهدي محمد بن تومرت^(٤)، كما أن ملابس الخلفاء كانت رخيصة الثمن، فالخليفة عبد المؤمن كان يلبس قميصاً وسروالاً وجبةً من الصوف رغم سلطانه^(٥)، والخليفة المنصور أيضاً كان يلبس الصوف^(٦)، لكن رغم اقتداء الخليفة عبد المؤمن والمنصور ببساطة ألبستهم وفقاً لتعاليم المهدي محمد بن تومرت وابتعادهم عن البذخ فيها، إلا أن الناس تحررت بعد عهد الخليفة عبد المؤمن من النقشف، وأقبلوا على ارتداء الملابس الحريرية المطرزة، وهذا ما دفع الخليفة المنصور لإصدار أوامره بمنع الألبسة الحريرية المذهبة والاكتفاء بالحرير البسيط^(٧).

على الرغم من سلطان الخلفاء إلا أنهم لم يستطيعوا إلزام الناس بأوامرهم، ولم تسمح لهم

(١) بروفنسال. مجموع رسائل موحدة. ج ١٠. ص ١٣٢-١٣٦.

(٢) الياضي. مرآة الجنان. ج ٣. ص ٣٦٤-٣٦٥؛ ابن مقديش. نزهة الأنظار. ج ١. ص ٤٧٣-٤٧٤؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٠٠.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٧. ص ١١-١٢؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٧٢-١٧٣؛ الهوي. أسباب النصر. ص ٦١-٦٢.

(٤) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣٩٠-٣٩١.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٧٢.

(٦) الياضي. مرآة الجنان. ج ٣. ص ٣٦٤؛ ابن مقديش. نزهة الأنظار. ج ١. ص ٤٧٢.

(٧) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٧٤؛ مغنية. نظام الحكم. ص ٤٧٨.

العامّة التدخّل في تقاليدهم، فانتشر الزجل في الأندلس باللهجة العامية^(١) رغم اعتناء الخلفاء الموحدين بالشعر واللغة العربية، ولم يلتزم سكان المغرب والأندلس بما تمّ فرضه عليهم من ألبسة بسيطة، إنّما ارتدوا الألبسة غالية الثمن، وتأثروا بألبسة المسيحيين^(٢)، لعلّ ذلك كان بسبب احتكاك سكان الدولة ببعضهم بعضاً، فأثر الأندلسيون في المغاربة في حضارتهم؛ ليلحظ من ذلك أنّ تأصل تعاليم العقيدة التومرتية كان في بداية تكوين دولة الموحدين، ثمّ أخذ بالتراجع حتى زال تماماً في عهد الخليفة المأمون بعد تشكك الخليفة المنصور بصحة العقيدة.

رابعاً: انقلاب الخليفة المنصور يعقوب بن يوسف وإدريس المأمون على العقيدة:

أدت سيادة دعوة الموحدين على أراضي المغرب العربي الإسلامي والأندلس إلى التنوّع في مذاهبه الإسلامية، وسيادة مذاهب لم يكن حضورها فعالاً قبل عصرهم، وهذا يعود لارتباط العصبية بالدين كما ذكر في الفصل الأول، ص ٣٨-٣٩، ٦١، من أجل جمع طبقات المجتمع المختلفة سياسياً وفكرياً حول مبدأ واحد يخدم مصلحة القائد، وهذا ما عمل عليه المهدي محمد بن تومرت وخلفاؤه الذين أعدّهم سياسياً لمحاكاة الواقع المذهبي والظروف التي تحيط بدولتهم، فتسبب ذلك بتنوّع المذاهب داخل أركان دولة الموحدين، حتّى أنّ الخلفاء الموحدين نقضوا العقيدة التي قامت عليها دولتهم، بعكس دولة المرابطين التي اعتمدت مذهباً واحداً في حكمها.

ليبقى السؤال هنا: لماذا الخلفاء الموحدون لهم موقف عدائي من المذهب المالكي حتّى اضْطُهد علماءه في عهد الخليفة المنصور؟ ولماذا حاول خلفاء عبد المؤمن فرض المذهب الظاهري بدلاً من عقيدة التوحيد؟ هل كان للظروف السياسية دورٌ في تقلب معتقدات الخلفاء الموحدين؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من تحليل الواقع المذهبي للمغرب العربي الإسلامي بعد قيام دولة الموحدين؛ لأنّ دعوة المهدي محمد بن تومرت كان من أبرز أهدافها إنهاء الصراع الفكري القائم في المغرب العربي الإسلامي، وتوحيد العالم الإسلامي سياسياً ومذهبياً وفكرياً، لكن خروج خلفائه عن الأسس التي وضعها المهدي تسبب بموجة من الثورات والصراعات أنهكت المغرب العربي الإسلامي وتسبب بعصر طوائف ثالث مهدّد لسقوط الأندلس بيد الممالك المسيحية.

١ - موقف الخلفاء الموحدين من المذاهب الإسلامية في الدولة الموحدية:

بدأ موقف الموحدين تجاه المذاهب الإسلامية في عهد المهدي محمد بن تومرت الذي قاد

(١) الداية، محمد رضوان. (١٩٩٢). المختار من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية وفي الموشحات والأزجال.

دار الفكر المعاصر. بيروت: لبنان. ص ٢٩٦؛ شرقي. الحياة الاجتماعية. ص ١٦٨، ١٧١، ١٨٣، ١٩١-١٩٣.

(٢) بوتشيش، عبد القادر. (١٩٩٣م). المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع - الذهنات - الأولياء. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٨٠-٨١.

حملةً شنيعةً على الفقه المالكي مذهب دولة المرابطين، وربما أراد المهدي نقل ولاء دولة المرابطين من الخلافة العباسية إلى المدرسة النظامية التي استحدثت بعد سيطرة السلاجقة على بغداد، وما ذكر عن حرق المهدي لكتب الفقه المالكي وإزالتها من المغرب العربي الإسلامي^(١)، لم يكن إلا البداية لمحاولة المهدي فرض تعاليمه، لكن ذلك لا يعني أن ما ذكر كان صحيحاً لأن دعوة المهدي لم تتجاوز السوس الأقصى، وإن صح كلامه فهذا لا يعني أن المهدي عادى المذهب المالكي؛ إنما اعترض على نتاجه الفكري في المغرب العربي الإسلامي كما ذكر عن دعوته في الفصل الثاني، ص ١٢٧، أما المحاولات الأولى للقضاء على المذهب المالكي، فإنه من المرجح أنها كانت في عهد الخليفة عبد المؤمن، وذلك يعود ربما لاتخاذ لقب أمير المؤمنين الخاص بالخلافة العباسية؛ مما يعني أن أحد الخليفين عليه التخلي عن اللقب للآخر.

ومن هذا المنطلق كانت سياسة الخليفة عبد المؤمن في محاربة كل من يُظهر الولاء للخلافة العباسية داخل دولته سواء كان ذلك فكرياً أم سياسياً؛ لذلك عمل على ترسيخ المذهب الإسلامي الأندلسي الظاهري البعيد عن المذاهب الإسلامية في المشرق العربي الإسلامي، ولكن دولته الناشئة لم تكن قادرة على فرض مذهب جديد، وفي الوقت نفسه تقوم بعمليات توسع لأن ذلك يؤدي لتقاعس الناس عن الجهاد بعد إيمانهم بعقيدة التوحيد، وهذا سبب تأخر فرض المذهب الظاهري حتى عهد الخليفة المنصور^(٢) الذي ساد في عهده الاستقرار أكثر من عهد جده وأبيه، يستنتج ذلك مما ذكرته المصادر عن الخليفة عبد المؤمن واستعاضته بالحديث النبوي بدلاً من المذهب المالكي، واستقدامه للعلماء وإقامته للمدارس بهدف تخريج علماء ورجال وفق النهج الذي يريده، ثم ذكرت أن الخليفة عبد المؤمن أمر بتغيير المنكر وحرق كتب الفروع لرد الناس إلى قراءة الحديث^(٣)، لكن لم يذكر أن تنفيذ هذه الأوامر كان في عهده، حسب ما قال عlish: "ولما أن أطمأنت بالأمير عبد المؤمن الدار، جمع الفقهاء إما لاختيار مذهبهم أو حملهم على مذهب ابن حزم"^(٤)، ليستنتج من ذلك أن الخليفة عبد المؤمن لم يناصر العداء للمذهب المالكي إنما كان يومئ لمذهب جديد يحذوه الموحدون، وهذا ما ذكره الشاطبي عندما قال: "و يا ليتهم وقفوا مع مذهب داود وأصحابه، لكنهم تعدوا ذلك إلى أن

(١) السملالي. **الإعلام**. ج ٨. ص ٣٩٦؛ وقد ذكر ابن الأحمر أن المهدي هو من أمر بالمذهب الظاهري وسار عليه خلفاؤه، لكن الواقع السياسي للدولة لا يثبت ما ذكره ابن الأحمر. ابن الأحمر. **بيوتات فاس**. ص ١٩.

(٢) المراكشي. **المعجب**. ص ٢٠٤.

(٣) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٩٥؛ السلاوي. **الاستقصا**. ج ٢. ص ١٢٦.

(٤) عlish، محمد أحمد. (د.ت). **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ص ١٠٢.

قالوا برأيهم، ووضعوا للناس مذاهب لا عهد لهم بها في الشريعة^(١)، وتابع الخليفة يوسف سياسة والده المذهبية؛ لينقض كتاب عبيد الله بن يونس ت. ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م بسبب احتوائه على آراء متشعبة؛ مشيراً إلى عدم قناعته إلا بالمصحف وكتاب سنن أبي داود والسيف قائلاً ليس إلا هؤلاء^(٢)، ولكن كيف عمل الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف على ترسيخ عقيدة المهدي محمد بن تومرت وهم على عدا مع منابع هذه العقيدة؟

ربما يكمن السبب في ذلك إلى محاكاتهم لعقيدة الدولة الفاطمية التي لم تكن قد سقطت بعد، ولأن الخلافة العباسية لم تهدد دولة الموحدين فعلياً في عهدهم؛ فضلاً عن حاجتهم لعقيدة تجمع الناس على الجهاد وإنهاء جميع معالم دولة المرابطين التي أسقطوها، لكن في عهد الخليفة المنصور تغير الواقع السياسي تماماً، فقد سقطت الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين^(٣)، وظهرت ثورة بني غانية التي دعت للعودة إلى المذهب المالكي والولاء للخلافة العباسية كما ذكر سابقاً، ليضع ذلك الخليفة المنصور أمام عائق كبير لا يمكن تخطيه إلا بتنفيذ ما بدأه جده ودعا إليه أبوه في التخلص من المذهب المالكي وإعلان المذهب الظاهري مذهباً رسمياً للدولة^(٤)، فبدأ بالتخلص من فقهاء المالكية ربما لخوفه من تقديمهم الإعانة لبني غانية، وجلب علماء المذهب الظاهري إلى مدينة مراكش^(٥)، وذلك لرغبته في تجديد الدين أكثر من رغبته في تطبيق المذهب الظاهري الحزمي، وفي ذلك قال المراكشي: " وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي ...، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهره، وأظهره يعقوب

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (د.ت). **الاعتصام**. ج ١. مكتبة التوحيد. د.م. ص ٢٨٦؛ الإدريسي. **المدرسة الظاهرية**. ص ٦٦١-٦٧١.

(٢) المراكشي. **المعجب**. ص ٢٠٤.

(٣) تولى صلاح الدين منصب الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي العاضد ٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م، ثم عمل على إنهاء الخلافة الفاطمية، وفرض نفوذه داخل الدولة بإنهاء المذهب الشيعي، وفرض المذهب السني، ليتم له ذلك سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وهذا ما يؤكد فرضية محاولة المهدي محمد بن تومرت الوصول إلى منصب داخل السلطة المرابطية ومن ثم إنهائها؛ لأن هدف المهدي محمد بن تومرت نفذه صلاح الدين في مصر، ليستنتج من ذلك أن صلاح الدين عمل على ما هدف إليه المهدي محمد بن تومرت بعد أن استفاد من تجربته في المغرب العربي الإسلامي، لكن انقسام العالم العربي الإسلامي أدى لانتهائه، وفوز المسلمين بسواحل بلاد الشام، والمسيحيين بالأندلس. طاعة، أمجد حافظ حسين. (٢٠١٢م). **العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين في مصر وبلاد الشام (٤٩١-٥٧٠هـ / ١٠٩٨-١١٧٣م)**. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية الآداب. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين. ص ٢٤٠-٢٤٤.

(٤) ذكر إبراهيم الصديق أن الموحدين اتخذوا الظاهرية شعاراً ورمزاً لدولتهم لتحدي المذهب الرسمي لدولة المرابطين. ابن الصديق، إبراهيم. (١٩٩٥م). **علم علل الحديث من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لأبي الحسن بن القطان الفاسي**. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. ص ٢٩٠.

(٥) حسن. **الحضارة**. ص ٤٦٦-٤٦٧.

هذا^(١)، لكنَّ الخليفة المنصور لم يُعادِ المذهب المالكي؛ وإنَّما عمل على إبعاد الناس عنه خوفاً على ملكه، وليس إيماناً ببطلان المذهب؛ أي إنَّ السبب سياسي لا عقائدي، لأنَّ الخلفاء الموحدين اعترفوا بكتاب الموطأ للإمام مالك، لكنَّهم نكلوا بمن يأخذ به من الفقهاء^(٢)؛ أي إنَّهم قصدوا فقهاء المالكية في المغرب العربي الإسلامي وليس المذهب، وما يدلُّ على ذلك موقف الخلفاء الموحدين من عقيدة المهدي محمد بن تومرت بعد تهديد صلاح الدين دولتهم من جهة الشرق عن طريق مولاة قراقوش، وإهانة الخليفة المنصور بعدم اعتراف صلاح الدين به كما ذكر سابقاً، لأنَّ الخلافة هي تفويض من الله على المسلمين^(٣)، لذلك لم يساعد المنصور صلاح الدين، ولم يكتفِ بذلك؛ وإنما أيضاً نقض عقيدة المهدي محمد بن تومرت، لكن ما السبب؟ وما علاقة عقيدة المهدي بأهداف صلاح الدين؟

يعود السبب في ذلك إلى نشر صلاح الدين الأشعري لمبادئ المدرسة النظامية التي نادى بها المهدي محمد بن تومرت وأستاذه الغزالي، حتَّى أنَّ المهدي كان أحد رواد المدرسة في المغرب العربي الإسلامي، فعندما استلم صلاح الدين السلطة في مصر بدأ بحمل الناس على اعتناق المذهب الأشعري، وأمر المؤمنين بأن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة الأشعرية، كما أنَّه عزل قضاة مصر ممَّن على المذهب الشيعي ووظف بدلاً منهم خريجي النظاميات، ليتولوا مناصب عليا في الدولة^(٤)، بذلك حمل صلاح الدين الناس في دولته على اعتناق المذهب الأشعري، كما أنَّه أسس مدارس لتدريس المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية في علم الكلام منها المدرسة الناصرية في مصر^(٥)، ومثل هذا يهدد الخلفاء الموحدين ويفتح المجال أمام علمائهم للاطلاع على مدارس صلاح الدين؛ كونها تمثل تعاليم المهدي محمد بن تومرت أيضاً، ممَّا دفع بالخليفة المنصور لنقض عقيدة المهدي محمد ابن تومرت، والعمل على إنهائها واستبدالها بالمذهب الظاهري، لكنَّ ذلك يحتاج لوقت لأنَّ الناس تعلقت بالعقيدة التومرتية، وهذا أدى إلى تأخر إنهاء العقيدة حتَّى تسلم إدريس المأمون بن المنصور الخلافة.

(١) المراكشي. المعجب. ص ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) المغراوي، محمد. (د.ت). تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور. مقال في آفاق الثقافة والتراث. الرباط. ص ٢٦-٢٨؛ ذكر ابن كثير أنَّ الخليفة يعقوب المنصور كان مالكي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الظاهري. ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٦. ص ٦٨٧.

(٣) الخلافة: هي مصدر من خلف يقال خلف فلان أي قام مقامه، والخلافة في الإسلام تعني النيابة عن الرسول ﷺ في المحافظة على الدين وإدارة شؤون المسلمين. الرازي. مختار الصحاح. ص ٧٨؛ النووي. نهاية الأرب. ج ٢٢. ص ٦١؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد. (١٩٦٤م). مأثر الإنافة في معالم الخلافة. تح: عبد الستار أحمد فراج. ج ١. مطبعة حكومة الكويت. الكويت. ص ٨.

(٤) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٦. ص ٤٤٧-٤٤٨.

(٥) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ١٦. ص ٥٩٤؛ المقرئ. المواعظ. ج ٢. ص ٣٤٣؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. (١٩٦٨م). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. د.م. ط ١. ص ٢٥٦؛ مغزاوي. دور العامل السياسي. ص ٦٢-٦٣، ٨٦-٨٧.

٢ - نقض العقيدة التومرتية، وفكرها السياسي:

نشرت العقيدة التومرتية على نطاقٍ واسعٍ داخل دولة الموحدين في عهد الخليفة عبد المؤمن ابن علي الذي أمر بتعليمها في أرجاء دولته كافة، لكنه لم يعمل على تأصيلها في قلوب الناس كما كانت عليه في منطقة السوس؛ لأنَّ الخليفة عبد المؤمن عمل على محاكاة المذاهب الإسلامية الأخرى لضمان أمن دولته واستقرارها، حتَّى ذكر أنَّه اكتفى بزيارة قبر المهدي بين الحين والآخر^(١)، وتابع ابنه الخليفة يوسف هذه الطريق، ومع تولي حفيده المنصور الخلافة تبدل موقف الموحدين من العقيدة؛ إذ إنَّهم لم ينهوها في الدولة؛ وإنما اعتقدوا بعدم صحتها، حين استخفَّ الخليفة المنصور بعقول الناس عند زيارته لمدينة تينمل برفقة جنوده الغز، فقد جلس تحت شجرة الخروب التي قال المهدي لأصحابه إنَّهم يبصرون أمراء مصر تحت ظلها، فلم يرَ المنصور شيئاً كما قال المهدي، وعندما شهد الناس أنَّ المهدي هو الإمام كان يبتسم استخفافاً لعقولهم، وهذه الحادثة تظهر لهفة المنصور للسيطرة على مصر والإطاحة بصلاح الدين، لتؤكد العداء بين سلطة المغرب العربي الإسلامي ومشرقه، وعندما حجَّ الخليفة المنصور إلى الكعبة طلب من الشيوخ أن يشهدوا أمام الله أنَّه لا يؤمن بعصمة الإمام محمد بن تومرت، وذكر أيضاً أنَّ الخليفة المنصور كان يردد عندما يسأل عن الإمام قائلاً: أين الإمام أين الإمام وهذا يعني أنَّه لا يؤمن بما يقال عن المهدي محمد بن تومرت، حتَّى أنَّه قال للشيخ أبي بكر بن هاني -من رجال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- عندما عاد من معركة الأرك في حوارٍ كان مغزاه عدم الاعتراف بعقيدة المهدي نصه: "ما قرأت من العلم؟ قلت: قرأت توافيق الإمام (ابن تومرت)، فنظر إلي بنظرة المغضب، وقال ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئاً من السنة، ثم بعد هذا قل ما شئت"^(٢)، كما ذكر عن عدم التزام الخليفة المنصور بعبادة الموحدين عند خروجهم للحرب، حيث إنَّهم يزورون قبر المهدي في تينمل، ورغم أنَّ الخليفة زار القبر قبل توجهه لقصة سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م^(٣)، إلا أنَّه لم يزره عند توجهه لمعركة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م^(٤)، ومن المرجح أنَّ السبب ليس هزيمته في معركة عمرة سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م^(٥)، وإنما تبدل الواقع السياسي والجغرافي الذي قامت عليه دعوة المهدي محمد بن تومرت لجمع المغرب العربي الإسلامي والأندلس تحت سلطة الموحدين، كما أنَّه في عهده كانت القبائل البربرية (الأمازيغية) قد سيطرت على القبائل العربية التي هددت أمنها وبددت مواطنها، لذلك

(١) الصلابي. دولة الموحدين. ص ١٣٨.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ٢١١-٢١٢.

(٣) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٨٥.

(٤) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٢٢.

(٥) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٨٧-١٨٨.

عقيدة المهدي محمد بن تومرت لم يعد لها لزوم في المغرب العربي الإسلامي كما كانت عليه من قبل إن أراد الحفاظ على أمن دولته داخلياً، خاصةً مع ظهور شخصيات هددت أمن الدولة مقتديةً بحركة المهدي وتعاليمه، مثل: الثائر أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيري ذو النزعة الإصلاحية الذي سعى لإعادة مراسيم المهدي محمد بن تومرت وإحياء سننه، ونجح في دعوته حتى عظم أمره، فقبض عليه الخليفة المنصور وقتله^(١)، كذلك أبو مدين شعيب بن الأنصاري المتوفى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م الذي تمكّن من جمع المغرب والأندلس بتعاليم كبار الصوفية، وتباهى بمباركة الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م وقراءته الحديث عليه، وإلباسه خرقة من الصوف قدّمها له الجيلاني، فاستوطن الداعية في بجاية، وتوافد إليه الطلبة، فنقل الفقهاء خبره إلى الخليفة قائلين: "إننا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبه بالمهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد ..، فأمر المنصور بحمله إليه"^(٢)، وهذا يعني أنّ الثوار استعملوا عقيدة المهدي محمد بن تومرت لمواجهة الخلفاء الموحدين؛ لذلك عمل المنصور على التصدي لهم فكرياً، بأخذه المذهب الظاهري الذي يعتمد على ظاهر القرآن والسنة وضرب فكرة التأويل أساس عقيدة المهدي، كما أنّ الخليفة لم يحرق كتب الفروع فقط لهذه الغاية؛ وإنما حرق كتب الفلاسفة وأهل الكلام، وتقرب من المتصوفة، لكسب ودهم وإرضاء للعامة المتقربين منهم وإتقاء شرّ ثورتهم عليه^(٣).

على الرغم من ذلك لم ينه الخليفة المنصور العقيدة التومرتية في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنها استمرت حتى عهد ابنه الخليفة إدريس المأمون الذي لعن المهدي عندما بويع بالخلافة قائلاً على منبر جامع المنصور: "أيها الناس لا تدعوه بالمهدي المعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم وأنا قد نبذنا أمره النحيس"، ثم كتب لجميع البلاد يأمرهم بمحو اسم المهدي عن السكة والخطبة، وأمر بتدوير الدرهم التومرتي بعد أن كان مربعاً، ونعى زيادة المهدي محمد بن تومرت في أذان الصبح "الله الحمد" والنداء عليها باللغة البربرية^(٤).

لنلاحظ من ذلك أنّ العداء المذهبي بين الدولة الفاطمية والأموية الأندلسية في المغرب العربي الإسلامي عاد ليظهر في دولة الموحدين، لكن باختلاف القوة، فالفاطميون كانوا أقوياء هددوا أمن المغرب العربي الإسلامي بعقيدتهم؛ لذلك اختار المهدي محمد بن تومرت محاكاتهم في العقيدة حتى

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٠٧-٢٠٨؛ المقرئ. نفح الطيب. ج ٤. ص ٦٦؛ عنان. دولة الإسلام. ج ٥. ص ١٨٠-١٨١.

(٢) حركات. المغرب. ج ١. ص ٣٠٩-٣١٠.

(٣) القدري، ولزهرى. يعقوب المنصور. ص ٥٦.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٨٦؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٥١؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٣٨؛ وأعاد ذكر الخطبة للمهدي بن تومرت ابنه الخليفة الرشيد. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد. (١٩٩٩م). نزهة الأنام في تاريخ الإسلام. تح: سمير طيارة. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٤٧.

أنه اقتبس منهم الأفكار التي تضمن جمع أهل المغرب العربي الإسلامي حول معتقده، بعد إخفاق أتباع المذهب المالكي في حماية أراضي المغرب الأدنى والأوسط من القبائل العربية أتباع الفاطميين، لكن مع خلافة المنصور كانت الدولة الفاطمية قد زالت وحلت محلها الدولة الأيوبية؛ مما يعني أن محاكاة المذهب الشيعي لم يعد ضرورياً، وهذا يفسر ربما سبب ارتداد الخلفاء الموحدين عن عقيدة المهدي، حتى قال عنان إن إجراء محو المهدوية في عهد الخليفة المأمون لم يلق أي معارضة من الموحدين، وأشاد به الشعراء في قصائدهم التي ذكرها ابن عذاري^(١).

خلاصة القول: إن المهدي محمد بن تومرت عندما قاد الثورة ضد دولة المرابطين اتبع سياسة تحاكي واقع المغرب العربي الإسلامي، وأعلن العداء على كل مخالف لمبادئه؛ محاولاً فرض الأمن والاستقرار بالعلم الذي حمله والقوة التي استعملها للإلزام بتعاليمه وسلطته، وتابع الخليفة عبد المؤمن هذه السياسة، لكن من الناحية النظرية وليس التطبيقية لعقيدة المهدي؛ لأنه لم يطبق إلا الأمور التي لا تهدد أمن سلطته، وتخلّى عن كل ما يضرُّ بها، خاصة بعد إعلانه نفسه أميراً للمؤمنين؛ لأن ذلك يقسم الأمة الإسلامية في مشرقها ومغربها، فوضع بذلك الأسس التي يسير عليها خلفاؤه، ليشغلهم عن الأخطار المحيطة بالأمة الإسلامية مثل الصليبيين الذين استغلوا ذلك لمصلحتهم، وحول العقيدة التومرتية من حركة تدعو لوحدة العالم العربي الإسلامي إلى حركة انفصالية تشنت فكر المسلمين مذهبياً، بعد تسخير الخلفاء الموحدين للمذاهب الإسلامية، وفقاً لما تتطلب الظروف والمخاطر التي تهدد سلطانهم، كما استعمل الموحدون العيون والجواسيس في تحركاتهم العسكرية، واستغلوا رحلة المهدي محمد بن تومرت لمعرفة أوضاع المغرب العربي الإسلامي وتحديد الأهداف التي يجب السيطرة عليها لضعف حكامها، يُستنتج ذلك من حدود دولتهم وعدم سيطرتهم إلا على المناطق التي مرَّ بها المهدي في رحلة عودته من المشرق العربي الإسلامي، ولم يحاولوا السيطرة على الصحراء التي استغلها صلاح الدين ومعارضو دولة الموحدين لمصلحتهم.

كما أن إخفاق الخلفاء الموحدين في فرض عقيدة المهدي وتخليهم عنها تدريجياً والعودة بنظامهم للعصر المرابطي، ليستعملوه في حكمهم، يدلّ على أن حركة الموحدين هي حركة سياسية لا عقائدية في مضمونها؛ لأن العقيدة التومرتية ناقضت النظام المرابطي وعدته نظاماً خارجاً عن تعاليم الإسلام الصحيح، حتى أن الخلفاء الموحدين اهتموا بالأمور البسيطة من تعاليم المهدي مثل لبس الأبيض بدلاً من الأسود شعار الخلافة العباسية^(٢)، وإضعاف المذهب المالكي، وسك عملة خاصة بهم، وتخفيض الضرائب عن الناس، ليلحظ أن هذه الأمور هي فقط لإعلانهم عدم الاعتراف بالخلافة

(١) ابن عذاري. البيان-قسم الموحدين. ص ٢٨٧-٢٨٨؛ عنان. دولة الإسلام. ج ٥. ص ٣٧٢.

(٢) أشباح. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢٣٣.

العباسية ولإثبات سلطانهم وليس تعلقهم بتعاليم المهدي التي تخلّوا عنها عندما أعلنوا النظام الوراثي للحكم، يظهر ذلك من خلال الثورات التي قامت ضد حكمهم، هذه الثورات التي أنهكت طبقة العامة بعد سيطرة قبيلة زناتة بدلاً من صنهاجة على المغرب العربي الإسلامي، واستغلال قبيلة مصمودة لمصلحة الطرفين؛ ليتسبب ذلك بانقسام الدولة داخلياً، ويحدث أزمات داخل المجتمع الموحيدي، ومن ثمة هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م بسبب عدم انسجام القوات التي تألف منها الجيش، ليظهر من ذلك أنّ العداء القبلي والعائدي والأخطار الخارجية كانت السبب في تبدل سياسة الخلفاء الموحدين بين الحين والآخر، وفي زوال ملكهم، خاصةً بعد استقطاب الخليفة عبد المؤمن لقبيلته زناتة والقبائل العربية دون اختبار إيمانهم بالعقيدة الموحدية؛ وإنما باختباره شدة ولائهم لسلطته فقط، فعاثوا بالدولة الفساد إلى جانب القوات المسيحية التي استقدموها في أواخر عصر الموحدين.

الفصل الرابع: انهيار حكم الموحدين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

أولاً: الأزمات والثورات ضد الموحدين:

١- الثورات.

٢- التجزئة السياسية لدولة الموحدين.

٣- الأزمات السياسية.

٤- الأزمات الطبيعية والتعامل السياسي للخلفاء الموحدين.

ثانياً: أسباب انهيار دولة الموحدين، ونتائج تطبيق الفكر السياسي لخلفائها على المغرب

العربي الإسلامي والأندلس:

١- عوامل انهيار الدولة.

٢- نتائج انهيار سياسة الموحدين على المغرب العربي الإسلامي والأندلس.

ثالثاً: آثار العقيدة الموحدية، وعودة المذهب المالكي لسيادة المغرب العربي الإسلامي:

١- آثار العقيدة التومرتية في المغرب العربي الإسلامي.

٢- عودة المذهب المالكي.

الفصل الرابع: انهيار حكم الموحدين في القرن السابع الهجري/ الثالث

عشر الميلادي.

شهد العصر الموحي أزمات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة عدّة نتجت عن الفكر السياسي

الذي تبناه الموحدون في المغرب العربي الإسلامي، منها: تدهور أحوال العامة، وانقسام الدولة إلى

دول عدّة تتنافس على إرث الموحدين، وتحصيل مكاسب على حساب جسد الدولة المريضة بعد

الهزيمة التي ألمت بها في معركة العقاب، والأسباب المذهبية والعشائرية والقبلية؛ حيث برز تكتل قبلي هدفه السيطرة والهيمنة على مقدرات الدولة، خاصة بعد تقاعس هذه القبائل عن القتال في معركة العقاب، كما كان لتخلي الخليفة الناصر عن قبيلة هنتانة وأحفاد أبي حفص عمر الهنتاني الذي كان رجل الدولة الأول بعد الخليفة دور في انهيار الحكم، لذلك كان تجاهل الخليفة الناصر لوصية والده المنصور في الرجوع إلى أبي محمد زكريا بن أبي حفص في أمور الدولة بعد أن أوصى الأخير بأبنائه^(١)، سبباً في دخول الدولة الموحدية بأزمات تسببت في سقوطها.

ويبقى السؤال هنا: لماذا استغلت القبائل هزيمة الموحدين في معركة العقاب لإضعاف الدولة وإسقاطها؟ هل كان بسبب دوافع شخصية مثل أخذ الثأر منهم كما فعل حكام بني مرين أو كان السبب لمعاملة الموحدين قبائل المغرب العربي الإسلامي على أنهم عبيد لهم يستبيحون أموالهم ونساءهم كيفما أرادوا خدمة لمصالحهم؟ وهل كان لتخلي الموحدين عن الفكر السياسي للمهدي محمد ابن تومرت وعقيدته دور في حدوث أزمة قبلية اجتماعية انتهت بانفصال أهم حامليها من الحفصيين في إفريقية وبني عبد الواد في المغرب الأوسط؟ ما أثر عقيدة المهدي محمد بن تومرت في المغرب والأندلس؟ وكيف تعامل فقهاء المذهب المالكي مع شعار الموحدين؟

للإجابة عن ذلك لا بدّ من دراسة أزمات العصر الموحي التي نتجت عن عوامل سياسية مارسها الخلفاء الموحدون مع رعاياهم من الناس ومع عقيدة المهدي محمد بن تومرت، ثم استخلاص أهم أسباب انهيار دولتهم ونتائجه على المغرب العربي الإسلامي، وما أحدثه ذلك من تغير ديموغرافي للمنطقة بعد ميل سكانها إلى المذهب المالكي وفقه الفروع ومناقضتهم للانفتاح العلمي الذي حققه الفقه التومرتي.

أولاً: الأزمات والثورات ضد الموحدين:

١ - الثورات:

دفعت السياسة التي تبناها المهدي محمد بن تومرت ضدّ كلّ من شكّ في أمرهم من القبائل الموالية له والخارجة عن سلطة خليفته عبد المؤمن بن علي ومتولي أمر الدعوة من بعده أبي حفص الهنتاني إلى استعمال القوة في إخماد الثورات والتمردات التي قامت في وجه دعوتهم ومن ثمّ دولتهم، فكان ذلك فاتحةً للانقلابات القبلية على الحكم الموحي كلّما سمحت لهم الفرصة، ومنها كانت ثورة محمد بن هود الماسي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م بعد أن ارتدّ عن بيعة الخليفة عبد المؤمن لتلقّى ثورته تجاوباً من قبائل سجلماسة ودرعة وذكالة ورجرجة وتامسنا وهوارة، ومن ثمّ التحاق أهل سلا وطنجة

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧٤.

وسببة بهذه الثورة، حتّى أنّه لم يبق للموحدين بسببها سوى مراكش وفاس، ورغم قتل الموحدين للماسي بقيت الثورات قائمة في سببة وإشبيلية خاصة مع تدخل ابن غانية في دعمها وإرساله يحيى الصحرابي للسيطرة على سببة وسلا في المغرب العربي الإسلامي، لكنّ الموحدون قضوا على هذه الثورات في عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، إلا أنّهم لم ينتهوا منها مع قيام أهل مكناسة بثورة في مدينة فاس سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م^(١)، وبسبب ذلك وجد الموحدون أن أفضل طريقة لقمع هذه الحركات المتواصلة هو نشر الرعب في قلوب من يعارضهم بارتكاب جرائم في حق قبائل المغرب العربي الإسلامي عرفت باسم التخليط (الوعظ والاعتراف)؛ مخلفين الآلاف من القتلى^(٢)، وبهذا الأسلوب يكون الموحدون قد غيّروا من ديموغرافية المغرب العربي الإسلامي بعد التقليل من أهله.

ليبدو ممّا ذكر أنّ الثورات في عهد عبد المؤمن كانت ردة فعلٍ على سقوط دولة المرابطين، وهذا ما تسبب بأزمةٍ سياسية بين الخلفاء وولاتهم ومؤيديهم من المرابطين، يظهر ذلك من ثورة القاضي عياض صاحب سببة الذي أحسّ بضعف الدولة الناشئة فأعلن العصيان والعودة لمبايعة المرابطين حتّى مقتل الماسي وهزيمة يحيى الصحرابي^(٣)، وثورة مدينة داي بين فاس ومراكش سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م بزعامه رجل يدعى عتاب؛ مستغلاً مرحلة انتقال الحكم إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٤)، وثورة مرزغ الغماري الصنهاجي التي رافقت ثورة داي بتأييد من قبائل صنهاجة وغمارة وأوروبية في شمال المغرب العربي الإسلامي؛ فضلاً عن ثورة ثالثة بزعامه صنهاجة في تادلا^(٥)، لينتج عن هذه الثورات دمار المدن وهرب عددٍ من الزعماء المريدين إلى المشرق العربي الإسلامي^(٦)، كذلك الثورات التي قامت في عهد الخليفة يوسف، نجم عنها إثارة الرعب بقلوب الناس، مثلما أحدثته ثورة سبع من منغداد التي اندلعت بعد سنتين من ثورة ابن مرزغ سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م بجبال غمارة من قبائل صنهاجة، عندما عمل سبع على قطع الطرق وسبي الناس وأسره لتمويل حركته، وأهم ما يلحظ من ثورة منغداد أنّها كانت بهدف فصل المغرب العربي الإسلامي عن الأندلس؛ لأنّه اتجه غرباً بعكس الثورات التي سبقته باتجاهها جنوباً نحو مدينة مراكش، ولأنّه تحصن بمنطقةٍ منيعَةٍ في جبال الكواكب

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٧-٧٠؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٨.

(٢) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٠-٧٢؛ المغراوي، محمد. (٢٠٠٦م). الموحدون وأزمات المجتمع. جذور للنشر. الرباط: المغرب. ط ١. ص ٢٦.

(٣) ابن عياض، أبو عبد الله محمد. (١٩٨٢م). التعريف بالقاضي عياض. نج: محمد بن شريفة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

المغرب. ص ١٢؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦، ٣٢؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١١٥.

(٤) ابن الزيات. التشوف. ص ٢٠، ٤٠٢، ٤٦٦.

(٥) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٧٤-٤٧٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٠٩-٢١٠؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٧٧.

(٦) ابن الزيات. التشوف. ص ٣٩٤-٣٩٥؛ المغراوي. الموحدون. ص ٤٠-٤٢.

(جبل تيزيران)^(١)؛ إذ إنَّ ثورته لم تنتهِ إلا بانقلاب القبائل الموالية له من غمارة وصنهاجة^(٢)، وربما هذا ما أمدَّ بعمر دولة الموحدين؛ لأنَّه مع خلافة المنصور انتهى تداعي سقوط دولة المرابطين داخلياً ليتمثل بثورة بني غانية على الأطراف، ولم يحدث في عهده سوى ثورة محمد بن عبد الله الجزيري؛ مدعياً أنَّ الموحدين غيروا من سيرة المهدي، وما يهم من هذه الثورة أنَّها تسببت بمقتل الحيوانات لانتشار شائعة قدرته على تقمص صورة الحيوان؛ فضلاً عن مقتل عدد من أتباعه في المغرب والأندلس^(٣)، لكن بعد وفاة الخليفة المأمون نجح الثوار في فصل الأندلس عن المغرب العربي الإسلامي، وذلك بالتركيز على المنطقة الشماليَّة من المغرب خاصةً مدينة سبتة التي تدهور حالها، فخلع أهلها طاعة الموحدين ليعلنوا طاعتهم للأمير محمد بن يوسف بن هود بالأندلس، ولم تعد مدينة سبتة لحكم الموحدين إلا بعد حصارها من قبل التجار الجنوبيين سنة ٦٣٢-٦٣٣هـ/١٢٣٤-١٢٣٥م، فعادت مع مدينة إشبيلية إلى طاعة الموحدين بعد وفاة محمد بن يوسف بن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م^(٤)، لكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ لأنَّ الحسن بن خلاص الذي عينه الخليفة الرشيد والياً على سبتة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م نكث ببيعة الخليفة السعيد، وأعلن العصيان سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م، وبائع مع أهل إشبيلية السلطان الحفصي أبا زكريا يحيى بن حفص ٦٢٦-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م صاحب إفريقية، وبعد وفاته سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م حاول الحفصيون السيطرة التامة على سبتة عندما أرسل السلطان أبو زكريا ابن عمه ابن الشهيد الهنتاني والياً عليها، واستمرَّ الحال حتَّى سقوط المدن الأندلسيَّة بيد الممالك المسيحية، ليدفع ذلك سكان سبتة إلى الخروج عن سلطة الحفصيين سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م والعودة لمبايعة الخليفة المرتضى الموحدي^(٥)، ربما كان ذلك لشعورهم بخطر الممالك المسيحية، فأرادوا أن يحموا أنفسهم بالموحدين لقربهم منهم وسرعة إيصال الإمداد لهم أكثر من الحفصيين الذين كانوا في إفريقية.

كما يلحظ من الحديث عن ثورات عصر الموحدين أنَّ سكان المغرب العربي الإسلامي كثيراً ما كانوا يميلون إلى حكام الدول التي قامت بالمغرب العربي الإسلامي واندثرت، من المنتمين للنسب القرشي أو مدعي الانتماء، وربما كان ذلك محاولةً من قبائله للحصول على أحقيتهم في حكم المغرب العربي الإسلامي وفرض نفوذهم، يظهر من ذلك أنَّه كان عاملاً آخر في اندلاع الثورات وقيام

(١) جبل الكواكب (تيزيران): أعلا جبل في قبيلة غمارة يقع بين شفشاون والحسيمة. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢١٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ٢٣١-٢٣٣؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢١٠.

(٣) الصفدي، خليل بن أبيك. (د.ت). الوفاي بالوفيات. تح: أبو عبد الله جلال الأسيوطي. ج ٣. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ١٠٥-١٠٦.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٧٧، ٣٤٥، ٣٥٠؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٦-٢٧٥.

(٥) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٩٧-٤٠٠؛ ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٥٧، ٦١؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٦٨.

الاضطرابات بالمغرب على خلاف الأندلس التي كان سكانها أكثر رضوخاً للحكام كما يبدو من الحديث عن الثورات وخطورتها على دولة الموحدين، وبداية هذه الثورات كانت مع قيام أهل هرغة وتتمثل احتجاجاً على سياسة الخليفة عبد المؤمن بحصره وراثته الحكم في أسرته واستئثار أبنائه بالحكم، وعدم التزام الخليفة بعهد الأمان الذي أعطاه لقبيلة جزولة عندما قتل مقاتليها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، حتى قال الخليفة عن هذه الثورة لأبي حفص الهنتاني: "قامت الناقاة بحملها يا أبا حفص، فأجابه نرقدها إن شاء الله"، ليتمكّن أبو حفص بذلك من هزيمة قبيلتي جزولة ولمطة في السوس وإعادة الطاعة للموحدين^(١)، لكنّ هذه القبائل لم تنسَ ما فعله الخليفة عبد المؤمن معهم، فكان هذا أحد أسباب محاولة الحفصيين فصل المغرب العربي الإسلامي عن الأندلس، وقيام الثورات في السوس الأقصى، مثل ثورة علي بن يدر الهنتاني الذي ادّعى انتسابه لعرب الفتح ولسلالة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ؛ مستغلاً الاضطراب في عهد الخليفة المرتضى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، فجمع حوله القبائل نفسها التي قمعها الخليفة عبد المؤمن من جزولة ولمطة وصنهاجة والعرب الذين استقدمهم من شرق المغرب، ويبدو من ثورته هذه أنها كانت لتحقيق رغبة قبيلة هنتانة بنقل حكم المغرب العربي الإسلامي إليها من أبناء عبد المؤمن، وأهم ما ميز ثورته أنها كانت إحدى عوامل سقوط دولة الموحدين؛ لأنها استمرت حتى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م^(٢)، يتضح من ذلك أنّ القبائل لم تكن راضية عن حكم بني عبد المؤمن، وقبيلة هنتانة التي قامت عليها دولة الموحدين مساهمة في سقوط هذه الدولة أيضاً، وكذلك قبيلة جزولة التي أسهمت في ذلك أيضاً منذ عهد الخليفة الناصر، عندما ثار عبد الرحمن الجزولي المعروف بابن قصبه سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، ورغم قضاء الناصر على ثورته^(٣)، إلا أنّ قبيلة جزولة استمرت بثورتها تحت زعامة أبي القاسم عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي^(٤) الذي ادّعى النسب القحطاني كمحاولة لإثبات مهادته سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(٥)، وهي سنة قتل محمد بن عبد الله بن العاضد في جبل ورغة من أحواز فاس^(٦)، ومن ثم قتل رجل آخر ادّعى أنّه فاطمي في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م^(٧).

(١) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٧.

(٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٤٠٢ - ٤٠٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٩١، ٣٦٧-٣٦٩.

(٣) المراكشي. المعجب. ص ٢٣٢.

(٤) ابن الزيات. التشوف. ص ٤٥٣.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٣٦؛ ذكر أن اتباعه حيّوه بتحية الملك ودعوه بالخليفة، توفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م.

=السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. (١٩٦٥م). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. ج ٢.

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. مصر. ط ١. ص ٩٣.

(٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧١؛ الجزنائي. زهرة الأس. ص ٤٣؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢١٨.

(٧) المراكشي. المعجب. ص ٢٣٩-٢٤٠؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢. ص ١٨٩؛ ذكر ابن عذاري أنّه قام بين قبائل جزولة، أما

من ذلك يلحظ أنَّ الثورات في عصر الموحدين كان هدفها سلطوي أكثر من الهدف العقائدي، وهذا ما مهّد لقيام حركات انفصالية بين قبائل المغرب العربي الإسلامي نتج عنها قيام ثلاث دول: الحفصيون في إفريقية، وبنو عبد الواد بالمغرب الأوسط وبنو مرين في المغرب الأقصى، أمّا في الأندلس فقد نشأت ولايات عدة تابعة للممالك المسيحية؛ ممّا تسبب في تمزيق جسد دولة الموحدين وضعفها ثم انهيارها.

٢- تجزئة دولة الموحدين:

بقيت دولة الموحدين موحدةً بحدودها التي رسمها الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف حتّى خلافة الناصر وهزيمته في معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م، والتي نتج عنها عودة الروح الانفصالية لقبائل المغرب وأهل الأندلس، وميلهم للاستقرار في مقاطعات صغيرة تضمن لهم الحفاظ على كياناتهم ضمن مجموعات قبلية وقومية بدويلاتٍ منفصلةٍ عن الحكم المركزي؛ مستغلين التخبط السياسي الذي أصاب الدولة بعد هزيمتها للتخلص من الحكم العام الذي فرض عليهم منذ قيام الدولة الفاطمية في المغرب العربي الإسلامي ومن ثمّ الدولة المرابطية في المغرب الأقصى والأندلس؛ لتتبعها الدولة الموحديّة التي فرضت نفوذها على معظم أراضي المسلمين في المغرب والأندلس، وهذا ربما السبب في محاولاتهم هزّ كيان الدولة بالانتفاضات والثورات حتّى نجحوا في غايتهم في عهد الخليفين المستنصر والمأمون، ومن أهم هذه الحركات التي مرّقت جسد الدولة الموحديّة وأكثرها فاعليّة:

أ- حركة بني مرين:

بنو مرين: قبائل صحراوية^(١) زناتية يتصفون بالترحال والبداءة، كان موطنهم قبل دخولهم المغرب الأقصى في المنطقة الممتدة بين فكيك وملوية^(٢)؛ مبتعدين عن الأرياف والتلول التي سيطرت عليها قبائل زناتية أخرى من بني بلومي وومانو^(٣)، رغم ذلك تميّزت قبيلة بني مرين في عصر الموحدين بعدم الخضوع لهم مفضلةً العلاقات السلمية معهم، وهذا ما يحسب للموحدين؛ لأنّ بني مرين عرفوا بغاراتهم المتكررة على دولة المرابطين الذين حاولوا تجنيد أبنائها بالجيش المرابطي^(٤)، واتبع الخليفة المنصور هذه الغاية بتجنيدهم واستخدامهم في معركة الأرك^(٥)، لكنّ ذلك لم يخضعهم

ابن خلدون ذكر أنّه قام بنواحي فاس. ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦٦؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٣٧.

(١) ليون الإفريقي. وصف إفريقيا. ج ١. ص ٣٤٢.

(٢) وادي ملوية: هو نهر كبير بين تلمسان ورباط تازا يصب في البحر المتوسط. مجهول. الاستبصار. ص ١٧٧؛ المراكشي. المعجب. ص ٢٦٢.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٢٢١-٢٢٢؛ جوليان. تاريخ شمال إفريقيا. ج ٢. ص ٢١٢.

(٤) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٢٠.

(٥) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٢٣؛ التلمساني، محمد بن مرزوق. (١٩٨١م). المسند الصحيح الحسن في مآثر محاسن

لسلطة الموحيدين، والسبب كان طباعهم التي تميل للاستقلال، ولأنّ الموحيدين هزمهم مع بني توجين وعبد الواد^(١)، فشعروا بالضعف خاصةً مع تولية أبناء عمومتهم الهضاب والتلول ليغادروا المغرب الأقصى، وهذا ما تسبب بأزمة سياسية للدولة الموحدية بعد هزيمتها في معركة العقاب؛ إذ إنّ هذه القبائل تحرّرت من الصحراء واتّجهت إلى المغرب الأقصى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، لتصنع الفوضى فيه بعد استغلالهم تولية الخليفة المستنصر صغير السن، وحدث وباء عمّ المغرب العربي الإسلامي^(٢)، ورغم محاولات الخلفاء الموحيدين التصدي لهم إلا أنّهم لم ينجحوا في هزيمتهم سوى مرتين، الأولى: كانت سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م في معركة وقعت على ضفاف نهر السبو^(٣)، والثانية: كانت سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م في أحواز فاس خلال عهد الخليفة السعيد، ونتج عنها مهادنة بني مرين للخليفة وانضمامهم إلى جيشه سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م^(٤)، وربما هذا الانضمام كان محاولةً منهم للتخلص من جيرانهم بني عبد الواد في المغرب الأوسط، لأنّ حركة السعيد تسببت بالحدّ من نفوذ بني مرين في مدن مكناسة وفاس وملوية وتلمسان لصالح الموحيدين، بذلك لم يعدّ بنو مرين الموحيدين عدوً أساسياً لهم بقدر بني عبد الواد، يتضح ذلك من ذكر استردادهم للمدن التي فقدوها بعد مقتل الخليفة السعيد على يد السلطان يغمراسن بن زيان ٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م^(٥)، وربما كان ذلك سبباً في سعي بني مرين للسيطرة على مدينة مراكش بعد تيقنهم أنّه لا يمكنهم السيطرة على المغرب العربي الإسلامي إلا بالانطلاق من مغربه نحو مشرقه، لكن وضع المغرب العربي الإسلامي لم يسمح لهم بذلك، لتشابه حركتهم مع حركة المرابطين وليس الموحيدين، وذلك بسبب تنامي قوة بني عبد الواد والحفصيين مثلما كان حال بني زيري وحماة في عصر المرابطين، ولأنّهم لم يسيطروا إلّا على المغرب الأقصى في عهد الخليفة أبي دبوس الذي أرسل إليه السلطان يغمراسن رسالة تبرهن على قوة بني عبد الواد وامتداد نفوذهم، مفادها: "إياك أن تطع بني مرين فيما لديك، فأنا أكفيك شرهم، وأنا

مولانا أبي الحسن. تح: ماريّا خيسوس بيغيرا. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ص ١١٠؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون.**

ج ٧. ص ٢٢٢؛ القلقشندي. **صبح الأعشى.** ج ٥. ص ١٩٥.

^(١) ابن أبي زرع. **الذخيرة السنية.** ص ٢٤-٢٥؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون.** ج ٧. ص ٢٢١-٢٢٢.

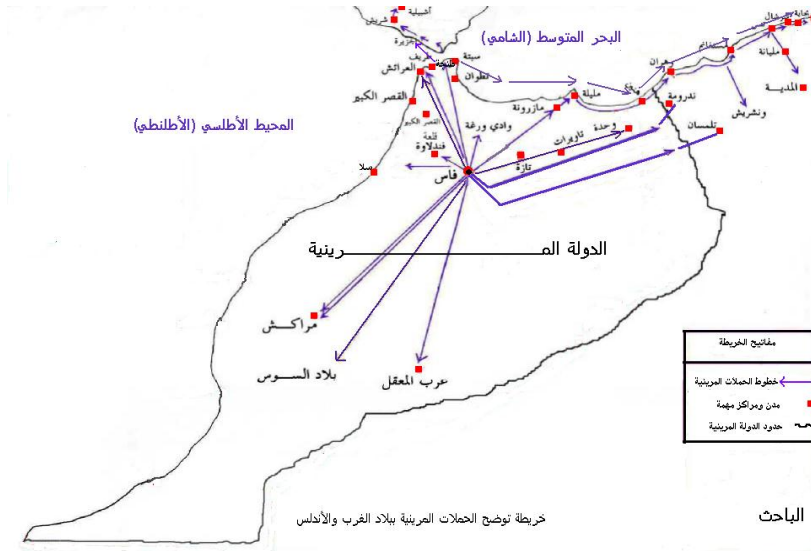
^(٢) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب.** ص ٢٨٢-٢٨٣؛ الجوّاري، رياض حميد، وطوسي، عذراء نوري. الحركات الانفصالية في المغرب خلال عصر الموحيدين (٦١٠-٦٦٨هـ/١٢١٣-١٢٦٩م). **مجلة الكلية الإسلامية الجامعية.** ج ١. ص ٥٤٤. الجامعة الإسلامية. العراق. ص ٧٠٣.

^(٣) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون.** ج ٧. ص ٢٢٥؛ جوليان. **تاريخ شمال إفريقيا.** ج ٢. ص ٢١٣؛ وادي السبو: قريب من مدينة فاس، منبعه من جبل بني وارين، يغذي مدن مكناسة وفاس. الحميري. **الروض المعطار.** ص ٦٠٦.

^(٤) ابن أبي زرع. **الذخيرة السنية.** ص ٦٢-٦٣، ٧٠-٧٣؛ وذكر ابن خلدون أن بني مرين أرادوا الانفصال عن الموحيدين ومبايعة الحفصيين في إفريقيا. ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون.** ج ٧. ص ٢٢٨.

^(٥) ابن عذاري. **البيان قسم الموحيدين.** ص ٣٨٥-٣٨٧؛ ابن أبي زرع. **الذخيرة السنية.** ص ٧٢.

وأنت يدٌ واحدةٌ في حريهم"^(١)، وهذا يعلل سبب اكتفاء بني مرين بإسقاط مدينة مراكش سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م بعد هزيمتهم لبني عبد الواد سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م^(٢).



المصور رقم ١٢، الحملات المرينية.

(غومة، سالم أبو القاسم محمد. النظم الحربية في دولة بني مرين. ص ١٤٢).

ب - حركة بني عبد الواد:

تسبَّب اتباعُ الموحيين لسياسة إقطاع القبائل الموالية لهم المناطق التي تفصلهم عن شرق المغرب العربي الإسلامي بغاية التصدي لبني غانية، في طمع هذه القبائل ومحاولتها الاستقلال عن الدولة، فالموحدون أقطعوا القبائل المدن والحوضر بهدف تهذيب انتمائهم وتقوية قواعد المدن بهم، ومن هذه القبائل كان بنو عبد الواد من بني واسين وبني راشد وأبناء عمومتهم بني توجين الذين سارعوا للانتقال في العصر الموحي من الصحراء إلى التلؤلؤ والمدن^(٣)، خاصةً بني عبد الواد الذين اتجهوا إلى تلمسان لما وجدوا فيها من خصب الأرض وحسن المعيشة، وذكر ابن خلدون عن ذلك في قوله: " ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع بالآجر والفهر (الحجر) تغلى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم وكرسياً لسلطانهم"^(٤)، حيث إن بني عبد الواد بقوا على طاعة الموحيين حتى مرحلة ضعف الدولة الموحدية وقيام حركتي الحفصيين في إفريقيا وبني مرين في المغرب الأقصى، ليظهروا طمعهم هم أيضاً في حكم المغرب العربي الإسلامي، خاصةً عندما بايع شيخ بني عبد الواد جابر بن يوسف بن محمد ت. ٦٢٩هـ/١٢٣١م الخليفة المأمون سنة

(١) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ١١٢.

(٢) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ١١٦؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٦٩-١٧٠.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٠٤؛ موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٧٣.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٠٥.

٦٢٧هـ/١٢٢٩م فكتب له الخليفة إدريس المأمون العهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة^(١)، ليكون ذلك دافعاً لبداية تأسيسهم دولتهم التي تمت على يد السلطان يغمراسن بعد تنظيمه لقبائله وتجاوزه الخلافات بينهم^(٢)، وزاد إصراره هذا توليته من قبل الحفصيين منصب نائبيهم على تلمسان بعد سيطرتهم عليها سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، فأسس بذلك السلطان يغمراسن دولة استمرت حوالي ثلاثمئة وعشرين سنة، وقد قال يحيى بن خلدون عن تأسيسهم دولتهم وصراعهم مع بني مرين: "كانت الحرب (بين الموحدين وبني مرين) سجلاً إلى سنة ثلاث وعشرين وستمئة للهجرة (١٢٢٦م) ... عند اضطراب الدولة المؤمنية، فهناك تطاول هذا القبيل إلى ملك الوطن والاستحواذ عليه وشرعوا في تطويعهم"^(٣).

ت - حركة الحفصيين:

أسهمت قبيلة هنتانة المصمودية التي ينتمي إليها الحفصيون في قيام دولة الموحدين ودعمها في جميع أطوارها حتى خلافة الناصر، وعلى الرغم من سياسة الموحدين بإبعادهم عن منصب الحكم إلا أن الخلفاء قريوهم منهم واستشاروهم بأمر الحكم والقيادة العسكرية، فكان لهم مناصب مهمة في الدولة حتى تولية الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ٦٠٤-٦١٨هـ/١٢٠٧-١٢٢١م أمور إفريقية من قبل الخليفة الناصر بعد انتصاره على بني غانية وعزمه العودة إلى المغرب، ذكر ابن خلدون عن ذلك "بدا له ابن غانية سيخالفه إليها، وأن مراكش بعيدة عن الصريح، وأنه لا بد من رجل يسد فيها مسد الخلافة ويقوم بها شؤون الملك، فوقع اختياره على أبي محمد بن الشيخ ابن حفص"، لكن أبا محمد امتنع عن ولاية إفريقية في بداية أمره، ولم يرض بولايتها إلا بتقديم صلاحيات واسعة، شملت عدم عودته إلى المغرب إلا بعد قضاء مهمات إفريقية بثلاث سنوات، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين ولا يتعقب عليه في توليته وعزله، ليبدو من هذه الشروط أن أبا محمد أراد أن يضم قوات الموحدين إلى صفه في إفريقية، وربما كان هذا السبب في ضعف الجيش الموحي بالمغرب الأقصى على حساب تنامي قوته بإفريقية، لأن الخليفة كما ذكر ابن خلدون كان يرسل إليه الأموال والنفقات والعطايا^(٤)، فانفرد الحفصيون بحكم إفريقية بعيداً عن تدخل السلطة المركزية حتى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(٥)، وكذلك لأنه بعد وفاة الخليفة الناصر وتولية المستنصر ظهرت أطماع أبي

(١) يحيى بن خلدون. بغية الرواد. ج ١. ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٠٦.

(٣) يحيى بن خلدون. بغية الرواد. ج ١. ص ١٠٤-١٠٥، ١١٢.

(٤) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧٤؛ الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ١٨.

(٥) ابن الشماخ، محمد بن أحمد. (٩٨٤م). الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تح: الطاهر بن محمد المعموري. تونس. الدار العربية للكتاب. ص ٥٢؛ قسومة، محمد الصالح وإعجال، ياسين. (٢٠١٧م). المغرب الأوسط في ظل الحروب والصراعات ما بين القرنين السابع والعاشر هجريين (ق: ٧-١٠هـ/١٣-١٦م). ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة حمه لخضر بالوادي. الجزائر. ص ١٥.

محمد عندما امتنع عن مبايعة الخليفة المستنصر وتولية ابنه أبي زيد عبد الرحمن من بعده ولاية إفريقية^(١)، فكان هذا أول بوادر تمرد الحفصيين على الخلفاء الموحيدين خاصةً عندما جعلوا ولاية إفريقية وراثيةً بينهم، لكنّ الموحيدين تنبهوا لمحاولة الحفصيين فعزلوا عبد الرحمن بعد ثلاثة أشهر من توليته، كما أساء الموحدون لأبناء عبد الواحد الحفصي^(٢)، فكان ذلك ربما الدافع لانفصال الحفصيين عن الدولة، وذلك لأنّ أسرة ابن حفص استعادت مكانتها في ولاية إفريقية في عهد الخليفة العادل بعد توليته الأمير عبد الله بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد الحفصي ٦١٨-٦٢٦هـ/١٢٢١-١٢٢٨م إفريقية سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م^(٣)، لكن بعد وفاة العادل وتسليم الخلافة لأخيه المأمون امتنع عبد الله عن مبايعة الخليفة المأمون ليدفع ذلك بالخليفة إلى عزله وتولية أخيه أبي زكريا يحيى بن حفص^(٤)، ورغم أنّ المأمون سعى بعمله هذا للحفاظ على طاعة إفريقية له إلا أنّه لم يصل لمبتغاه، لأن السلطان أبا زكريا أعلن نفسه أميراً على إفريقية سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م بعد خلع المأمون ومبايعة الأمير يحيى الناصر، ثمّ نقض بيعته يحيى بذريعة عجزه عن إدارة المغرب العربي الإسلامي^(٥)، وكان سبب ذلك قتل الخليفة المأمون لمشايخ قبائله من هنتانة وتينمل، ونقض المأمون مهادنة محمد بن تومرت وعقيدة التوحيد، ليجدد أبو زكريا البيعة لنفسه سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م ويستقل نهائياً عن الخلافة الموحدية بالمغرب الأقصى^(٦)، فقسمت بذلك دولة الموحيدين في المغرب العربي الإسلامي إلى أربع ولايات مستقلة يحكمها بنو حفص في إفريقية، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، وبنو مرّين في أطراف المغرب الأقصى والموحدون في المغرب الأقصى.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧٨؛ ذكر ابن قنفذ أنّ أهل إفريقية بعد وفاة أبي محمد انقسموا إلى فريقين فريق مال إلى ابنه أبي زيد وفريق آخر إلى ابن أخيه إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ أبي حفص. ابن قنفذ. الفراسية. ص ١٠٦.

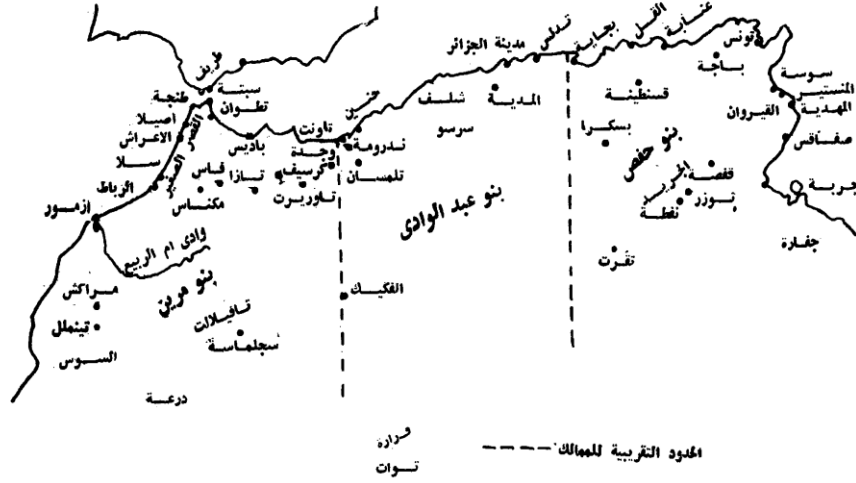
(٢) برنشفيك، روبر. (١٩٨٨م). تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م. تر: حمادي الساطي. ج ١. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٤٧.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧٩.

(٤) المطوي، محمد العروسي. (١٩٨٦م). السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ١١٥.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٨١.

(٦) الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٢٧؛ الجوّاري، وطوسي. الحركات الانفصالية. ص ٧١٤.



المصور رقم ١٣، تجزئة دولة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي.

(جوليان. تاريخ إفريقيا. ج ٢. ص ١٧٤).

ث - انفصال الأندلس عن الدولة الموحدية:

لم يكن المغرب العربي الإسلامي وحده ضحية هزيمة الموحدين في معركة العقاب وسياسة الخليفة المأمون؛ وإنما أيضاً الأندلس التي ظهر فيها أطماع انفصالية تمثلت بانفصال شرق الأندلس عن الحكم الموحيدي بزعامة ابن هود سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، بعد استيلائه على مدن مرسية وإشبيلية وقرطبة، ومبايعته من قبل أهل قرطبة وإشبيلية، فحكم هذه المدن باسم الخلافة العباسية في بغداد بدلاً من خلافة مراکش وطرد الموحدين منها، كما أعلن الطاعة لابن هود أهل مدن غرناطة ومالقة والمريّة^(١)، وهذا ما قوى سلطته، كما انفصل أبو جميل بن زيان بن مردنيش في بلنسية سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م^(٢)، وسيطر محمد بن يوسف بن الأحمر على جنوب الأندلس بعد ثورته بحصن أرجونة قرب قرطبة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م وامتلاكه غرناطة^(٣)، بذلك استقلت الأندلس عن الحكم الموحيدي والمغرب العربي الإسلامي، وتحوّلت إلى إمارات عدة تحكم ذاتياً من قبل أهلها.

لنلاحظ ممّا ذكر أنّ الأسباب العنف والاستبداد والعبودية؛ لذلك خضع أهل المغرب والأندلس لسلطة الموحدين خوفاً من سطوة الخلفاء الموحدين عليهم منذ عهد مؤسس دولتهم عبد المؤمن بن علي وصاحب دعوتهم المهدي محمد بن تومرت، يظهر ذلك من الممارسات التي انتهجها الموحّدون في حق أهل المغرب العربي الإسلامي من تقيئ^(٤) الأراضي وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال،

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٧٨؛ ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

(٢) ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ج ٢. ص ٢٤٢.

(٣) ابن سعيد. المغرب. ج ٢. ص ٥٢؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٩٦، ٣٥٧ - ٣٥٨؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٤) الفبيء: هو ما أخذ من غير المسلم بغير قتال، أي غنيمة تؤخذ من دون قتال، أو ما أرجعه الله للمسلمين من العدو، وربما =

فكان ذلك عاملاً لأزمة سياسية قبلية بين الحكام وقبائل المغرب العربي الإسلامي، كما تسببت سياسة الموحدين بالأندلس بتمييزها عن المغرب العربي الإسلامي في شرخ جسد الدولة إلى عدوتين منفصلتين عن بعضها بعضاً؛ لأنّ الموحدين لم يمارسوا بالأندلس ما مارسوه في المغرب العربي الإسلامي من سبي النساء والأطفال، ولم يقاسموا أهل الأندلس على أموالهم كما فعلوا بالمغرب^(١)، لذلك ربما كانت قبائل المغرب العربي الإسلامي تتحين الفرصة للخلاص من ظلم الموحدين لهم، خلافاً للأندلس التي سعت حركاتها الانفصالية لحماية أهلها من هجمات الممالك المسيحية بعد تمزق الدولة الموحدية في المغرب العربي الإسلامي وعدم قدرتهم على حماية أراضيهم، أمّا إفريقية فيعود السبب ربما لاحتضانهم بني غانية، وانفصالهم عن الموحدين في عصر الحفصيين إلى سياسة الخليفة عبد المؤمن مع أهلها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م عندما اشترط عليهم السلام مقابل تقديم أموالهم وكلّ ما يملكون إلى المخزن^(٢)، ورغم قول النويري إنّ هذه السياسة لم تطل إلا من لم يحصل على الأمان من قبل الخليفة عبد المؤمن^(٣)، إلا أنّ هذه السياسة ميزت بين سكان المغرب العربي الإسلامي وقبائله.

٣- الأزمات السياسية:

أ- أزمة المجتمع من سلطة الخلفاء الموحدين:

اتبع الموحدون سياسة صارمة تجاه الناس تخللها الظلم والقسوة منذ استيلائهم على السلطة من المرابطين؛ حيث فرضوا القوة لإخضاع العامة وإجبارهم على تقديم أموالهم وأبنائهم للدولة، حتّى وصل بهم الأمر إلى نكس عهودهم للقبائل خدمة لمصالحهم، ففي مكناسة وإفريقية أخذ الموحدون نصف محصول المزارعين من الفواكه وثلث غلة الزيتون، كما كان القشاشون^(٤) يجبرون الناس على بيع منتجاتهم بثمن زهيد أو شراء ما يخزنونه بثمن غالٍ، وفي جبل زرهون^(٥) دخل الموحدون سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م إليه ليسفكوا دماء أهله ويسبوا نساءهم، ويستبيحوا أموالهم لمدة يوم كامل رغم تأمين أهله وقطع العهود معهم^(٦)، ولم يتنبه الخليفة عبد المؤمن لممارسات الموحدين بحق رعاياه إلا في

=يقصد هنا غير المؤمنين بعقيدة التوحيد. كرزاز، فوزية. (٢٠١٤م). الموارد المالية بالدولة الموحدية بين ما هو مشروع وما هو مستحدث. مجلة عصور الجديدة. ع ١٦-١٧. جامعة وهران. الجزائر. ص ١٨٢.

(١) يلحظ ذلك مما ذكره ابن عذاري عن دخول الخليفة عبد المؤمن إلى المغرب والاندلس. ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) التيجاني. رحلة التيجاني. ص ٣٤٦؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ١٥٣.

(٣) النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤. ص ١٧١.

(٤) القشاشون: المتصرفون في بيع الأملاك وأبنائهم بالمعرفة بقدر غلاتها. ابن مرزوق. المسند الصحيح. ص ٣١١-٣١٢.

(٥) جبل زرهون: يبدأ من سهل الساييس على بعد عشرة أميال من فاس، يحده من الشرق مدينة فاس، ومن الغرب مدينة مكناس، فهو يقع بين المدينتين. ليون الإفريقي. وصف إفريقيا. ج ١. ص ٢٩٤.

(٦) المكناسي. الروض الهتون. ص ٨-١٠.

أواخر عهده عندما كتب رسالة يأمر بها الحكام باحترام الملكية الخاصة والكف عن العدوان على الناس.

أما القسوة فقد ظهرت مع المهدي محمد بن تومرت في عقوبات الضرب بالسوط لمن لا يلتزم بالأدب والقتل في حال تكرار الخطأ^(١)، واستمرّ الموحدون في هذه الممارسات التي تجاوزوا بها حدود الشرع بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت، فمالوا للقتل تحقيقاً لمصالحهم أو لفرضهم النظام على الناس، كما حدث في عهد الخليفة عبد المؤمن وحفيده محمد الناصر عندما قتل الموحدون اللصوص^(٢)، ووصل الأمر لدى الخلفاء إلى فرض نظامٍ أمنيٍّ بمراكش ينصُّ على قتل كل من يرفع صوته في الليل^(٣)، كما نظمت حملة لمطاردة المتقبلين^(٤) على كل شيء يباع وقتلهم^(٥)، كذلك نظمت حملة في عهد الخليفة المأمون لمطاردة الزنادقة وتطهير الأرض منهم^(٦)، كما ألقى الخلفاء القبض على الناس وقتلوهم لتركهم الصلاة دون تحرُّ أو إثبات هذه التهمة عليهم، ودون الرجوع إلى الشرع في هذه القضية بهدف نشر الرعب في قلوبهم، وهذا ما دفع الخليفة المنصور لتخفيف العقوبة إلى التعزير فقط^(٧)، لكنَّ القتل الجائر استمرَّ في عهد المنصور وخلفائه، فقد قتل المنصور أقرباءه دون الرجوع للقضاء في هذا الأمر كما ذكر في الفصل الثالث، ص ١٦٤-١٦٥، وقتل الموحدون صبيّاً أندلسياً مع أبيه لتوقعه نهاية دولة الموحدين وملكه للبلاد^(٨)، وفي عهد المأمون أصبح القاضي يصدر أوامره بتوجيه من الخليفة، حتّى أنّ الخليفة المأمون قتل أشياخ الموحدين وأبناءهم برضى قاضي الجماعة دون الاستناد إلى فتوى شرعية في ذلك، كما قتل ابن أخته الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره مع أبناء الشيوخ^(٩)، وفي عهد الخليفة المرتضى قتل رجلاً يدعى ولد بن صمر بأمر من الأشياخ والوزراء عندما نقض عصمة المهدي في خطبة الجمعة بمراكش^(١٠)، كذلك قتل الخليفة الرشيد القاضي محمد

(١) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨١، ٨٣، ١٨٧-١٨٩.

(٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٥٨؛ النويري. نهاية الأرب. ج ٢٤، ص ١٧٥-١٧٦.

(٣) ابن الزيات. التشوف. ص ٤٥٥.

(٤) المتقبلين والخراسون: هم المتخصصون بالضرائب غير الشرعية، لم تكن الدولة تعطيهم رواتب؛ لذلك كانوا يلجؤون إلى التعدي في تحصيل الضرائب وينقاضون الرشاوي، حتى وصف المتقبلين بأشر خلق الله الذين يضرون بالسكان ولا نفع منهم. ابن عبدون.

رسالة في آداب الحسية. ص ٧-٥، ٣٠.

(٥) الحميري. الروض المعطار. ص ٥٤١.

(٦) ابن سعيد. المغرب. ج ١. ص ٢٩٦.

(٧) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٧. ص ١٢.

(٨) الأوسي. الذيل والتكملة. ج ٥. ص ٤٧-٤٨.

(٩) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٨٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٥٢.

(١٠) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٤٤٥-٤٤٦.

بن عيسى المومني^(١) لتمنيه وصول أبي حفص بن عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الحكم سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م^(٢)، لذلك كان يتم القتل بأمر من الخليفة والأشياخ والوزراء دون الرجوع للقضاء؛ ليسبب ذلك أزمة سياسية داخل الدولة، عانى منها الناس خاصة عندما وضعت سلاسل حديد على أعناقهم في حال تمردهم^(٣).

ورغم معاناة القضاء من تسلط أصحاب المناصب العليا بالدولة إلا أن الخلفاء حاولوا إنصاف الناس في حال تقديمهم شكاوى ضد الولاة الموحدين، ففي عهد الخليفة يوسف قدم أهل بجاية شكوى ضد واليها الحافظ أبي بكر بن وزير سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، لأن قاضي المدينة امتنع عن مقاضاته فعزله يوسف من منصبه^(٤)، وفي عهد الخليفة المنصور أسس خطة النظر بالمظالم ليطالع بها على أحوال الرعية في جامع مراكش، ولكثرة شكاوى الناس أسند الخليفة هذه المهمة لقاضي الجماعة^(٥)، لكن الخلفاء الموحدين لم يعودوا ينظرون لخطة المظالم بعد عهد الخليفة محمد الناصر، يظهر ذلك من احتجاج ابن القطان لعدم نظر الحكام الموحدين في مظالم الناس من تسلط الوزراء والأشياخ في عهد الخليفة المستنصر^(٦).

ب- الأزمات الناتجة عن سياسة الخلفاء الموحدين مع القبائل العربية:

انقلبت القبائل العربية من إفريقية إلى المغرب الأقصى في عهد الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف للاستعانة بهم في قمع الاضطرابات وتثبيت حكمهم، ولاستخدامهم في حروبهم ضد الممالك المسيحية في الأندلس، لكن كما يبدو مما ذكرته المصادر عن القبائل العربية أنهم زاولوا ما كانوا يمارسونه مع دولة بني زيري وحماد فيما تم التطرق له في الفصل الأول من الدراسة، ص ٢٥-٢٧، إذ انقسموا إلى قسمين مع ظهور بني غانية وقراقوش في إفريقية، ليحالف قسم منهم الموحدين ومنهم كان قبيلة زغبة فأصبحوا " يداً واحدة مع بني بادين من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية واتباعه"، والقسم الآخر منهم حالف بني غانية ضد الموحدين؛ ليتسبب هذا الانقسام في ضعف دولة الموحدين ومن ثم انهيارها، ظهر ذلك مع تقاعس العرب في معركة عمرة في عهد الخليفة المنصور إلا بعضاً منهم من بني رياح الذين حذر الموحدون منهم، ومن نتائج هذه المعركة كان تغريب الخليفة

(١) المومني: كان يدعى بالإمام لسعة علومه، وهو من أهل مدينة فاس، ولي قضاء قرطبة ومراكش في عصر الموحدين. ابن القاضي. حذوة الاقتباس. ج ١. ص ٢١٥.

(٢) الأوسي. الذيل والتكملة. ج ٥. ص ٢٥٠-٢٥١.

(٣) الونشريسي. المعيار المغرب. ج ٨. ص ٦٨.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٣٣-١٣٤.

(٥) المراكشي. المعجب. ص ٢٠٨؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٧٣.

(٦) الأوسي. الذيل والتكملة. ج ٥. ص ٣٠-٣٣.

لقبائل عربية عتاباً لهم مثل الأثبج ورياح وزغبة وجشم وسفيان، وأبقى زغبة في تلمسان، أما باقي القبائل نقلت إلى المغرب الأقصى، ليستفيد منها في الأماكن التي خلت من سكانها مثل تامسنا^(١)، ليدل ذلك على هرب السكان من مناطقهم بسبب سياسة الموحدين التعسفية في حقهم، وعلى تيقن الخليفة المنصور لخطورة القبائل العربية؛ موصياً الموحدين بعدم تركهم في راحة أو عطلة، فعليهم أن يستفيدوا منهم لتنظيم أمرهم^(٢)، لكنه لم يخالف سياسة جده وأبيه في استقطابهم للمغرب الأقصى^(٣)، ممّا جلب أزمة سياسية قبلية للدولة ظهرت مع دخول العرب في الفتن والقتال التي تعرضت لها البلاد بعد معركة العقاب، حيث ازدادت سلطتهم وممارساتهم في نشر الفوضى، وعظم أمرها بعد قتلهم للخليفة العادل، واستمالتهم من قبل المأمون عند عبوره إلى المغرب الأقصى، وذلك لأنهم حالفوا غريمه يحيى المعتصم أيضاً؛ زارعين بفضل ذلك الفوضى وعدم الاستقرار داخل الدولة، وبعد تولي الرشيد الخلافة استنصروا بابن هود والي الأندلس، إلا أن الرشيد هزمهم سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ومنعهم من تحقيق مرادهم^(٤)، لكنه لم يمنع أفعالهم فقد اشتد أمرهم بعد هزيمتهم حتى أخذوا يعتدون على المناطق، ويعبثون بالناس في كل مكان^(٥)، كما زحفوا مع المرينيين ينشرون الفساد، ويجبرون الناس على مغادرة قراهم مثلما فعلوا في بادس سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م^(٦)؛ لذلك تعدّ القبائل العربية من أهم أسباب ضعف دولة الموحدين ونقمة السكان على حكامها، بعد مضاعفة عددهم في المغرب الأقصى والأندلس.

ليستنتج من ذلك أنّ انهيار الدولة كان بسبب استخدام الموحدون للمرتزقة ضد قبائل المغرب العربي الإسلامي وإجبار هذه القبائل على التخلّي عن أملاكها وقراها، ليعيد بذلك الموحدون ما عانى منه أهل المغرب العربي الإسلامي عند دخول هذه القبائل العربية إليه قبل قيام دعوة المهدي محمد بن تومرت، وما أسفر عنه ذلك من هجرة قبائل المغرب العربي الإسلامي لمواطنها في المغرب الأوسط والتوجه إلى الصحراء كما ذكر في الفصل الأول من الدراسة، ص ٢٦-٢٧.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٧، ٤٤، ٥٤؛ موسى. النشاط الاقتصادي. ص ٩٨.

(٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٣٢؛ ذكر ابن أبي زرع ندم الخليفة المنصور لاستقطابه القبائل العربية إلى المغرب الأقصى. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٢٨-٤٣٠؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٢٠.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٧٣، ٣٣٣-٣٣٥.

(٥) ذكر ابن الزيات هول الفساد الذي نشره العرب في المغرب العربي من خلال اعتدائهم على الناس. ابن الزيات. التشوف. ص ٣٨٣.

(٦) البادسي، عبد الحق بن إسماعيل. (١٩٩٣م). المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الربيف. تح: سعيد أعراب. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ط ٢. ص ٦١، ٧٥، ٩٦.

ج- أزمة اهل الذمة:

تعود أزمة اهل الذمة إلى عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي في عصر الموحدين؛ لأن المهدي محمد بن تومرت لم يتخذ موقفاً واضحاً تجاههم رغم تعرضه لموضوع الجزية في كتاب أعز ما يطلب عند استعراضه للأحاديث المتعلقة في هذا الشأن دون التعليق عليها^(١)؛ لذلك ربما اتخذ الخليفة عبد المؤمن إجراءات صارمة تجاه أهل الذمة لتخوفه من ازدياد عددهم في المغرب العربي الإسلامي بعد عمليات القتل والتهجير التي مارسها بحق المسلمين المعارضين لعقيدة المهدي وخلافته عليهم؛ فضلاً عن فرضه تقديم القبائل المغربية للأموال والجنود وهذا إجراء لا يمكنه فرضه على أهل الذمة الذين يكتفي بأخذه الجزية منهم فقط؛ مما يؤدي إلى استنكار القبائل لسياسته، لهذا السبب ربما وضع قانوناً خاصاً بأهل الذمة ينص على دخولهم الإسلام ليفرض عليهم ما يفرضه على المسلمين أو مغادرتهم المغرب العربي الإسلامي، ظهر ذلك من عدم تعرض الخليفة عبد المؤمن لأهل الذمة في بداية تكوينه للدولة وفي حملات القتل التي مارسها ضد قبائل المغرب العربي الإسلامي، فلم يتعرض لأهل الذمة إلا بعد فتحه مدينة تونس سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، حيث لم يبق منهم إلا من أظهر الإسلام^(٢)، وهذا يفسر ربما استخدامه لفرق من الروم في جيشه؛ أي إن سبب معارضته لبقاء أهل الذمة في دولته كان سياسياً وليس عقائدياً، رغم أن بعض الدراسات ذكرت السبب في ذلك إلى انقسام اليهود إلى ريبانيين يستندون إلى كتاب التلمود، وإلى قرائين يعتمدون على التوراة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي؛ معللين السبب في أن القرائين كانوا أقرب إلى الإسلام ليكون دخولهم إليه أسهل من الريانيين الذين ادعوا الإسلام مخفين ولاءهم لديانتهم الأصلية^(٣)، فجعل ذلك السلطات تشكك بأمرهم وتقسوا عليهم، لكن هذا الاستنتاج لا يستند لنص واضح لأن وجودهم استمر في المغرب العربي الإسلامي، فالخليفة المنصور فرض على اليهود اللباس المميز؛ مما يعني أن اليهود كانوا متواجدين في عهده، وهذا يفسر ما ذكره ابن النقاش عن عدم وجود أهل الذمة في المغرب منذ سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(٤)، وصاحب قضية المهاجرين انتقل بتاريخ اليهود منذ تعمير مدينة فاس في عهد الأمير إدريس الثاني ١٩٢-٢١٣هـ/٨٠٧-٨٢٨م إلى الواقعة العظيمة بفاس سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م بين

(١) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٣٩٠-٣٩٤، ٤٥١-٤٥٤، ٤٧١ وما بعدها؛ المغراوي. الموحدون. ص ١١١.

(٢) ابن الأثير. الكامل. ج ٩. ص ٤٢٩؛ ذكر ابن تغري بردي ويوسف أشباخ سبباً آخر لقتل أهل الذمة وهو أن اليهود كانوا يقولون بمجيء السيد المسيح في المئة الخامسة للهجرة، ليستنتج من ذلك أن محمداً بن تومرت ربما بنى مهيته على هذا القول الذي لم يتم في عهده ولا في عهد خلفائه. ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج ٥. ص ٢٧١؛ أشباخ. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢٣٩.

(٣) الحكيم، السموعل بن يحيى. (١٩٨٩م). بذل المجهود في إفحام اليهود. دار القلم. دمشق: سورية. ط ١. ص ١٩٥-٢٠٠؛

بوتشيش. مباحث. ص ١٠٥.

(٤) ابن النقاش، محمد بن علي. (١٩٩٥م). الذمة في استعمال أهل الذمة. تح: عبد الله إبراهيم بن علي الطريقي. دار المسلم.

الرياض: السعودية. ص ١١٤.

المسلمين واليهود^(١)، كما ذكرت المصادر أنَّ الخليفة المأمون تساهل مع أهل الذمة عند بيعته، وأنَّ الخليفة السعيد تساهل مع اليهود حتَّى تحسنت أحوالهم في عهده^(٢)، ليدلَّ ذلك على انتشار اليهود والمسيحيين في عصر الموحدين، حتَّى أن البرزلي ذكر وجودهم في تونس عندما قال: لم تنقيد النساء المسيحيات في تونس بعلامة كما كان حال النساء اليهوديات^(٣)؛ لذلك من المستبعد أن يكون ما ذكرته المصادر عن إنهاء وجود أهل الذمة بالمغرب العربي الإسلامي صحيحاً، وإنما ربما كانت مرحلة تاريخية في ظروف معينة، أجبرت الخليفة عبد المؤمن على فرض الإسلام عليهم ثمَّ تجاوزها عند استقرار أمر دولته.

د - الأزمة الفقهية مع المذهب المالكي:

عانى فقهاء المذهب المالكي من أزمة سياسية وعقائدية في عصر الموحدين لأسباب عدة، منها:

(١) موقفهم من الحكم المرابطي؛ إذ عدَّوه الحكم الشرعي للمغرب العربي الإسلامي، حتَّى أنَّ السلاوي ذكر أنَّ ثورة القاضي عياض في سبتة كانت بسبب موقفه من حكم الأمير تاشفين بن علي على أن بيعته مازالت في أعناق أهل المغرب طالما هو حي^(٤).

(٢) النكران لخلافة الموحدين والخلافة العباسية هي الشرعية للمسلمين، ومن خطبهم التي كانت عند دخول بني غانية لبجاية والخطبة للعباسيين فيها "الحمد لله الذي أعاد الأمر لنصابه وأزاله من أيدي غاصبيه"^(٥)، حتَّى أنَّهم عملوا على نكران النسب القرشي للخلفاء الموحدين وإثبات النسب البربري عليهم لإسقاط شرعيتهم؛ ممَّا أدى لنفي فقهاء المالكية وقتلهم، ومن الذين شككوا بالنسب العربي للموحدين الفقيه ابن العربي الذي تعرض لسخط الخليفة عبد المؤمن؛ لأنَّه قال عن محمد بن تومرت إنَّه بربري^(٦)، عندما سأله عن لقائه بالإمام الغزالي الذي لم يقرَّ به، وربما هذا سبب وفاة ابن العربي مسموماً^(٧)، وكذلك من الفقهاء الذين تعرضوا للنفي للسبب نفسه أبو القاسم أخيل بن إدريس

(١) مجهول. (٢٠٠٤م). قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين. تح: محمد فتحة. دار أبي رقرق. الرباط: المغرب. ط ١. ص ٥٤-٥٥.

(٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٨٤، ٣٧٢.

(٣) البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي. (٢٠٠٢م). جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن والحكام المعروف بفتاوي البرزلي. تح: محمد الحبيب الهيلة. ج ٢. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٤٤.

(٤) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ١١٥.

(٥) الغبريني، أحمد بن أحمد. (١٩٧٩م). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تح: عادل نويهض.

دار الآفاق الجديدة. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ٤٦.

(٦) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٩٠.

(٧) المكناسي. الروض الهتون. ص ١٠.

الرندي ت. ٥٦١هـ/ ١١٦٥م الذي قال: " كيف تصح له خلافة وليس بقرشي" ^(١)، وابن رشد الحفيد الذي تعرض لمحنة في عهد الخليفة المنصور؛ لأنه ذكر في كتابه (الحيوان) " رأيت الزرافة عند ملك البربر" ^(٢).

(٣) اتهامهم من قبل المهدي محمد بن تومرت بالتقليد والتجسيم والاعتماد على كتب الفروع وتغليب رأي مالك على الكتاب والسنة ^(٣)، فكان موقف الموحدين معادياً لهم منذ بداية تأسيسهم للدولة. لذلك واجه فقهاء المالكية حملة الخلفاء الموحدين عليهم للتقليل من نفوذهم وتأثيرهم في المجتمع، وكرّد فعل دفاعي من قبل الفقهاء على أنفسهم، التجؤوا إلى مقاطعة السلطة والاختفاء والهجرة؛ خاصة مع تتبع الموحدين لكل من يظهر فيه قول أو فعل ضدهم، فاشتدت وطأتهم وتعرضوا للاعتقال والتغريب، وكان منهم ابن زرقون ^(٤) والعبدري ^(٥) والتادلي الذي توفي مغترباً في مكناسة ^(٦)، وفي المغرب الأوسط استدعى الخليفة يوسف يحيى الزواوي ^(٧)؛ لأنه ردّ على ابن حزم في كتابه (حجة الأيام وقدوة الأنام) ^(٨)، كذلك عمل على مراقبة الفقهاء ومتابعتهم مثلما تعرض عمارة بن يحيى ^(٩) وحسن المسيلي ^(١٠) لمضايقه ولاية الموحدين لهم.

(١) المقري. نفح الطيب. ج ٤. ص ٢٠٣.

(٢) المراكشي. المعجب. ص ٢٢٤.

(٣) ابن تومرت. أعز ما يطلب. ص ٤٠٤.

(٤) ابن زرقون: أبو الحسن محمد بن أبي عبد الله بن محمد الإشبيلي، عرف بتعصبه للمذهب المالكي، أودى من قبل الخلفاء الموحدين، أشهر كتبه المعلى والرد على المحلى لابن حزم، توفي سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م. الذهبي، محمد بن أحمد. (٩٨٥م). العبر في خبر من غير. تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول. ج ٣. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ١٨٤؛ اليافعي. مرآة الجنان. ج ٤. ص ٣٩.

(٥) العبدري: أبو الحسن علي بن صالح من فقهاء شرق الأندلس، قتل سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م. التنبكتي، أحمد بابا. (٢٠٠٠م). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديار. تح: محمد مطيع. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ص ٣٣٤.

(٦) التادلي: القاضي عبد الله بن محمد بن عيسى الفاسي وهو فقيه وعالم، كتب المدونة بعد حرقها من قبل الموحدين، سجن ثم أطلق سراحه ليتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. التنبكتي. نيل الإتهاج. ص ٢١٤؛ مخلوف، محمد بن محمد. (٢٠٠٣م). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج ١. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٢٣٧.

(٧) يحيى الزواوي: أبو زكريا يحيى بن علي ارتحل إلى المشرق الإسلامي طلباً للعلم، ثم عاد ليدرس في بجاية، توفي سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م. ابن الزيات. التشوف. ص ٤٢٨؛ الغبريني. عنوان الدراية. ص ١٢٧؛ مخلوف. شجرة النور. ج ١. ص ٢٦٤؛ نويهض، عادل. (٩٨٠م). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مؤسسة نويهض الثقافية. بيروت: لبنان. ط ٢. ص ١٦٨.

(٨) كنون. النبوغ المغربي. ج ١. ص ١٢٣.

(٩) أبو الطاهر عمارة بن يحيى له تأليف في علم الفرائض، توفي بعد سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م. الغبريني. عنوان الدراية. ص ٤٥ وما بعدها.

(١٠) حسن المسيلي: أبو علي حسن بن علي بن محمد، ولي قضاء بجاية ثم بقي على دراسة العلم، توفي حوالي ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م. الغبريني. عنوان الدراية. ص ٣٣-٣٥.

٤ - الأزمات الطبيعية وتعامل الخلفاء الموحدين معها:

عانت دولة الموحدين من أزمات طبيعية تراكمت مع الثورات والحروب التي مرت بها الدولة منذ نشأتها؛ لتؤدي هذه الشدائد إلى أزمات اجتماعية واقتصادية في مرحلة ضعف الدولة، وذلك كان لعدم تمكن الدولة من إعادة تنظيم نفسها، واستعادة قوتها وسيطرتها على المغرب والأندلس، ففي البداية تعاملت دولة الموحدين مع أزماتها بفرض سيطرتها على الناس والتحكم بغلات الأرض والتجار؛ مما ساعد على استمرارها، لكن عندما ضعفت سياسياً وعسكرياً لم يعد بإمكانها إعادة توازنها الاقتصادي؛ ليتسبب ذلك بفجوة كبيرة بين الناس والحكام لمصلحة عدوهم المتربص بهم من كل جانب.

أما بداية هذه الأزمات كانت في مرحلة صراع مع المرابطين سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م عندما ترافق مع الصراع مجاعات حتى أكل الناس الجيف لقلّة الطعام^(١)، كما حدث مجاعة سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م^(٢) وطوفان سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م في المنطقة الشمالية من المغرب العربي الإسلامي^(٣)، وهذه الفترة تعدّ من ضمن حكم المرابطين للمغرب العربي الإسلامي؛ لذلك كثيراً ما كانت تعاني البلاد في مرحلة ضعف الدولة، وربما هذا سبب معاناة المجتمع من صراعات الانتقال بين الحكام والقبائل؛ لآثمه رغم المجاعات استمرّ الموحدون في قتل الناس، حتى أنهم قتلوا في تلمسان الآلاف من العامة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م^(٤)، كما عانى الناس من حصار الموحدين لمدينة مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، فذكر البيهقي وفاة خلق عظيم منهم^(٥)، وابن عذاري وصف هول المجاعة لحدّ أكل السجناء بعضهم بعضاً إلى أن دخل الموحدون المدينة^(٦)، ولم يهدأ سكان المغرب والأندلس طول مدة حكم الخليفة عبد المؤمن؛ بسبب انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين، ولأنّ عهد الخليفة عبد المؤمن كان مليئاً بالثورات التي فرض سلطته عليها بالقوة والعنف، ليقتل كثيراً من الناس سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م^(٧)، خاصة أنّ الثورات رافقها أعمال سلب ونهب للعامة، كما حدث في ثورة لبلة بالأندلس^(٨)، لذلك تعدّ المجاعات أحد أهداف الحروب باستغلالها بين الأطراف المتنازعة، يظهر ذلك

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٢، ١٦.

(٢) ابن الزيات. التشوف. ص ١٨٣.

(٣) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٥٢-٥٣.

(٤) مجهول. الحلل الموشية. ص ١٣٥.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٦٤.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٧.

(٧) في حملات الوعظ والاعتراف التي أمر بها الخليفة عبد المؤمن ضد الثائرين على ولايته وعقيدة التوحيد. البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت. ص ٧٠-٧٢.

(٨) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٩٥.

في حكم الخليفة يوسف الذي عانى من الاضطرابات في بداية عهده حتى سنة ٥٦٤هـ/١٦٦٨م ليحدد ابن عذاري هذا التاريخ بداية لانفراج الدولة^(١) التي لم تعان سوى من مرض الطاعون، ويعود ذلك لتحكم الدولة بالأمور وقدرتها على تلافي الأزمات التي تتعرض لها بسبب قوتها، فالطاعون ضرب البلاد سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، ليحدث ضرراً بالدولة تسبب بإصابة الخليفة نفسه وأهل داره والعلماء، وبوفاة جملة من أقرباء الخليفة بسببه^(٢)، إلا أن الطاعون لم يضعف الدولة ويثني أمرها، رغم أن المرض رافقه غلاء بالأسعار^(٣)، وثورة صنهاجة القبلية سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وهجمات الممالك المسيحية في الأندلس على مدن شريش وباجة^(٤)، لكنهم لم يحققوا مرادهم في إضعاف الدولة التي لم تشهد ظاهرة مروعة يمكن التوقف عندها سوى الزلزال الذي ضرب المغرب العربي الإسلامي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(٥)، والغلاء في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، بسبب حريق قيسارية مراكش وسرقة اللصوص للتجار، إلا أن الخليفة محمد الناصر فرض سلطته لتلافي الأزمة عندما قبض على اللصوص وبناء القيسارية من جديد، وتحمله أعباء استتقال الأزمة إلى عماله في فاس وسبتة^(٦)، لكن بعد هزيمة الناصر في معركة العقاب، خرجت الأمور من أيدي الخلفاء إلى الثوار والناس، فمنذ عام ٦١٠هـ/١٢١٣م عانت البلاد من تحرر قبائل المغرب العربي الإسلامي من سلطة الخلفاء ليعود الحال إلى ما كانت عليه في مرحلة الصراع المرابطي الموحيدي، فبعد إهمال الخليفة الناصر لشؤون الدولة في أواخر عهده حدث وباء عظيم أنهك الناس في المغرب والأندلس سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، وظهر بنو مرّين؛ مستغلين انكسار الدولة والفوضى التي عمتها^(٧)، لتتالي بعدها سنوات من القحط والمجاعات كان أشهرها سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م التي سميت "سنة وقليل"^(٨) لقلة الطعام، وسنوات ٦١٦-٦١٧هـ/١٢١٩-١٢٢٠م التي رافقها هجوم الجراد^(٩)؛ ممّا دفع الخليفة المستنصر لاحتواء

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٠٤.

(٢) ابن الأبار، محمد بن عبد الله. (٩٨٦م). تحفة القادم. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط ١. ص ٧٢-٧٣؛ ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٣٦-١٣٧؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٦٧؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٢٢.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٦٧.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٣٤-١٤٠.

(٥) السيوطي، جلال الدين. (٩٧١م). كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تح: عبد اللطيف السعداني. وزارة الثقافة. الرباط: المغرب. ص ٤٨.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٥٧-٢٦٠.

(٧) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٢.

(٨) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦٧.

(٩) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٣؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٦٢؛ ذكر ابن أبي زرع في كتاب الذخيرة أن الخلفاء الموحدين بسبب ضعفهم لم يعد لهم سلطة على سكان البوادي، حتى نكت أكثر قبائل المغرب العربي طاعتهم. ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٣٥-٣٦.

الأزمة ببيع طعم المخزن للأغنياء بثمن وللفقراء بغير ثمن^(١)، لكن هذا الإجراء لم يحد من ظاهرة المجاعة التي تعاقت بين سنوات ٦١٩-٦٢٤هـ/١٢٢٢-١٢٢٦م، حتّى ذكر أنّ الناس بسببها أكلوا الجيف وعروق النبات، ومنهم من انتقل إلى الكهوف لفساد البلاد^(٢)، كما عانت الأندلس أيضاً بسبب تقديمها الأموال للممالك المسيحية من أجل شراء مهادنتها^(٣)، كذلك خربت المدن بسبب الحرب على السلطة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م^(٤) بين الخليفة المأمون وابن أخيه يحيى المعتصم، وعمّ المغرب العربي الإسلامي الوباء والجوع أيضاً بين سنتي ٦٣٠-٦٣٥هـ/١٢٣٢-١٢٣٧م بسبب غلاء القمح^(٥)، ولم يتخلص المغرب العربي الإسلامي من الأزمات الطبيعيّة إلا بعد سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م^(٦)، لكن لم يستقر أمره بسبب الحروب التي شهدتها البلاد حتّى سقوط دولة الموحدين.

لنلاحظ ممّا ذكر أنّ معاناة دولة الموحدين لم تكن من الأزمات الطبيعيّة التي أصابت بلادهم؛ وإنّما من الحروب التي نشبت بها ومن سوء تصرف الحكام مع هذه الأزمات وضعف إدارتهم للبلاد؛ لأنّ الأزمات الطبيعيّة حدثت طول حكم الموحدين للمغرب والأندلس، لكنّ هذه الأزمات لم تؤثر في الدولة إلّا في مرحلة ضعفها لعدم قدرة الحكام على احتواء هذه الأزمات والحدّ من تأثيرها في الناس؛ إذ اكتفوا بتشجيع الناس على تخزين الطعام بالمطامير^(٧)، لكنّ عجزهم السياسي والإداري يظهر مع تسليم الناس أنفسهم للممالك المسيحية طمعاً بحصولهم على الطعام وتحسين مستواهم المعيشي^(٨).

ثانياً: أسباب انهيار دولة الموحدين، ونتائج تطبيق الفكر السياسي لخلفائها على

المغرب العربي الإسلامي والأندلس:

١- عوامل انهيار الدولة:

بدأ يسطع نجم دولة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي مع بداية عهد الخليفة عبد المؤمن عندما أعاد الأهميّة لدعوة المهدي محمد بن تومرت بعد أن ضاعت مع هزيمة الموحدين في معركة البحيرة، وحين نجح في استقطاب القبائل إلى صفّه ليحقق بها الاستقرار والسلطان، وذلك لأنّه لا يمكن فرض سلطانه دون قوة بشرية تدعم شرعيته وتدير أمور الدولة إلى جانبه، وقد تتالى الأمر

(١) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٤١، ٢٧٤.

(٣) ابن نظيف الحموي، محمد بن علي. (١٩٨١م). التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان. تح: أبو العبد

دودو. مطبعة الحجاز. دمشق: سورية. ص ١٠٢.

(٤) ابن أبي زرع. الخير السنية. ص ٣٧.

(٥) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٦-٢٧٧؛ السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٦٤.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٥٧.

(٧) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٥١.

(٨) البادسي. المقصد الشريف. ص ٦١.

حتّى عهد حفيده يعقوب المنصور الذي وصلت الدولة في عهده إلى أوج قوتها واتساعها، لكن مع تولي ابنه محمد الناصر الخلافة وهزيمته في معركة العقاب اتضح أن سياسة الخلفاء الموحدين مثلما كانت عاملاً في قوتهم كانت عاملاً في ضعفهم أيضاً، فهم لم يراعوا عدم خضوع القبائل لسلطة أحد من غير قبيلتهم وحبّهم للانفراد بالملك^(١)؛ فضلاً عن تغافلهم أمر المشرق العربي الإسلامي الذي كان أكثر تطوراً من الناحية الفكرية والسياسية، فما سياسة الموحدين إلا استمرار لتعاليم المشرق العربي الإسلامي وتطوره، لذلك كان هذا العامل من أهم عوامل ضعف دولة الموحدين منذ نشأتها، كما كان هنالك عوامل أخرى تسببت في سقوط الدولة أغفلها الخلفاء، أهمها:

١. العامل السياسي:

كان لمبدأ وراثته الحكم الذي اتخذه الخليفة عبد المؤمن بن علي دور في ضعف الدولة؛ لأنّه تسبب بالثورات المناهضة لهذا الفكر الذي انتقل به الخليفة من المبدأ الذي نادى به المهدي محمد بن تومرت إلى الفكر السلطوي، ولأنّه أظهر ضعف اختيار الخلفاء لولاء العهد والذي بدأ مع خلع الخليفة عبد المؤمن لابنه محمد لسوء سمعته وتولية ابنه يوسف؛ ممّا تسبب بعدم ثقة الناس والموحدين بالخلفاء حتّى أنّهم لم يبايعوا يوسف إلا بعد أن تأكدوا من قدرته على إدارة البلاد^(٢)، كما كان ذلك مأساة على الأسرة الحاكمة نفسها عندما انتهجت القتل السياسي للوصول إلى الخلافة، فدخلت في صراع دموي قتل به الخليفة المنصور أخويه وعمّه كما ذكر في الفصل الثالث، ص ١٦٤-١٦٥، ومن ثمّ دخلت الدولة بمرحلة ضعف في عهد الخليفة الناصر عندما انقسمت الدولة إلى قسمين: قسم يحكمه الحفصيون في إفريقية، وقسم آخر يحكمه الموحدون في المغرب الأقصى، لينشق قسم الموحدين عند وفاة الخليفة المستنصر إلى قسمين أيضاً بتولي عبد الواحد المخلوع السلطة في مراكش والعاقل والي مرسية الأندلس، كما ظهر عبد الله البياسي^(٣) في الأندلس مطالباً في الحكم أيضاً، ثمّ انحصر الصراع بين يحيى المعتصم بن الناصر في مراكش وعمّه إدريس المأمون في إشبيلية^(٤)، وربما كان ذلك سبباً في ضياع شرعية منصب الخلافة؛ ممّا تسبب في انفصال قبائل المغرب العربي الإسلامي وميلهم نحو الدول المستقلة التي تدار من قبلهم، خاصة بعد عودة تدخل أشياخ الموحدين

(١) بخدة، طاهر. (٢٠١٧م). الهجرة في المغرب الأوسط وأثارها من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري/ق ١٢-١٤م. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران ١ أحمد بن بلة. وهران: الجزائر. ص ٧٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة. ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) عبد الله البياسي: ينتمي لأسرة الخليفة عبد المؤمن بن علي، ذكر ابن عذاري أنّ الخليفة أبا محمد عبد الواحد بن أخي جده، ولاء الخليفة العادل قرطبة، فخلع دعوة العادل، واستعان بالممالك المسيحية بعد اعتناقه الديانة المسيحية، هزمه أبو العلاء إدريس وتوفي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م. ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٧٠-٢٧٣.

(٤) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٢٦٩-٢٧٤.

بشؤون الدولة بعد توليتهم المستنصر صغير السن وقتلهم للخليفة عبد الواحد والعاذل، ثم استمالتهم لفئات المجتمع في معاداتهم لبعضهم بعضاً؛ لينتاب المجتمع الموحدى شرحً سياسى واجتماعى أدخله فى حالة فوضى^(١)، دفع الناس للميل نحو الاستقرار بالخلص من حكم الموحدى، فلم يعد لقرارات الخلفاء الموحدى تأثيرٌ على أهل المغرب العربى الإسلامى، وجعل ذلك الدولة عرضة لهجمات أعدائها من كل صوب، ومنهم كان الجنويون الذين هاجموا سبتة سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(٢)، والقشتاليون الذين دخلوا مدينة سلا سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م^(٣).

٢. العامل العقائدى:

مذاهب متفرقة ومتناقضة اعتمدها الموحدون (غياب الوطنية) لم تُرضِ أهل المغرب والأندلس؛ لذلك عوّل الموحدون فى فرضها على القوة وسفك الدماء، فكان لهذا العمل أثرٌ فى نفوس الناس الذين أعربوا عن رفضهم لهذا الأسلوب بالثورات والانتفاضات، ومع خلافة المنصور حظى العلماء بفرصة لإظهار نقدهم للعقيدة وكشف عيوبها^(٤)؛ مستغلين عدم قناعة الخليفة بها، لتنتهى فى عهد ابنه الخليفة المأمون الذى لم يكتفِ بالغائها، وإنما قتل المأمون كثيرٌ من شيوخ الموحدى وحكامهم، فكان لهذا الإجراء أثرٌ فى الدولة تسبب فى ضعفها بتخلي أتباع العقيدة الموحدية عنه بعد مساندة المالكية لحكمه^(٥)، وبتزايد أطماع أعدائه من بني مرين للإطاحة بحكم الموحدى، كما تسبب باستقلال حلفائه من الحفصيين فى إفريقية، وبني عبد الواد بالمغرب الأقصى.

على الرغم من محاولة الخليفة الرشيد العودة إلى العقيدة بتشجيع من أشياخ الموحدى كمحاولة منهم لسدّ الفراغ السياسى الذى أصاب الدولة خاصةً مع منافسة يحيى المعتصم للخليفة؛ بإعلانه الولاء لعقيدة المهدي محمد بن تومرت ودخوله مراكش، إلا أنّ ذلك لم يحقق غايته فى إنهاء الخلافات بين عائلة عبد المؤمن بن علي حتى بعد وفاة يحيى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م^(٦)، خاصة مع ظهور عرب الخلط الذين حالفهم الخليفة السعيد ومحاربتهم لبني مرين، ومحاولته إعادة الهيبة للدولة

(١) موسى. دراسات. ص ٩٨.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٦.

(٣) ابن عذارى. البيان - قسم الموحدى. ص ٤١٧ - ٤٢٠؛ صديقي، عبد الجبار. (٢٠١٤م). سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية فى الأسباب والتداعيات. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر. ص ١١٥.

(٤) علام، عبد الله علي. (٢٠٠٧م). الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن علي. المطبعة الشعبية للجيش. الجزائر. ص ٣٠١-٣٠٤.

(٥) عاد المذهب المالكي إلى حضرة الدولة الموحدية منذ عهد الخليفة المأمون بعد اعترافه رسمياً بالمذهب المالكي. جدو، فاطمة الزهرة. (٢٠٠٨م). السلطة والمتصوفة فى الأندلس عهد المرابطين والموحدى. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة: الجزائر. ص ١٣٤، ١٣٦.

(٦) ابن عذارى. البيان - قسم الموحدى. ص ٣١٧ وما بعدها؛ ميرندا. التاريخ السياسى. ص ٤٨٣-٤٩٤.

بضمّ معظم أراضيها في المغرب العربي الإسلامي إلى سلطته، لكن وفاته كانت ضربة النهاية لهذا المشروع بعد عودة الصراع بين الخليفة المرتضى وأبي دبوس الوثائق الطامع بالسلطة لتنتهي الدولة على يده سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م بدخول بني مرّين مدينة مراكش، وربما كان للمتصوفة دورٌ في هذا السقوط لأنّهم حالفوا أعداء الموحدين، فقد دعموا أبا عبد الله محمد بن يوسف بن هود ت. ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ضد الموحدين، وحالفوا السلطان المرينيّ أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨-٦٨٥هـ/١٢٥٩-١٢٨٦م، ولم يقفوا إلى جانب الخليفة أبي دبوس رغم محاولته استمالتهم إلى صفّه^(١).

لنلاحظ من ذلك أنّ انقسام الدولة الذي تسبب به أشياخ الموحدين بمحالفتهم ليحيى المعتصم ضد عمّه الخليفة المأمون، لم يعد قابلاً للإصلاح، وإن كانت الغاية منه العودة إلى عقيدة المهدي محمد بن تومرت، وذلك لأنّ انقسام الدولة والطمع بالسلطة اشتدّ بين الخلفاء ليحالفوا أعداءهم من الممالك المسيحية في إسبانيا وبني مرّين في المغرب العربي الإسلامي؛ لينتج عن ذلك مقتل الخليفة أبي دبوس الوثائق^(٢)، وإنهاء حكم الموحدين في المغرب والأندلس.

٣. العامل الاقتصادي في الفكر السياسي الموحي:

انتقلت السلطة في فترة الصراع بين المرابطين والموحدين من القبائل البدوية إلى القبائل الحضرية، وهذا ما جعل محمود إسماعيل يفترض أنّه صراعٌ بين الأقطاع وأصحاب الأموال، بعدّ المهدي محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي ينتميان إلى طبقة أصحاب الأموال في المجتمع، التي دعمها المريدون بحكم نشاطهم الذي يعدّ حصاداً للتجارة التي تزودهم بالأموال، فكان لهذا النشاط الصوفي أثرٌ في المهدي محمد بن تومرت؛ لذلك عدّت دعوته استمراراً لعمل المرّيين على استعادة ما سلبه منهم المرابطون بعد سيطرتهم على المدن التجارية المهمة مثل ألمرية وسجلماسة وتارودانت وتأسيسهم لمدينة مراكش التي سيطروا بها على تجارة الصحراء، وهذا ربما سبب العلاقة المقربة بين المهدي محمد بن تومرت والتجار اليهود، لذلك كانت ثورته انتفاضة لأصحاب الأموال في وجه الإقطاع العسكري المرابطي^(٣).

من هذا المبدأ يمكن أيضاً افتراض أنّ الدولة التي قامت على أساس السيطرة التجارية ستتهار إن لم يتوفر لها مقومات تدعم ما قامت من أجله من توفير الأمن والاستقرار للبلاد؛ لترسخ بذلك مصالحها السياسيّة والاقتصاديّة في إدارة الحكم، لكنّ سياسة الخلفاء الموحدين تضاربت مع

(١) الشريف، محمد. (د.ت). ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب: الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحي. مقال في وزارة الثقافة. المغرب. ص ١-٣؛ صديقي. سقوط الدولة الموحيّة. ص ١٣١.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٧.

(٣) إسماعيل، محمود. (١٩٨٨م). فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية. مكتبة مدبولي. القاهرة: مصر. ط ١. ص ١٢٥-١٣٨.

مصالحهم الاقتصادية، رغم أنه في بدايتها كانت تقوم على أساس دعم القطاع الاقتصادي المختص بالصناعات العسكرية والحرفية، وتوفير الأمن للطرق التجارية، إلا أن الغاية من دعم الخلفاء لهذا القطاع كان توفير متطلبات الجيش في حروبه التي لم تهدم، على حساب حاجة السكان من توفير مواد غذائية ومتطلبات المعيشة خاصة في فترة حدوث الأزمات الطبيعية التي انتابت البلاد، وهذا ما تسبب في قلة الإنتاج الزراعي، وميل الناس نحو الانخراط بالجيش والهجرة من الريف إلى المدن^(١)، فأضعف هذا العامل قوة الدولة الإنتاجية في القطاع الزراعي.

ولم يكن القطاع الزراعي المتضرر الوحيد من سياسة الموحيدين؛ وإنما التجارة عانت أيضاً من الأوبئة والحروب، وانتشار قطاع الطرق واللصوص الذين ازداد عددهم في الدولة، وربما كان ذلك بسبب سياسة الموحيدين مع القبائل العربية التي عرفت في هذا المجال وامتهانه، فهم أكثر الفئات اشتغالاً بقطع الطرق وامتهاناً للصوصية وممارسةً للسلب والنهب وتخريب الزرع^(٢)؛ لذلك كانوا الأكثر نشاطاً في فترة ضعف دولة الموحيدين، والذي زاد الأمر سوءاً أن الموحيدين لم يقفوا في وجههم بسبب عجزهم عن ردعهم أو استمالتهم إلى صفهم، كما فعل الخليفة الرشيد مع عرب الخلط^(٣)، كل ذلك تسبب بهجرة الناس من مساكنهم وأراضيهم، وهذا ما يمكن عدّه ثورة إقطاعية على حكم الموحدون؛ لأن الناس عادوا إلى امتهان البداوة والترحال على حساب التمدن والإنتاج الصناعي والزراعي^(٤)؛ أي إن ما قامت عليه الدولة أسقط بعد هزيمتها في معركة العقاب، حتى وصل الأمر في نهايتها إلى عجز الخليفة المرتضى عن دفع رواتب جنوده^(٥).

يضاف إلى مأساة القطاعين التجاري والصناعي إجحاف الدولة في جباية الضرائب من الناس، ليكون ذلك عاملاً في شقائهم من النظام الموحيدي، خاصة أن جباية الضرائب بما لا يقتضيه الشرع كان أهم ما أنكره الموحدون على المرابطين، إلا أنه مع ضعف الدولة توجه الموحدون إلى فرض ضرائب باهضة على السكان لتأمين احتياجات الجيش وتثبيت الخلفاء لسلطانهم^(٦)، ووصل بهم الأمر إلى إعطاء الفقهاء الحق في فرض المغارم على الناس^(٧)، وتوعد كل من يخالف أداء الضريبة

(١) بولقطيب، حسين. (د.ت). جوانح وأوبئة مغرب عهد الموحيدين. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ص ١١٣-

١١٥؛ صديقي. سقوط الدولة الموحدية. ص ١٣٦.

(٢) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٣٦.

(٣) ابن عذاري. البيان - قسم الموحيدين. ص ٢٩٨؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) بولقطيب. جوانح وأوبئة. ص ١٠١-١٠٣.

(٥) موسى. دراسات. ص ٩٦.

(٦) ذكر محمد الجابري أنه في هذه المرحلة يفر الناس من الدولة. الجابري. فكر ابن خلدون. ص ٢٧٥.

(٧) الوثنيريسي. المعيار المغربي. ج ٥. ص ٣٢.

بحرق زرعته وقتله^(١)، ولم يقتصر هذا الطغيان على الموحدين فقط؛ إنما مارسه أعداؤهم أيضاً لدعم حروبهم وتعزيز قدراتهم، مثل محمد بن سعيد بن مردنيش ت. ٥٦٧هـ/ ١١٧١م الذي أثقل كاهل الرعية بالضرائب والمكوس؛ لتمويل أعماله العسكرية ضد الموحدين^(٢)، والثورات التي ذكرت سابقاً، وما تسببت به من اعتداء على ممتلكات الناس لتأمين متطلباتها للاستمرار في حروبها، هذا فضلاً عن إقطاع الخلفاء للشيوخ والقادة العسكريين الأراضي والممتلكات في فترة ضعفهم؛ لكسب ولائهم مثلما فعل الخليفة الرشيد مع عمر بن وقاريط أحد شيوخ هسكورة عندما أقطعته المناطق للوقوف إلى صفه^(٣)، فكان الإقطاع حافزاً لجمع الأموال من الناس ولو بالقوة.

لذلك لم تلق أهداف ثورة الموحدين نجاحاً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، خاصة أن الخليفة عبد المؤمن أعاد للإقطاع مكانته من أجل توفير متطلبات الدولة، لكن ذلك لم يظهر في بداية الدولة بسبب دعم الخلفاء الأوائل للصناعات خاصة الحربية منها وتوفيرهم متطلبات التجارة ودعمها كما ذكر في الفصل الثالث من الدراسة، ص ١٨٣، ومع ضعف الدولة انهارت هذه المقومات ولم يبقَ منها سوى الإقطاع الذي أعاد الناس إلى معاناتهم التي كانت في أواخر دولة المرابطين؛ ليجدوا بالقوة المناهضة للدولة سبيلاً لخلاصهم مما حلَّ بهم من سوء معيشة، واضطراب اقتصادي ووسيلة لاستقرارهم.

٤. الصراع القبلي الناتج عن تطبيق الفكر السياسي الموحي:

يعدُّ الصراع بين قبائل المغرب العربي الإسلامي من أهمّ عوامل سقوط دولة الموحدين التي عملت على دمج هذه القبائل مع بعضها بعضاً؛ ليغفل الموحدون الصراع القديم الذي كان يسود المغرب العربي الإسلامي قبل قيام دولتهم، والذي كان نفسه سبباً في قوة الموحدين باعتمادهم على قبائل مصمودة التي أطاحت بحكم لمتونة، وهذا ربما سبب نقمة قبائل المغرب على الخلفاء الموحدين الذين اتبعوا سياسة فرق تسد في حكمهم للمغرب العربي الإسلامي، ومن ثم استمالتهم للقبائل بالقوة والسبي ثم استعمال اللين والرفق معهم، وقد قال صاحب كتاب الحل الموشية عن ذلك: " كان عبد المؤمن باراً بمن انضوى إليه، عارفاً بأقدار الناس، مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم"^(٤)، فقد أثخن الجيش الموحي بقبائل زناتة من بلومي وعبد الواد ورسيفان وتوجين قتلاً وسبياً حتّى دخلوا في طاعة الموحدين^(٥)، لكن لم تخضع جميع قبائل المغرب العربي الإسلامي لسلطة الموحدين، فبنو مرين

(١) بولقطيب. جوانح وأوبئة. ص ١١٠.

(٢) ابن الخطيب. الإحاطة. ج ٢. ص ٤٢٠.

(٣) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٣٠٥.

(٤) مجهول. الحل الموشية. ص ١٥٠.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٠٧-٣٠٨.

بقوا يلجؤون إلى القفر بين ملوية والزاب^(١)، وفسر ابن خلدون الصراع بين قبائل المغرب العربي الإسلامي بأنه سبيل للحصول على الملك في قوله: "وكان بينهم (بنو يادين) وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواضع سيل القبائل الجيران في مواطنهم"، لذلك كان الصراع بين القبائل للحصول على المواطن الخصبة، فبنو عبد الواد وبنو توجين نازعوا جيرانهم من بني بلومي وبنو ومانو حتى غلبوهم على مواطنهم، وكذلك كان حال بني خزر المغراويين^(٢)، لذلك وجدت هذه القبائل بالموحدين سبيلاً لتوسعها وامتداد نفوذها، فبنو عبد الواد حالفوا الموحدين لمواجهة بني مرين وتوجين، وقبائل مغراوة حالفت الحفصيين تارةً وبنو مرين تارةً أخرى حفاظاً على ممتلكاتها^(٣)، لذلك عدت القبائل المغربية محالفةً الدول فرصةً لانتقالها إلى الأراضي الأكثر خصوبة.

وهذا ما دفع شيوخ الموحدين إلى رفض نفوذ قبيلة كومية واستئثارها بحكم الموحدين، وقد ذكر ذلك المراكشي في قوله عن تسلط كومية "ولم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذكر في رئاسة ولا حظ من نباهة؛ إنما كانوا أصحاب فلاحه ورعاة غنم ...، فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تطاول أيديهم يد بكون عبد المؤمن منهم"^(٤)، وقال ابن خلدون عنهم: "واشتدّ (الخليفة عبد المؤمن) عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته"^(٥)، ليظهر من ذلك أنّ المصامدة لم يرضوا على سياسة الخليفة عبد المؤمن، ولا عن سياسة خلفائه، لذلك ربما تقاعست القبائل عن القتال في معركة العقاب؛ لأنّ كلمة مصمودة علت بعد المعركة، واستعادت مكانتها في الدولة على حساب تشتت قبيلة كومية التي ساءت أحوالها، ولجأ أفرادها إلى امتهان اللصوصية وقطع الطرق ونهب الناس^(٦).

لذلك كان العداء القبلي في المغرب العربي الإسلامي من أهم أسباب سقوط دولة الموحدين، خاصةً أنّ القبائل الموالية للموحدين تخلّت عن مواطنها لتحلّ محلّها قبائل أخرى مثلما كان حال قبائل زناتة^(٧)، فكان للانتقال دورٌ في ضعف دولة الموحدين التي باتت محاطةً بالقبائل المعادية لها مثل

(١) ابن أبي زرع. الذخيرة السنبة. ص ٢٥؛ يحيى بن خلدون. بغية الرواد. ج ١. ص ١٠١، ١٠٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٨٣-٨٤.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٨٤-٨٥.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٨٥، ٨٨، ١٣٣-١٣٥؛ التتسي، محمد بن عبد الله. (٢٠١١م). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان - مقتطف من نظم الدرر والعقبان في بيان شرف بني زيان. تح: محمود أغا بوعيان. موفم للنشر. الجزائر. ص ١١٨.

(٤) المراكشي. المعجب. ص ٢٤٥.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٦٨.

(٦) ذكر عزازي أنهم بقوا على ذلك حتى أذن لهم الخليفة المستنصر العبور من الأندلس إلى المغرب العربي، لكن ربما هذه الأعمال نقلوها معهم إلى المغرب العربي أيضاً؛ بسبب ما انتابهم من غضب الناس على أفعالهم وشكوتهم للموحدين. عزازي. رسائل موحدية. ج ١. ص ٣١٥-٣٢٧.

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٨٤-٨٥، ١٠٤.

قبيلة بني مرين التي انتقلت من موطنها في بلاد الزاب إلى جنوب المغرب الأقصى، كما كان لاستخدام الموحيدين للقبائل العربية دورٌ في ازدياد أزمته؛ لأنَّ العرب تسببوا في هجرة القبائل البربرية وتشريدتها في الصحراء خلال الحكم الفاطمي كما ذكر في الفصل الأول، ص ٣٤-٣٧ ولأنَّهم عرفوا بالتمرد والعصيان أواخر الدولة الموحدية؛ لذلك نال التمزق القبلي من دولة الموحيدين داخلياً وخارجياً، فبنو مرّين اشتدَّ خطرهم في عهد الخلفاء الرشيد والسعيد والمرتضى^(١)، وأسهم العرب داخلياً في تفكك الدولة بهجومهم على المدن والقرى، ليجمعوا الإتاوات ويسبوا وينهبوا^(٢)، فزاد ذلك من معاناة الناس، كما أنَّ المصامدة أنفسهم انقلبوا على بعضهم بعضاً، ليسهموا في زيادة الشرخ داخل دولة الموحيدين، عندما تشكل تحالف بين قبائل هنتانة وتينملل وكدميوه ضد قبيلة هسكورة، والسبب في ذلك انقلاب الخلفاء الموحيدين على عقيدة المهدي محمد بن تومرت، فعندما حالفت قبائل مصمودة يحيى بن الناصر امتنعت هسكورة عن مبايعته، وعندما صالحت قبائل المصامدة الخليفة الرشيد تبدل موقف هسكورة لمبايعة يحيى بن الناصر، وتكرّس موقفهم هذا عندما انضمت هنتانة وتينملل إلى الرشيد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(٣)، لتتهار بذلك العصبية المصمودية في المغرب الأقصى.

يستنتج ممّا ذكر أنّ قبيلة زناتة بعد معركة العقاب شعرت بخطر سيطرة الأشياخ الموحيدين من باقي القبائل على الدولة؛ لكونها المترعمة قبل خلافة المستنصر، ومن أجل إعادة هيبتها عملت على إنهاء حكم الموحيدين للمغرب العربي الإسلامي، ونقل السلطة من الخلفاء الموحيدين الذين ضعف أمرهم في حكم الدولة إلى بني مرين وعبد الواد من أبنائها بدلاً من أبناء عبد المؤمن المنتمين لقبيلة كومية، وهذا ربما تسبب بتقسيم المغرب العربي الإسلامي مع عملية الانتقال القبلي فيه، فالمصامدة سيطروا عبر الحفصيين على إفريقية وأجزاء من المغرب الأوسط، في حين لم يكن لهم حكمٌ قبل قيام دولة الموحيدين، أمّا قبيلة زناتة التي عانت من القبائل العربية قبل عصر الموحيدين فقد احتلت الأماكن الوعرة في الجبال والوديان، لتتحكم بالمغرب الأوسط والأقصى، خاصةً بعد نقل القبائل العربية إلى المغرب الأقصى؛ ليسمح ذلك بعودة زناتة من الصحراء التي طردوا إليها، وربما هذا سبب انتصارهم على الخلفاء الموحيدين من أبناء جلدتهم عندما شعروا بضعف موقفهم أمام القبائل المصمودية بعد معركة العقاب؛ ليتسبب ذلك في عودة المغرب العربي الإسلامي إلى ما كان عليه قبل قيام دولة

(١) حسن، عامر أحمد عبد الله. (٢٠٠٣م). دولة بني مرين - تاريخها وسياساتها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا (٦٦٨-٨٦٩هـ/١٢٦٩-١٤٦٥م). ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين. ص ٩٨ وما بعدها.

(٢) بخدة. الهجرة. ص ١٢٠-١٢٤؛ ذكر ابن أبي زرع قبائل مغربية من فازاز وصنهاجة وأوروبية وغمارة شاركت العرب في ذلك، ولا يستبعد أن يكون قبائل البربر من حفز العرب على أعمال السلب والنهب، ليعكس هذا الأمر ضعف دولة الموحيدين، وليس طبيعة هذه القبائل. ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٣٦.

(٣) موسى. دراسات. ص ١٠٤.

المرابطين، أما الأندلس فقد سادها عصر طوائف ثالث بسبب ضعف القيادة المركزية في المغرب العربي الإسلامي.

٢- نتائج انهيار سياسة الموحدين على المغرب العربي الإسلامي والأندلس:

استمرت دولة الموحدين لأكثر من قرن تحكم المغرب والأندلس، وترسخ معالمها الثقافية والفكرية والمعمارية عليها؛ ليسهم ذلك في انتشار الحضارة المغربية في البلاد العربية الإسلامية وأوروبا، لكن موقع الموحدين بين المشرق العربي الإسلامي وأوروبا انهمك قواهم، وجعلهم عرضة للهجمات والاضطرابات التي تمثلت بحركة بني غانية مدعومة من السلطان صلاح الدين والخلافة العباسية، والقوات المسيحية التي أقحمت الموحدين في معارك حاسمة؛ لتشتت شملهم، ونجاح القوة المعادية في ذلك كان سبباً في تهاوي الدولة بعد دخولها بمشاكل داخلية، نجمت عن انتهاج الخلفاء الموحدين سياسة القوة والعنف للحفاظ على سلطانتهم، لذلك كان سقوط دولة الموحدين عامل انفراج على البلاد العربية الإسلامية وأوروبا التي حققت مرادها بحركات الاسترداد التي سيطرت بها على معظم مدن الأندلس، ويظهر ذلك من أهم نتائج انهيار دولة الموحدين:

١. سياسياً وعسكرياً:

أ- في المغرب العربي الإسلامي:

تسجد بنو مرّين المغرب الأقصى بعد توليتهم الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد الحق ٦١٤-٦٣٨هـ/١٢١٧-١٢٤٠م الذي استغل ضعف دولة الموحدين، ليدعو قبائل المغرب العربي الإسلامي إلى طاعته، فبايعوه وفرض الخراج عليهم، بذلك ضمن موارد مالية وبشرية تدعم استمرار حركته في المغرب الأقصى، كما أنه فرض على أهل فاس ومكناس ورياط تازة وقصر كتامة ضريبة يؤدونها إليه في كل سنة^(١)، ثم تنبه بنو مرّين لأهمية شمال المغرب العربي لمحاصرة مدينة مراكش والسيطرة عليها كما فعل الخليفة عبد المؤمن؛ ليتبع هذه السياسة الأمير أبي محمد بن عبد الحق ٦٣٨-٦٤٢هـ/١٢٤٠-١٢٤٤م وأبي يحيى أبي بكر بن عبد الحق ٦٤٢-٦٥٦هـ/١٢٤٤-١٢٥٨م الذي خلع طاعة الموحدين، واستولى على أراضي نهر ملوية ومدينة فاس بعد مقتل الخليفة السعيد، وقسم البلاد إلى مقاطعات إدارية ولّى عليها قبائل بني مرّين^(٢)، بذلك أسس بني مرّين دولة داخل دولة الموحدين، ليتخذوا من مدينة فاس عاصمة لهم بعد وفاة السلطان أبي بكر^(٣)، وتصبح حدود دولتهم

(١) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٣٦-٣٧.

(٢) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٩١-٢٩٣؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٢٢٧-٢٣٠؛ صديقي. سقوط الدولة

الموحدية. ص ١٥٧.

(٣) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ١٦٢.

حتّى نهر أم الربيع في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق^(١)؛ أي إنّ السلطان أبا يوسف بات قريباً من إنهاء مشروع بني مرين في السيطرة على مدينة مراكش بعد محاصرتها من جميع الجهات، ولتقليل خسائره تحالف مع أبي دبوس ضد الخليفة المرتضى، فساعده أبو دبوس على دخول مراكش سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م، لكن عندما دخل أبو دبوس مراكش تنكر لمساعدة أبي يوسف؛ ممّا دفع السلطان إلى التحرك نحو مراكش سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م بعد إفساده كل ما يمكن للموحدين الاستفادة منه، ولم يجد الموحدون سبيلاً لخلاصهم إلا بالتحالف مع السلطان يغمراسن بن زيان، إلا أنّ أملهم تبدد بعد هزيمته أمام بني مرين سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، ليدخل بنو مرّين مراكش بعد قتلهم الخليفة أبا دبوس سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م^(٢)، ويؤسسوا دولتهم التي امتدت في المغرب الأقصى، وأجزاء من المغرب الأوسط والأندلس التي ذكر ابن أبي زرع أنّه ملك فيها بنو مرّين أكثر من خمسين مصراً ما بين مدن وحصون منها كان: مالقة والجزيرة الخضراء ولشبونة^(٣).

ب- في الأندلس:

لم تعانِ دولة الموحدين في قسمها المغربي فقط؛ وإنّما كان لهزيمتها في معركة العقاب تداعيات على قسمها الأندلسي أيضاً، عندما استولت الممالك المسيحية على أجزاء واسعة من معظم ثغورها في الأندلس، خاصة أنّ الأندلس باتت ترسل الخلفاء الموحدين مدججين بجنودها وبدعمٍ منها مثل: الخليفة عبد الله بن يعقوب الملقب بالعدل الذي كان والياً لمرسية وبايعة ولاية الأندلس، وخليفته أبو العلاء إدريس والي إشبيلية الذي أرسل معه ملك قشتالة الجنود، في وقت عرفت فيه الممالك المسيحية الاتحاد بين مملكتي قشتالة وليون لتصبح ثلاث ممالك هي قشتالة وأرغون ولشبونة^(٤)، ثمّ عملت هذه الممالك على إسقاط القواعد الموحديّة في الأندلس خلال ثلاثين عاماً بين سنتي ٦٢٥-٦٥٥هـ/١٢٢٧-١٢٥٧م، فحاصرت مملكة أرغون ميورقة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ليدخلها ملكها خايمي الأول ٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م^(٥)، ثمّ سيطرت على جزر يابسة سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، وجزيرة منورقة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م^(٦)، أمّا الأندلس فقد سيطرت مملكة أرغون على بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م^(٧) ومرسية سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م^(٨) ليقلب بفضل ذلك خايمي الأول

(١) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٩٥-٩٦؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٢٣٠-٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ١٠٩-١١٨.

(٣) ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٩٩.

(٤) كرعى، وبورويس. معركة العقاب. ص ٦٠-٦١.

(٥) أبو الفضل، محمد أحمد. (١٩٩٦م). شرق الأندلس في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري. دار المعرفة

الجامعية. الإسكندرية: مصر. ص ٢٠٠-٢٠١.

(٦) كرعى، وبورويس. معركة العقاب. ص ٦٥.

(٧) الحميري. الروض المعطار. ص ٩٧.

بالباتح، كما استغل فرناندو الثالث ٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م ملك قشتالة ضعف الموحدين ليستولي على أبدة سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م^(١) وعلى قرطبة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م^(٢)، وانتزع من بني الأحمر مدينة جيان ثم عقد صلحاً مع بني الأحمر سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، فأصبح بها بنو الأحمر تحت سلطته^(٣)؛ ليساعده بفضل ذلك في الاستيلاء على قاعدة الموحدين في الأندلس مدينة إشبيلية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م^(٤)، أما ملك البرتغال فقد سيطر على المناطق القريبة من مملكته مثل شلب وطبيرة، وفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كانت جميع المناطق القريبة من البرتغال تحت سيطرته مثل أروشة وأرسنية بالقرب من لبله^(٥).



المصور رقم ١٤، حدود الأندلس في نهاية دولة الموحدين؛

(مؤنس. أطلس. ص ١٧٥).

بذلك كان حكم الموحدين للأندلس فاجعةً على المسلمين لخروجها عن سيطرتهم، ولم يبق لهم سوى غرناطة تحت سيطرة بني الأحمر وحماية القشتاليين؛ لذلك يعدّ خروج الموحدين من الأندلس ضياعاً لهيبة المسلمين في المغرب العربي الإسلامي، لأنّ المسيحيين أصبحوا أيضاً يتحكّمون بالمعابر إلى المغرب العربي الإسلامي، هذا ربما ما دفع ابن خلدون للقول عن الفترة الممتدة بين

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٤. ص ٢١٩؛ ذكر المقرئ أن المسيحيين تملكوها صلحاً. المقرئ. نفح الطيب. ج ٤. ص ٤٧٢.

(٢) أشباح. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ١٧٩، ١٨٢-١٨٣.

(٣) المقرئ. نفح الطيب. ج ٤. ص ٤٧٢؛ ذكر ابن أبي زرع أنه تملكها في سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ٢٧٦.

(٤) ابن الخطيب. الإحاطة. ج ٢. ص ٣٧٤.

(٥) ابن أبي زرع. الذخيرة السنية. ص ٦٨، ٧٣؛ المقرئ. نفح الطيب. ج ٤. ص ٤٧٢-٤٧٣.

(٦) أشباح. تاريخ الأندلس. ج ٢. ص ٢١٥-٢١٦.

عامي ٦٢٢-٦٧٠هـ/١٢٢٥-١٢٧١م : " فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، واستبّح حماهم،
والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهباً في الحروب، ووضيعة ومدارة في السلم"^(١).

٢. اقتصادياً:

أدى انهيار دولة الموحدين إلى انقسام المغرب العربي الإسلامي إلى أربع دول، كلّ دولة تمارس نشاطها الاقتصادي بمعزلٍ عن الأخرى، كما أدى لتراجع العوامل الاقتصادية التي استندت إليها دولة الموحدين بعد خروج أراضٍ واسعة عن سلطة الموحدين لمصلحة الدول التي نشأت على أراضيهم، حيث أصبح لكل دولة مغارمها الخاصة التي تجبّيها من المناطق التي سيطرت عليها^(٢)، كما كان لسقوط الأندلس أثرٌ في المغرب العربي الإسلامي لفقدانه الموارد التي كانت تقدمها مدن الأندلس إليه^(٣)، كما زادت من حركة القرصنة بالبحر المتوسط^(٤).

كذلك شهد انهيار دولة الموحدين تراجعاً في العمران فكثُر الخراب، واندثرت معالم مكناسة القديمة^(٥)، وأشعلت القوات المسيحية أسواق مدينة سلا وخربوا ديارها سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م^(٦)، كما تسببت الحروب في ترك الفلاحين لأراضيهم والحرفيين لحرفهم^(٧)، وفي تغيير الطرق التجارية، بذلك فقد المغرب الأقصى أهميته التجارية؛ لتنتقل هذه الأهمية إلى المغربين الأوسط والأدنى، خاصةً مع تأمين الحفصيين الطرق الصحراوية في عهد أبي زكريا^(٨)، كما انتقلت التجارة إلى مدينة تلمسان التي أصبحت واسطاً بين سجلماسة ومدن البحر المتوسط^(٩)، فتحكم بذلك بنو حفص وزيان بالتجارة مع المدن الأوروبية التي باتت المسيطرة على تجارة البحر المتوسط، خاصةً بعد بروز مدينة مرسيليا على حساب المدن الإيطالية (بيزا، وجنوة، وصقلية، والبندقية، ونابولي)^(١٠)، لذلك يعدّ سقوط دولة الموحدين في المغرب العربي الإسلامي عاملاً في ضعف مكانته اقتصادياً على حساب سيطرة أعدائه من المسيحيين بعد تسيدهم لتجارة البحر المتوسط.

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٢٥٢.

(٢) صديقي. سقوط الدولة الموحدية. ص ١٧١-١٧٢.

(٣) أبو رميلة. علاقات الموحدين. ص ٣٧٥.

(٤) غربي، بغداد. (٢٠١٥م). العلاقات التجارية للدولة الموحدية. دكتوراه منشورة. قسم الحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر. ص ٢٠١-٢٠٢.

(٥) ابن غازي. الروض المتهون. ص ١٢.

(٦) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ٤٢٤.

(٧) بولقطيب. جوانح وأوبئة. ص ١١١، ١١٣.

(٨) الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٢٥. صديقي. سقوط الدولة الموحدية. ص ١٧٤.

(٩) عزوي. رسائل موحدية. ج ٢. ص ٢٠٧.

(١٠) Latrie, Le Comte de Mas. (1886). relation et commerce de l' Afrique septentrionale. librairie de frimindidot. Paris. p:153, 157.

٣. ثقافياً:

ضعفت الحياة الفكرية ثقافياً واجتماعياً في المغرب العربي الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين، ولم يعد للإبداع الفكري الذي عمل الموحدون على إحيائه مكاناً في المغرب العربي الإسلامي؛ لأنّ العلماء لم يعتمدوا على الأصول الفكرية فغاب بسبب ذلك النقد العلمي^(١)، كما أنّهم أصبحوا يعتمدون على العلوم التقليدية والنقل، وهذا ما أنكره عليهم الموحدون^(٢)، كذلك أصبح المنهاج التدريسي يتخذ المختصرات العلمية، فألغى ذلك الغايات العلمية التي تقوم عليها العلوم المختلفة^(٣)، لكن أوضاع الأندلس المضطربة، وتشجيع أمراء المغرب العربي الإسلامي وسلطينهم للعلماء من أجل استقطابهم، أسهم في هجرة كثير من العلماء إلى المناطق الآمنة خاصة مدن تونس^(٤) وبجاية، والسبب في ذلك كان حبّ الحكام للعلم وأهله وزيادة في الملك، وللاستعانة بالعلماء في إدارة شؤون الدولة وإضفاء الشرعية عليها؛ لذلك شكلت طبقة العلماء مكانة مميزة في المجتمع المغربي^(٥).

٤. اجتماعياً:

كان سقوط دولة الموحدين أحد عوامل هبوط مكانة قبائل الموحدين؛ ليصعد بدلاً منها نجم قبائل أخرى كانت منافسة لهم، فمن بقي من قبيلة هنتانة في جبل درن خضع لسلطة قبائل بني مرين أمّا أفراد قبيلة كدميوه أكثرهم رفض الخضوع لبني مرين^(٦)؛ لذلك يعدّ سقوط دولة الموحدين مرحلة هبوط في الأمن والاستقرار الذي شهده عصرهم في بدايته، فبعد عودة الزعامة إلى قبائل زناتة وتجزئة المغرب العربي الإسلامي، أخذت زناتة نفسها في الاعتماد على القبائل العربية التي عانت منها قبل حكم صنهاجة الجنوب للمغرب، وذلك حفاظاً على حدود كلّ دولة من دول المغرب العربي الإسلامي الثلاث، ولاستخدامهم في المناطق الآمنة تحاشياً لشهرهم^(٧)، ممّا زاد من انقسام دول المغرب العربي الإسلامي، فلم تعد للاتحاد كما كانت عليه مناطقها في عصر الموحدين.

أمّا الأندلس فقد أسهم استيلاء الممالك المسيحية على معظم حواضرها في هجرة المسلمين

(١) كنون. النبوغ المغربي. ص ١٨٨؛ ألفرد بل. الفرق. ص ٣٦٣؛ صديقي. سقوط الدولة الموحدية. ص ١٦٩.

(٢) جلول، هادي. (٢٠١٨م). الحركة العلمية في حاضرة تلمسان وعناية السلطة الزيانية بها (٨-٩هـ / ١٤-١٥م). الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. ١٩ع. جامعة حسيبة بن بو علي. الشلف: الجزائر. ص ٨٢-٨٣.

(٣) ألفرد بل. الفرق. ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٤) موسى. دراسات. ص ١١٤-١١٥.

(٥) جعلهم السلطان أبو حمو الثاني في المرتبة الثانية بعد الأشراف في طبقات المجتمع. أبو حمو، موسى بن يوسف. (١٨٦٢م). واسطة السلوك في سياسة الملوك. المطبعة التونسية. تونس. ص ٨٦-٨٧.

(٦) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٥٩-٣٦٥.

(٧) ابن فريجة، عبد الملك. (٢٠١٥م). القبائل العربية ومكانتها في الدولة الزيانية. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر. ص ٣٦، ٤٨-٤٩، ٥٤؛ أحمد عمر، مصطفى أبو الضيف. (١٩٨٢م). القبائل العربية في عصر الموحدين وبني مرين. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص ٣٣٤.

واليهود إلى المغرب العربي الإسلامي وغرناطة؛ لتغني جاليتهم المجتمع المغربي بالعادات والتقاليد الأندلسية، كما أسهمت في تطوير الثقافة المغربية بعد نقل الأندلسيين للطرق والأساليب الأندلسية إلى المغرب العربي الإسلامي^(١)، ومن بقي من المسلمين في الأندلس أطلق عليه اسم المدجنين الذين تعرضوا لانتقاد الفقهاء بسبب بقائهم في أرض المسيحيين^(٢).

كما لاقى أهل الذمة ترحيباً من سلاطين المغرب العربي الإسلامي الذين أثروا سياسة التسامح الديني معهم، خاصة مع إصدار الفقهاء لفتوى الوفاء لأهل الذمة واجب^(٣)، فعاد أهل الذمة إلى المغرب ليمارسوا حياتهم الطبيعية، وامتنعوا التجارة والحرف، لكن اليهود بقوا على عاداتهم في التآمر على المسلمين ونشر الفساد؛ ممّا دفع السلاطين إلى معاقبتهم^(٤).

ثالثاً: آثار العقيدة الموحدية، وعودة المذهب المالكي لسيادة المغرب العربي

الإسلامي:

نقلت عقيدة المهدي محمد بن تومرت حياة العامة في المغرب العربي الإسلامي من تلقن العلوم وحفظها إلى تحليلها ودمجها مع العلوم الأخرى بالعودة إلى الأصول والاستعانة بالفلسفة والمنطق، فكان لهذا الأمر أثرٌ في الحياة الاجتماعية والعلمية لسكان المغرب العربي الإسلامي، حيث أسهم في انتشار أفكار علمائه في البلاد الإسلامية، لكن ذلك لم يدم طويلاً بعد خلافة المنصور وانهيار الدولة الموحدية؛ لأنّ إلغاء الخليفة المأمون لرسوم العقيدة أدخل الدولة في حالة فوضى، لم يستطع من خلفه تداركها من أجل إعادة الوحدة إلى المغرب والأندلس، ولأنّ المذهب المالكي أصبح أقوى ممّا كان عليه في بداية الدولة، فمع أنّ الخلفاء الموحدين حاولوا استمالة فقهاء المذهب إلى صفّهم، ثمّ مقاومته مع ظهور حركة ابن غانية، إلا أنّهم لم يستطيعوا القضاء على المذهب المالكي بعد هزيمتهم لابن غانية، بسبب الدعم الذي لقيه المذهب من المشرق العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر، حتّى عودته وتسيده المغرب العربي الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين في المغرب

(١) قدور، عبد المجيد. (٢٠٠٣م). الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائرية كنموذج. مجلة العلوم الإنسانية. ٢٠٤. جامعة منتوري. قسنطينة: الجزائر. ص ١٧٥-١٧٨؛ ابن شقرون، محمد بن أحمد. (١٩٨٥م). مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني. دار الثقافة. الدار البيضاء: المغرب. ص ٣٧-٣٨.

(٢) الحجّي، عبد الرحمن علي. (١٩٨١م). التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م). دار القلم. دمشق: سورية. ط ٢. ص ٥٣١.

(٣) أبو مصطفى، كمال السيد. (١٩٩٦م). جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وقتاوي المعيار المعرب للنشر بسبي. مركز الإسكندرية للكتاب. الإسكندرية: مصر. ص ٣٧؛ صديقي. سقوط الدولة الموحدية. ص ١٨٢.

(٤) بوعامة، فاطمة. (٢٠١١م). اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين ٧-٩هـ/ ١٣-١٥م. مؤسسة كنوز الحكمة. الجزائر. ص ٢٣٦-٢٣٨.

الأقصى؛ لتنتهي عقيدة المهدي محمد بن تومرت بفضل ذلك، ولم يعد يتبناها في المغرب العربي الإسلامي سوى الحفصيين في إفريقية الذين بقوا على النظام الموحي حتى نهاية دولتهم، وقال عن ذلك العمري خلال رحلته: "سألت الإمام أبا عبد الله بن القويح عن طبقات الجند في هذه المملكة ومبلغ أرزاقهم في ديوانه، فقال هؤلاء على ما قدره لهم المهدي، وهكذا كان عبد المؤمن وأبناءؤه لما كان لهم المغرب، ليس لهم أمراء ولا أتباع يطلب بعدتهم كعدة الأمراء في مصر، وإنما لهم أشياخ من أعيانهم لا عدة لهم ولا جند"^(١)، أما خارج دولة الحفصيين فلم يعد لعقيدة المهدي محمد بن تومرت إلا آثارها التي برزت من خلال تشجيع سلاطين المغرب العربي الإسلامي للعلم وبنائهم للمدارس وظهور المؤلفات، يظهر ذلك في الحديث عن أثر العقيدة في المغرب العربي الإسلامي.

١ - آثار العقيدة الموحدية في المغرب العربي الإسلامي:

أدت حركة المهدي محمد بن تومرت إلى تحرر بلاد المغرب العربي الإسلامي من التقليد والجمود، وجعل العقل أساس تحليل العقائد، فانفتح الناس على المذاهب الأخرى، ووجد العلماء والفقهاء في العصر الموحي فرصة لإبراز إبداعاتهم عبر المناظرات التي تبناها خلفاء المهدي محمد بن تومرت، كما أسهم ذلك في اندفاع طلبة العلم من جميع المناطق الإسلامية إلى المغرب العربي الإسلامي لتلقي العلوم، خاصة مع اعتماد الخلفاء الموحدين الفكر العقدي ذي الوجهين العلمي والديني^(٢)، حيث وصف الخليفة عبد المؤمن بأنه كان مشاركاً بالعلوم المختلفة إلى جانب العلوم الدينية^(٣)، وابنه الخليفة يوسف عرف بأنه أحفظ الناس وأكثرهم علماً بألفاظ القرآن وفي مسائل النحو واللغة العربية، كما اهتم بعلم الأدب والفلسفة والطب^(٤)، كذلك الخليفة المنصور الذي كان غاية في العلم^(٥)، وابنه المأمون الذي عُرف بحفظه للحديث وبتقدمه في علم اللغة والرواية والأدب^(٦)، من ذلك يُستنتج أن الخلفاء الموحدين دمجوا علومهم الدينية مع علوم أخرى؛ مما يعني أنهم انفتحو على العلوم بأنماطها المختلفة، ومرد ذلك إلى أثر العقيدة التومرتية في المغرب العربي الإسلامي ودمجها مع العلوم منذ عهد مؤسسها المهدي محمد بن تومرت.

وقد تبنى هذه الخطوة العلمية سلاطين المغرب العربي الإسلامي بعد إسقاطهم لدولة

(١) العمري، أحمد بن يحيى. (٢٠١٠م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تح: كامل سلمان الجبوري. ج ٤. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٧٥.

(٢) طهراوي، محمد. (٢٠١٦م). الحركة الدينية عند المرابطين والموحدين دراسة مقارنة. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر. ص ٤٥-٤٦.

(٣) ابن أبي دينار. المؤنس. ص ١١٢-١١٣.

(٤) المراكشي. المعجب. ص ١٧٥.

(٥) التتبيكتي. نيل الانتهاج. ص ٣٧٧.

(٦) السلاوي. الاستقصا. ج ٢. ص ٢٤١.

الموحدين؛ من خلال بناء المدارس التي عمّت أرجاء المغرب العربي الإسلامي، واستقطاب العلماء والطلبة من داخل المغرب وخارجه، حيث شيّد الحفصيون عدداً من المدارس، منها: مدرسة الشماعيين التي أنشأها السلطان أبو زكريا يحيى الأول سنة ٦٢٩هـ أو ٦٣٣هـ/١٢٣١ أو ١٢٣٥م، والمدرسة التوفيقية التي بنتها الأميرة عطف زوجة أبي زكريا يحيى^(١)، كما بنى بنو مرّين مدرسة الحلفائيين قبله جامع القرويين سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، ومدرسة العطارين سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، ومدرسة الطالعة بسلا سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، والمدرسة المصباحية بفاس، وفي عهد السلطان أبي عنان فارس بن علي ٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٨م بنيت المدرسة البوعنانية في فاس بين سنوات ٧٥١-٧٥٧هـ/١٣٥٠-١٣٥٦م^(٢)، كذلك شيّد بنو عبد الواد المدارس والمساجد والزوايا، وشجع السلطان يغمراسن العلماء على حضور مجلسه^(٣)، وأنشأ السلطان أبو حمو موسى الأول ٧٠٧-٧١٨هـ/١٣٠٧-١٣١٨م مدرسة النبي الإمام، وشيّد ابنه أبو تاشفين بن أبي حمو موسى الأول ٧١٨-٧٣٨هـ/١٣١٨-١٣٣٧م المدرسة التاشفينية، كما شيّد أبو حمو موسى الثاني ٧٦١-٧٩٢هـ/١٣٥٩-١٣٨٩م المدرسة اليعقوبية سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣م^(٤)، حتّى وصل الأمر إلى وصف ابن خلدون لرقى مدينة تلمسان في العصر الزياني قائلاً: " رحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدولة الإسلامية والقواعد الخلافية "^(٥).

لذلك يمكن القول إنّ تشجيع المهدي وخلفائه للعلم أسهم في انتشاره عند سقوط دولتهم؛ ليعظم ذلك من شأن الموحدين علمياً من خلال تغيير المفهوم الثقافي في البلاد، أمّا عقائدياً فقد انحصر تأثيرهم بدولة الحفصيين الذين أجروا عاداتهم في بادئ أمرهم على رسوم المهدي من خطب ومراسلات خاصة في عهد أبي زكريا الحفصي الذي اكتفى بالدعاء للمهدي والخلفاء الراشدين بعد إسقاطه لاسم الخليفة المأمون الموحدي، لكن المهدوية بدأت بالاضمحلال في دولة الحفصيين تدريجياً حتّى عهد أبي يحيى زكريا بن اللحياني ٧١١-٧١٧هـ/١٣١١-١٣١٧م الذي أبطل اسم المهدي من الرسوم والخطب^(٦)، أمّا باقي دول المغرب العربي الإسلامي خاصة دولة بني مرّين فقد عملت على إزالة عقيدة المهدي من أذهان الناس، وربما بنت المدارس لهذه الغاية، حيث إنّه لم يبقَ من أتباع المهدي

(١) ابن الشماخ. الأدلة البينية. ص ٥٦، ٦٣.

(٢) حركات. المغرب. ج ٢. ص ١٣٤-١٣٦.

(٣) يحيى بن خلدون. بغية الرواد. ج ١. ص ١١٠؛ التنسي. تاريخ بني زيان. ص ١٢٦.

(٤) فيلاي، عبد العزيز. (٢٠٠٢م). تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية - عمرانية - اجتماعية - ثقافية). ج ١. موفم للنشر

والتوزيع. الجزائر. ص ١٤١-١٤٥.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٠٥.

(٦) ذكر الزركشي أنّه قبل عقد البيعة العامة للسلطان أبي يحيى خطبوا خطبة لم يذكروا فيها إماماً محدداً. الزركشي. تاريخ الدولتين. ص ٢٣-٢٤، ٦٢.

سوى عددٍ قليلٍ حصرتهم المصادر بقبيلة جزمانة الممتدة بين فاس ومراكش وسمتهم بالعكازين أو الطائفة التومرتية، وبقي ذكر هذه الطائفة حتى عصر أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي ت. ١١٠٣هـ/ ١٦٩١م والحسن اليوسي ت. ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م، وقد تعرضت هذه الطائفة إلى الاضطهاد والقتل فقد عُدوا من قبل الفقهاء مرتدةً وزنادقة^(١)، ولكن رغم معاناة هذه الطائفة إلا أن مؤلفات المهدي محمد بن تومرت لاقت ترحيباً كبيراً بين سكان المغرب العربي الإسلامي ممّا يعكس أثرها فيهم، حتى قال عنها صاحب كتاب الحل الموشية: "وَأَلَفَ لَهُمْ كِتَاباً سَمَاهُ الْقَوَاعِدَ، وَآخِرَ سَمَاهُ الْإِمَامَةَ، هُمَا **مَوْجُودَانِ بِأَيْدِي النَّاسِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ (أَيْ عَهْدِ كِتَابَةِ الْمُؤَلِّفِ)**"^(٢)، يعني ذلك أن مؤلفات المهدي لم تتلف وربما السبب في ذلك لأن مؤلفاته كانت ذات صبغة مغربية خالصة، ميزت مدارس المغرب العربي الإسلامي عن باقي مدارس البلاد العربية الإسلامية، وهذا ما دفع العلماء للعناية بها خاصة المرشدة التي لاقت استحسان العلماء المسلمين في المغرب^(٣) والمشرق لخلوها من العنصرية والشك في إيمان المسلمين، حتى أن علماء المشرق العربي الإسلامي شككوا في نسبها للمهدي محمد بن تومرت، مثل خليل بن كيكلي العلاتي ت. ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م الذي أنكر نسبها للمهدي محمد بن تومرت بسبب موافقته للمعتزلة، أما المرشدة فمباينة لهم^(٤)، وربما كان ذلك لما ذكره ابن خلدون عن كتابة المهدي محمد بن تومرت لكتاب المرشدة قبل إعلانه الثورة على المرابطين سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م^(٥).

أما أهم المنجزات الثقافية للمهدي وخلفاؤه لأهل المغرب والأندلس كان توجيه الناس إلى الاهتمام بعلوم الفلسفة والمنطق، فقد شارك المهدي محمد بن تومرت هذه العلوم في مؤلفاته التي تهتم بقضايا فلسفية ظهرت في باب المحدث من مؤلفه أعز ما يطلب^(٦) وربما تأثر بأستاذه الإمام الغزالي الذي نشر مؤلفاته المعنية بهذا النوع من العلوم، ليقبل العلماء عليها بعد أن كانوا يعدونها علوماً مخالفةً للشرع^(٧)، حتى بعض العلماء كان جاهلاً فيها، ومن الذين أقبلوا عليها وبرزوا في علومها ابن

(١) الوشرسي. **المعيار المعرب**. ج ٢. ص ٤٥٣ وما بعدها؛ اليوسي، الحسن. (٢٠٠٦م). **المحاضرات في الأدب واللغة**. تح: محمد حجي، وأحمد الشرقاوي إقبال. ج ٢. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ص ٣٩٨؛ المجاصي، محمد بن الحسن. (د.ت). **نوازل المجاصي**. الطبعة الحجرية القديمة. د.م. ص ٨٩-٩٥.

(٢) مجهول. **الحل الموشية**. ص ١١٠.

(٣) من الذين شرحوها أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني الإشيلي - من أهل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي - الذي نزل في تونس؛ فضلاً عن العلماء المغاربة والجزائريين والتونسيين والليبيين الذين اعتنوا بشرحها. السكوني، محمد بن خليل. (١٩٩٣م). **شرح مرشدة محمد بن تومرت**. تح: يوسف أحنانا. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٥-٦.

(٤) السبكي. **طبقات الشافعية**. ج ٨. ص ١٨٥-١٨٦.

(٥) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٣٠٣.

(٦) ابن تومرت. **أعز ما يطلب**. ص ١٩٥-٢٠٢.

(٧) ابن طموس، يوسف بن محمد. (١٩١٦م). **المدخل لصناعة المنطق**. مطبعة الأبيرق. مدريد: إسبانيا. ص ١١-١٣.

طفيل وابن رشد^(١)، لكن لم يكتب لعلم الفلسفة الاستمرار في المغرب العربي الإسلامي بعد خلافة المنصور، حتّى وصل الأمر في عهد ابنه الخليفة المأمون إلى قتل الفلاسفة، مثلما فعل مع الفيلسوف الأندلسي ابن حبيب لاشتغاله بالفلسفة^(٢)، وذلك ربما لعدّ العلماء أن علم الفلسفة يبعد الناس عن الدين^(٣)، أمّا المنطق فقد استمرّ ليشتهر به عددٌ من العلماء حتّى بعد سقوط دولة الموحدين، وكان منهم: أبو الحسن علي بن مؤمن بن عصفور ت. ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وأبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م وأبو علي منصور بن عبد الحق المشدالي ت. ٧٣١هـ/١٣٣٠م^(٤)، ليندمج بذلك المنطق مع بقية العلوم، ويعود الفضل في ذلك إلى عقيدة المهدي محمد بن تومرت وتعاليمه^(٥).

كما ساد أسلوب الجدل والمناظرات بين المذاهب الإسلامية المختلفة كالمالكية والظاهرية^(٦)، وبين المسلمين وأهل الذمة^(٧)، والفضل في ذلك يعود إلى المهدي محمد بن تومرت الذي اتخذ منهجاً في نشر دعوته بين أهل المغرب العربي الإسلامي، التي أسهمت في الاعتناء بالأصول بالرجوع إلى القرآن الكريم وعلم الحديث؛ ممّا كان سبباً في نشأة محاولات التأصيل الفقهي باستتباط الأحكام من مصادرها، وظهر تأثير ذلك في دولة الحفصيين بعد سقوط دولة الموحدين عندما بنى سلاطينها المدارس التي تعنى بدراسة علوم القرآن الكريم والحديث، وتعمل على تعميم قراءتهم في المساجد، لكنّ الاتجاه الذي اتبعه المهدي محمد بن تومرت وخلفاؤه، لم يلقَ غايته سوى عند الحفصيين من بين سكان أهل المغرب العربي الإسلامي، والسبب يعود في ذلك إلى اهتمام أهل المغرب بعلم الفروع القائم على التقليد وآراء الفقهاء السابقين أكثر من اهتمامهم بعلم التأصيل^(٨)، وربما هذا سبب جمود الحركة الإبداعية في المغرب العربي الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين.

٢ - عودة المذهب المالكي:

بعد المعاناة التي تعرض لها فقهاء المذهب المالكي في عصر الموحدين من عنفٍ واضطهادٍ

(١) المنوني، محمد. (١٩٧٧م). العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين. دار المغرب. الرباط: المغرب. ص ٩٧-١٠٢.

(٢) ابن حبيب القصري برع في العلم القديم واشتهر به، قتله وصلبه الخليفة المأمون عندما طلب الزنادقة. ابن سعيد. المغرب. ج ١.

ص ٢٩٦؛ المقرئ. نفح الطيب. ج ٣. ص ١٨٦.

(٣) المنوني. العلوم والآداب. ص ٢٠٧، ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) الغبريني. عنوان الدراية. ص ٢٢٩-٢٣٠، ٢٣٣، ٣١٧-٣١٩.

(٥) النجار. المهدي بن تومرت. ص ٤٤٤-٤٧٦.

(٦) المنوني. العلوم والآداب. ص ٥٠ وما بعدها.

(٧) المنوني، محمد. (٢٠٠٠م). ورقات عن حضارة المرينيين. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ص ٣٨٥ وما

بعدها.

(٨) طهراوي. الحركة الدينية. ص ٥٤-٥٥.

ودخولهم في حوارٍ مع فقهاء المذهب الظاهري، تمكّن المذهب المالكي من فرض سيادته على المغرب العربي الإسلامي من جديد، وذلك ربما يعود للدعم الذي لقاه من المشرق العربي الإسلامي، عندما استقبل الوافدين عليه والهاربين من سخط الخلفاء الموحدين؛ خاصةً بعد إنعاش السلطان صلاح الدين للمذهب في مصر وبنائه للمدارس المتخصصة بتعاليمه إلى جانب اهتمامه بالشافعية^(١)، أمّا في المغرب العربي الإسلامي يعد عهد الخليفة المأمون بداية العودة الفعلية للمذهب المالكي بعد نقض الخليفة لعقيدة المهدي محمد بن تومرت، واستمرّ الوضع هكذا خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ لينتصر بفضل ذلك المذهب المالكي على المذهب الظاهري الذي قلّ أتباعه، والسبب في ذلك يعود إلى:

- (١) انهيار دولة الموحدين وما تبعها من زيادة نشاط فقهاء المذهب المالكي خاصةً القادمين من الأندلس؛ ليتخذوا من مدينة بجاية مركزاً لنشاطهم في المغرب العربي الإسلامي، وقد وصف العبدريّ مدينة بجاية بقوله: "وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل جلة من العلماء الأعلام"^(٢)، ومن علماء بجاية البارزين كان الفقيه أبو علي منصور المشدالي أول من أدخل كتاب ابن الحاجب^(٣) الفرعي من مصر إلى سائر بلاد المغرب العربي الإسلامي، ومن الفقهاء الذين تداول معهم وأخذوا عنه أحمد أبو العباس بن عمران البجائي من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي^(٤).
- (٢) ميل أهل المغرب العربي الإسلامي إلى منهج الفقه المالكي الذي لا يربط الأحكام بأدلتها؛ إنّما يكتفي بذكر أقوال الفقهاء، بعكس المذهب الحنبلي والحنفي.
- (٣) قيام الخلفاء الموحدين باضطهاد المالكية وإحراق كتبهم، ليتسبب ذلك بتعلق المالكية في

(١) أسهم إنشاء المدارس المتخصصة في المذهب المالكي، وتوفير الوظائف التي تهتم بتعاليمه والقضاء فيه خلال العصرين الزنكي والأيوبي في استقطاب كثير من أتباع المذهب من المغرب العربي الإسلامي إلى مشرقه، ومن أهم هذه المدارس كان المدرسة الزاوية المالكية من مدارس الجامع الأموي بدمشق، والمدرسة الشراييشية التي تقع بدرب الشعارين، والمدرسة الصلاحية التي تسمى أيضاً بالنورية بالقرب من اليمارسنان النوري، كذلك أسهم إعادة صلاح الدين للخلافة العباسية مكانتها في مصر في قدوم المغاربة إليها، خاصةً بعد تخصيصه مساجد حسب مذهبهم، مثل مسجد عمر بن العاص في الإسكندرية، وبنائه مدارس لقراء المذهب المالكي منها المدرسة القمحية والمدرسة المالكية بمدينة قوص؛ ليتوالى بفضل ذلك المغاربة على مصر، إمّا لطلب العلم أو لتولي مناصب القضاء. ابن جبير. رحلة ابن جبير. ص ٢٩؛ أبو الفداء، إسماعيل بن علي. (د.ت). المختصر في أخبار البشر. تح: محمد زينهم محمد عزب، ويحيى سيد حسين. ج ٣. دار المعارف. مصر. ص ٦٦؛ ابن بطوطة. تحفة النظار. ج ١. ص ٦٣-٦٤، ٧٠، ١١٣؛ المقرئزي. إعطاء الحنفيا. ج ٣. ص ٣١٩؛ النعمي، عبد القادر بن محمد. (١٩٩٠م). الدارس في تاريخ المدارس. ج ٢. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٣-١٠.

(٢) البلسني، محمد العبدري. (٢٠٠٧م). الرحلة المغربية. منشورات بونة للبحوث والدراسات. الجزائر. ط ١. ص ٥٠.

(٣) ابن الحاجب: أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوني، فقيه مالكي، صنف مختصراً في الفقه المالكي، وكانت تصانيفه في غاية الحسن والإفادة، توفي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م. ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣. ص ٢٤٨-٢٥٠.

(٤) مجموعة من المؤلفين. (٢٠١٤م). موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين. ج ١. منشورات الحضارة. الجزائر. ص ٢٨٢.

مذهبهم^(١)، وإعادة الموحدين بفعلهم هذا إلى ما فعله المرابطون بكتب الإمام الغزالي.

٤) هزيمة الموحدين في معركة العقاب وما تلا الهزيمة من انهيار في نظام الموحدين وصفوفهم، فلم تعد المصادر لذكر محاصرة كتب الفروع كما كانت عليه قبل المعركة، حتى خلافة المأمون الذي ألغى عقيدة دولة الموحدين؛ ليسمح ذلك للمذهب المالكي بالعودة لتزعم المغرب العربي الإسلامي، خاصة أن عصر الموحدين عُرف بالعبادة بعلم الكلام والفلسفة والمنطق التي يعدّها المسلمون غزواً فكرياً وافداً من الغرب الأوروبي على ديارهم^(٢).

٥) تبدل أسلوب المالكية بعد احتكاكهم مع أتباع المذهب الظاهري؛ إذ أصبح فقهاء المذهب المالكي أكثر انفتاحاً على النصوص، والأدلة الشرعية لينظروا بها الظاهرية، كما قدم علماء المالكية في ظل سيادة الموحدين على علم الأصول والكلام؛ لينفتح بفضل ذلك المذهب المالكي في المغرب العربي الإسلامي على غيره من العلوم^(٣).

أسهم ذلك كله في عودة المذهب المالكي لتزعم المغرب العربي الإسلامي، حتى أنه اتُخذَ مذهباً رسمياً في الدولة المرينية، حيث إنّه بعد سيطرة بني مرّين على مدينة مراكش قام السلطان أبو يوسف يعقوب المريني بالعودة في القضاء إلى المذهب المالكي^(٤) بدلاً من المذهب الظاهري، وذلك بسبب دعم المالكية لبني مرّين الذين كافؤهم بإعادة مكانة مؤلفاتهم في المغرب العربي الإسلامي، كما أصبح المذهب المالكي محور النظام التعليمي في مدارس بني مرّين^(٥)، كذلك بنو عبد الواد الذين شيدوا المدارس للمذهب المالكي واعتمدوه في دراسة الفقه، حتى أن السلطان يغمراسن استقدم الفقيه المالكي أبا إسحق إبراهيم التنسي^(٦) إلى مدينة تلمسان ليتولى الإقراء بها^(٧)، أما الحفصيون فرغم اعتمادهم على نظام الموحدين إلا أن المذهب المالكي تسيد دولتهم^(٨)، وربما يعود الفضل في ذلك إلى

(١) النجار. **المهدي بن تومرت**. ص ٤٩٩.

(٢) حمودة، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح. (٢٠١٢م). **التحولات المذهبية العقائدية عند السلف والمعتزلة والأشاعرة**. ماجستير منشورة. قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة. كلية أصول الدين. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين. ص ٧٨، ٩٢-٩٣.

(٣) بحري، يونس. (٢٠١٢م). **الفقه المالكي في عصر الموحدين دراسة تاريخية واجتماعية (٥١٥-٦٦٨هـ/١١١٦-١٢٦٩م)**. ماجستير منشورة. قسم اللغة والحضارة. كلية العلوم الإسلامية. جامعة الجزائر. الجزائر. ص ١٧٥-١٨٠.

(٤) ابن القاضي. **جذوة الاقتباس**. ج ١. ص ٣٣٩؛ المنوني. **ورقات**. ص ١٥٣.

(٥) الحريري، عيسى. (١٩٨٧م). **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (٦١٠-٨٦٩هـ/١٢١٣-١٤٦٥م)**. دار القلم للنشر والتوزيع. الكويت. ط ٢. ص ٣٤٠.

(٦) إبراهيم بن خلف بن عبد السلام التنسي الميطاطي، من أهل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب العربي، كان يجمع بين علمي الظاهر والباطن، لقي أعلاماً في مصر والشام خلال رحلته إلى المشرق الإسلامي. التتبعي. **نبيل الابتهاج**. ص ٣٨؛ المقرئ. **أزهار الرياض**. ج ٢. ص ٣٢٢.

(٧) ألفرد بل. **الفرق**. ص ٣١٢.

(٨) رحمانى، عائشة، ورحمانى، مريم. (٢٠١٧م). **الحركة العلمية في الدولة الحفصية ٦٢٥-٩٨١هـ/ ١٢٢٧-١٥٧٤م**. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة ٨ ماي "قائمة" ١٩٤٥م. الجزائر. ص ٥٠.

المهاجرين الأندلسيين الذين سكنوا في المغرب الأوسط، فقد ذكر البننسي خلال مروره بمدينة بجاية سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م أنه قرأ كتاب الموطأ عن رواية يحيى بن يحيى الليثي على يد أبي عبد الله الشاطبي^(١)، وهذه الرواية تعدّ من أشهر روايات الحديث^(٢)، كذلك نشر الأندلسيون علم القراءات^(٣) في المغرب الأوسط ومنهم كان أحمد بن خضر الشاطبي^(٤) وابن زهر البننسي^(٥) وابن سيد الناس اليعمري^(٦) الذين اشتهروا بعلم القراءات في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(٧).

خلاصة القول: إنّ تعامل المهدي محمد بن تومرت وخلفائه من الموحدين مع سكان المغرب تسبب في سقوط عقيدته ومن ثمّ دولة الموحدين على حساب تسيد المذهب المالكي، ومن دعم المذهب من القبائل المناهضة لسياسة العنف التي انتهجها الموحدون في المغرب العربي الإسلامي، منذُ بداية دعوتهم، وذلك لأنّ مؤلفات المهدي محمد بن تومرت انتشرت في البلاد الإسلامية، لكنّ أسلوبه في نشر هذه التعاليم وتشكيكه في إيمان المرابطين، فضلاً عن اعتماده على علوم يرفضها المسلمون مثل الفلسفة، تسبب بنقمة سكان المغرب العربي الإسلامي على عقيدته وتعاليمه، ومن ثمّ الارتداد عنها حالما سمحت لهم الفرصة في ذلك، وربما هذا ما أدى لتمسك فقهاء المذهب المالكي بمذهبهم ومساندة كل من ينقلب على دولة الموحدين وعقيدتهم.

وزاد الأمر سوءاً استخدام الخلفاء الموحدين للقبائل العربية في المغرب الأوسط التي تسببت بتشرد القبائل البربرية وبالأخص زناتة، ومن ثمّ محاولتهم دمج هذه القبائل بقبائل المغرب الأقصى عندما جندوها خدمة لمصالحهم، فإن كان لهذه السياسة إيجابيات فلها سيئات أيضاً؛ إذ إنّ قبائل

(١) أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني، من أهل شاطبة رحل عنها سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م إلى بجاية التي تولى الخطبة فيها عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، كان متقناً لعلم القراءات، على معرفة بعلوم اللغة والنحو، توفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م. الغبريني. **عنوان الدراية**. ص ٧٩-٨٣؛ ابن القاضي، أحمد بن محمد. (١٩٣٤م). **درة الحجال في غرة أسماء الرجال**. ق ١. المطبعة الجديدة. الرباط: المغرب. ص ١٥٩.

(٢) البننسي. **الرحلة**. ص ٥١.

(٣) علم القراءات: هو علم يعنى بكيفية قراءة القرآن الكريم والنطق بكلامه، وطرق أداء نطقه اتفاقاً واختلافاً، معزواً إلى ناقله. ابن الجزري، محمد بن محمد. (٢٠٠٢م). **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**. تح: عارف الشيخ. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ص ٩؛ القاضي، عبد الفتاح بن عبد الغني. (١٩٨٠م). **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرّة**. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان. ص ٧.

(٤) أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفي الشاطبي، عرف بعلم القراءات، كان يرغب الطلاب في الأخذ عنه، توفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م. الغبريني. **عنوان الدراية**. ص ٨٥-٨٦.

(٥) أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، من أهل بننسية رحل إلى بجاية ليقرأ بها، له علم بالقراءات وحظ من العربية، توفي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. الغبريني. **عنوان الدراية**. ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٦) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد الإشيلي، أصله من آبدّة، كان راوية حافظ بالحديث، وفي معرفة القراءات إمام، تولى الجامع الأعظم في بجاية، توفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م. الغبريني. **عنوان الدراية**. ص ٢٩١-٢٩٤؛ اليافعي. **مرآة الجنان**. ج ٤. ص ١١٥.

(٧) بخدة. **الهجرة**. ص ٢١٩-٢٢٠.

المغرب العربي الإسلامي عادت إلى مناطق أكثر تحكماً بالمغرب العربي الإسلامي بعد سيطرة الموحدين على العرب، مثل التلال والوديان والمناطق الوعرة، لتدير منها عملياتها العسكرية ضد الموحدين الذين باتوا عاجزين عن قمعهم، وهذا ما حصل في عصر المرابطين أيضاً، لذلك يعدّ العامل الطبوغرافي من أهم عوامل السيادة في المغرب العربي الإسلامي، وهذا ما غفل عنه الموحدون عند مواجهتهم للصراع القبلي فيه بعد استقرار دولتهم؛ فضلاً عن إقحام الموحدين أنفسهم في خلافات مذهبية وعقائدية تحقيقاً لمصالحهم الشخصية على حساب مصالح المسلمين، فأدى ذلك إلى هزيمتهم في معركة العقاب وانفصال الحفصيين عنهم؛ لتتهار دولتهم تدريجياً على يد بني مرّين.

لكن الآثار العلمية للموحدين بقيت في المغرب والأندلس؛ من خلال تقبل الناس للعلم وإبداعهم فيه، وهذا لم يكن سائداً قبل قيام دولة الموحدين، حيث زادت المؤلفات، وانفتح السكان على الشعوب الأخرى، فأصبحوا بفضل ذلك أكثر إدراكاً لواقعهم السياسي والقبلي، وساهموا في عملية التقدم العلمي الذي كان المشرق العربي الإسلامي متفوقاً فيه، والفضل في ذلك يعود إلى دعوة المهدي محمد بن تومرت.

الخاتمة ونتائج الدراسة

قبل استعراض نتائج الدراسة لابد من التذكير أنّ الروايات حول الخلفاء الموحدين، كانت متناقضة ومتضاربة، حتى أنّ فكر المهدي محمد بن تومرت لاقى تجاوباً من المؤرخين الذين عدوه المثل الأعلى؛ لتوحيد المغرب والأندلس تحت راية واحدة، وأتته حمل في ثنايا فكره السياسي ومؤلفاته الوحدة المذهبية التي بتحقيقها يصل العالم العربي الإسلامي إلى الوحدة الجغرافية والسياسية، لكنّ بعضهم عدّه مخادعاً ومنافقاً حتى وصل بهم الأمر إلى اتهامه بالشعوذة، وذلك يعود إلى أسلوبه في نشر تعاليمه بين المسلمين، وطريقته التي سار عليها خلفاؤه من بعده، فالجوانب النظرية لقضيته وتعاليمه تحمل أهدافاً سامية يسعى إليها العرب والمسلمون في أي مكانٍ وجُودوا فيه، لكنّ الجانب التطبيقي لأهدافه مصبوغٌ بالقتل وسفك الدماء، ولا يعرف إن كان ذلك نابعاً من فكره الذاتي أم أن خلفاءه ومؤيديه استجروه إلى هذه الطريق المنافية لما دعا إليه في أثناء رحلته وطوفانه في العالم العربي الإسلامي تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمصادر المتوفرة لا تمدّ الباحث بمعلوماتٍ جازمةٍ في هذه الناحية؛ إذ تلقى اللوم دائماً على المسلمين الذين وقفوا حجر عثرة في وجه مشروعه الهادف، وربما هذا الواقع الذي وصل به إلى قتل كلّ معارضيه، خاصةً أنّ تاريخ العرب المسلمين في العصور الوسطى مليء بالاستبداد، وتأييد الروايات الموالية للحكام، لكنّ ذلك لا يقلل من أهمية دراسة دولة الموحدين لما وصل إليه المغرب والأندلس من تحررٍ فكريٍّ وإبداعٍ علميٍّ في العلوم والآداب المختلفة، ولم يكن من الباحث سوى أن اتخذ موقفاً محايداً مما ذكرته المصادر عن دولة الموحدين، بعد أن أسعف في جمع المعلومات عنها من مصادرٍ ومراجع مختلفة، ومن ثمّ عرضها وحللها للوصول إلى استنتاجات نوعاً ما تخدم الدراسات المتعلقة في هذا المجال، وتتفي الغموض المذكور عن ماهية دعوة المهدي محمد بن تومرت.

ومهما يكن فقد كان هذا الفكر السياسي للموحدين وقضيتهم وتاريخ دولتهم الذي سخر فيها الدين لخدمة المصالح الشخصية، ولا يمكن تجزئته عن تاريخ المغرب والأندلس منذ القدم، ففكرهم السياسي جمع بين المذاهب المختلفة بهدف تحقيق الخير العام للناس من الناحية النظرية فقط، ووضع قانون لا يمكن الجدل فيه قائم على وحدانية الله، ويهدف إلى توحيد العالم الإسلامي تحت راية الموحدين فقط، أما قضيتهم قبلية في المقام الأول هدفها الوصول إلى رأس السلطة، وذلك لأن الوحدة الجيوسياسية لا تتم إلا بالتوحيد الديني القائم على العصبية، وهذا يفسر خروج الخلفاء الموحدين عنها عند استقرار أمرهم؛ وفي النهاية سيتم إيجاز أهم ما يمكن استخلاصه من هذا الفكر السياسي والتاريخ:

نتائج الدراسة

١- العصبية القبلية هي عصبية بدواة من أجل ضمان حقوق قبيلة على حساب قبيلة أخرى، وهذا ما يسمى بالعدوان بين البشر، حيث إنّ البدواة رافقت البربر (الأمازيغ) في المغرب العربي الإسلامي، فرغم ميل القبائل البدوية للتحضر وامتلاك الأراضي الخصبة على حساب القبائل المتحضرة بعد هجرتها وانتقالها من الصحراء إلى الأراضي في الشمال، ظلّ طابع البدواة مرافقاً لهم، حتّى إنهم تعالوا على القبائل الأخرى التي شاركتهم في صنع الحضارة، وهذا ما جعل تاريخ المغرب العربي الإسلامي في العصور الوسطى مليئاً بالثورات والانتفاضات على الدول التي قامت فيه، وعلى الرغم من أنّ البربر بشقيهم البدوي والحضري، تخلّوا عن طابعهم القبلي، وتقلّدوا بالعرب وتخلّقوا بأخلاقهم واندمجوا في مجتمع واحد بعد الفتح العربي الإسلامي للبلاد، إلّا أنّ قيام الدولة الأموية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغرب العربي الإسلامي وتهجيرها للقبائل الهلالية إليه، أحدثت فارقاً طبقياً واجتماعياً داخل مجتمعهم حتّى قيام دولة الموحدين والتوحد تحت رايتهما، أمّا المجتمع الأندلسي فلم يتحقق فيه الاندماج بين العرب والبربر حتّى تغلب البربر في عصر المرابطين، ومن ثمّ أزيلت الفوارق الطبقية في عصر الموحدين.

٢- سيطرة عصبية قبيلة بربرية (أمازيغية) على أخرى لا يتم إلا بتبني مذهب ديني يدعم موقف القبيلة ويعطيها الشرعية الإلهية في الحكم؛ لذلك كان انتشار المذاهب الإسلامية أسرع في المغرب العربي الإسلامي من مشرقه، وذلك يعود إلى الظلم الذي عانى منه سكان المغرب العربي الإسلامي بداية الفتح العربي الإسلامي على يد الخلفاء الأمويين؛ ليسمح ذلك بانتشار المذهب الخارجي بعد تمسك المذهب بنصوص القرآن الكريم وتطبيقه لتعاليمه؛ فضلاً عن عزوف الخوارج عن متع الحياة وتزهدهم، ومع انقسام الخوارج إلى إباضية وصفرية، ومع دخول الفاطميين إلى المغرب العربي الإسلامي اشتدّ الصراع بين قبائل البربر، فقد أتاح لهم ذلك التغني بالنسب العربي وقبيلة قریش، خاصة أنّ الدولة الفاطمية أقنعت بني زيّان بأصولهم العربية؛ ليتسبب ذلك في تعدّد مذاهب قبائل المغرب العربي الإسلامي وما يتبع ذلك من ميول سياسية، ويمكن تعليل السبب لذلك في سطحية معرفة البربر بالدين الإسلامي، وهذا ربما تسبب في زوال مذاهب على حساب مذاهب أخرى، وقيام الثورات التي وجد فيها البربر المتنفس الوحيد لتحقيق مطالبهم وإبراز كياناتهم ومنع ظلمهم، وهذا ما ظهر مرة أخرى مع حركة المهدي محمد بن تومرت بين قبائل مصمودة التي ناصرت الدولة على حساب عصبيتها بعد سيطرة أبناء عبد المؤمن بن علي على الحكم، وهم من قبيلة زنّانة البدوية، لذلك كان الصراع القبلي بين أبناء المغرب العربي الإسلامي صراعاً سياسياً هدفه في المقام الأول تحصيل المعاش من أجل البقاء، وليس صراعاً طائفيّاً أو مذهبيّاً، كما كان للصراع في عهد الخلفاء الموحدين

منحى آخر ينفرد عن هذا المفهوم، وهو منع التبعية للمشرق العربي الإسلامي، ظهر ذلك مع تبني الخلفاء للمذهب الظاهري ذي المنشأ الأندلسي على حساب المذهب المالكي ذي المنشأ المشرقي؛ لينتج عن ذلك الإبداع المعرفي والعلمي، وإقامة علاقات دبلوماسية مع أوروبا وإفريقية هدفها الأول دعم التجارة والاقتصاد وتوفير القوة العسكرية للخارجين عن تعاليم المهدي محمد بن تومرت، وما يحسب أيضاً من سياستهم في هذا الجانب أنهم لم يتمكنوا من ضم المشرق العربي الإسلامي الذي نادى به المهدي محمد بن تومرت عسكرياً، لكن بفضل ثقافتهم الواسعة ومؤلفاتهم غزوا المشرق العربي الإسلامي؛ أي إن سلطتهم امتدّت إلى المشرق بالقلم والعلم وليس بالسيف، وهذا ما حقق غايتهم التي نادى بها الرحالة والجغرافيون في كتبهم.

٣- يلحظ من الدراسة أنّ قبيلتي صنهاجة ومصمودة أكثر انفتاحاً على المشرق العربي الإسلامي من قبيلة زناتة، حيث إنّ قبائل صنهاجة من لمتونة وبنو زيان ومصمودة ارتبطت بعلاقات مع المشرق العربي الإسلامي، أمّا قبيلة زناتة فقد رفضت أي محاولة من المشرق العربي الإسلامي لتجنيدها في خدمته، يظهر ذلك من موالاتها للناقمين على المشرق سواء من الخوارج أو من الأدارسة ومن بعدهم أمويّ الأندلس، وعندما حاول صلاح الدين الحصول على مساعدتهم ودعمهم ضد الصليبيين رفضوا ذلك واختاروا الارتباط بالأندلس والتمسك بها، ليستنتج من ذلك أن صنهاجة ومصمودة أكثر مرونة من زناتة المتشددة للهوية المغربية.

٤- يلحظ أيضاً أنّ المهدي محمد بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي ينتميان إلى فئة أصحاب الأموال والحرف، وهذا يدعم الرأي القائل إنّ قضيتهم وحركتهما كانت للحفاظ على مكانة قبائلهما الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الرأي القائل بدعم حركة المريدين من المتصوفة لحركة المهدي محمد ابن تومرت بعد خسارتهم لتجارتهن في الأندلس بعد قيام دولة المرابطين، ليظهر من ذلك أنّ الطرق التجارية تعدّ الشريان الأساسي للفكر السياسي ونظرياته عند القبائل في صراعها مع بعضها بعضاً منذ الفتح العربي الإسلامي.

٥- كما يظهر ذلك من الحديث عن بناء مدينة مراكش الملكية من قبل المرابطين، هذه المدينة التي من خلالها سيطروا على الطرق التجارية في المغرب الأقصى، وكذلك مدينة تادلا فأثر ذلك في قبائل المصامدة وخنق أنفاسهم، ومدينة ندرومة التي بنيت في أراضي قبيلة كومية من زناتة، على الرغم من الأسباب العسكرية والدفاعية لبناء هذه المدن إلا أنّ لها هدفاً سياسياً أيضاً تمثل في خضوع قبائل مصمودة وزناتة للسلطة المرابطية المطلقة، وهذا يعدّ عاملاً مشتركاً لقيام دعوة الموحدين بزعامة رجال من قبائل مصمودة وزناتة للقضاء على قبائل المرابطين، وهذا سبب مفهوم الجهاد في مؤلفات المهدي محمد بن تومرت، وأدى السبب نفسه أيضاً إلى القضاء على دولة الموحدين، وذلك

لأنّ دولة الموحدين ضمّت عناصرَ بشريةً متعددة الأجناس والصفات بعد دمجها للقبائل العربية والقوات المسيحية ضمن جيش الموحدين؛ فضلاً عن تحجيم دور شيوخ الموحدين وسلطتهم؛ مما ناقض سياسة المهدي محمد بن تومرت، ودفع القوى المعارضة للحكم الموحي في الخلاص من سلطتهم، ليظهر من ذلك أنّ الخطر نفسه الذي تعرضت إليه القبائل المغربية في عصر المرابطين تعرضت له في عصر الموحدين، فكان ذلك بداية نهاية دولتهم عندما أُتيحت الفرصة للناقمين عليهم في معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م.

٦- يُلاحظ أن قبائل زناتة هُجرت من مناطق سكنها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فحدث تغير ديمغرافي للمنطقة، ما دفع بقبائل زناتة للعودة إلى مناطق سكنها باستخدام كافة السبل، فعملت على مضايقة القبائل الأخرى، حتى أُتيحت لها الفرصة للسيطرة على المغرب العربي الإسلامي تحت راية دولة الموحدين، ومن ثم العودة إلى المغرب الأوسط والأقصى في مرحلة ضعفها متمثلة ببني مرين وبني عبد الواد، وهذا يفسر أسباب اشتداد الرحلات لدى أهل المغرب إلى المشرق العربي الإسلامي.

٧- دعوة الإصلاح التي نادى بها المهدي محمد بن تومرت لم تلقَ ترحيباً في المغرب والأندلس، فالواقع الطبقي بقي قائماً بين سكانهم تماماً كما كان عليه النظام المرابطي قبل إسقاطه؛ ليتجاوز بذلك الخلفاء الموحدون تعاليم المهدي محمد بن تومرت وتنظيمه لمجلس الموحدين، حيث وضع المهدي للموحدين في فكره السياسي تنظيمياً لإشراك أهم القبائل الموحدية في الحكم، وترك مؤلفات كانت بمنزلة القانون أو الدستور الذي يسير في ضوئه الموحدون، لكنّ الخلفاء الموحدون تخطّوا هذه النظم والقوانين، بالتفريق بين القبائل البربرية من بني غانية وبني عبد الواد وبني مرين وغيرهم، وإشراك عناصر بشرية مرتزقة من خارج المغرب العربي الإسلامي، مثل: العرب الهلالية والأتراك والجنود المسيحيين، وربما السبب يعود إلى اتساع الرقعة الجغرافية لدولة الموحدين عمّا كانت عليه في عهد المهدي محمد بن تومرت، فاحتاج الخلفاء الموحدون سياسة مخالفة لتعاليمه تقوم على مبدأ فرق تسد؛ لذلك يمكن القول إنّ حكام الدول في المغرب والأندلس أرادوا الانفراد بالسلطة بوسائل شتى، وإنّ الغاية من سياستهم ليس مصلحة الناس، وهذا ما يظهر من خلال تعاملهم مع الخاصة وموظفي الدولة ومع العامة من الناس، بذلك يضمن الحكام طاعة طبقات المجتمع والترويج بين الناس أنّ طاعة السلطان فضيلة بما أن سلطته هي تفويض من الله وهو الأمر والناهي.

٨- يلحظ أنّ المهدي محمد بن تومرت انتهج مرحلتين في دعوته وفكره السياسي:

المرحلة الأولى: كانت تربية قائمة على تأصيل الدين في نفوس المغاربة عن طريق المناقشات والمناظرات وإلقاء الدروس، فنشأ عن ذلك ارتباط الناس بعقيدة التوحيد وأخذهم بالتأويل

على العقيدة الأشعرية، فأثر ذلك في نهوض العلم وظهور الإبداع الذي وضّح شخصية الموحدين وماهيتهم، وبرهن على بعد المهدي محمد بن تومرت عن التعصب لمذهب إسلامي على حساب مذهب آخر، حتّى أنّه وافق جميع المذاهب والفرق الإسلامية بصيغة متوازنة دون المس بإحداها داخل حدود الكتاب والسنة؛ ليربط بذلك بين النظرية والعمل والواقع الاجتماعي الذي ظهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المرحلة الثانية: كانت سياسية عسكرية ضدّ كل من خالف وعارض دعوته سواء من المرابطين أو من قبائل المغرب العربي الإسلامي، لينتج عنها إقامة دولة شملت أراضي المغرب العربي الإسلامي مع بقية أراضي الأندلس، دون الصحراء التي بقيت ملجأً لمعارضى الخلافة الموحدية، ليُظهر من ذلك حنكةً سياسيةً في التعامل مع القبائل الموالية لدعوة الموحدين بعد تنظيمها، استفاد منها خليفته عبد المؤمن بن علي عندما ضمّ القبائل الموالية له إلى التنظيم الموحدي، لكنّ هذه الحنكة بدأت بالزوال بسبب المغالاة في القسوة التي مارسها الموحدون ضد من عارضهم حتّى نهاية دولتهم على يد بني مرين في المغرب الأقصى.

٩- يلحظ أنّ دعوة المهدي محمد بن تومرت للإصلاح من ناحية الحكم أخذت على سبيل النظرية فقط في عهد خلفائه ولم يطبقوها في سياستهم، فالحكم في بداية ظهور دولة المرابطين انتقل بين القبائل الصنهاجية حتّى تولية الأمير يوسف بن تاشفين ٤٥٧-٥٠٠هـ/١٠٦٥-١١٠٦م الذي جعله وراثياً بين أبنائه وحصره بأبناء قبيلته، وكذلك الموحدين ففي مرحلة الدعوة انتقلت السلطة من قبيلة مصمودة إلى قبيلة كومية الزناتية، لكن مع تولي عبد المؤمن أمر الموحدين؛ أصبح الحكم وراثياً بين أبنائه وأبعد الخليفة المصامدة عنه، لذلك كان مبدأ الحكم في الدولتين قائماً على ما يفرضه الواقع السياسي للدول، وهذا ربما سبب سقوط الفكر السياسي للدولتين في المغرب والأندلس.

١٠- أسهم الموحدون في تعريب منطقة السوس في المغرب الأقصى من خلال إلزام السكان بالتعلم، وجعلهم اللغة العربية لغةً رسميةً للدولة، حتّى أنّ القسوة التي مارسها الموحدون كانت لفرض العلم بين أبناء المغرب العربي الإسلامي، ليلحظ منها أنّ النهج الذي اتبعه الفقيه عبد الله بن ياسين في سياسته التعليمية اتبعه المهدي محمد بن تومرت في فرض العقيدة والتعليم، أمّا ما يخص تطبيقه فيختلف عن عصر المرابطين؛ لأنّ الفكر السياسي للمهدي وتعاليمه لم يُسخر سوى للقضاء على المرابطين وضمان سلطة الخلفاء الموحدين، وهذا ربما سبب عدم تطبيق الفكر السياسي الموحدي سوى في عهد الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف؛ إذ سرعان ما أعلن المنصور تشكيكه في مهودية محمد بن تومرت؛ ليعلن نكرانها وعدم الإيمان بها رسمياً في عهد ابنه إدريس المأمون، لكن من خلال تتبع الأحداث السياسية للمنطقة يستنتج أنّ ذلك لم يكن سبباً عقائدياً، فالفكر السياسي للمهدي محمد

بن تومرت يضمن للخلفاء الموحدين السلطة المطلقة على اعتبار أنها مستمدة من الله تعالى؛ وإنما السبب سياسي يهدف إلى منع تدخل المشرق العربي الإسلامي وقادته في شؤون دولة الموحدين، وهذا ربما سبب دعم القائد صلاح الدين الأيوبي للمذهب المالكي سواء بتقديمه الدعم السياسي والعسكري لبني غانية أو بدعوه الفكري للمذهب المالكي؛ ليستعيد مكانته في المغرب العربي الإسلامي كما كان عليه قبل قيام دولة الموحدين، فتسبب ذلك في إعادة تقسيم المغرب العربي الإسلامي إلى دول عدة أنشأتها قبيلتان موالييتان للموحدين هما الحفصيون من مصمودة وبنو عبد الواد من زناتة، وقبيلة معارضة لهم هي قبيلة بني مرين من زناتة، وهذه القبائل تعدّ حجر الأساس الذي بني عليه حكم الموحدين، وربما السبب في ذلك يعود إلى تخلي الموحدين عن فكرة ضم المشرق العربي الإسلامي لحكمهم بعد هزيمتهم في معركة العقاب، وما آل إليه حكمهم من ضعفٍ وانكسارٍ وصراعٍ على السلطة بين أفراد البيت الحاكم.

١١- يلحظ من الدراسة استغلال الممالك المسيحية في الأندلس لحالة الانقسام في العالم الإسلامي عند تولي عبد المؤمن بن علي وأبنائه حكم المغرب والأندلس، وتبنيهم مبدأ الخلافة الإسلامية؛ ليلتعدوا بذلك في قضيتهم عن الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، ومن ثم عدم تعاملهم مع من يؤيد الخلافة العباسية من أهل المغرب العربي الإسلامي، فاستغل المسيحيون ذلك لتحقيق مصالحهم واستعادة الأندلس وإبعاد مشروع صلاح الدين عن أراضيهم، ظهر ذلك من خلال معركتي حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م والأرك ٥٩١هـ/١١٩٤م، فعندما حقق القائد صلاح الدين انتصاره في معركة حطين في القدس، حقق الخليفة يعقوب المنصور انتصار لا يقل أهمية في معركة الأرك بالأندلس، بذلك عززت الثقة في نفوس المغاربة، ودعم الانقسام بين العرب والمسلمين في المشرق والمغرب العربي الإسلامي لمصلحة الممالك المسيحية، وعندما خاضوا معركة العقاب كان العالم العربي الإسلامي يعاني الانقسام؛ ممّا أسهم في حسمهم المعركة لصالحهم، وبين هدفهم في استعادة أراضي الأندلس على حساب ممالكهم في بلاد الشام.

١٢- كما يلحظ أنّ حكام الدول كانوا يسهمون في دعم الناس عند تعرضهم للأزمات الاجتماعية والسياسية في زمن قوتهم، لكن مع بداية ضعف الدولة وانهيارها يسلم حكام الدول أمر الناس للإرادة الإلهية ومقدرة العامة على تحمّل الوضع المزري دون تمكّن الحكام من معالجة الأمر، فيتسبب ذلك بالفوضى والدمار، وترجي الناس عاملاً خارجاً عن الطبيعة، ليسهم في مساندتهم والذود عنهم، مثلما حصل عندما أنهت حركة الموحدين الأزمات التي تعرض لها المغرب العربي الإسلامي في نهاية دولة المرابطين، وبقيام دولة بني مرين التي أنهت الأزمات التي عانى منها سكان المغرب العربي الإسلامي عند انهيار دولة الموحدين وضعفها.

١٣- يلحظ من خلال الدراسة أنّ التاريخ الإسلامي تغير مع قيام المدرسة النظاميّة على يد الوزير نظام الملك ٤٠٨-٤٨٥هـ/١٠١٧-١٠٩٢م وقيام دعوة حسن الصّبّاح ٤٢٨-٥١٨هـ/١٠٣٦-١١٢٤م في المشرق العربي الإسلامي وتبني المهدي محمد بن تومرت لأفكار المدرستين ودمجهما في تعاليمه ونظمه؛ لأنّ ذلك أسهم في توعية الصليبيين إلى الخطر المحدق بهم، وأهمية فصل العرب المسلمين وعدم توخّدهم؛ ليمنعوا اجتياحهم لأوروبا، كما أنّ ذلك حقق نوعاً من التوازن المذهبي في المشرق العربي الإسلامي ومغربه بين المذهبيين السني والشييعي، خاصة أنّ معركتي ملاذكرد ٤٦٣هـ/١٠٧١م والزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م كانتا من أهم المعارك التي أظهرت التعاون بين المشرق العربي الإسلامي ومغربه، وما النتائج التي حققتها إلّا نتائج واضحة للتفوق والانتصار الذي حققه العرب المسلمون على القوات المسيحيّة، لكن أيضاً أظهرت حالة الانقسام الذي يعاني منه العرب المسلمون، فقبائل المغرب العربي الإسلامي من بني حماد منعوا الأمير يوسف بن تاشفين من التوغل في الأندلس؛ لاسترداد أراضيها من الممالك المسيحيّة، وعانى المشرق العربي الإسلامي من انقسامه بين مؤيدين للمذهب السني ومؤيدين للمذهب الشييعي الإسماعيلي، أمّا حسن الصّبّاح فقد أسهم في نقل مركز الشيعة الإسماعيلية من مصر إلى بلاد فارس، فشارك في عدم سقوط المذهب بعد ضعف الخلافة الفاطمية وانهيارها، كما أسهم في إمكانية توحيد العالم الإسلامي في مشرقه ومغربه.

من هذا المنطلق يمكن القول إنّ دعوة المهدي محمد بن تومرت وفكره السياسي جاء لدعم هذا المفهوم وتطبيقه؛ أي إنّ حركته كان لها هدف سياسي في المقام الأول قبل أن يكون هدفها دينياً عقائدياً، وهو توحيد العالم الإسلامي مذهبياً وسياسياً؛ لذلك كان فكره السياسي انقلاباً عسكرياً وسياسياً وعقائدياً في تاريخ العرب والمسلمين.

أما أهم التوصيات التي توصل لها البحث فهي:

١- أهم التوصيات إلى المهتمين بدراسة تاريخ المغرب والأندلس: لا بد من ربط المشرق الإسلامي بالمغرب، فكلاهما تاريخ واحد لا يمكن تجزئته، حتّى يصل الباحث بنتائج مخالفة لما ذكرته المصادر التاريخية المؤيدة للحكام على حساب الحقائق العامة، ولأنّ ذلك يظهر أفكاراً سياسية وحضارية نقلها العرب المسلمون من المشرق إلى المغرب العربي الإسلامي خاصة أنّه كان مقصداً لطلاب العلم والحج والعكس بينهم.

٢- البحث أظهر العلاقة الوثيقة بين الجغرافية والتاريخ وعلم الآثار لأنّ ذلك يتمم الدراسات العلمية ويصل بها إلى حقائق نسبية، لم تذكرها المصادر المتوفرة، فالفصل بين هذه العلوم يعد بترّاً للحقائق التاريخيّة، خاصة أنّ هناك بعض الآثار والمخطوطات الضائعة التي يمكن باكتشافها الوصول لحقائق أخرى.

٣- على الباحث في تاريخ المغرب والأندلس الاهتمام بالأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية التي عانت منها أوروبا، لأنَّ تاريخ أوروبا لا يمكن تجزئته عن تاريخ المغرب العربي الإسلامي، خاصة أنَّ الدراسة أثبتت التشابه التاريخي بين واقع أوروبا والمشرق العربي ومغربه في العصور الوسطى.

٤- تتطلب دراسة المغرب العربي الإسلامي الانطلاق من الواقع الديمغرافي لسكانه وتنقلاتهم؛ لأنَّ تاريخ المغرب العربي الإسلامي هو تاريخ قبلي قائم على حكم كل قبيلة للمنطقة الجغرافية التي تقطن بها، وعلى النسب الذي تنتمي إليه هذه القبيلة، ودراسة الواقع القبلي يسهم كثيراً في معرفة طبيعة التحركات السياسية التي رافقت تاريخهم في العصور الوسطى، ومدى تأثير هذه الروابط في الدول التي نشأت فيه.

٥- أظهرت الدراسة أنَّ المذاهب التي اتبعتها أهل المغرب العربي الإسلامي هي في الأصل مشرقية المنشأ، عدا المذهب الظاهري الأندلسي، وذلك لأنَّ الكتابة في الفكر السياسي عند المسلمين انتقل من المشرق العربي الإسلامي إلى المغرب العربي الإسلامي، بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ؓ؛ إذ لا بد من التوسع في دراسة العوامل التي أسهمت في انتقال الفكر السياسي من المشرق إلى المغرب العربي الإسلامي، ولماذا أثرت هذه المذاهب على قبائل المغرب العربي الإسلامي كل منها على حدة، باختلاف واقع معيشتها وانتمائها.

وأخيراً على الرغم من كل ما تم التوصل إليه من النتائج حول الفكر السياسي الموحي ونظرياته وكيفية تطبيقها إلاَّ أنَّه غني عن القول إنَّ ما تقدمه هذه الدراسة ليس إلاَّ غيضٌ من فيض، وفي الختام أحمد الله تعالى على توفيقه وامتنانه عليَّ في إتمام هذا البحث، فأبني إن بلغت المداد فيه، فالله ولي الفضل، وإن جنبنني الصواب، وأدركني الخطأ، فحسبي جهدٌ صادقٌ، لم أبخل به لأبلغ غايتي، وإن اعتراه القصور والله الموفق.

الملاحق:

الملحق رقم ١: رسالة الأمير علي بن تاشفين إلى الخليفة العباسي المستظهر^(١).

وكتب أبو القاسم بن الجدي إلى المستظهر العباسي خضع الله خضعة الأمام المستظهر
أبي العباس المومنين بأقال الحسان والنوار المساعي الصالحات وحسن الخصال
وطرف درغافيون الحاديات كتب ولي الدولة العباسية المعتدي بسيرتها الفاضلة
المعصية وهو جده جلت أسماؤه حمداً موصول الأسباب ومدد الأطناب وسلسله الصلاة
علي محمد رسوله المنتخب اللباب من أكرم الأناصب وإن اختصر خضع أمير المؤمنين سليل
أخلاف بصفايا العوارف وحفايا الطائيف وجمع علي لأقارب حقها والاعتراف بفضليها
كله

كله الخالف والمخالف وعقيدة المتجانف والموالف عن أو في عهد وأقوي عقد
في التمسك بعلايق طاعة أو لتقلد لتقليد أمانتها بعد ما وصل اليه كتابها العزيز
مضمناً من مراسمها العالية ومواهبها الزاكية عهدوا الزمها رسوماً وحدوداً واقفاً
في عهد أم جنوداً ونشر منها ألوية للمغز وبنوداً علي أنه ما زال يحمل مشاييرها
وسايقاً معتقها وبعلامة أمانتها وخلافتها معلماً ولاحكام سنتها العادلة متقلداً
ملتزماً وفي مجاهدة أعداء الدين وحمايه أرباب المسلمين مجتهداً معتزماً بشيئ بالدين
لما علي نابر بلاد ويغتم أسماها ويخبر ذكرها في أو في انفراد واختشاده ويجعل
لقوي الله تعالى بغير اعتقاده وعرض اعتقاده ويتخذ من كتابه المبين وسنته رسوله
الأمين دليل هدايته وأرشاده ويستنفع في قطع المظالم ومنع المحارم وسع قدومه
واجتهاده وعلي هذه البصيرة والوثيق درج من درج من أبايه واجداده والأحوال
بجدها جنباً مستقيمة والأعمال في جميع جهاته سليمة والأحكام مراعاة علي مركز
الحق ونقرا العدل مقيمة والأجناس موفورة وسبيل الجهاد معمورة وأخرب لم يكن
فيما جاوز أقطاره موطوء مدحوره وثغور المسلمين محوطة مضبوطة وأمور البين
مسدودة من بوطه وأيدي الجور والخوف في جميع أعماله مقبوضة محبوضة وبسط
العدل والأمن مدوده مبسوطة وولي الدولة المجده وصل الله علوها وكبت عدوها
ودوام امورها بما يعتقده ومتقلده من القيام بدعوتيه إلى الاعتصام
بعضتها والانتظام في سلك طاعتها والله يكتد في الرعي الأول من جملة أوليها
وجملة أعيانها المستقلين بظل رايها ولأولها ولا يعدمه التشرع بما يرد عليه من
عهداتها السامية والنجاة بعزته وسلام الله الموصول على حصن الإمامة ومحل الكرامة
ورحمة الله وبركاته وكتبه عنه أيضاً بالانضمام منه كتاباً كتب الله لحضرة

(١) المواعيني. ربحان الألباب. ورقة ٦٠-٦١.

الملحق رقم ٢: رسالة الأمير علي بن تاشفين إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي^(١).

والله وبركته وكتبه عنه أيضاً إلى الأفضل صاحب مصر كتابي كتب الله لحضرة
الأمير الأجل السيد المعظم إلى القسم الأفضل أركي دوائر الأعمال وعمر أركانها
بوفود الآمال وقصر علي نقاستها عزز المعالي وتحسن الأقوال والأفعال من حضرة المغرب
مفر سلطاننا ومحل استيطاننا ومركز بلادنا ومحقق أجدادنا أثرت قولنا من العزوة
الصافية وقد حسنت لنا الآثار وورعت لقدومنا ابصار واجتعت بعون الله بلاد
واقطار وبات لنا في أعدائهم آمال واطمار وما صدرنا حتى رويت سبوقنا من
تقديم واستبناخه منيع أدوا بهم ولا نأخت جوشنا بمد يده برجلوقه أغر بلادهم
داراً واجلها مقدرنا فاضربنا ناراً وهبت علي ربح أصلها أعصاراً وأوسعهم قتلاً

واساراً ولما كان الذي بيننا وبين حضرة الكريمة وصل الله جلالها وبسط ظلالها
نيراً مشرقاً مثراً مورقاً وجب أن يهدي مني أمكنة رسول وتأتي لنا في مطالعة
سؤل جلالنا من اجازنا ولعنا من آثارنا كما دنا لشقشرف لما يطلع علينا من مسار
ابنائها ولبنائهم ظهورها واعتلايها وننادي كتابنا هذا إلى حضرة العزيز عمر الله باخيرات
جنايها ومد في ساجات المسرات اطنا بها من بد فلان معظم شأنها وموئل اصحابها
واحد كبر الاسرنا واعياها وهو من برقت له في الخير بوارق وسبقت له منه في
الغز وسوا بق وتلفع طويلاً بمرط غبارها وخب واوضع في مصراع في ثمر راي الكان ان شغل
من حسن الي حسن ويجمع بين الحج والغز وفي قرك ويودي ما يلزمه اداؤه من فريض
واجب متعين لتاديه حجة الاسلام وزيارة قبر نبينا محمد عليه
السلام اسلام موطن تنزيل كتاب الله تعالى وموضع ميلاد نبينا المصطفى
ومطافه بين المروة والصفاء ومهاجر طيبه حيث طاب العقد وصفا ولا بد له في
الحضرة المحجاء علي عادته الكريمة مع كل من له من اصحابنا برب قنايها ولم
يغب عن حضرة الكريمة بما حرز عن الاجر الموفور والثواب المدجور بحسن عون الحجاج
المنزامين من اتي في النجاح شعثا غبارا من شعب الكوارهم يستقبلون بوجوههم حرو
لباهم ويسمونهما وهم ويعررون ظهور المسالك ومقون المهالك شوقا إلى تلك المش
المقدسة والمناسك وكتب ابو بكر بن القبطر انه يعزيك احد الولاء عن هزيمة

(١) المواعيني. ربحان الألياب. ورقة ٦١.

الملحق رقم ٣: رسالة الملك ألفونسو الثامن إلى الخليفة يعقوب المنصور قبل معركة

الأرك^(١).

المغرب والأندلس بلاد الفرنج بالأندلس، وسبب ذلك أن الفتن ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة، كتب إلى يعقوب كتاباً باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، أما بعد أيها الأمير، فإنه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ولاذي لب ثاقب أنك أمير الملة الحنيفة كما أنا أمير الملة النصرانية، وأنت من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحة، وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلّف عن نصرتهم وقد امكنتك يد القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا ولا تقدرّون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، ثم حكى لي عنك أنك اخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاماً بعد عام تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، ولا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك، ثم حكى لي عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها، فما أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشواني وأجوز إليك بحملي وأبارذك في أعز الأماكن عندك، فإن كان لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والتقدم على الفشتين والله يسهّل الإرادة ويوفق السعادة بمنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾^(١) فأعاده إليه وجمع العساكر العظيمة من

(١) ابن الأثير. الكامل. ج ١٠. ص ٢٣٦-٢٣٧.

الملحق رقم ٤: التعريف بأهم بطون قبيلة زناتة وأماكن انتشارهم.

أ- **جراوة:** أهم قبائل زناتة تنسب إلى ولد كراوين بن الديرت بن جانا، ومنها كانت الكاهنة داهيا بنت تابنة بني نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن وصلا بن جروا التي تولت رئاستها، سكنت هذه القبيلة في الجهة الشرقية من الأوراس، وانتقل بعض أفرادها إلى المغرب الأقصى بعد هزيمة الكاهنة أمام الجيوش الإسلامية^(١).

ب- **بنو عبد الواد:** هم أبناء رزجيك بن واسين بن ورسيك بن جانا، سكنوا في الأوراس، ثم انتقلوا إلى القرب من الملوية^(٢).

ت- **بنو يفرن:** هم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، أخوة مغراوة وبنو واسين أقوى قبائل زناتة، ويعني اسمهم حسب ما ذكر ابن خلدون القار^(٣)، سكنوا في إفريقية، وفي جبال الأوراس وفي المغرب الأوسط^(٤).

ث- **مغراوة:** أكثر بطون زناتة عدداً، استقرّ بعض فروعها بين مسيلة الزاب ونقاوس في الأوراس، تنسب إلى مغراو بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت ابن جانا، انتقلوا إلى المغرب الأقصى بعد هزيمتهم أمام صنهاجة^(٥).

ج- **لواتة:** ينسب أفراد هذه القبيلة إلى لوا الأصغر ابن لوا الأكبر بن زحيك ذكر أنهم من القبط، سكنوا بين برقة وسرت في المغرب الأدنى، هاجروا غرباً، واستقرّ قسمٌ منهم في جبال الأوراس في المغرب الأوسط^(٦).

ح- **نفزاوة:** تميز أفراد القبيلة بالوسامة والقوة وهم أبناء نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك، زحفوا إلى القيروان سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م، سكنوا في جنوب مدينة كاف إلى قسطنطينة في إفريقية (تونس)^(٧).

ومن قبائل زناتة ورفجومة أيضاً التي سكنت في نواحي طبنة ثم تفرقت في المغرب بعد محالفتها لعمر بن حفص، وهوارة التي استقرت بين سرت وطرابلس في المغرب الأدنى وفرعٌ منها

(١) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٢-١٣؛ السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ٣١-٣٣.

(٢) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٩٧-١٠١.

(٣) ذكر محقق كتاب تاريخ ابن خلدون أنه ورد الاسم في النسخ الأخرى بالفار والغار. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧، ص ١٥؛ القار في اللغة العربية يعني المستقر والبارد. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. ص ٥٢٥.

(٤) ابن حزم. جمهرة. ج ٢. ص ٤٩٨؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ١٥؛ السلاوي. الاستقصا. ج ١. ص ٨٩-٩٠.

(٥) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٧. ص ٣٣-٣٩؛ حياوي، فراس سليم، وعبد الله، محمد. (٢٠٠٨م). قبيلة مغراوة وأثرها في الحياة السياسية في المغرب الأقصى. جامعة بابل. العراق. ص ١٠-١٢.

(٦) ابن حزم. جمهرة. ج ٢. ص ٤٩٨؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٥٢-١٥٥؛ دبوز. تاريخ المغرب. ج ١. ص ٤٣.

(٧) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٥٠؛ دبوز. تاريخ المغرب. ج ١. ص ٤٤.

استقر في غرب صحراء المغرب الأوسط^(١).

- **كومية:** أبناء عم زناتة يعرفون بصطفورة بطن من بني فاتن بن تامصيت ابن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتير، كانوا أصحاب فلاحه ورعي وأسواق، موطنهم بين تلمسان والبحر المتوسط في المغرب الأوسط، انتقلوا إلى المغرب الأقصى في عهد الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي ٥٢٨-٥٥٨ هـ / ١١٣٣-١١٦٣ م الذي ينتمي إليهم؛ بسبب قتل الخليفة عبد المؤمن لعبد العزيز وعيسى أخوي المهدي محمد بن تومرت ت. ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م^(٢).

(١) ابن سعيد. كتاب الجغرافيا. ص ١٤٥؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ١٣٤-١٣٥، ١٥٠؛ دبوز. تاريخ المغرب. ج ١. ص ٤٤.

(٢) البيهقي. المقتبس. ص ٥٠-٥١؛ المراكشي. المعجب. ص ٢٤٥؛ ابن أبي زرع. الأنيس المطرب. ص ١٩٤-١٩٥، ٢٠١-٢٠٢؛ السلوي. الاستقصا. ج ١. ص ١٤٠؛ حسن. الحضارة الإسلامية. ص ٣٠٥.

الملحق رقم ٥: التعريف بأهم بطون صنهاجة، وأماكن انتشارهم في المغرب العربي الإسلامي.

أ- **لمتوننة:** سكنت الصحراء الجنوبية، وقامت على أكتافها الدولة المرابطية، وكان أحد أفرادها الأمير يوسف بن تاشفين ٤٥٧-٥٠٠هـ / ١٠٦٥-١١٠٦م، انتقلت من حياة البداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار، فعرفت الزراعة والتجارة واحترف أفرادها المهن، واستوطنوا مناطق واسعة من وادي نون على المحيط الأطلسي على رأس بوجادور إلى الشرق من وادي نون، وتوغلوا في الصحراء حتى وصلوا الطريق الواصل بين بلاد غانة ومدينة سجماسة^(١)، ووصلوا الأندلس مع دولة المرابطين.

ب- **تلكاتة:** أكبر بطون صنهاجة من ولد تلكات^(٢) بن كرت، كانت الزعامة لهم على بطون صنهاجة الشمال كما للمتوننة سلطة على الملتمين، أما أعظم فروعها فهم بنو مناد بن منقوس، الذين أسسوا ثلاث إمارات في المغرب، الإمارة الزيرية بإفريقية وشرق المغرب الأوسط ٣٦٢-٥٤٣هـ / ٩٧٣-١١٤٨م عاصمتها مدينة القيروان، والإمارة الحمادية في المغرب الأوسط ٣٩٨-٥٧٤هـ / ١٠٠٧-١١٥٢م عاصمتها أشير ثم القلعة ببجاية الناصرية، وإمارة غرناطة في الأندلس التي أسسها زاوي بن زيري وسقطت بعد حروب الاسترداد سنة ٨٥٧هـ / ١٤٩٢م^(٣).

ت- **جدالة:** كان لأفرادها مكانة رفيعة في عهد الدولة المرابطية، سكنت في مدينة أوليل، وامتدت حتى مصب نهر السنغال، تعود أهميتها إلى سيطرتها على طريق تجارة الملح في مدينة أوليل، وأدى دخولها في عدا مع قبيلة لمتوننة أن انتقلت القيادة إلى الأخيرة^(٤).

ث- **مسوفة:** هي إحدى أكبر القبائل المغربية اكتسبت أهميتها من سوقها على طريق تجارة الذهب الواصل بين مدينة أودغست ومدينة سجماسة، وهي قبيلة بدوية تعيش على الرعي قبل أن ينتقل بعض أفرادها إلى رحبة مدينة مراكش في عصر المرابطين عندما

(١) الإدريسي. **نزهة المشتاق**. ج ١. ص ٢٢٣-٢٢٤؛ مجهول. **الاستبصار** ص ٢١٣؛ حسن. **الحضارة**. ص ٢٩٦-٢٩٧؛ بوتشيش. **مباحث**. ص ١٧؛ حسن. **قيام دولة المرابطين**. ص ٤٥، ٤١٣؛ مخلدي، خديجة، ومخلدي، حياة. (٢٠١٦). **بور قبيلة اللمتوننة في قيام دولة المرابطين**. ماجستير منشورة. جامعة الجليلي بونعامة خميس مليانة. الجزائر. ص ١٠-١١.

(٢) ذكرها ابن خلدون ملكان وبلكانة. ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) ابن الخطيب. **الإحاطة**. ص ٢٦٧-٢٦٩؛ ابن منصور. **قبائل المغرب**. ج ١. ص ٣٣٠-٣٣١.

(٤) ابن عذاري. **البيان المغرب**. ج ٤. ص ٢٠؛ مجهول. **الحلل الموشية**. ص ١٦-١٧؛ بوتشيش. **مباحث**. ص ١٧؛ حسن. **الحضارة**. ص ٢٩٧-٢٩٨.

أيدت دعوتهم^(١).

ج- **لمطة**: نزلت القبيلة في المنطقة الممتدة ما بين جبل درن ووادي نول القريب من المحيط الأطلسي، وأضيف لها اسم الوادي فعرفت بنول لمطة^(٢)، كما أن سياسة الخلفاء الموحدين لم تؤثر في بقائها في منطقتها.

ح- **جزولة**^(٣): ينسب إليها الفقيه عبد الله بن ياسين الذي غزاها بعد خروجها عليه سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م، امتدت مضاربها من أول بلاد الصحراء إلى آخر بلاد السوس^(٤).

خ- **صنهاجة**: بقيت هذه القبيلة محافظة على اسمها الجامع، وهي أصناف ثلاثة: صنهاجة غدو بإقليم تازة وهم أهل مدر، وصنهاجة السراير بإقليم الحسيمة، وصنهاجة مصباح شمال إقليم فاس، وتقسم إلى صنهاجة الظل وصنهاجة الشمس، ويعود هذا التقسيم إلى صنهاجة العز، وصنهاجة الذل في عهد ابن خلدون^(٥).

(١) المراكشي. **المعجب**. ص ٧٦؛ ابن عذاري. **البيان**. ج ٤. ص ١٠؛ دندش، عصمت عبد اللطيف. (١٩٨٨م). **دور المرابطين في نشر الإسلام**

في غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ص ٧٨؛ بوتشيش. **مباحث**. ص ١٧.

(٢) مجهول. **الاستبصار**. ص ٢١٣؛ بوتشيش. **مباحث**. ص ١٧-١٨.

(٣) ذكرها ابن خلدون كزولة بالكاف. ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٧٠-٢٧١.

(٤) ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**. ص ١٢٤؛ دندش. **دور المرابطين**. ص ٨٦.

(٥) ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ٢٧٥؛ بوزياني. **القبائل الأمازيغية**. ج ١. ص ٥٥٢-٥٥٣؛ ابن منصور. **قبائل المغرب**.

ج ١. ص ٣٢٩، ٣٣٣-٣٣٤.

الملحق رقم ٦: التعريف بأهم بطون مصمودة وأماكن انتشارها في المغرب العربي الإسلامي.

أ- **هرغة:** قبيلة قليلة العدد أسسها البربري أرغن، مسكنها في جنوب وادي السوس إلى الشرق من مدينة رودانة، ينتمي إليها المهدي محمد بن تومرت؛ لذلك احتلت مكانة رفيعة في عصر الموحدين بعد أن آخى المهدي بينها وبين القبائل الأخرى^(١)، ودخل بعض أفرادها مجلس الخمسين الذي يلي هيئة العشرة^(٢)، ذكرها ابن خلكان، فقال: " هي قبيلة كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب، تنسب إلى الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما"^(٣)، ولعل ابن خلكان بالغ في النسب الشريف للقبيلة التي تنتمي إلى القبائل المصمودية الموجودة قبل قيام الإسلام في المنطقة.

ب- **هنتانة:** قبيلة كبيرة العدد، تتكون من تسعة بطون، موطنها في جبل درن المتاخم لمدينة مراكش، يُنسب إليها أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني، جد ملوك الدولة الحفصية، وأحد أفراد مجلس العشرة في عصر دولة الموحدين^(٤)، وقد دخل أفرادها دعوة محمد بن تومرت بدافع المحبة والإيمان بعقيدته، حيث قال لهم مبعوثهم: " النور النور في بلاد هرغة، وأنتم في ظلمة يا هنتة "، ودخل بعض أفرادها مجلس الخمسين في عصر دولة الموحدين أيضاً^(٥).

ت- **تينملل:** نسبت مجموعة من القبائل إلى جبل يدعى تينملل، سميت باسمه، كما تبنت هذه القبائل دعوة المهدي محمد بن تومرت، فاحتلت مركزاً بارزاً في الدولة الموحدية، حيث اتخذ المهدي من معقلها مركزاً له؛ نظراً لوعورته وقربه من عاصمة المرابطين مدينة مراكش، وبنى فيه داره ومسجده، وأدخل أعضائها مجلس الخمسين^(٦).

ث- **جنفيسة (كنفيسة):** قبيلة كبيرة من قبائل المصامدة، عدد أفرادها اثنان وعشرون فخدًا، دخل أفرادها في مجلس الخمسين، وكانت لغتها أفصح لغات المغاربة^(٧).

ج- **كدميو:** تلفظ بالجيم بدل الكاف أيضاً (جدميو) قرب مسكنها من جبل هنتانة، جعلها تتبع لقبيلة هنتانة وتينملل، سكنت في جنوب مدينة مراكش، وكان لها أعضاء

(١) البيهقي. أخبار المهدي. ص ٣٢-٣٣؛ المقتبس. ص ٣٧-٤٣.

(٢) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٤.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٥٥.

(٤) البيهقي. المقتبس. ص ٤٤؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ١٢٧؛ بوزيان. القبائل الأمازيغية. ج ١. ص ٧٤٩-٧٥٠؛ حسن.

الحضارة. ص ٣٠٣.

(٥) ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٤، ١٣٥.

(٦) المراكشي. المعجب. ص ٢٤٥؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٤؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٦٠.

(٧) البيهقي. المقتبس. ص ٤٧-٤٨؛ المراكشي. المعجب. ص ٢٤٥؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٥.

في مجلس الخمسين أيضاً، رغم أنّ المراكشي ذكر أنّ بعض أفرادها لم يتبع المهدي بن تومرت^(١).

ح- **وريكة**: سكنت هذه القبائل بالقرب من هنتانة، وبقي النزاع مستمراً بين القبيلتين حتّى تبنيهما دعوة المهدي محمد بن تومرت^(٢).

خ- **هسكورة**: دخلت هذه القبيلة في دعوة الموحدين قبل فتح مدينة مراكش، كان موطنهم متصلاً بجبل درن إلى تادلا من الشرق وحتّى درعة، لم يعدّها الناس من القبائل المصمودية حتّى دخولها بخدمة المهدي محمد بن تومرت^(٣).

(١) البيهقي. المقتبس. ص ٤٤-٤٥؛ المراكشي. المعجب. ص ٢٤٥؛ ابن القطان. نظم الجمان. ص ٨٥؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٦٤.

(٢) البيهقي. المقتبس. ص ٤٤-٤٥؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦. ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج ٦، ص ٢٧١.

الملحق رقم ٧: قبائل بربرية (أمازيغية) محايدة:

لم تكن هذه القبائل تنتمي لقبائل زناتة ولا لمصمودة ولا لصنهاجة رغم أنها تنتمي للقبائل البربرية في المغرب العربي، منها:

أ- **كتامة:** تعدّ هذه القبائل من البرنس الذين انضموا للقبائل المجاورة لهم كصنهاجة وغمارة، إلا أنهم تتكروا لأصلهم؛ لأنهم كانوا يقدمون أبناءهم للضيوف ليفعلوا بهم ما يشاؤون، سكنوا في إقليم الجسيمة شمال المغرب الأقصى^(١).

ب- **أوروبية:** سكنت هذه القبيلة في الناحية الغربية من المغرب الأوسط، وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي انتقل قسمٌ منهم إلى القرب من مدينة نقاوس جنوب غرب الأوراس، أسهمت هذه القبيلة في تأسيس دولة الأدارسة، وكان من بطونها رغبة ولجاية ومزياتة التي انضمت إلى ثورة مزدغ الغماري ضد الموحدين سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م^(٢).

(١) الإدريسي. **نزهة المشتاق**. ج ١. ص ٢٦٩-٢٧٠؛ ابن خلدون. **تاريخ ابن خلدون**. ج ٦. ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) المراكشي. **المعجب**. ص ١٨٥؛ ابن منصور. **قبائل المغرب**. ج ١. ص ٣١٤؛ حاجيات، عبد الحميد. (١٩٧٨م). التطور المذهبي بناحية الأوراس في العصر الوسيط. **مجلة الأصالة**. ع ٦٠-٦١. د.م. ص ٤٢-٤٣.

الملحق رقم ٨: عناصر كونت مجتمع المغرب العربي والأندلس:

(١) الأفارقة:

شكل الأفارقة عنصراً بسيطاً من عناصر سكان المغرب العربي؛ لأنهم خليطاً من المستعمرين والبربر^(١)، ذكرهم البكري، فقال: " قوم إنما سُموا الأفارقة، وبلدهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصرم"^(٢)، رغم أن البكري ذكرهم على أنهم فرقة من سكان المغرب إلا أنهم من أهل قرطاجة التي كثيراً ما تعرضت للاستعمار وأهلها امتنوا الزراعة ودخلوا الإسلام للحفاظ على أملاكهم من التدمير بعد انتهاج الكاهنة سياسة الأرض المحروقة ضد المسلمين^(٣).

(٢) العبيد السودانيون:

دخلت هذه الفئة من السكان إلى بلاد المغرب عن طريق تجارة الرقيق القادمة من بلاد السودان^(٤)، وأطلق عليهم وعلى العبيد تسميات عدة، منها: عبيد المخزن^(٥) وعبيد الحرمة^(٦)، وقوقو^(٧)، وكناوة^(٨) نسبة لقبيلة من المغاربة في بلاد السودان؛ لأن معظمهم كان من بلاد السودان عن طريق مدينة أودغست، استخدمهم المغاربة في الخدمات العامة والجيش لما يعرف عنهم من قوة وشجاعة وجلد^(٩)، واشترى الأمير يوسف بن تاشفين عدداً كبيراً منهم سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م^(١٠)، وازداد عددهم أكثر في عصر الموحدين، لما عرفوا به من حسن الجمال وبراعتهم في تربية الأطفال وصناعة المأكولات^(١١)، وقد ذكرت المصادر كثرة أعدادهم وانتشارهم في معظم أرجاء المغرب الأقصى، فذكر ابن عذاري أنه عندما ضرب مرض الطاعون مدينة مراكش كان يموت كل يوم ثلاثين شخصاً منهم^(١٢)، وقال البكري: " لا يسكن البوادي سفدد (أبيض اللون) إلا اعتل وقل ما يسلم إن يسكنه السودان، وإن رأوا رجلاً أبيض اللون قد دخل عندهم ينادي بعضهم بعضاً ميز ميز"^(١٣).

(١) زغول. تاريخ المغرب. ج ١. ص ١٠٠، ١٠٦.

(٢) البكري. المغرب. ص ٢١.

(٣) زغول. تاريخ المغرب. ج ١. ص ٢٢١-٢٢٤.

(٤) الإدريسي. نزهة المشتاق. ج ١. ص ٣٢-٣٩.

(٥) البيهقي. أخبار المهدي. ص ٣٨، ٦٤.

(٦) ابن غازي. الروض الهتون. ص ١٣.

(٧) الغرناطي، عبد الرحيم بن سليمان. (١٩٩٣م). تحفة الألباب ونخبة الأعجباب. تح: إسماعيل العربي. دار الآفاق الجديدة. المغرب. ط ١. ص ٤٠-٤١.

(٨) ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٤. ص ٤٨١.

(٩) الجاحظ. رسائل الجاحظ. ج ١. ص ١٩٥؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٧. ص ١١٨.

(١٠) ابن عذاري. البيان. ج ٤. ص ٢٣؛ مجهول. الحلل الموشية. ص ٢٥.

(١١) البكري. المغرب. ص ١٥٨؛ مجهول. الاستبصار. ص ٢١٦.

(١٢) ابن عذاري. البيان - قسم الموحدين. ص ١٣٦-١٣٧.

(١٣) البكري. المغرب. ص ٨٧.

وذكر ابن منقذ أنَّ الزواج منهم عارٌّ خاصةً عند المصامدة^(١).

أما عن وجودهم في الأندلس، فلم يكن محبذاً حتَّى أنَّهم نعتوا بصفات شنيعة من خلال الأمثال التي تداولها الأندلسيون، ومنها مثل يدل على أنَّهم لصوص " أقل للأسود اشكتعمل لو كنت سلطان، قال نأخذ ألف مثقال ونهرب" وكذلك " من خالط الخدم ندم"^(٢)، وذكر الإدريسي عنهم أنَّهم أكثر الناس فساداً وأغزرهم أبناءً^(٣) وفي الأندلس دلٌّ على كثرتهم مثل " أسود على أسود، هم أن لا يرفد"، حتَّى ذكرت المصادر عنهم حبهم للرقص، فقليل: " إذا رأيت الزنج أبشر بالبواق"^(٤).

٣) المستعربون:

يقصد بالمستعربين سكان البلد الأصليين من بشكنس وجلالقة وقوط وغيرهم ممَّن بقوا على ديانتهم المسيحية، وتعلموا اللغة العربية بدلاً من الإسبانية^(٥)، لقبهم العرب المسلمون بالعجم وأهل الذمة، إلَّا أنَّ أعدادهم كانت تقلُّ مع مرور الزمن، رغم تسامح العرب المسلمين معهم وإعطائهم الحرية في إقامة شعائرهم، ووجود جهاز إداري يتولَّى أمرهم في الدولة، يتألف من الكونت (القومس) الذي يحكمهم وقاضٍ يسمى قاضي العجم، ومحكمة استئنافية خاصة بهم^(٦)، حتَّى أنَّهم عُيِّنوا في مناصب حساسة في الدولة، ودخلوا الجيش في عصر ملوك الطوائف^(٧)، وبقوا يتمتعون بحريتهم حتَّى قيام دولتي المرابطين والموحدين، فاتهمهم بمعاونة الممالك المسيحية المعادية ومشاركتهم بحروب الاسترداد ضد المسلمين في الأندلس، ليتخذوا إجراءات صارمةً معهم، بسبب ذلك مثل منع قرع النواقيس^(٨).

٤) المولدون:

(١) ابن قنفذ، أحمد الخطيب. (١٩٦٥م). أنس الفقير وعز الحفير. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط: المغرب. ص ٣٦.

(٢) الزجالي. أمثال العوام. ج ١. ص ٢٢٠-٢٢١.

(٣) الإدريسي. نزهة المشتاق. ج ١. ص ١١٠.

(٤) الزجالي. أمثال العوام. ج ١. ص ٢١٨؛ ج ٢. ص ٢١٨.

(٥) اليوزيكي، توفيق سلطان. (٢٠١٠م). الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث. مج ٥.

ع ٢٠١٢. العراق. ص ١٢١.

(٦) حسن. تاريخ الإسلام. ج ٣. ص ٤٣٦-٤٣٧.

(٧) توفيق. صورة المجتمع. ص ٩٢.

(٨) بوتشيش. مباحث. ص ٧٩-٨٢.

نتيجة اختلاط العرب والبربر بالسكان الأصليين في الأندلس عبر علاقات المصاهرة والزواج ظهر عنصر بشري جديد سمّي بالمولدين^(١)، تميزوا بقدرة الاستيعاب الكبيرة وبأنّهم أجلاء وأفاضل^(٢)، لكن لم يكن هذا العنصر مثل العرب؛ إذ امتهنوا مهناً بسيطةً مثل الرعي والزراعة في الأرياف والتجارة في المدن، وربما هذا ما جعلهم يحتفظون بألقابهم وأسمائهم الأصلية مثل بني نجلين وبني الجريج، وبني القبرطنة، وبني شبرقة، وبني مردنيش وبني غريسة وغيرهم، حتّى ربطتهم علاقات عدائيّة مع العرب جعلتهم يكوّنون إماراتٍ خاصّةً بهم في عصر ملوك الطوائف^(٣)، ليقضي عليها المرابطون الذين لم يُبقوا إلّا على بعضها مثل إمارة بني هود^(٤)، أمّا في عصر الموحدين فقد تمتعوا بميزات فكريّة وعقلية نتيجة تقربهم من الخلفاء^(٥).

الملحق رقم ٩: مذاهب إسلامية أثرت في المغرب العربي والأندلس:

-
- (١) الجبالي، خالد حسن حمد. (٢٠٠٤م). الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة. مكتبة الآداب. القاهرة: مصر. ص ١٠٢.
- (٢) ابن الأثير، محمد بن عبد الله. (١٩٩٥م). التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهراش. ج ١. دار الفكر. بيروت: لبنان. ص ٩٥ وما بعدها.
- (٣) عائشة. أزمات المجتمع. ص ١٨.
- (٤) ابن الأثير. الحلة. ج ٢. ص ٢٢٧؛ بوتشيش. مباحث. ص ٤٤.
- (٥) المراكشي. المعجب. ص ١٥٦.

أ- المذهب الحنفي:

ينسب المذهب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان ٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م ويسمى مذهب الكوفيين نسبة للكوفة، وهو من المذاهب التي تتساهل في الأحكام واستعمال الحيل الفقهيّة^(١)؛ ممّا عرض المذهب لانتقاد المذهب المالكي وعدّه مذهباً بعيداً عن أحكام الشرع^(٢)، والمذهب الحنفي من أوائل المذاهب الإسلامية التي انتشرت في المغرب العربي الإسلامي، فذكر القاضي عياض "أما إفريقيّة وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن أدخل علي بن زياد وابن الأشرس والبهلول بن رشد ومن بعدهم أسد من فرات وغيرهم بمذهب مالك"^(٣)، وذكر ابن خلكان أنّه كان أظهر المذاهب إلى أن حمل الأمير المعز بن باديس جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك^(٤).

وانتشر المذهب بالأندلس أيضاً، وفي مدينة فاس إلى أن ثبت المذهب المالكي في الأندلس في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل الملقب بالرضا ١٧٢-١٨٠هـ/٧٩٦-٧٨١م وقال إن يجب ألا يكون في عمله مذهبان^(٥).

ب- المذهب الثوري:

مذهب الإمام عبد الله بن سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ٩٧-١٦١هـ/٧١٦-٧٧٨م، وهو من المذاهب الأولى في المغرب العربي أيضاً؛ إذ تعود مرحلة نشاطه في المغرب إلى أعقاب سقوط الدولة الأموية في المشرق وقيام الدولة العباسية^(٦)، وتعدّ إفريقيّة (تونس) والمغرب الأقصى أهم مناطق انتشاره قبل قيام دولة الأدارسة التي زال مع قيامها بسبب اقتصار نشاطه في الحواضر وبين الخاصة من الناس^(٧).

ت- المذهب الأوزاعي:

(١) ذكر المالكي ذلك عندما حللوا معاملات التجارة الحرام. المالكي. رياض النفوس. ج ١. ص ٥٠٧.

(٢) المجذوب. الصراع المذهبي. ص ٦٦-٧٤.

(٣) القاضي عياض. ترتيب المدارك. ج ١. ص ٢٥.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٥. ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) المقدسي. أحسن التقاسيم. ص ٢٣٧؛ المقرئ. نفح الطيب. ج ٣. ص ٢٣٠؛ حمود، خالد عبد الكريم. (٢٠٠٢م). الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية. مكتبة الملك فهد. الرياض: السعودية. ط ١. ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٦) عبد المولى، محمد أحمد. (١٩٩٠م). مغربيّات في مشرقيات. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية: مصر. ط ١. ص ١٣.

(٧) أبي العرب. طبقات علماء إفريقيّا. ص ٣٤-٣٥؛ المالكي. رياض النفوس. ج ١. ص ٢٣٤؛ سامعي، إسماعيل. (٢٠٠٦م). بور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي. دار الهدى. الجزائر. ص ٢٨-٢٩.

عرف المذهب الأوزاعي بالأندلس^(١)، ومنها انتشر في شمال إفريقيا^(٢) وهو مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ٨٨-١٥٧هـ/٧٠٧-٧٧٤م، يجمع المذهب بين الجانبين النظري التأصيلي والتطبيقي العملي، فأخذ بالفقه والزهد والعلم الغزير الورع الشديد والعبادة المتأصلة، إلا أنه من المذاهب التي لم يكتب لها النجاح في المغرب العربي الإسلامي بسبب قلة رجال المذهب الأوزاعي، وعدم تأسيسه مدرسة تؤصل وجوده؛ لذلك ترك علماء المذهب الأوزاعي، واتبعوا المذهب المالكي في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي^(٣).

ث - المذهب الشافعي:

يعود المذهب إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي ١٥٠-٢٠٤هـ/٧٦٧-٨١٩م تأخر المذهب في دخوله للمغرب العربي^(٤)، ولم يظهر بوضوح إلا في عصر الموحدين، لأن المذهب الأشعري من صلب المذهب الشافعي، لكن المصادر تعيد دخوله إلى مرحلة مبكرة عن عصر الموحدين؛ إذ تؤكد أن المذهب انتشر بين أقوام قلة في مدينة القيروان والأندلس في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي^(٥)، ويعود تأخر دخوله إلى المغرب لمخالفة الإمام الشافعي لأستاذه الإمام مالك حسب رأي المالكية^(٦)، بعكس الأندلس اتسع فيها نشاطه فحظي بالرعاية الرسمية^(٧)، وذلك لما للمذهب من ميل إلى النظر والتمرس في الجدل والمناظرة.

قائمة المصادر والمراجع:

-
- (١) المقرئ. نفح الطيب. ج ٣. ص ٢٣٠.
- (٢) أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره بالمغرب. (١٩٨٢م). دراسة في مجلة دعوى الحق. ع ٢٢٤. المغرب. ص ١-٤.
- (٣) ابن الفرضي، عبد الله بن محمد. (٢٠٠٨م). تاريخ علماء الأندلس. تح: بشار عواد معروف. ج ١. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط ١. ص ٢١٦، ٣٥٩؛ سامعي. دور المذهب الحنفي. ص ٢٣؛ حمود. الرحلة الأندلسية. ص ٢٧٢-٢٧٣.
- (٤) المقدسي. أحسن التقاسيم. ص ٢٣٦.
- (٥) القاضي عياض. ترتيب المدارك. ج ١. ص ٢٦.
- (٦) حتى أن بعض فقهاء المالكية تمنوا الموت للشافعي. المقدسي. أحسن التقاسيم. ص ٢٣٦؛ الذهبي. (١٩٩١م). تاريخ الإسلام. ج ١٤. ص ٦٤-٦٥.
- (٧) بالنثيا، أنخل جنثالث. (١٩٥٥م). تاريخ الفكر الأندلسي. تر: حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ص ٤٣١-٤٣٣.

أولاً: المصادر:

- الكتب المقدسة:

١- الكتاب المقدس (العهد القديم، العهد الجديد).

٢- القرآن الكريم.

- المخطوطات:

- المواعيني، أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة الإشبيلي، ت: ٥٦٤هـ/١١٦٨م. (د.ت). ريحان

الألياب وربيعان الشباب في مراتب الآداب. مخطوط في مكتبة ليدن. هولندا. د. رقم.

- المصادر المطبوعة:

١- ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي البلسني، ت: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. (١٩٨٦م). تحفة القادم. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١.

٢- _____ . (١٩٩٥م). التكملة لكتاب الصلاة، تح: عبد السلام الهراش. دار الفكر. بيروت: لبنان.

٣- _____ . (١٩٦٣م). الحلة السيرة. تح: حسين مؤنس. دار المعارف. القاهرة: مصر.

ط ١.

٤- _____ . (٢٠٠٠م). المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي. مكتبة

الثقافة الدينية. مصر.

٥- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الموصل، ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م. (١٩٨٧م). الكامل في التاريخ. تح: محمد يوسف الدقاق. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان؛ و (٢٠٠٣م). ج ٩.

٦- _____ . (١٩٨٧م). الكامل في التاريخ. تح: أبي الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب

العلمية. بيروت: لبنان.

٧- _____ . (د.ت). اللياب في تهذيب الأنساب. دار صادر. بيروت: لبنان. ج ٣.

٨- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي، ت:

٨٠٧هـ/١٤٠٥م. (١٩٧٢). بيوتات فاس الكبرى. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب.

٩- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني الهاشمي

القرشي، ت: حوالي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٦م. (٢٠٠٢م). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر.

١٠- الأشعري، علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال

بن أبي بردة، ت: ٣٢٤هـ/٩٣٥م. (١٩٩٠م). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. تح: محمد محي الدين

عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان.

١١- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران، ت: ٤٣٠هـ/١٠٣٨م.

- (١٩٩٨م). معرفة الصحابة. تح: عادل بن يوسف العزازي. دار الوطن للنشر. الرياض: السعودية. ط١.
- ١٢- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، ت: حوالي سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م.
- (١٨٧٠م). مسالك الممالك. مطبعة بريل. ليدن: هولندا.
- ١٣- الأصفهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.
- (١٩٠٠م). تاريخ دولة آل سلجوق. شركة طبع الكتب العربية. مصر.
- ١٤- _____ . (٢٠٠٤م). حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس المسمى الفتح القسي
في الفتح القسي. دار المنار. د.م.
- ١٥- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي الأنصاري، ت: ٦٦٨هـ/١٢٧٠م. (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تح: نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان.
- ١٦- الأوسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، ت: ٧٠٣هـ/١٣٠٣م. (٢٠١٢م). الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. تح: إحسان عباس، ومحمد بن شريفة، وبشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط١.
- ١٧- الإيجي، عضد الله والدين أبو الفضل عبد الرحمن بن ركن الدين أحمد بن عبد الغفار المطرزي الشيرازي، ت: حوالي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. (د.ت). المواقف في علم الكلام. عالم الكتب. بيروت: لبنان.
- ١٨- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي، ت: ٤٧٤هـ/١٠٨١م.
- (٢٠٠٣م). الإشارة في أصول الفقه. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.
- ١٩- _____ . (٢٠٠٣م). الحدود في الأصول. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.
- ٢٠- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد بن محمد بن الخضر الغرناطي، كان حياً سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م. (١٩٩٣م). المقصد الشريف والمنزعة اللطيف في التعريف بصلحاء الريف. تح: سعيد إعراب. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ط٢.
- ٢١- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م. (٢٠٠٢م). صحيح البخاري. دار ابن كثير. دمشق: سورية. ط١.
- ٢٢- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، ت: ٨٤١هـ/١٤٣٨م. (٢٠٠٢م). جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن والحكام المعروف بفتاوى البرزلي. تح: محمد الحبيب الهيلة. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.
- ٢٣- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى الخزرجي الأنصاري القرطبي، ت: ٥٧٨هـ/١١٨٣م. (١٩٨٩م). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها ومحدثيهم وفقهائهم وأديانهم. تح: إبراهيم الإبياري. ثلاث أجزاء. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ط١.

٢٤- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م. (١٩٨٧م).
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة. تح: محمد عبد المنعم
الريان. جازان. دار إحياء العلوم. بيروت: لبنان. ط ١.

٢٥- البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٨م. (١٩٥٤م). مراصد
الإطلاع على أسماء الأماكن والبقاع. تح: علي محمد البجاوي. ثلاثة أجزاء. دار المعرفة. بيروت: لبنان.
ط ١.

٢٦- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي، ت: ٤٢٩هـ/١٠٣٧م.
(١٩٨٨م). الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. تح: محمد عثمان الخشت. مكتبة ابن سينا.
القاهرة: مصر.

٢٧- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي، ت: ٤٧٨هـ/١٠٩٤م. (د.ت).
المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة:
مصر.

٢٨- البلاذري. أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م. (١٩٨٧م). فتوح
البلدان. تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع. مؤسسة المعارف. بيروت: لبنان.

٢٩- البننسي، محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري، ت: حوالي سنة
٧٢٥هـ/١٣٢٥م. (٢٠٠٧م). الرحلة المغربية. منشورات بونة للبحوث والدراسات. الجزائر. ط ١.

٣٠- البليزق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، ت: حوالي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م. (١٩٧١م). أخبار
المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. تح: عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة. المغرب.

٣١- _____. (١٩٢٨م) أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. طبعة باريس.
٣٢- _____. (١٩٧١م). المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تح: عبد

الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب.

٣٣- ابن تغري بردي. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأمير سيف الدين الأتابكي، ت:
٨٧٤هـ/١٤٦٩م. (١٩٩٢م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان.
ط ١.

٣٤- التلمساني. الخطيب محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي،
ت: ٧٨١هـ/١٣٧٩م. (١٩٨١م). المسند الصحيح الحسن في مآثر محاسن مولانا أبا الحسن. تح: ماري
خيسوس بيغيرا. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

٣٥- التبتكي، أحمد بابا الصنهاجي، ت: ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م. . (٢٠٠٠م). كفاية المحتاج لمعرفة
من ليس في الديباج. تح: محمد مطيع. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ج ١.

٣٦- _____. (٢٠٠٠م). نيل الابتهاج بتطريز الديباج. دار الكاتب. طرابلس: ليبيا. ط ٢.

- ٣٧- التتسي، أبو عبد الله الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المغراوي التلمساني، ت: ٨٩٩هـ/٤٩٤م. (٢٠١١م). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان - مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان. تح: محمود آغا بوعيان. موفم للنشر. الجزائر.
- ٣٨- ابن تومرت، المهدي محمد بن عبد الله، ت: ٥٢٤هـ/١٢٩م. (د.ت). أعز ما يطلب. تح: عبد الغني أبو العزم. مؤسسة الغني للنشر. الرباط: المغرب.
- ٣٩- _____ . (١٩٠٥م). موطأ الإمام المهدي. مطبعة بونتانة الشرفية. الجزائر.
- ٤٠- التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التونسي، ت: ٧١٧هـ/١٣١٧م. (١٩٨١م). رحلة التيجاني. الدار العربية للكتاب. تونس.
- ٤١- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، ت: ٢٥٥هـ/٨٦٨م. (د.ت). رسائل الجاحظ. تح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ج ٢.
- ٤٢- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني، ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م. (د.ت). رحلة ابن جبير. دار صادر. بيروت: لبنان.
- ٤٣- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الشريف الحسني، ت: ٨١٦هـ/١٤١٣م. (١٩٨٥م). التعريفات. مكتبة لبنان. بيروت: لبنان. ط ٢.
- ٤٤- ابن الجزري، محمد بن محمد بن علي بن يوسف الدمشقي الشيرازي، ت: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م. (٢٠٠٢م). منجد المقرئين ومرشد الطالبين. تح: عارف الشيخ. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان.
- ٤٥- الجزنائي، أبو الحسن علي، من أهل القرن ٩هـ/١٥م. (١٩٩١م). جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس. تح: عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ط ٢.
- ٤٦- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م. (١٩٨٣م). تلبس إبليس. دار القلم. بيروت: لبنان.
- ٤٧- _____ . (١٩٩٥م). المنتظم في أخبار الملوك والأمم. تح: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان.
- ٤٨- الجويني، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين، ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م. (٢٠١٥م). تاريخ فاتح العالم (جهان كشاي). تح: محمد بن عبد الوهاب القزويني. تر: محمد السعيد جمال الدين. د.م. ط ١. ج ٣.
- ٤٩- ابن حبوس، عبد الله بن بلكين بن باديس الصنهاجي، ت: ٤٨٣هـ/١٠٩٠م. (٢٠٠٦م). التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ط ١.
- ٥٠- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي، ت: ٢٤٥هـ/٦٥٩م. (د.ت). مختلف القبائل ومؤتلفها. تح: إبراهيم الإياري. دار الكتاب المصري. القاهرة: مصر.
- ٥١- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٣م. (١٩٨٣م).

الإحكام في أصول الأحكام. دار الآفاق الجديدة. بيروت: لبنان.

٥٢- _____ . (١٩٦٢م). جمهرة أنساب العرب. تح: عبد السلام محمد هارون. جزآن. دار المعارف. القاهرة: مصر. ط٥.

٥٣- _____ . (١٩٩٦م). الفصل في الملل والأهواء والنحل. تح: محمد إبراهيم نصير، وعبد الرحمن عميرة. دار الجليل. بيروت: لبنان. ط٢.

٥٤- _____ . (٢٠٠٣م). المحلى بالآثار. تح: عبد الغفار سليمان البنداري. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط٣.

٥٥- _____ . (١٩٨١م). النبد في أصول الفقه. تح: أحمد حجازي السقا. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة: مصر.

٥٦- الحضرمي، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي، ت: ٤٨٩هـ/١٠٩٥م. (٢٠٠٣م). السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة. تح: محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.

٥٧- الحضري، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي، ت: ١١٨٩هـ/١٧٧٥م. (٢٠٠٦م). طبقات الحضري. تح: أحمد بوموزكو. جزآن. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط١.

٥٨- الحكيم، السموعل بن يحيى بن عباس المغربي، ت: ٥٧٠هـ/١١٧٤م. (١٩٨٩م). بذل المجهود في إفحام اليهود. دار القلم. دمشق: سورية. ط١.

٥٩- ابن حمّاد، أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى الصنهاجي القلعي، ت: ٦٢٨هـ/١٢٣١م. (د.ت). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تح: تهامي نقرة، وعبد الحليم عويس. دار الصحوة للنشر. القاهرة: مصر.

٦٠- الحمادي، أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي الفضائل المعافري اليماني، ت: حوالي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م. (١٩٩٤م). كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة. تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي. مركز الدراسات والبحوث اليمني. صنعاء: اليمن. ط١.

٦١- أبو حمو، موسى الثاني بن يوسف بن زيان العبد وادي التلمساني، ت: ٧٩١هـ/١٣٨٩م. (١٨٦٢م). واسطة السلوك في سياسة الملوك. المطبعة التونسية. تونس.

٦٢- الحميري، محمد عبد المنعم، ت: ٩٠٠هـ/١٤٩٤م. (١٩٧٤م). الروض المعطار في خبر الأقطار. تح: إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت: لبنان.

٦٣- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م. (١٩٩٢م). صورة الأرض. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان.

٦٤- ابن خالقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشيلي، ت: ٥٢٩هـ/١١٣٤م.

- (١٩٨٩م). قلائد العقيان ومحاسن الأعيان. تح: حسين يوسف خريوش. جزآن. مكتبة المنار. الأردن. ط ١.
- ٦٥- الخشني، محمد بن الحارث بن أسد القيرواني، ت: حوالي سنة ٣٧١هـ/٩٨١م. (٢٠٠٦م). طبقات علماء إفريقيا. تح: محمد بن أبي شنب. الجزائر. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- ٦٦- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الأندلسي، ت: ٧٧٦هـ/١٣٧٤م. (٢٠٠٩م). الإحاطة في أخبار غرناطة. دار الأمل للدراسات. الجزائر.
- ٦٧- _____ . (٢٠٠٣م). أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام. تح: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ج ٢. ط ١.
- ٦٨- _____ . (١٩٦٤م). تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط المعروف بأعمال الأعلام. تح: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني. دار الكتاب. الدار البيضاء: المغرب.
- ٦٩- _____ . (١٨٩٨م). رقم الحل في نظم الدول. المطبعة العمومية. تونس.
- ٧٠- ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهواري، ت: ٥٣٣هـ/١١٣٨م. (١٩٩٤م). ديوان ابن خفاجة. دار القلم للطباعة والنشر. بيروت: لبنان.
- ٧١- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن، ت: ٧٨٠هـ/١٣٧٨م. (١٩٠٣م). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. مطبعة بيبرونطانا الشرفية. الجزائر. ج ١.
- ٧٢- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. (٢٠٠٠م). تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تح: خليل شحادة. دار الفكر. بيروت: لبنان؛ و(٢٠٠١م). ج ١.
- ٧٣- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر البرمكي الإربلي، ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م. (١٩٧٨م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تح: إحسان عباس. دار صادر. بيروت: لبنان. ج ١؛ و(١٩٦٩م). ج ٢؛ و(١٩٧٠م). ج ٣؛ و(د.ت). ج ٤؛ و(١٩٧٧م). ج ٥؛ و(د.ت). ج ٦؛ و(د.ت). ج ٧.
- ٧٤- الداعي المطلق، إدريس عماد الدين بن الحسن عبد الله بن علي بن محمد بن حاتم القرشي، ت: ٨٧٢هـ/١٤٦٧م. (١٩٨٤م). عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار. تح: مصطفى غالب. دار الأندلس للطباعة والنشر. د.م. ط ٢.
- ٧٥- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي، ت: ٦٩٦هـ/١٢٩٦م واكملته التتوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، ت: ٨٣٩هـ/١٤٣٥م. (١٩٧٨م). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. تح: محمد ماضور. المكتبة العتيقة. تونس. ج ٣.
- ٧٦- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن محمد بن جميل بن فروة الكلبي، ت: ٦٣٣هـ/١٢٣٥م. (١٩٥٥م). المطرب من أشعار أهل المغرب. تح: إبراهيم الإبياري، وآخرون. دار العلم للجميع. بيروت: لبنان.

- ٧٧- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير القاهري، ت: ٨٠٩هـ/١٤٠٧م.
- (١٩٩٩م). نزهة الأنام في تاريخ الإسلام. تح: سمير طبارة. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ط١.
- ٧٨- الدوداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيك، من أهل القرن ٨هـ/١٤م. (١٩٦١م). كنز الدرر وجامع الغرر. تح: صلاح الدين المنجد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة: مصر. ج٦.
- ٧٩- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، ت: حوالي سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨م.
- (١٩٦٦م). المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس. مطبعة الدولة التونسية. تونس.
- ٨٠- الدينوري، ابن قتيبة عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم، ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م. (١٩٩٠م). الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء. تح: علي شيري. دار الأضواء. بيروت: لبنان. ج١.
- ٨١- _____ . (١٩٦٩م). المعارف. تح: ثروت عكاشة. دار المعارف. القاهرة: مصر.
- ٨٢- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. (١٩٩١م). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تح: عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان. ط١.
- ج١٤؛ و(١٩٩٥م). ج٣٦.
- ٨٣- _____ . (١٩٨٣م). سير أعلام النبلاء. تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرق سوسي. ٢٩ جزءاً. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط١.
- ٨٤- _____ . (١٩٨٥م). العبر في خبر من غير. تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.
- ٨٥- _____ . (١٩٩٥م). العلو للعلي الغفار. مكتبة أضواء السلف. الرياض: السعودية. ط١.
- ٨٦- الرازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان، ت: ٣٢٢هـ/٩٣٣م. (د.ت). الزينة في الكلمات العربية الإسلامية. تح: عبد الله سلوم السامرائي. كلية دار العلوم. القاهرة: مصر.
- ٨٧- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، ت: ٦٦٠هـ/١٢٦١م. (١٩٨٦م). مختار الصحاح. مكتبة لبنان. لبنان.
- ٨٨- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي المالكي، ت: ٥٢٠هـ/١١٢٦م.
- (١٩٨٧م). فتاوي ابن رشد. تح: المختار بن الطاهر التليلي. ثلاث أجزاء. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.
- ٨٩- ابن رشد الحفيد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، ت: ٥٩٥هـ/١١٩٨م. (د.ت).
- تهافت التهافت. تح: سليمان دنيا. دار المعارف. القاهرة: مصر. ق١. ط٣.
- ٩٠- الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، ت: ٤٢٠هـ/١٠٢٩م. (١٩٩٤م). تاريخ إفريقيا والمغرب. تح: محمد زينهم محمد عزب. دار الفرجاني للنشر والتوزيع. مصر.
- ٩١- الزجالي، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد بن محمد القرطبي، ت: ٦٩٤هـ/١٢٩٥م. (١٩٧٥م).

أمثال العوام في الأندلس. تح: محمد بن شريفة. منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي. مطبعة محمد الخامس. فاس: المغرب.

٩٢- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م. (١٩٧٢م). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط: المغرب.

٩٣- _____ . (١٩٧٢م). الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. الرباط.

٩٤- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ، كان حياً بعد سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م. (١٩٦٦م). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح: محمد ماضور. المكتبة العتيقة. تونس. ط٢.

٩٥- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ت: ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. (١٩٩٧م). التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السيتي. تح: أحمد التوفيق. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب.

٩٦- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت: ٧٧١هـ/١٣٦٩م. (١٩٦٤م). طبقات الشافعية الكبرى. تح: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة: مصر.

٩٧- ابن سعد، محمد بن منيع الزهري، ت: ٢٣٠هـ/٨٤٤م. (٢٠٠١م). الطبقات الكبرى. تح: علي محمد عمر. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ط١.

٩٨- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي، ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. (١٩٧٠م). كتاب الجغرافيا. تح: إسماعيل العربي. المكتب التجاري للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ط١.

٩٩- _____ . (١٩٥٥م). المغرب في حلى المغرب. تح: شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة: مصر. ط٤.

١٠٠- _____ . (١٩٧٠م). النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة جزء من كتاب المغرب في حلى المغرب. تح: حسين نصار. مطبعة دار الكتب. القاهرة: مصر.

١٠١- السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور بن عبد الله التميمي المروزي، ت: ٥٦٢هـ/١١٦٦م. (١٩٧٧م). الأنساب. تح: عبد الرحمن بن المعلمي اليماني وآخرون. حيدر دائرة المعارف العثمانية. آباد: الهند. ط١. ج١.

١٠٢- السكوني، أبو عبد الله محمد بن خليل الإشبيلي، كان حياً في منتصف ق٧هـ/١٣م. (١٩٩٣م). شرح مرشدة محمد بن تومرت. تح: يوسف أحنانا. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.

١٠٣- السكوني، أبو علي عمر بن محمد بن حمد بن خليل الإشبيلي، ت: ٧١٧هـ/١٣١٧م. (١٩٧٦م). عيون المناظرات. تح: سعد غراب. منشورات الجامعة التونسية. تونس.

١٠٤- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ت: ١٣١٥هـ/١٨٩٧م. (د.ت) الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى. د.م. ج ١.

١٠٥- _____ . (١٩٩٧م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تح: جعفر الناصري

ومحمد الناصري. دار الكتاب. الدار البيضاء: المغرب. ج ٢.

١٠٦- السلمي، يوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي الشافعي، ت: بعد سنة

٦٥٨هـ/١٢٥٩م. (١٩٨٩م). عقد الدرر في أخبار المنتظر وهو المهدي. تح: مهيب بن صالح بن عبد

الرحمن البوريني. مكتبة المنار. الأردن. ط ٢.

١٠٧- السمرقندي، أبو الحسن نجم الدين، ونظام الدين أحمد بن عمر بن علي، ت: حوالي سنة

٥٦٠هـ/١١٦٤م. (١٩٤٩م). جهاز مقاله (المقالات الأربع). تر: يحيى الخشاب، وعبد الوهاب عزام. مطبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة: مصر.

١٠٨- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م. (١٩٦٥م). بغية

الوعاءة في طبقات اللغويين والنحاة. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

مصر. ط ١.

١٠٩- _____ . (٢٠١٣م). تاريخ الخلفاء. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ط ١.

ج ١.

١١٠- _____ . (١٩٦٨م). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تح: محمد أبو

الفضل إبراهيم. د.م. ط ١.

١١١- _____ . (١٩٧١م). كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تح: عبد اللطيف

السعداني. وزارة الثقافة. الرباط: المغرب.

١١٢- الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، ت: ٧٩٠هـ/١٣٨٨م.

(د.ت). الاعتصام. مكتبة التوحيد. د.م. ج ١.

١١٣- أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي،

ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٧م. (١٩٩٢م). عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تح: أحمد

البيسومي. منشورات وزارة الثقافة. دمشق: سورية. ج ٢.

١١٤- شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي، ت: ٦١٧هـ/١٢٢٠م. (١٩٦٨م). مضمار

الحقائق وسر الخلائق. تح: حسن حبشي. عالم الكتب. القاهرة: مصر.

١١٥- ابن الشماخ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الهنتاني، ت: حوالي سنة ٨٧٣هـ/١٤٥٩م.

(١٩٨٤م). الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تح: الطاهر بن محمد المعموري. الدار

العربية للكتاب. تونس.

١١٦- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام، ت: ٥٤٢هـ/١١٤٧م. الذخيرة في محاسن أهل

الجزيرة. تح: إحسان عباس. دار الثقافة للنشر والتوزيع. بيروت: لبنان.

- ١١٧- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، ت: ٥٤٨هـ/١٠٥٣م. (١٩٩٢م). الملل والنحل. ثلاثة أجزاء. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط٢.
- ١١٨- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي الإشبيلي، ت: ٥٩٤هـ/١١٩٧م. (١٩٨٧م). المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين. تح: عبد الهادي التازي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.
- ١١٩- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، ت: ٣٨١هـ/٩٩٢م. (٢٠١٣م). الاعتقادات. مؤسسة الإمام الهادي. قم: إيران.
- ١٢٠- الصفدي، صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أبيك بن عبد الله الألبكي الفاري الدمشقي الشافعي، ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م. (٢٠٠٧م). نكت الهميان في نكت العميان. تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.
- ١٢١- _____ . (٢٠٠٠م). الوافي بالوفيات. تح: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى. دار إحياء التراث العربي. بيروت: لبنان. ط١. ج٣.
- ١٢٢- الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت: ٥٩٩هـ/١٢٠٢م. (١٩٨٩م). بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس. تح: إبراهيم الإبياري. جزآن. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ط١.
- ١٢٣- ابن طباطبا، محمد بن علي، ت: حوالي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. (د.ت). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. دار صادر. بيروت: لبنان.
- ١٢٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م. (١٩٦٧م). تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الرسل والملوك. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر. ط٢. ج١.
- ١٢٥- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي، ت: ٥٢٠هـ/١٢٦٦م. (١٩٩٠م). الحوادث والبدع. تح: علي بن حسن الحلبي الأثري. دار ابن الجوزي. السعودية. ط١.
- ١٢٦- _____ . (١٩٩٤م). سراج الملوك. تح: محمد فتحي أبو بكر. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة: مصر.
- ١٢٧- ابن طموس، أبو الحجاج يوسف بن محمد، ت: ٦٢٠هـ/١٢٢٣م. (١٩١٦م). المدخل لصناعة المنطق. مطبعة الإبرقة. مدريد: إسبانيا.
- ١٢٨- أبو الطيب المتنبّي، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي، ت: ٣٥٤هـ/٩٦٥م. (١٩٠٠م). ديوان أبو الطيب المتنبّي. دار صادر. بيروت: لبنان.
- ١٢٩- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري الأندلسي، ت:

٤٦٣هـ/١٠٧٠م. (٢٠٠٨م). التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تح: أسامة بن إبراهيم. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. القاهرة: مصر. ط٤. ج٦.

١٣٠- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، ت: ٢٥٧هـ/٨٧١م. (١٩٦١م). فتوح مصر والمغرب. تح: عبد المنعم عامر. شركة الأمل للطباعة والنشر. القاهرة: مصر. ج١.

١٣١- ابن عبدون، محمد بن أحمد التيجيبي، ت: في القرن ٦هـ/١٢م. (١٩٥٥م). رسالة في آداب الحسبة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تح: ليفي بروفنسال. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. القاهرة: مصر.

١٣٢- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، ت: بعد سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م. (١٩٨٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح: إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت: لبنان. ج٤.

١٣٣- _____ . (١٩٨٥م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين. تح: محمد إبراهيم الكتاني، وآخرون. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.

١٣٤- _____ . (٢٠١٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح: بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط١. ج١.

١٣٥- _____ . ابن عذاري. (١٩٨٠م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تح: ج. س كولان، وليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت: لبنان. ج٢.

١٣٦- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي، ت: ٣٣٣هـ/٩٤٥م. (د.ت). طبقات علماء إفريقيا. دار الكتاب اللبناني. لبنان.

١٣٧- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي، ت: ٥٤٣هـ/١١٤٨م. (١٩٧٤م). العواصم من القواصم. تح: عمار طالبي. مكتبة دار التراث. القاهرة: مصر.

١٣٨- العسقلاني، ابن حجر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمود بن أحمد الكفاني، ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٩م. (٢٠٠٢م). لسان الميزان. تح: عبد الفتاح أبي غدة. دار البشائر الإسلامية. بيروت: لبنان. ط١. ج٦.

١٣٩- عlish، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد، ت: ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م. (د.ت). فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ج١.

١٤٠- ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي، ت: ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م. (١٩٨٩م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تح: محمود الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير. دمشق: سورية. ط١.

١٤١- العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد، ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. (٢٠١٠م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تح: كامل سلمان الجبوري. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١. ج٤.

١٤٢- ابن عياض، أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض بن موسى اليعصب السبتي، ت: حوالي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م. (١٩٨٢م). التعريف بالقاضي عياض. تح: محمد بن شريفة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب.

١٤٣- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م. (٢٠٠٧م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي). تح: محمود رزق محمود. مطبعة دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة: مصر. ج ٣.

١٤٤- ابن غازي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي العثماني المكناسي، ت: ٩١٠هـ/١٥٠٤م. (١٩٥٢م). الروض الهمتون في أخبار مكناسة الزيتون. مطبعة الأمانة. الرباط: المغرب.

١٤٥- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله البجائي، ت: ٧١٤هـ/١٣١٤م. (١٩٧٩م). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية. تح: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة. بيروت: لبنان. ط ٢.

١٤٦- الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبي ربيع بن محمد بن علي بن عبد الصمد، ت: ٥٦٥هـ/١١٦٩م. (١٩٩٣م). تحفة الألباب ونخبة الأعجاب. تح: إسماعيل العربي. دار الآفاق الجديدة. المغرب. ط ١.

١٤٧- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي النيسابوري، ت: ٥٠٥هـ/١١١١م. (٢٠٠٥م). إحياء علوم الدين. دار ابن حزم. بيروت: لبنان. ط ١.

١٤٨- _____ . (د.ت). الاقتصاد في الاعتقاد. طبع بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم. مصر.

١٤٩- _____ . (١٩٨٥م). قواعد العقائد. تح: موسى محمد علي. عالم الكتب. بيروت: لبنان. ط ٢.

١٥٠- _____ . (٢٠٠١م). فضائح الباطنية. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان.

١٥١- _____ . (١٩٦٧م). المنقذ من الظلال والموصل إلى ذي العزة والجلال. تح: جميل صليبا، وكامل عياد. دار الأندلس. بيروت: لبنان. ط ٧.

١٥٢- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب، ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م. (١٨٥٠م). تقويم البلدان. دار الطباعة السلطانية. باريس: فرنسا.

١٥٣- _____ : (د.ت). المختصر في أخبار البشر. تح: محمد زينهم محمد عزب، ويحيى سيد حسين. دار المعارف. مصر.

١٥٤- ابن الفرضي، عبد الله بن محمد. (٢٠٠٨م). تاريخ علماء الأندلس. تح: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. تونس. ط ١.

١٥٥- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت: ٨١٧هـ/١٤١٤م. (٢٠٠٥م). القاموس

المحيط. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط ٨.

١٥٦- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت: ١٠٢٥هـ/١٦١٦م.
(١٩٧٣م). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس. دار المنصور للطباعة. الرباط:
المغرب.

١٥٧- _____ . (١٩٣٤م). درة الحجال في غرة أسماء الرجال. المطبعة الجديدة. الرباط:
المغرب. ق ١.

١٥٨- القاضي، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن عبد الله الأسد آبادي، ت:
١٠٢٥هـ/١٩٠٥م. (١٩٩٦م). شرح الأصول الخمسة. تح: عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة. القاهرة: مصر.
ط ٣.

١٥٩- القاضي، عياض بن موسى بن عياض السبتي، ت: ٥٤٤هـ/١١٤٩م. (١٩٨٢م). ترتيب
المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تح: محمد بن شريف. مطبعة فضالة. المغرب. ط ٢.
ج ٥.

١٦٠- _____ . (١٩٨٢). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
تح: سعيد أحمد أعراب. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ج ٧.

١٦١- _____ . (١٩٨٣م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
تح: محمد بن تاويت الطبخي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط: المغرب. ط ٢. ج ١.

١٦٢- _____ . (١٩٨٣م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
تح: عبد القادر الصحراوي. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ج ٣.

١٦٣- _____ . (١٩٨٣م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
تح: عبد القادر الصحراوي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. ج ٤.

١٦٤- القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي
المغربي، ت: ٣٦٣هـ/٩٧٤م. (١٩٦٠م). أساس التأويل. تح: عارف تامر. دار الثقافة. بيروت: لبنان.

١٦٥- _____ . (١٩٧٥م). افتتاح الدعوة. تح: فرحات الدشراوي. الشركة التونسية للتوزيع.
تونس. ط ٢.

١٦٦- _____ . (١٩٩٦م). المجالس والمساربات. تح: الحبيب الفقهي، وآخرون. دار
المنتظر. بيروت: لبنان. ط ١.

١٦٧- ابن قزمان، أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى الزهري القرطبي، ت:
٥٥٥هـ/١١٦٠م. (١٩٩٥م). ديوان ابن قزمان. تح: فيديريكو كورينتي. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة:
مصر.

١٦٨- القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود، ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م. (د.ت). آثار البلاد

وأخبار العباد. دار صادر. بيروت: لبنان.

١٦٩- ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي، ت: منتصف القرن ٧هـ/١٣م. (١٩٩٠م). نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. تح: محمود علي مكي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.

١٧٠- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م. (١٩٨٣م). تاريخ دمشق. تح: سهيل زكار. دار حسان. دمشق: سورية. ط ١.

١٧١- القلقشندي (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م. (١٩٢٢م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. دار الكتب المصرية. القاهرة: مصر.

١٧٢- _____ . (١٩١٥م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. المطبعة الأميرية. القاهرة: مصر. ج ٥.

١٧٣- _____ . (د.ت). مآثر الإنافة في معالم الخلافة. تح: عبد الستار أحمد فراج. عالم الكتب. بيروت: لبنان. ج ١.

١٧٤- _____ . (١٩٦٨م). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تح: محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي. الدار التونسية للنشر. تونس.

١٧٥- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخطيب القسنطيني، ٨١٠هـ/١٤٠٧م. (١٩٦٥م). أنس الفقير وعز الحقيير. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط: المغرب.

١٧٦- القنوجي، محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله البخاري الحسيني، ت: ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م. (٢٠٠٧م). التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ط ١.

١٧٧- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي، ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م. (١٩٨٩م). تاريخ افتتاح الأندلس. تح: إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري. القاهرة: مصر.

١٧٨- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م. (١٩٩٨م). البداية والنهاية. تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر. الجيزة: مصر. ط ١. ج ١٦.

١٧٩- كريخال، مارمول، ألف الكتاب في القرن ١٠هـ/١٦م. (١٩٨٤م). إفريقيا. تر: محمد حجي وآخرون. دار نشر المعرفة. الرباط: المغرب.

١٨٠- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أبي القاسم التوزري، كان حياً في أواخر القرن ٦هـ/١٢م. (١٩٧١م). تاريخ الأندلس. تح: أحمد مختار العبادي. معهد الدراسات الإسلامية. مدريد: إسبانيا.

١٨١- الكلبي الغرناطي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يوسف بن عبد الرحمن

بن جزبي المالكي، ت: ٧٤٠هـ/١٣٤٠م. (٢٠٠٣م). تقريب الوصول إلى علم الأصول. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.

١٨٢- الكوفي، أبو محمد أحمد بن أعثم، ت: حوالي سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م. (١٩٩٠م). كتاب الفتوح. تح: علي شيري. دار الأضواء للطباعة والنشر. بيروت: لبنان.

١٨٣- ليون الإفريقي، حسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي، ت: ٩٥٧هـ/١٥٥٠م. (١٩٨٣م). وصف إفريقيا. تر: محمد حجي ومحمد الأخضر. جزان. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط٢.

١٨٤- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله، ت: بعد سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م. (١٩٩٤م). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونساکهم وسیر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. تح: بشير البكوش. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.

١٨٥- المالكي بن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري، ت: ٧٩٩هـ/١٣٩٧م. (د.ت). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تح: محمد الأحمد أبو النور. دار التراث للطباعة والنشر. القاهرة: مصر.

١٨٦- المجاصي، محمد بن الحسن قاضي فاس، ت: ١١٠٣هـ/١٦٩١م. (د.ت). نوازل المجاصي. الطبعة الحجرية القديمة. د.م.

١٨٧- مجهول، من أهل القرن ٥هـ/١١م. (١٩٨٩م). أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم. تح: إبراهيم الإيباري. دار الكتاب اللبناني. لبنان. ط٢.

١٨٨- مجهول، كان حياً في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م. (١٩٨٥م). الاستبصار في عجائب الأمصار. دار الشؤون الثقافية العامة. العراق.

١٨٩- مجهول، من أهل القرن ٨هـ/١٤م. (١٩٧٩م). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تح: سهيل زكار، وعبد القادر زمامة. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب. ط١.

١٩٠- مجهول، من أهل القرن ٥هـ/١١م. (١٨٧١م). العيون والحدائق في أخبار الحقائق. نشره دي خويه. بريل. هولندا. ج٣.

١٩١- مجهول. (٢٠٠٤م). قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين. تح: محمد فتحة. دار أبي رقرق. الرباط: المغرب. ط١.

١٩٢- مجهول، من أهل القرن ٨هـ/١٤م. (٢٠٠٥م). مفاخر البربر. تح: عبد القادر بوباية. دار أبي رقرق للنشر والتوزيع. الرباط: المغرب.

١٩٣- المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي، ت: ٦٤٧هـ/١٢٥٠م. (٢٠٠٦م). المعجب في تلخيص أخبار المغرب. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان. ط١.

١٩٤- _____ . (١٩٩٧م). وثائق المرابطين والموحدين. تح: حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. مصر. ط١.

- ١٩٥- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر البشاري، ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م.
- (١٩٠٦م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مطبعة بريل. ليدن: هولندا.
- ١٩٦- ابن مقديش، أبو الثناء محمود بن سعيد الصفاقسي، ت: ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. (١٩٨٨م).
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار. تح: علي الزواري، ومحمد محفوظ. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.
- ١٩٧- المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م. (١٩٤٠م). أزهار الرياض في أخبار عياض. تح: مصطفى السقا، وآخرون. مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر. القاهرة: مصر.
- ١٩٨- _____ . (١٩٦٨م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: إحسان عباس. دار صادر. بيروت: لبنان.
- ١٩٩- المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الشافعي، ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م. (١٩٩٦م). اتعاظ الحنفا. تح: جمال الدين الشيال. مطابع الأهرام. القاهرة: مصر.
- ٢٠٠- _____ . (١٩٨٧م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ط٢.
- ٢٠١- الملزوزي، أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد المكناسي، ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٨م. (١٩٦٣م). نظم السلوك في الأنبياء والملوك. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب.
- ٢٠٢- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، ت: ٧١١هـ/١٣١١م. (٢٠١٠م). لسان العرب. دار صادر. بيروت: لبنان.
- ٢٠٣- ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب، ت: ٦٧٧هـ/١٢٧٨م. (١٩٨١م). المنتقى من أخبار مصر. تح: أيمن فؤاد سيد. المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. مصر.
- ٢٠٤- الزباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي، ت: ٧٩٢هـ/١٣٩٠م. (١٩٨٣م). تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. تح: لجنة إحياء التراث العربي. دار الآفاق الجديدة. بيروت: لبنان.
- ٢٠٥- نظام الملك، قوام الدين أبو علي حسن بن علي بن إسحق بن العباس الطوسي، ت: ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. (٢٠٠٧م). سياست نامه أو سير الملوك. تر: يوسف بكار. دار المناهل. بيروت: لبنان.
- ٢٠٦- ابن نظيف الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن مزهر ابن بركات، ت: في القرن ٧هـ/١٣م. (١٩٨١م). التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان. تح: أبو العيد دودو. مطبعة الحجاز. دمشق: سورية.
- ٢٠٧- النعيمي، أبو المفاخر عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن نعيم الدمشقي، ت: ٩٢٧هـ/١٥٢١م. (١٩٩٠م). الدارس في تاريخ المدارس. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١. ج٢.

٢٠٨- ابن النقاش، أبو أمانة محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي المصري، ت: ٧٦٣هـ/١٣٦١م. (١٩٩٥م). المزمنة في استعمال أهل الزمنة. تح: عبد الله إبراهيم بن علي الطريقي. دار المسلم. الرياض: السعودية.

٢٠٩- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى، ت: ٣١٠هـ/٩٢٢م، والقمي، أبو القاسم سعد ابن عبد الله بن أبي خلف الأشعري، ت: ٣٠١هـ/٩١٣م. (١٩٩٢م). فرق الشيعة. تح: عبد المنعم الحفني. دار الرشد. القاهرة: مصر. ط١.

٢١٠- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م. (د.ت). نهاية الأرب في فنون الأدب. تح: عبد المجيد ترحيني. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ج٢٤.

٢١١- _____ . (٢٠٠٤م). نهاية الأرب في فنون الأدب. تح: مفيد قميحة وحسن نور الدين. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١. ج٢.

٢١٢- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني، ت: ٩١٤هـ/١٥٠٩م. (١٩٨١م). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية. الرباط: المغرب.

٢١٣- الوهراني، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز، ت: ٥٧٥هـ/١١٧٩م. (١٩٩٨م). منامات الوهراني ومقاماته ورسائله. تح: محمد شعلان، ومحمد نغش. منشورات الجمل. كولونيا. ط١.

٢١٤- اليافعي، عفيف الدين أبو السعادات أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ابن فلاح المكي الشافعي، ت: ٧٦٨هـ/١٣٦٦م. (١٩٩٧م). مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١.

٢١٥- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. (١٩٧٧م). معجم البلدان. دار صادر. بيروت: لبنان.

٢١٦- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت: ٢٨٤هـ/٨٩٧م. (١٨٦٠م). البلدان. مطبعة بريل. ليدن: هولندا.

٢١٧- اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف، ت: ١١٠٢هـ/١٦٩١م. (٢٠٠٦م). المحاضرات في الأدب واللغة. تح: محمد حجي، وأحمد الشرقاوي إقبال. جزآن. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.

ثانياً: المراجع العربية والمعرية:

١- أحمد، حسن خضير. (١٩٩٦م). علاقات الفاطميين بمصر بدول المغرب (٣٦٢-٥٦٧هـ/٩٧٣-١١٧١م). مكتبة مديولي. القاهرة: مصر. ط١.

٢- أحمد، علي. (١٩٨٩م). الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام. دار طلاس للنشر. دمشق: سورية. ط١.

- ٣- أحمد عمر، مصطفى أبو الضيف. (١٩٨٢م). القبايل العربية في عصر الموحدين وبنو مرين. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.
- ٤- أحناء، يوسف. (٢٠٠٣م). تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب.
- ٥- إدريس، الهادي روجي. (١٩٩٢م). الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م. تر: حمادي الساحلي. جزآن. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.
- ٦- الإدريسي، توفيق بن أحمد الغبزوري. (٢٠٠٦م). المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس. دار ابن حزم. الرياض: السعودية. ط١.
- ٧- الإدريسي، علي. (٢٠٠٥م). الجدل الفكري في القيروان من خلال كتاب رياض النفوس للمالكي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب.
- ٨- أركون، محمد كالد، نورمان كوبر، جان إسماعيل، عزيز دفتري، فرهاد هيسبرغر، أليس سي كندي، هيو وآخرون. (٢٠٠٤م). المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام. تح: فرهاد دفتري. تر: ناصح ميرزا. دار الساقي. بيروت: لبنان. ط١.
- ٩- إسماعيل، عثمان. (١٩٩٢م). تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى. مطبعة المعارف. الرباط: المغرب. ج٢.
- ١٠- إسماعيل، محمود. (١٩٨٨م). فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية. القاهرة: مكتبة مدبولي. مصر. ط١.
- ١١- أشباح، يوسف. (٢٠١٤م). تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. تر: محمد عبد الله عنان. المركز القومي للترجمة. القاهرة: مصر. ج١؛ و (٢٠١١م). ج٢.
- ١٢- أمين، أحمد. (١٩٦٩م). فجر الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان.
- ١٣- إيبش، يوسف، وكوسوجي، ياسوشي. (٢٠٠٠م). قراءات في الفكر السياسي الإسلامي. دار أمواج. بيروت: لبنان.
- ١٤- بارتولد، فاسيلي. (١٩٥٢م). تاريخ الحضارة الإسلامية. تر: حمزة طاهر. دار المعارف. مصر. ط٢.
- ١٥- بالنشيا، آنخل جنثالث. (١٩٥٥م). تاريخ الفكر الأندلسي. تر: حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر.
- ١٦- بدوي، عبد الرحمن. (١٩٩٧م). مذاهب الإسلاميين. جزآن. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان.
- ١٧- بدوي، عبد المجيد أبو الفتوح. (١٩٨٨م). التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد. دار الوفاء. مصر. ط٢.

- ١٨- بركات، أنيسة. (١٩٩٥م). محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. د.م.
- ١٩- برنشفيك، روبر. (١٩٨٨م). تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م. تر: حمادي الساحلي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١. ج١.
- ٢٠- بروفنسال، ليفي. (١٩٤١م). مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية. مطبعة رباط الفتح. المغرب.
- ٢١- بروكلمان، كارل. (١٩٦٨م). تاريخ الشعوب الإسلامية. تر: نبیه أمين فارس، ومنير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان. ط٥.
- ٢٢- بل، ألفرد. (١٩٨١م). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم. تر: عبد الرحمن بدوي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.
- ٢٣- بنسباع، مصطفى. (١٩٩٩م). السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين. مطابع الشويخ. تطوان: المغرب. ط١.
- ٢٤- بوتشيش، إبراهيم القادري. (١٩٩٤م). تاريخ الغرب الإسلامي قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة. دار الطليعة للقراءة والنشر. بيروت: لبنان. ط١.
- ٢٥- _____ . (١٩٩٧م). مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين. دار الطليعة. بيروت: لبنان.
- ٢٦- _____ . (١٩٩٣م). المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع - الذهنيات - الأولياء. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت: لبنان. ط١.
- ٢٧- بورويبة، رشيد. (١٩٧٧م). الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.
- ٢٨- بوعمامة، فاطمة. (٢٠١١م). اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين ٧-٩هـ / ١٣-١٥م. مؤسسة كنوز الحكمة. الجزائر.
- ٢٩- بولعسل، أحسن. (٢٠١٣م). الضرائب في المغرب العربي منذ عهد الولاة حتى سقوط الموحدين (٩٦-٦٦٨هـ / ٧١٥-١٢٦٩م). دار بهاء الدين للنشر والتوزيع. قسنطينة: الجزائر. ط١.
- ٣٠- بولقطيب، حسين. (د.ت). جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب.
- ٣١- البياض، عبد الهادي. (٢٠١٢م). أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب والأندلس. المجلة العربية. الرياض: السعودية.
- ٣٢- _____ . (٢٠٠٨م). الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوكيات وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس. دار الطليعة. بيروت: لبنان. ط١.

- ٣٣- تامر، عارف. (١٩٩١م). تاريخ الإسماعيلية الدولة النزارية. رياض الريس للكتب والنشر. قبرص. ط١. ج٤.
- ٣٤- تسيهر، أنجاس جولد. (١٩٥٩م). العقيدة والشرعة في الإسلام. تر: محمد يوسف موسى، وعلي حسن عبد القادر، وعبد العزيز عبد الحق. دار الكتب الحديثة. مصر. ط٢.
- ٣٥- التليسي، بشير رمضان. (٢٠٠٣م). الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. دار المدار الإسلامي. بيروت: لبنان. ط١.
- ٣٦- توفيق، عمر إبراهيم. (٢٠٠٩م). صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة (سياسياً واجتماعياً وثقافياً). دار غيداء للنشر والتوزيع. عمان.
- ٣٧- الثعالي، عبد العزيز، ت. ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م. (١٩٩٠م). تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية. تح: محمد إدريس، وأحمد بن ميلاد. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط٢.
- ٣٨- الجابري، محمد عابد. (١٩٩٤م). فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: لبنان. ط٦.
- ٣٩- الجبالي، خالد حسن حمد. (٢٠٠٤م). الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة. مكتبة الآداب. القاهرة: مصر.
- ٤٠- جلاب، حسن. (١٩٩٤م). الحركة الصوفية في مراكش ظاهرة سبعة رجال. ط١. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب.
- ٤١- _____. (١٩٩٥م). الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب. ط٣.
- ٤٢- جنيبير، شارل. (د.ت). المسيحية نشأتها وتطورها. تر: عبد الحليم محمود. المكتبة العصرية. بيروت: لبنان.
- ٤٣- جوليان، شارل أندري. (١٩٨٣م). تاريخ إفريقيا الشمالي تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م. تر: محمد مزالي، والبشير بن سلامة. جزآن. الدار التونسية للنشر. دم.
- ٤٤- الجيدي، عمر. (١٩٩٣م). مباحث في المذهب المالكي بالمغرب. طبعة المغرب.
- ٤٥- الجيلاني، عبد الرحمن بن محمد. (١٩٦٥م). تاريخ الجزائر العام. دار مكتبة الحياة. بيروت: لبنان. ج٢.
- ٤٦- الحجي، عبد الرحمن علي. (١٩٨١م). التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م). دار القلم. دمشق: سورية. ط٢.
- ٤٧- حركات، إبراهيم. (٢٠٠٠م). المغرب عبر التاريخ. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب. ج١.

- ٤٨- الحريري، عيسى. (١٩٨٧م). تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (٦١٠-٨٦٩هـ/١٢١٣-١٤٦٥م). دار القلم للنشر والتوزيع. الكويت. ط٢.
- ٤٩- حسن، إبراهيم حسن. (١٩٩٦م). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: مصر.
- ٥٠- حسن، علي حسن. (١٩٨٠م). الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. مكتبة الخانجي. مصر. ط١.
- ٥١- حسن، محمد يسري محمد. (د.ت). تاريخ الحشيشية والمهدية التومرتية دراسة تاريخية وعقدية مقارنة. د.م.
- ٥٢- حسنين، عبد النعيم محمد. (١٩٨٢م). إيران والعراق في العصر السلجوقي. دار الكتاب اللبناني. بيروت: لبنان. ط١.
- ٥٣- حسين، حمدي عبد المنعم محمد. (١٩٩٧م). التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين. دار المعرفة الجامعية. مصر.
- ٥٤- حسين، محمد كمال. (١٩٥٩م). طائفة الإسماعيلية تاريخها نظمها عقائدها. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: مصر. ط١.
- ٥٥- حمادة، محمد ماهر. (١٩٨٦م). الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا. مؤسسة الرسالة. بيروت: لبنان. ط٢.
- ٥٦- حياوي، فراس سليم، وعبد الله، محمد. (٢٠٠٨م). قبيلة مغراوة وأثرها في الحياة السياسية في المغرب الأقصى. جامعة بابل. العراق.
- ٥٧- الخالدي، عبد الحميد. (٢٠١٢م). الوجود الهلالي السليمي. دار الهومة. الجزائر.
- ٥٨- خالص، صلاح. (١٩٥٧م). محمد بن عمار الأندلسي دراسة أدبية تاريخية. مطبعة الهدى. بغداد.
- ٥٩- خربوطلي، شكران، ومصطفى، فوزي، وعلي، عبد الكريم. (٢٠٠٨م). الحضارة العربية الإسلامية- آثار وفنون. منشورات جامعة دمشق. دمشق: سورية.
- ٦٠- أبو الخشب، إبراهيم. (د.ت). تاريخ الأدب العربي في الأندلس. دار الفكر العربي. بيروت: لبنان.
- ٦١- الخشت، محمد عثمان. (١٩٨٨م). حركة الحشاشين تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي. مكتبة ابن سينا. القاهرة: مصر.
- ٦٢- الخضري، محمد بك. (١٩٧٠م). تاريخ التشريع الإسلامي. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان.
- ٦٣- الخطيب، محمد أحمد. (١٩٩١م). الحركات الباطنية في العالم الإسلامي. ط٢. مؤسسة

الإسراء. قسنطينة: الجزائر.

٦٤- خلف الله، ابتسام مرعي. (١٩٨٥م). العلاقة بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ٥٢٤-٩٣٦هـ/١١٣٠-١٥٢٩م. دار المعارف. الإسكندرية: مصر.

٦٥- الدايدة، محمد رضوان. (١٩٩٢م). المختار من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية وفي الموشحات والأزجال. دار الفكر المعاصر. بيروت: لبنان.

٦٦- دبوز، محمد علي. (٢٠١٠م). تاريخ المغرب الكبير. مؤسسة تاوالت الثقافية. المغرب. ج ١.

٦٧- الدراجي، بوزياني. (٢٠٠٧م). القبائل الأمازيغية أدوارها - مواطنها - أعيانها. جزآن. دار الكتاب العربي. الجزائر.

٦٨- الدرقاش، الهادي. (١٩٨٩م). أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني حياته وآثاره. دار قتيبة. بيروت: لبنان. ط ١.

٦٩- الدغلي، محمد سعيد. (١٩٨٤م). الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي. منشورات دار أسامة. د.م. ط ١.

٧٠- دفترلي، فرهاد. (١٩٩٩م). الإسماعيليون في العصر الوسيط. تر: سيف الدين القصير. دار المدى. دمشق: سورية.

٧١- _____ . (١٩٩٦م). خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين. تر: سيف الدين القصير. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق: سورية.

٧٢- دندش، عصمت عبد اللطيف. (١٩٨٨م). الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين - عصر الطوائف الثاني. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١.

٧٣- _____ . (١٩٨٨م). دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١.

٧٤- دو لا بويسي، إيتيان. (٢٠٠٨م). مقالة العبودية الطوعية. تر: عبود كاسوكة. المنظمة العربية للترجمة. لبنان. ط ١.

٧٥- دويدار، حسين يوسف. (١٩٩٤م). المجتمع الأندلسي في العصر الأموي. مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة: مصر. ط ١.

٧٦- ديورانت، ول وايريل. (د.ت). قصة الحضارة. تر: محمد بدران. دار الجليل. بيروت: لبنان. مج ٤.

٧٧- رانسيومان، ستيفن. (١٩٩٨م). تاريخ الحملات الصليبية. تر: نور الدين خليل. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية: مصر.

٧٨- رزق، عاصم محمد. (٢٠٠٠م). معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية. مكتبة مدبولي. مصر. ط ١.

- ٧٩- رستم، سعد. (٢٠٠٤م). الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات النشأة والتاريخ والعقيدة والتوزيع الجغرافي. دار الأوتل. دمشق: سورية.
- ٨٠- أبو رميلة، هشام. (١٩٨٤م). علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية بالأندلس. دار الفرقان. الأردن. ط١.
- ٨١- زامباور. (١٩٨٠م). معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي. تر: تركي محمد حسن بك، وآخرون. دار الرائد العربي. بيروت: لبنان.
- ٨٢- زغروت، فتحي. (٢٠٠٥م). الجوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين. دار التوزيع والنشر الإسلامية. مصر. ط١.
- ٨٣- _____. (٢٠٠٦م). العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي. دار التوزيع والنشر الإسلامية. القاهرة: مصر. ط١.
- ٨٤- زنيير، محمد. (١٩٩٩م). المغرب في العصر الوسيط الدولة والمدينة والاقتصاد. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط١.
- ٨٥- زهرة، عبد الغني عبد الفتاح، التويجري، نورة محمد عبد العزيز. (د.ت). تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد الأندلس. مكتبة الرشد. دم.
- ٨٦- أبو زهرة، محمد. (١٩٥٢م). مالك حياته وعصره وآرائه وفقهه. دار الفكر العربي. القاهرة: مصر.
- ٨٧- زيد، أسامة زكي. (١٩٨٠م). الصلبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن السادس الهجري/ الثاني الميلادي). الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية: مصر.
- ٨٨- سامعي، إسماعيل. (٢٠٠٦م). دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي. دار الهدى. الجزائر.
- ٨٩- سرور، محمد جمال الدين. (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية. دار الفكر العربي. مصر.
- ٩٠- سزكين، فؤاد. (١٩٨٣م). تاريخ التراث العربي. تر: محمود فهمي حجازي. السعودية.
- ٩١- السلومي، سليمان عبد الله. (٢٠٠١م). أصول الإسماعيلية. دار الفضيلة. الرياض: السعودية. مج ٢.
- ٩٢- السملالي، عباس بن محمد بن محمد بن إبراهيم. (١٩٩٣م). الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ج ٨.
- ٩٣- السوسي، محمد المختار. (١٩٦٣م). المعسول. مطبعة النجاح. الدار البيضاء: المغرب. ج ١١. ق ٤.
- ٩٤- السويسي، عبد الله. (١٩٧٩م). تاريخ رباط الفتح. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط: المغرب.

- ٩٥- ابن شقرون، محمد بن أحمد. (١٩٨٥م). مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني. دار الثقافة. الدار البيضاء: المغرب.
- ٩٦- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد. (٢٠٠٥م). مذكرة أصول الفقه عن روضة الناظر. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع. مكة المكرمة: السعودية. ط ١.
- ٩٧- الشيال، جمال الدين. (د.ت). أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. د.م.
- ٩٨- الشبيبي، كامل مصطفى. (د.ت). الصلة بين التصوف والتشيع. دار المعارف. مصر.
- ٩٩- صادق، جهاد تقي. (١٩٩٣م). الفكر السياسي العربي الإسلامي - دراسة في أبرز الاتجاهات الفكرية. جامعة بغداد. بغداد: العراق. ط ١.
- ١٠٠- صالح، محمد أديب. (١٩٩٣م). تفسير النصوص في الفقه الإسلامي. جزآن. المكتب الإسلامي. بيروت: لبنان.
- ١٠١- ابن الصديق، إبراهيم. (١٩٩٥م). علم علل الحديث من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لأبي الحسن بن القطان الفاسي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. ج ١. ص ٤١١؛ وج ٢.
- ١٠٢- الصلابي، علي محمد. (٢٠٠٦م). دولة السلاجقة. دار ابن الجوزي. القاهرة: مصر.
- ١٠٣- _____. (د.ت). صفحات من التاريخ الإسلامي - دولة الموحدين. دار البيارق. عمان: الأردن.
- ١٠٤- الطالبي، محمد. (١٩٩٥م). الدولة الأغلبية التاريخ السياسي. تر: المنجي الصيادي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ٢.
- ١٠٥- الطاهري، أحمد. (١٩٩٨م). إمارة بني صالح في بلاد نكور. الخزنة العامة للكتاب والوثائق. المغرب.
- ١٠٦- طقوش، محمد سهيل. (٢٠١٦م). تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق. دار النفائس. بيروت: لبنان. ط ٢.
- ١٠٧- _____. (٢٠٠٧م). تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام. دار النفائس. بيروت: لبنان. ط ٢.
- ١٠٨- العبادي، أحمد مختار. (٢٠٠٠م). صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس. منشأة المعارف. الإسكندرية: مصر. ط ١.
- ١٠٩- _____. (د.ت). في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية. بيروت: لبنان.
- ١١٠- عبد الحميد، سعد زغلول. (١٩٩٣م). تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال - ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. منشأة المعارف. الإسكندرية: مصر. ج ١.

- ١١١- عبد الرزاق، محمود إسماعيل. (٢٠٠٦م). الحركات السرية في الإسلام. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة: مصر. ط٦.
- ١١٢- _____ . (١٩٨٥م). الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. دار الثقافة. الدار البيضاء: المغرب. ط٢.
- ١١٣- عبد القادر، محمد أحمد. (٢٠٠٥م). الأصيل والدخيل في الفكر الإسلامي. دار المعرفة الجامعية. القاهرة: مصر.
- ١١٤- عبد المولى، محمد أحمد. (١٩٩٠م). مغربيات في مشرقيات. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية: مصر. ط١.
- ١١٥- العروي، عبد الله. (٢٠٠٠م). مجلد تاريخ المغرب. المركز الثقافي العرب. الدار البيضاء: المغرب. ج٢.
- ١١٦- عزوي، أحمد. (١٩٩٥م). رسائل موحدية مجموعة جديدة. جامعة ابن طفيل. القنيطرة: المغرب. ط١. ج١. ص٦٠٦؛ و (٢٠٠١م). ج٢.
- ١١٧- عطوان، حسين. (د.ت). الدعوة العباسية مبادئ وأساليب. دار الجليل. بيروت: لبنان.
- ١١٨- عقون، محمد العربي. (٢٠١٠م). الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصول والهاوية. مطبعة الرباط. المغرب. ط١.
- ١١٩- علام، عبد الله علي. (٢٠٠٧م). الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي. المطبعة الشعبية للجيش. الجزائر.
- ١٢٠- عمارة، علاوة. (٢٠٠٨م). دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.
- ١٢١- عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصر. أربعة أجزاء. عالم الكتب. القاهرة: مصر. ط١.
- ١٢٢- ابن عميرة، محمد. (١٩٨٤م). دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
- ١٢٣- عنان، محمد عبد الله. (١٩٩٠م). دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين. مكتبة الخانجي. القاهرة: مصر. ط٢. ق١.
- ١٢٤- _____ . (١٩٦٤م). دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ج٥.
- ١٢٥- غالب، مصطفى. (١٩٦٥م). تاريخ الدعوة الإسماعيلية. دار الأندلس. بيروت: لبنان. ط٢.
- ١٢٦- الغامدي، سعيد فالح. (١٩٩٠م). البناء القبلي والتحضر في المملكة العربية السعودية.

المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية: مصر.

١٢٧- غرميني، عبد السلام. (٢٠٠٠م). المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن

السادس الهجري. دار الرشد الحديثة. الدار البيضاء: المغرب.

١٢٨- غلاب، عبد الكريم. (٢٠٠٥م). قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي. دار الغرب

الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ١. ج ١.

١٢٩- الغناي، عقيلة. (٢٠٠٨م). قيام دولة الموحدين. منشورات جامعة قاريونس. بنغازي: ليبيا.

١٣٠- فروخ، عمر. (١٩٨٥م). معالم الأدب العربي في العصر الحديث. دار العلم للملايين.

بيروت: لبنان.

١٣١- أبو الفضل، محمد أحمد. (١٩٨١م). تاريخ مدينة المربة الأندلسية في العصر الإسلامي.

الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية: مصر.

١٣٢- _____. (١٩٩٦م). شرق الأندلس في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ

السياسي والحضاري. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية: مصر.

١٣٣- الفضلي، مثني فليفل سلمان. (٢٠١٥م). الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال القرنين

الخامس والسادس الهجريين. دار مكتبة عدنان. بغداد. ط ١.

١٣٤- فيلاي، عبد العزيز. (٢٠٠٢م). تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية- عمرانية-

اجتماعية- ثقافية). موفم للنشر والتوزيع. الجزائر.

١٣٥- القاضي، عبد الفتاح بن عبد الغني. (١٩٨٠م). البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة

من طريق الشاطبية والدررة. دار الكتاب العربي. بيروت: لبنان.

١٣٦- ابن قرية، صالح. (١٩٩١م). عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين. المؤسسة الوطنية

للكتاب. الجزائر.

١٣٧- كرم، يوسف. (٢٠١٢م). تاريخ الفلسفة الحديثة. مؤسسة هنداوي. مصر.

١٣٨- الكعك، عثمان. (٢٠٠٣م). البربر. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط ٢.

١٣٩- كنون، عبد الله. (١٩٦٠م). النويع المغربي في الأدب العربي. طنجة: المغرب. ط ٢.

١٤٠- كيب، جوزيف ماك. (١٩٨٥م). مدينة المسلمين في إسبانيا. تر: محمد تقي الدين

الهالي. مكتبة المعارف. الرباط: المغرب. ط ٢.

١٤١- لقبال، موسى. (١٩٧٩م). دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية. الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع. الجزائر.

١٤٢- _____. (١٩٨١م). المغرب الإسلامي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

ط ٢.

١٤٣- لوبان، غوستاف. (١٩٧٩م). حضارة العرب. تر: عادل زعيتير. دار إحياء التراث العربي.

بيروت: لبنان.

١٤٤- لويس، برنارد. (٢٠٠٦م). الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام. تر: محمد العزب موسى. مكتبة مدبولي. القاهرة: مصر. ط٢.

١٤٥- لي تورنو، روجي. (١٩٨٢م). حركة الموحدين في المغرب. تر: أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. تونس.

١٤٦- مارسيه، جورج. (١٩٩١م). بلاد المغرب وعلاقته بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى. تر: محمود عبد الصمد هيكل. مطبعة الانتصار. الإسكندرية: مصر.

١٤٧- مجاني، بوبة. (٢٠٠٥م). المذهب الإسماعيلي وفلسفته في بلاد المغرب. منشورات الزمن. الرباط: المغرب.

١٤٨- المجذوب، عبد العزيز. (١٩٧٥م). الصراع المذهبي بإفريقيا. الدار التونسية للنشر. تونس.

١٤٩- مجمع اللغة العربية. (٢٠٠٤م). المعجم الوسيط. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة: مصر.

١٥٠- محمود، حسن أحمد. (١٩٥٦م). قيام دولة المرابطين. دار الفكر العربي. القاهرة: مصر.

١٥١- مخلوف، محمد بن محمد. (٢٠٠٣م). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. دار الكتب العلمية. بيروت: لبنان. ط١. ج١.

١٥٢- المراكبي، محمود. (١٩٩٦م). ظاهر الدين وباطنه، السلف- الباطنية- الشيعة- الصوفية. دار الطباعة والنشر الإسلامية. القاهرة: مصر.

١٥٣- مسعد، سامية مصطفى. (٢٠٠٣م). الحرب والطبيعة في المغرب عصر بني مرين. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. مصر. ط١.

١٥٤- أبو مصطفى، كمال السيد. (١٩٩٦م). جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريسي. مركز الإسكندرية للكتاب. الإسكندرية: مصر.

١٥٥- المطوي، محمد العروسي. (١٩٨٦م). السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان.

١٥٦- المغراوي، محمد. (٢٠٠٦م). الموحدون وأزمات المجتمع. جذور للنشر. الرباط: المغرب. ط١.

١٥٧- مكي، محمد علي. (٢٠٠٤م). التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر. ط١.

١٥٨- ابن منصور، عبد الوهاب. (١٩٦٨م). قبائل المغرب. المطبعة الملكية. الرباط: المغرب. ج١.

١٥٩- المنوني، محمد. (١٩٨٩م). حضارة الموحدين. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء: المغرب.

ط ١.

١٦٠- _____ . (١٩٧٧م). العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين. دار المغرب.
الرباط: المغرب.

١٦١- _____ . (٢٠٠٠م). ورقات عن حضارة المرينيين. مطبعة النجاح الجديدة. الدار
البيضاء: المغرب.

١٦٢- ابن المؤقت، محمد بن محمد. (٢٠١١م). السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة
المراكشية. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش: المغرب. ط ٣.

١٦٣- مؤنس، حسين. (١٩٨٧م). أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة: مصر.

ط ١.

١٦٤- _____ . (١٩٩٢م). الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين. مكتبة الثقافة
الدينية. مصر.

١٦٥- _____ . (٢٠٠٠م). سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس.
مكتبة الثقافة الدينية للتوزيع والنشر. مصر. ط ١.

١٦٦- _____ . (١٩٩٧م). معالم تاريخ المغرب والأندلس. دار الرشاد. القاهرة: مصر.

١٦٧- _____ . (٢٠٠٠م). نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى
الموحدين. مكتبة الثقافة الدينية. مصر. ط ١.

١٦٨- موسى، عز الدين عمر أحمد. (١٩٨٣م). دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي. دار
الشروق. بيروت: لبنان. ط ١.

١٦٩- _____ . (٢٠٠٣م). النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن
السادس الهجري. دار الغرب الإسلامي. بيروت: لبنان. ط ٢.

١٧٠- ميرندا، أمبروسيو هيوثي. (٢٠٠٤م). التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية. تر: عبد
الواحد أكميز. النجاح الجديدة. الدار البيضاء: المغرب. ط ١.

١٧١- الملي، مبارك بن محمد. (د.ت). تاريخ الجزائر في القديم والحديث. المؤسسة الوطنية
للكتاب. الجزائر.

١٧٢- النبهان، محمد فاروق. (١٩٩٨م). الفكر الخلدوني من خلال المقدمة. مؤسسة الرسالة.
لبنان. ط ١.

١٧٣- النجار، عبد المجيد. (١٩٩٥م). تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت. المعهد
العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا.

١٧٤- _____ . (١٩٨٣م). المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية
وأثره بالمغرب. جامعة الأزهر. مصر.

١٧٥- نوح، علي. (١٩٩٤). الخطاب الإسماعيلي في التجديد الفكري الإسلامي المعاصر. دار
الينابيع. دمشق: سورية.

١٧٦- نويهض، عادل. (١٩٨٠م). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر.
مؤسسة نويهض الثقافية. بيروت: لبنان. ط٢.

١٧٧- هبّو، أحمد رحيم. (٢٠٠٧م). تاريخ سورية القديم - بلاد الشام. منشورات جامعة حلب.
حلب: سورية.

١٧٨- الهنتاتي، نجم الدين. (٢٠٠٤م). المذهب المالكي بالغرب الإسلامي. منشورات تهر الزمان.
تونس.

١٧٩- هوبكنز، ج. ف. ب. (١٩٧٧م). النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى. تر:
أمين توفيق الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا.

١٨٠- ولد الحسن، الناني. (٢٠٠٠م). صحراء المثلثين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا. سلا:
المغرب.

ثالثاً: الرسائل والأطاريح الجامعية:

١- الإدريسي، علي الهادي. (١٩٨٧م). الإمامة عند ابن تومرت دراسة مقارنة مع الإمامية الاثني
عشرية. إشراف: أبو عمران الشيخ. ماجستير منشورة. معهد الفلسفة. جامعة الجزائر. الجزائر.

٢- باحنشل، آمال بنت عبد الرحمن بن أحمد. (٢٠٠٨م). المآخذ العقيدة على كتاب إحياء علوم
الدين لأبي حامد الغزالي. إشراف: سالم بن محمد القرني. ماجستير منشورة. قسم العقيدة. كلية الدعوة وأصول
الدين. جامعة أم القرى. السعودية.

٣- بحري، يونس. (٢٠١٢م). الفقه المالكي في عصر الموحدين دراسة تاريخية واجتماعية
(٥١٥-٦٦٨هـ/١١١٦-١٢٦٩م). إشراف: صالح بن قريّة. ماجستير منشورة. قسم اللغة والحضارة. كلية
العلوم الإسلامية. جامعة الجزائر. الجزائر.

٤- بخدة، طاهر. (٢٠١٧م). الهجرة في المغرب الأوسط واقعها وآثارها من منتصف القرن
السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري/ق ١٢-١٤م. إشراف: عبد القادر بوباية. دكتوراه منشورة. قسم
التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران ١ أحمد بن بلة. وهران: الجزائر.

٥- البسام، هيفاء عبد الله العلي. (١٩٨٠م). الوزير السلجوقي نظام الملك. إشراف: حسام الدين
السامرائي. ماجستير منشورة. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.
جامعة الملك عبد العزيز. السعودية.

٦- بويدي، حسين. (٢٠١٣م). دور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي والثقافي بين
المغرب الإسلامي والسودان الغربي. إشراف: إسماعيل سامعي. ماجستير غير منشورة. قسم التاريخ. كلية
الآداب والعلوم الاجتماعية. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاجتماعية. قسنطينة: الجزائر.

- ٧- بورقاق، فاطمة. (٢٠١٤م). تأثير كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في المغرب والأندلس. إشراف: عبد الكريم شباب. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة. الجزائر.
- ٨- تريكي، فتيحة. (٢٠١٠م). جوانب من الحياة الاجتماعية للبربر في الأندلس من الفتح إلى دخول المرابطين. إشراف: فاطمة بلهوارى. ماجستير منشورة. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر.
- ٩- جدو، فاطمة الزهرة. (٢٠٠٨م). السلطة والمتصوفة في الأندلس عهد المرابطين والموحدين. إشراف: إبراهيم بكير بحاز. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر.
- ١٠- حسن، عامر أحمد عبد الله. (٢٠٠٣م). دولة بني مرين - تاريخها وسياساتها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا (٦٦٨-٨٦٩هـ/١٢٦٩-١٤٦٥م). إشراف: عدنان ملحم. ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين.
- ١١- حمودة، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح. (٢٠١٢م). التحولات المذهبية العقائدية عند السلف والمعتزلة والأشاعرة. إشراف: نسيم شحدة ياسين. ماجستير منشورة. قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة. كلية أصول الدين. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين.
- ١٢- بن خيرة، أحمد. (٢٠١٠م). دور المغاربة والأندلسيين في الحروب الصليبية ما بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين. إشراف: أحمد شريفي. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر.
- ١٣- الدحلة، سمر عبد الرحمن محمد. (د.ت). النظم الضريبية بين الفكر المالي المعاصر والفكر المالي الإسلامي. إشراف: هشام جبر. ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. جامعة النجاح الوطنية. نابلس: فلسطين.
- ١٤- رابح فيسة، محمد. (٢٠٠٤م). المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية. إشراف: عبد العزيز محمود لعرج. ماجستير منشورة. معهد الآثار. جامعة الجزائر. الجزائر.
- ١٥- رحمانى، عائشة، ورحمانى، مريم. (٢٠١٧م). الحركة العلمية في الدولة الحفصية ٦٢٥-٩٨١هـ/ ١٢٢٧-١٥٧٤م. إشراف: خالد مسعود. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة ٨ ماي "قائمة" ١٩٤٥م. الجزائر.
- ١٦- رحمانى، موسى. (٢٠٠٧م). الأوراس في العصر الوسيط من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر. إشراف: بوبة مجاني. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة.
- ١٧- الرويضان، سعد سالم مرشد. (١٩٩٨م). ثورة عمر بن حفصون وأولاده في جنوب الدولة

الأموية في الأندلس. إشراف: محمد عبدة حتاملة. ماجستير منشورة. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. الأردن.

١٨- سعد، عبد السلام. (٢٠٠٩م). ابن حزم بين الفلاسفة والمتكلمين. إشراف: عليش العموري. دكتوراه منشورة. قسم الفلسفة. كلية العلوم الإنسانية. جامعة الجزائر. الجزائر.

١٩- السلمي، إبراهيم بن عطية. (٢٠٠٨م). العودة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف إلى سقوطها بيد الإسبان (٤٢٢-٨٦٧هـ / ١٠٣٠-١٤٦٢م). إشراف: سعد بن عبد الله البشري. دكتوراه منشورة. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة أم القرى. السعودية.

٢٠- شارف، أحمد. (د.ت). الفكر السياسي بالمغرب والأندلس في دولة المرابطين (٤٦٢-٥٣٩هـ / ١٠٦٩-١١٤٤م). إشراف: إبراهيم بكير بحاز. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية. جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله. الجزائر.

٢١- شرقي، نورة. (٢٠٠٨م). الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (٥٢٤-٦٦٧هـ / ١١٢٦-١٢٦٨م). إشراف: عبد العزيز محمود لعرج. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر.

٢٢- شريط، آمال، وجلايلية، لعرج. (٢٠١٦م)، الربط ودورها التعليمي خلال عهد المرابطين. إشراف: بوشية. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية. جامعة الطاهر مولاي سعيدة. الجزائر.

٢٣- شواكري، منير. (٢٠١٤م). أسس قيام الدولة وفق نظرية ابن خلدون (الدولة الموحدية نموذجاً من سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م إلى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م). إشراف: محمد مكيوي. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد. الجزائر.

٢٤- صديقي، عبد الجبار. (٢٠١٤م). سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات. إشراف: محمد مكيوي. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم التاريخ وعلم الآثار. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر.

٢٥- طاعة، أمجد حافظ حسين. (٢٠١٢م). العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصلبيين في مصر وبلاد الشام (٤٩١-٥٧٠هـ / ١٠٩٨-١١٧٣م). إشراف: رياض مصطفى شاهين. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية الآداب. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين.

٢٦- طهراوي، محمد. (٢٠١٦م). الحركة الدينية عند المرابطين والموحدين دراسة مقارنة. إشراف: العبدلي لخضر. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر.

- ٢٧- ابن عامر، كريمة. (٢٠٠١م). التوحيد وتجلياته السياسية والسيوسو - ثقافية نموذج التجربة الموحدية في الأندلس. إشراف: عبد الرحمان موساوي. ماجستير منشورة. معهد الثقافة الشعبية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان: الجزائر.
- ٢٨- العامري، علي فيصل عبد النبي. (٢٠٠٧م). السياسة الخارجية للدولة الفاطمية (٣٥٨-٤٢٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٦م). إشراف: رياض حميد الجواري. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب. جامعة الكوفة. العراق.
- ٢٩- عربية، بورملة. (٢٠٠٩م). إمارة بني توجين بالونشريس خلال القرنين (٧-٨هـ/١٣-١٤م). إشراف: محمد بن معمر. ماجستير منشورة. قسم الحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر.
- ٣٠- العزيز، حسين قاسم. (١٩٦٦م). البابكية. إشراف: يه. أ. بيلاييف، وض. م. بونيأتوف. دكتوراه منشورة باللغة العربية. معهد اللغات الشرقية. جامعة موسكو. روسيا.
- ٣١- غربي، بغداد. (٢٠١٥م). العلاقات التجارية للدولة الموحدية. إشراف: محمد بن معمر. دكتوراه منشورة. قسم الحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر.
- ٣٢- ابن فريجة، عبد الملك. (٢٠١٥). القبائل العربية ومكانتها في الدولة الزيانية. إشراف: محمد بوركية. ماجستير منشورة. قسم التاريخ والحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية. جامعة وهران. الجزائر.
- ٣٣- القدري، دقة، ولزهاري، عوادي. (٢٠١٨م). يعقوب المنصور إسهاماته العلمية وعلاقته بالعلماء (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م). إشراف: غانية البشير. ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة حمه لخضر - الوادي. الجزائر.
- ٣٤- قسومة، محمد الصالح، وإعجال، ياسين. (٢٠١٧م). المغرب الأوسط في ظل الحروب والصراعات ما بين القرنين السابع والعاشر الهجريين (٧-١٠هـ/١٣-١٦م). إشراف: الإمام بريك. ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة حمه لخضر بالوادي. الجزائر.
- ٣٥- قصاري، سكورة، وسوداني، نعيمة. (٢٠١٥م). عبد المؤمن بن علي ودوره في الدولة الموحدية (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٣٠-١١٦٤م). إشراف: محمد شافع بوعناني. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة أكلي محند أولحاج. الجزائر.
- ٣٦- كرعي، أحمد، وبورويس، وليد. (٢٠١٦). معركة العقاب دراسة في أسباب الهزيمة والتداعيات (٦٠٩هـ/١٢١٢م). إشراف: توفيق مزارى عبد الصمد. ماجستير منشورة. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة يحيى فارس. المدية: الجزائر.
- ٣٧- مجاني، بوبة. (١٩٩٥م). النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي. إشراف:

محمود إسماعيل عبد الرزاق. دكتوراه غير منشورة. قسم التاريخ. معهد العلوم الاجتماعية. جامعة قسنطينة. الجزائر.

٣٨- مخلدي، خديجة، ومخلدي، حياة. (٢٠١٦). دور قبيلة اللمتونة في قيام دولة المرابطين. إشراف: أم الخير عثمانى. ماجستير منشورة. الجزائر. جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة.

٣٩- مسرحي، جمال. (٢٠١٧). أوضاع الشرق الجزائري القديم من زوال المملكة النوميديّة حتى الغزوات الوندالية ٤٦ ق.م-٤٢٩م. إشراف: مسعود شباحي. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة باتنة. الجزائر.

٤٠- مصطفى، حسين عبد الرحيم سليمان. (١٩٩٣م). دور عبد المؤمن بن علي الكومي بنشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين في المغرب الإسلامي (٥١٠-٥٥٨هـ). إشراف: محمد عبده حتاملة. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. الأردن.

٤١- معراجي، فاطمة. (٢٠١٥م). دور عبد المؤمن بن علي في رسم السياسة العلمية للموحدين. إشراف: دريس بن مصطفى. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة. الجزائر.

٤٢- مغزاوي، مصطفى. (٢٠٠٨م). دور العامل السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه (من منتصف القرن ٥هـ/ ١١م إلى بداية القرن ٨هـ/ ١٤م). إشراف: خالد كبير علال. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر. الجزائر.

٤٣- مغنية، غرداين. (٢٠١٦م). نظام الحكم في بلاد المغرب في عهدي المرابطين والموحدين دراسة مقارنة (ق ٥-٧هـ/ ١١-١٣م). إشراف: عبدلي لخضر. دكتوراه منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان. الجزائر.

٤٤- موسى، عز الدين عمر أحمد. (١٩٦٩م). تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب. رسالة منشورة للحصول على درجة أستاذ. قسم التاريخ. كلية الآداب. الجامعة الأمريكية. بيروت: لبنان.

٤٥- نسيم، نوار. (٢٠١١م). النزاع السني الشيعي ببلاد المغرب وأثره في تجدد المذهب المالكي من قيام الدولة الفاطمية إلى حدوث القطيعة الزيرية (٢٩٦-٤٤٣هـ/ ٩٠٩-١٠٥١م). إشراف: بشاري لطيفة بن عميرة. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر ٢ بوزريعة. الجزائر.

٤٦- ابن النية، رضا. (٢٠٠٦م). صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (٨٠-٣٦٢هـ/ ٦٩٩-٩٧٣م). إشراف: بوبة مجاني. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. جامعة منتوري. قسنطينة: الجزائر.

٤٧- هبي، عائشة. (٢٠١٧م). أزمات المجتمع المرابطي ما بين القرنين (٥-٦هـ/ ١١-١٢م). إشراف: زينب رزيوي. ماجستير منشورة. شعبة التاريخ. قسم العلوم الإنسانية. كلية العلوم الاجتماعية

والإنسانية. جامعة مولاي الطاهر. الجزائر.

٤٨- الهرفي، سلامة محمد سلمان. (١٩٨٢م). الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين. إشراف: أحمد السيد دراج. ماجستير منشورة. قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة أم القرى. مكة المكرمة: السعودية.

٤٩- الهوبي، محمد جمال محمود. (٢٠١٧م). أسباب النصر والتمكين للدولة الموحدية في عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٩٩-١١٨٤م). إشراف: خالد يونس الخالدي. ماجستير منشورة. قسم التاريخ. كلية الآداب. الجامعة الإسلامية. غزة: فلسطين.

رابعاً: المقالات والندوات والمؤتمرات والمجلات والموسوعات:

١- أبلاغ، محمد. (٢٠١٨م). ابن رشد وعقيدة المهدي بن تومرت. بحث محكم في مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية. الرباط: المغرب.

٢- أحمد، نهى محمد نصر الدين. (٢٠٠٨م). المغرب القديم في العصر الحجري. دورية كان التاريخية. ع ١٠. د.م.

٣- إلياس، علي قنبر. (٢٠١٠م). أسرة بني غانية ودورهم السياسي والعسكري في التصدي لدولة الموحدين في المغرب والأندلس. مجلة التربية والعلم. مج ١٧. ع ١٠. الموصل: العراق.

٤- البستوي، عبد العليم عبد العظيم. (١٩٩٩م). الموسوعة في أحاديث المهدي الضعيفة والموضوعة، المكتبة المكية. ط ١. السعودية.

٥- بلعيد، محمد منصور علي. (٢٠١٣م). أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي وانكفاؤه في اليمن حتى القرن الرابع الهجري (دراسة مقارنة). الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك. الجامعة الأسمرية الإسلامية. ليبيا.

٦- البياتي، صدام جاسم محمد. (٢٠١١م). الوزير نظام الملك وأثره في تقدم الحركة العلمية في المشرق الإسلامي. مجلة ديالى. ع ٥٣. جامعة ديالى. العراق.

٧- توفيق، فواز نصرت. (٢٠١٥م). حملة قراقوش على المغرب وأثرها في التوسع الأيوبي (٥٨٠-٥٨٦هـ/١١٨٥-١١٩١م). مجلة الدراسات التاريخية والحضارية. مج ٧. ع ٢١٤. جامعة تكريت. العراق.

٨- جاسم، نبراس فوزي، ورجه، آلاء حماد. (٢٠١٨). النظام المالي في الأندلس في عصري المرابطين والموحدين (٤٨٤-٦٢٠هـ/١٠٩٢-١٢٢٣م). مجلة التراث العلمي والعربي. ع ٣٧. جامعة بغداد. العراق.

٩- جعفر، مروة مكي. (٢٠١٤م). أثر عرب الخلط في الحياة السياسية لبلاد المغرب في عهد الدولتين الموحدية وبنو مرين (٥٢٤-٨٦٩هـ/١١٣٠-١٤٦٤م). مجلة الباحث. ع ١١. جامعة كربلاء. العراق.

١٠- جلول، هادي. (٢٠١٨م). الحركة العلمية في حاضرة تلمسان وعناية السلطة الزيانية بها

(ق ٨-٩هـ / ١٤-١٥م). الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. ع ١٩٤. جامعة حسنية بن بو علي. الشلف: الجزائر.

١١- الجوّاري، رياض حميد، وطوسي، عذراء نوري. الحركات الانفصالية في المغرب خلال عصر الموحدين (٦١٠-٦٦٨هـ / ١٢١٣-١٢٦٩م). مجلة الكلية الإسلامية الجامعية. ج ١. ع ٥٤. الجامعة الإسلامية. العراق.

١٢- حاجيات، عبد الحميد. (١٩٧٨م). التطور المذهبي بناحية الأوراس في العصر الوسيط. مجلة الأصالة. ع ٦٠-٦١. د.م.

١٣- حسن، صالح رمضان. (٢٠١١م). فتوحات الدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م). مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية. مج ١١. ع ٢. العراق.

١٤- الحكيم، أبو الحسن علي بن يوسف، من أهل القرن ٨هـ / ١٤م. (١٩٥٨م). الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة. تح: حسين مؤنس. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية. مج ٦. ع ١٤-٢. مدريد: إسبانيا.

١٥- حمداوي، جميل. (٢٠١٤م). مقال عن أصول الإنسان الأمازيغي. شبكة الألوكة الثقافية. د.م.

١٦- الشريف، محمد. (د.ت). ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب: الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدية. مقال في وزارة الثقافة. المغرب.

١٧- عبد الكريم، أسعد عبد الوهاب. (٢٠١٦م). الفكر السياسي والنظرية السياسية دراسة مقارنة. مجلة الفراهيدي. مج ٢. ع ٢٧. جامعة تكريت. تكريت: العراق.

١٨- العتيري، نضال خليفة أحمد، وحديدة، عبد النبي علي عبد الحفيظ. (٢٠٢٠م). النظام المالي في عهد الدولة الموحدية (٥٤٣هـ-١١٤٨م/٦٦٨هـ-١٢٦٩م). مجلة كلية الآداب. ع ٢٩. د.م.

١٩- العربي، إسماعيل. (١٩٧٢م). صنهاجة وكتامة وغيرهما من البربر الأصالة. مقال علمي. ع ٨. وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية. الجزائر.

٢٠- القاسمي، هاشم العلوي. (١٩٨٩م). حركة المهدوية في الغرب الإسلامي فيما بين ٢٦٠-١٠٥٠هـ / ٨٦٥-١٦٤٠م. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ع ١٠. فاس: المغرب.

٢١- قدور، عبد المجيد. (٢٠٠٣م). الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية الجزائر كنموذج. مجلة العلوم الإنسانية. ع ٢٠. جامعة منتوري. قسنطينة: الجزائر.

٢٢- كاظم، ضياء سعدون. (٢٠١٦م). الحياة السياسية في الأندلس (٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٥م). مجلة بابل. مج ٦. ع ٣. العراق.

٢٣- كرزاز، فوزية. (٢٠١٤م). الموارد المالية بالدولة الموحدية بين ما هو مشروع وما هو مستحدث. مجلة عصور الجديدة. ع ١٦-١٧. جامعة وهران. الجزائر.

- ٢٤- كلاس، فايزة. (٢٠٠٥م). العلاقات الأيوبية الموحدية أيام صلاح الدين. مجلة دراسات تاريخية. ع ٨٩-٩٠. دمشق: سورية.
- ٢٥- مجموعة من المؤلفين. (٢٠١٠م). أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي. بحث في الندوة التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء. نشر دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط: المغرب. ط ١.
- ٢٦- مجموعة من المؤلفين. (٢٠١٤م). موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين. ج ١. منشورات الحضارة. الجزائر.
- ٢٧- مجهول. (٢٠١٧م). لمحة جديدة عن أصول اللغات الهندو أوروبية. تر: محمد خليفة الغزي. ناسا بالعربي. د.م.
- ٢٨- محمود، صادق شكري. (٢٠٠٩م). الفكر السياسي عند الموحدين في عصر عبد المؤمن بن علي. مجلة القادسية للعلوم الإنسانية. مج ١٢. ع ٣. الكويت.
- ٢٩- محميد، أحمد جاسم، والمعموري، محمد عبد الله. (٢٠١٥م). قبيلة زناتة وأثرها في حركة الخوارج في المغرب العربي. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. ع ٢٣. جامعة بابل. العراق.
- ٣٠- مصطفى، شاكر. (١٩٩٣م). موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها. ج ١. دار العلم للملايين. بيروت: لبنان.
- ٣١- المغراوي، محمد. (د.ت). تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور. مقال في آفاق الثقافة والتراث. الرباط: المغرب.
- ٣٢- مؤنس، حسين. (١٩٩٦م). موسوعة تاريخ الأندلس - فكر تاريخ حضارة تراث. ج ٢. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة: مصر.
- ٣٣- الموسوعة العربية الميسرة. (٢٠٠١م). دار الجليل. بيروت: لبنان. ط ٢.
- ٣٤- ولد الرياني، عبد الرحمن. (٢٠١٥م). الجدل حول أصول قبائل صنهاجة. مقال في وكالة البشام الإخبارية. د.م.
- ٣٥- يحيى، عز الدين. (٢٠٠٤م). آفاق المذهب المالكي في القرن الجديد من خلال أصوله وخصائصه. مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية. ع ١٠. الجزائر.
- ٣٦- البوزيكي، توفيق سلطان. (٢٠١٠م). الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا. مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث. مج ٥. ع ٢٠. العراق.

خامساً: المراجع الأجنبية:

- 1- Baadj, Amar Salem. (2013). The Struggle for North Africa between ALmohads, Ayyubids, and Banu Ghaniya (Late Twelfth To Early Thirteenth centuries A.D). PhD thesis. University of Toronto.
- 2- Batlle, I. and Tous, J.. (1997). Carop Tree Ceratonia siliqua L.. International Plant Genetic Resources Institute. Rome.
- 3- Bousget, G.H. (1957). Les Berberes Presses Histoire et Institutions. universitaires de France. Pares.
- 4- Buresi, Pascal. (2018). Preparing The Almohad Caliphate: The Almoravids. The Journal of Middle East Medievalists. University of Mariland.
- 5- Canal, Jeorge. (1988). Monographie l'arrondissement De Tlemcen. Bulletin De La Societe D'Archeologie D'Oran.
- 6- Eisenbeth, Maurice. (1948). Les Juifs en Algerie esquisse historique depuis les origines jusqu'a nos jours. Encyclopedie de L'empire Francais. Paris
- 7- Garcia Mercedes, arenal. (2006). messianism and puritanical reform mahdis of the muslim west. translated from Spanish by: Martin Beagles. brill. Leiden.
- 8- Gautier, E.F. (1952). Le Passe de L'Afrigue du Nord. Les Siecles Obscurs. Payot. Paris.
- 9- Goldziher, Lgnaz. (1903). Mohammed ibn toumert et la théologie de l'islam dans le nord de L'Afrique au XIsiecle. imprimerie orientale pierre Fontana. Alger.
- 10- Grandguillaume, Grand. (1976). Nadrouma L,evolution D,Une Medin. Brill. Leiden.
- 11- Herodote. (1915). texte relatifs al'histoire de l'Afrigue du nord. par stephane Gsell. Alger.
- 12- Latrie, Le Comte de Mas. (1886). relation et commerce de l' Afrique septentrionale. librairie de frimindidot. Paris.
- 13- Mercier, Ernest. (1888). Histoire de L'Afrique Septentrionale (Berberie) Depuis Les Temps Les Plus Reculés jusqu'a La Conquête Francaise (1830). Tome1. Ernest Leroux Editeur. Paris.
- 14- Omar, Farag IM. (2015). Structures of government in ALmohad

Iberia. PhD thesis. University Exeter.

15- Rivas, Camilo Gomez. (2020). **Berber Role and Abbasid legitimacy:
The AL moravids**. Us Santa Cruz.

Summary:

This study is concerned with providing an adequate explanation of the Almohad political thought between theory and practice in the Maghreb and Andalusia, a study of the thought of the Mahdi Muhammad ibn Tumart and his cause for which he advocated, and the knowledge and he gained in the countries of the Islamic East, and then his attempt to apply what he learned in the Islamic Maghreb to complete the project The educational system for which he has migrated, and transformed it into a reform project whose primary goal is to unify the Islamic world under a political leadership and a single religious sect; To stand in the face of the challenges that accompanied the emergence of his call, but his exposure to difficulties and obstacles contributed to transforming his call into a revolutionary direction, which resulted in the establishment of the Almohad state, whose sultans or caliphs departed in most of their principles from his call and political thought, and they also contributed to the division of the Islamic world after they took the title of Commander of the Faithful. This resulted in a sectarian and political hostility that sowed division among the Muslim Arabs. For the Crusaders to benefit from it in returning most of the lands of Andalusia to their possession.

In addition, the study deals with the tribal conflict that has arisen since the Muslims conquered the lands of the Islamic Maghreb, and what this conflict has caused in terms of the demise of states at the expense of the establishment of other states, the basis of their political thought is tribal as well. To weaken the capabilities of the countries of the Islamic Maghreb and the status of their sons, and for the research to reach the reasons for the emergence of political thought for Mahdi Ibn Tumart and his successors.

The study also focused on the geographical and sectarian aspects of the countries of the Islamic Maghreb because of its impact on the political thought of the countries of the Arab Maghreb and its residents who suffered

from external interference in their countries, so other demographics of the region at the expense of personal interests and the consolidation of the authority of the rulers who have always preferred their interests over the interests of the subjects. Thanks to that, corruption and bloodshed prevail in their society.

The most important thing that the study proved is that the geopolitical unity among the Muslim Arabs can only be achieved through religious unification; Because religion strengthens tribal fanaticism, but the economic factor is an obstacle to achieving this. Because of the tendencies of the tyrants to preserve their gains, as well as the tendency of people towards stability, this causes people to depart from beliefs and principles and their tendency to enjoy the pleasures of life; Which means that the struggle was for the sake of the pension only, and this is the reason for the collapse of the Maghreb countries that were based on a religious ideological principle in the medieval Islamic ages from the history of the Islamic Maghreb.



Syrian Arab Republic

Ministry of Higher Education
Damascus University
Faculty: The Decency and Humanity Scienc
Department: History

Muwahids Political Thought between Theory and Practice

515– 668 A.H / 1121– 1269 A.D.

A thesis submitted to obtain a doctorate degree in the history of Arabs and
Islam

Prepared By:

Anas Sobhiy Nassar

Supervised By:

Professor Faiza Mohamad AL-Kallas

1444–1443 A.H /2022–2021 A.D